كان التاريخية

ISSN: 2090 - 0449



www.kanhistorique.org
info@kanhistorique.org





أول دورية عربية مُحكّمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني ، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية ، وصدر العدد الأول منها في سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٨

دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء صفحات الدورية بالموضوعات التاريخية.
- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والباحثين ، والكتاب المتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب ، وأصحاب الدراسات العليا ، والباحثين في الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة ، والمهتمين بالقراءات التاريخية.
- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية ، أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي ، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

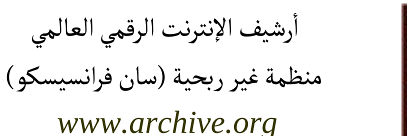
أعداد الدورية متوفرة عبر:



دار ناشري للنشر الإلكتروني – الكويت
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية
تأسست يوليو ٢٠٠٣
www.nashiri.net



أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية (سان فرانسيسكو)
www.archive.org



علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

الترقيم الدولي المعياري للدورية

كان التاريخية مسجلة وفق النظام العالمي لمعلومات الدوريات، وحاصلة على الترقيم الدولي المعياري الموحد للدوريات:

ISSN: 2090 – 0449 Online

الراعي الرسمي



سلسلة المؤرخ الصغير، هي سلسلة كتب علمية تاريخية، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية حول الموضوعات التاريخية التي تهم الباحثين، بأسلوب أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات البحث العلمي. وتستهدف السلسلة الطلاب والباحثين لإرشادهم في طريق البحث العلمي، والإعلامي والمُعلم والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر الوعي التاريخي.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

النشر الورقي

- يحق للكاتب إعادة نشر المقال (البحث) بصورة ورقية أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير.
- يحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

لمزيد من التواصل بإمكانك مطالعة الدورية والأرشيف بالكامل على الموقع الإلكتروني بالإضافة إلى مزيد من التفاعل .. نحن بانتظاركم





دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية
علمية عالمية مُحَكَّمَة ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.
- تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.
- يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

إرشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

- **عنوان البحث:**

يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيسي.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (١٠٠ - ١٥٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة. فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط "APA Style" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية (American Psychological Association)، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Microsoft Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.
- المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج".
- ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، والشبكات الاجتماعية.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى البريد الإلكتروني:
info@kanhistorique.org
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
mr.ashraf.salih@gmail.com

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

محتويات العدد

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

تحولات الكتابة التاريخية

خلص المؤرخ الفرنسي فرانسوا دوس (François Dosse) في كتابه التاريخ المفتت إلى استقالة المؤرخ عن رسالته وتخليه عما هو أساس لخصوصيته من خلال الاشتغال في ميادين بعيدة عن مجاله ، إذ أصبحنا اليوم في نظره بعيدين جدًا عن معارك من أجل التاريخ للوسيان فيفر أو الدفاع عن التاريخ لمارك بلوك. هل فقد المؤرخ اليوم فعلاً عصاه كرئيس للجوقة في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية؟ وماذا بقي من التاريخ بعد انفتاحه على باقي العلوم الإنسانية الأخرى إلى درجة الذوبان؟ وماذا بعد تكسير الحدود بين التاريخ وباقي التخصصات الأخرى؟ إنها أسئلة القلق بخصوص مستقبل الكتابة التاريخية في سياق موجة ما بعد البنيوية والتاريخ الجديد.

حققت مهنة التاريخ طفرات متعددة أثناء مسيرتها ، تكيفت خلالها مع الأوضاع المتغيرة واستطاعت أن تُبلور خطابات ونماذج جديدة في كل مرحلة ، وإلى غاية أواخر الثمانينيات من القرن الماضي ، لقد مرت المدرسة التاريخية الفرنسية الحوليات منذ تأسيسها وإلى الآن بمراحل كبرى عرف فيها التاريخ لحظات قوية حتى العصر الذي أطلق عليه المراقبون من مؤرخين وغيرهم اسم "الأزمة"، مما جعل الحديث يدور عن "تاريخ مجزأ" بل عن "تاريخ مفتت". تمت إزاحة الحدث إلى المركز الأخير بعد البنية والظرف ، وكان هناك رفض شامل للتفرد: تفرد الحدث ، تفرد الأفراد ، لذلك تمثل عودة هذه المواضيع اليوم إلى الواجهة معاكسة ضمنية لكتابة التاريخ كما كانت سائدة في العصر الذهبي لمدرسة الحوليات وتحديًا جديدًا أمام جيل التاريخ الجديد.

لقد عاشت مهنة المؤرخ سنوات من"التشظي" و"التفتت" وجد خلالها الجيل الجديد من المؤرخين أنفسهم أمام أزمة حقيقية ، إنها أزمة الهوية والممارسة التي بدأ يشعر بها فريق إدارة الحوليات والتي نلمسها بوضوح في المناقشات الحادة التي برزت للوجود في ظل صعوبة تحديد هوية مستقرة للتاريخ. إنه "زمن الشكوك" و"الفوضى الابستمولوجية" التي عرفتها الكتابة التاريخية في ما بين سنوات (١٩٨٠ - ١٩٩٠م) في فرنسا ، وقد أقَرَّ ميشيل دو سيرتو ، وبول ريكور ، وبيير نورا ، وجورج دوبي ، وبول فاين ، وجاك روفيل ، وغيرهم بوجود تغير في التوجهات والمواضيع المطروحة مقارنة بالأمس.

لقد تشكلت في الأفق سحابة قاتمة بخصوص حرفة المؤرخ ، وفي ظل هذه الوضعية الحرجة ظهرت كتابات جديدة متعددة وخصبة حاولت العودة بالتاريخ إلى ما كان يُشَكِّلُ أساسه وأصله. إن عودة الخطاب التاريخي إلى قوته كما كان لم يتحقق إلا بإبراز ما كان منبوذًا منذ البداية من مدرسة الحوليات ، ونقصد: الحدث ، التاريخ السياسي ، البيوغرافيا ، وأيضًا من خلال تجاوز القطيعة بين الماضي والحاضر وجعل التاريخ مهنة التغيير كما كان عليه الأمر في السابق.

حققت الكتابة التاريخية في مسارها إنجازات هائلة في ميدان المعرفة التاريخية ، ولعل المساهمة الفرنسية في هذا المضمار منذ القرن التاسع عشر وإلى الآن ستبقى الأكثر تميزًا في هذا المجال ، فقد عرفت المدرسة التاريخية الفرنسية ثورتين على مستوى المنهج الأولى: تمت مباشرة بعد هزيمة فرنسا في المواجهة العسكرية أمام ألمانيا سنة ١٨٧١م ، إذ أطلق أساتذة جامعيون المجلة التاريخية سنة ١٨٧٦م والتي تأثرت بمفاهيم المدرسة التاريخية الألمانية الرانكية التي لم تتخلص بشكل نهائي من الآثار السلبية لكرونوزوفيات فلسفات التاريخ.

إن هذه المدرسة المنهجية التي رعتها الجمهورية الثالثة في فرنسا (١٨٧٠-١٩٤٠م) فرضت نفسها على الساحة الأكاديمية من خلال المجلة التاريخية ، ومن خلال كتاب المدخل إلى الدراسات التاريخية الذي ألفه المؤرخان شارل لانغلوا ، وشارل سينوبوس لفائدة الطلبة الجامعيين ، ولقد استمر تأثير هذه المدرسة التي ربطت الحقيقة التاريخية بالوثائق المكتوبة إلى أواخر الأربعينيات من القرن الماضي. أما الثورة الثانية فقد قادها من جامعة ستراسبورغ سنة ١٩٢٩م المؤرخين مارك بلوخ ولوسيان فيفر اللذان دشنا قطيعة نهائية مع النموذج الألماني الذي مثلته المدرسة المنهجية ، ومعهما انطلقت مجلة "الحوليات" التي استطاعت من خلال إشعاعها الامتداد إلى باقي دول أوربا وأمريكا ، ما سيميز أعمال مؤرخي هذه المدرسة الرائدة منذ نشأتها في ثلاثينيات القرن العشرين رفض التاريخ الحدثي والسياسي والعسكري والفردي ، وسيتعزز هذا الرفض أكثر فأكثر مع الجيل الثاني والثالث لهذه المدرسة التاريخية ، واكب هذا الرفض للتاريخ السياسي رفض للتاريخ الوطني بمفهومه الضيق ، وتم الإعلان عن إفلاس التاريخ العسكري وتاريخ الحروب خصوصًا بعد صدمة الحرب العالمية الأولى التي خلفت استياءً كبيرًا لدى الفلاسفة والمفكرين لوحشيتها ونتائجها السيئة ولأضرارها الوخيمة على البشرية اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا.

في أواخر الثمانينيات برز جيل من المؤرخين الباحثين ينتمون إلى دول أوربية مجاورة ونخص بالذكر منها دول ايطاليا وألمانيا وبولونيا ساهموا إلى جانب بعض المؤرخين الفرنسيين في ضخ نفس جديد في حقل الاستغرافيا من خلال تجاوز مقاربات مدرسة الحوليات وورثتها من حملة مشعل التاريخ الجديد. فبرز في إيطاليا تيار الميكروتاريخ ، وفي ألمانيا تيار الحياة اليومية ، وفي سنة ١٩٨٧م صدر كتاب التاريخ المفتت لفرانسوا دوس ، والذي دق فيه المؤلف ناقوس الخطر بخصوص مستقبل الكتابة التاريخية في سياق التغيرات المعاصرة. لقد وجد المؤرخون الجدد أنفسهم وجهًا لوجه مع بداية انبعاث ما كان مرفوضًا منذ نشأة الحوليات: عودة الحدث ، عودة التاريخ السياسي ، عودة البيوغرافيا ، عودة السرد.

هل هذه العودات تشكل بداية مرحلة جديدة مختلفة عن السابق أم أنها لا تعدو أن تكون عودة بسيطة إلى مواضيع تقليدية متجاوزة ؟ هل هو تكييف جديد للتاريخ مع المتغيرات الحالية أم أن الأمر مجرد موضة عابرة؟ هل هو استرجاع التاريخ لاستقلاليته؟ وإنقاذٌ لنفسه من مصير التشتت الذي ينتظره؟

إن هذه الأزمة التي مازال يعيشها التاريخ إلى اليوم تكشف لنا بوضوح أن التاريخ البنيوي وتاريخ الزمن الطويل فشل في إزاحة ما كان مقدسًا في حقل التاريخ لدى المدرسة المنهجية لسينوبوس ولانغلوا. فهل أصبح التاريخ اليوم مع الجيل الثالث لمدرسة الحوليات بدون هوية؟ وهل أصبحت الحوليات بالفعل تاريخانية جديدة؟

د. خالد فؤاد طحطح



حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب أفريقيا

(١١٦٨ – ١٢٣٢هـ / ١٧٥٤ – ١٨١٧م)



أ.د. أسامة عبد الله محمد الأمين

عميد كلية الآداب

جامعة بخت الرضا

ولاية النيل الأبيض – جمهورية السودان

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أسامة عبد الله محمد الأمين، حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب أفريقيا (١٧٥٤– ١٨١٧م).- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٩ – ١٦.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ظهر من بين جماعة الفلاني رجل يدعى الشيخ عثمان بن فودي عرف بأنه مصلح ديني وداع ومحارب وقد ذهب الإصلاح والدعوة إلى الإسلام، وتأثر بتعاليم الدعوة الوهابية، وكانت جماعة الفلاني التي ينتسب إليها الشيخ عثمان بن فودي تتكون من عدة قبائل صغيرة تحيا حياة رعوية هادئة فعمل الشيخ عثمان بن فودي على توحيدها وجعل منها جماعة قوية، وقد حاول حاكم إمارة جوبير الوثنية أن يعوق قوة الفلاني المتزايدة في إمارته فدفع ذلك الشيخ عثمان بن فودي إلى رفع راية الجهاد وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوي واستطاع أن يفرض سيطرته علي الإمارات الوثنية والولايات الإسلامية المجاورة فسقطت هذه الولايات واحدة بعد أخرى وأصبحت كل أراضي الهوسا تحت حكم الشيخ عثمان بن فودي قبل وفاته سنة ١٨١٧م. ولقد تركت حركة الشيخ عثمان بن فودي آثارًا عميقة في بعض الحركات الإسلامية في غرب أفريقيا.

مُقَدِّمَة

قامت في غرب أفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي عدة حركات هدفها الإصلاح الديني، وهذه الحركات إما أنها قامت وسط شعب وثني بهدف نشر الإسلام أو وسط شعب خلط الإسلام بعادات وثنية وكان هدفها تحرير العقيدة الإسلامية من الشوائب التي علقت بها ولم يكن من ضمن البواعث الأساسية المعلنة لتلك الحركات الدينية إنشاء الدول أو تغيير الأوضاع السياسية في المناطق التي قامت فيها، ولكن نلاحظ أن معظم تلك الحركات الدينية قد غيرت الأوضاع السياسية وأنشأت ممالك إسلامية كانت ذات أثر كبير في تاريخ غرب أفريقيا في الماضي والحاضر. ونذكر هنا الحركة الإصلاحية للشيخ عثمان بن فودي التي حركت فكرة انبعاث الحياة في الكيان الإسلامي واكتشاف قيمة الإسلام بالعودة إلى منابعه الأصلية ومحاولة تطبيقه على كل مناحي الحياة، وقد كانت تلك الحركة الإصلاحية في منطقة بلاد الهوسا وغرب أفريقيا من أبرز العلامات المضيئة التي أرست دعائم إمبراطورية إسلامية كبرى في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي والتي حافظت على تراث الإسلام وحضارته حتى أقامت خلافة الفولاني الإسلامية.

مبررات البحث

هناك بواعث عديدة دفعت الباحث إلى دراسة هذا الموضوع أهمها:

- إبراز الدور الذي لعبه الشيخ عثمان بن فودي في شمال نيجيريا والنهوض بمجتمعه الإفريقي وحاجة المسلمين اليوم إلى مثل هؤلاء الدعاة.
- إبراز دور الدعوة الإسلامية في الإصلاح والنهوض بالأمة وبناء الدول الإسلامية.
- كان الشيخ عثمان بن فودي أنموذجًا للعالم المخلص الذي رفض كل الإغراءات الدنيوية ووقف ضد الطغيان وأستطاع

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

بحنكته السياسية وبأسلوبه المقنع أن يبايع أمير المؤمنين من أجل إعلاء كلمة الحق ونشر الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا.

منهج البحث

اعتمد الباحث على المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي الذي يقوم على جمع الروايات التاريخية من مصادرها المتنوعة ودراستها واستخدامها في معالجة موضوع البحث.

أولاً: الإسلام في غرب أفريقيا

ينبغي قبل الحديث عن حركة الشيخ عثمان بن فودي في شمال نيجريا أن نشير في إيجاز إلى امتداد الإسلام وانتشاره في هذه الأقاليم الأفريقية. المقصود ببلاد غرب أفريقيا هنا البلاد التي كانت تُعرف قديمًا باسم "السودان الغربي" و"السودان الأوسط" وتشمل مساحة جغرافية تمتد من مصب نهر السنغال في الغرب إلى الحدود الغربية لبلاد دارفور في سودان وادي النيل في الشرق وتقع بين الصحراء الكبرى في الشمال بين نطاق الغابات الاستوائية في الجنوب. وقد وصل الإسلام إلى تلك المناطق في القرن السابع الميلادي وذلك عن طريق بعض القبائل الأمازيغية التي اعتنقت الإسلام منذ عهد فتوحات القائد عقبة بن نافع وحسان ابن النعمان وموسى بن نصير في المغرب فازداد إقبال الناس عليه مع مرور الأيام كما نشر الإسلام بواسطة الدول التي امتد نفوذها إلى السنغال أو عملت على نشره عن طريق القوافل والدعاة كدولة الأدارسة ومملكة أودغست الإسلامية. وقد تمكنت حركة المرابطين بزعامة قبيلة جدلة في القرن الحادي عشر الميلادي من أن يعتنق ملوك مملكة غانا الوثنية الإسلام في مساحة جغرافية صغيرة إلى أن برزت مملكة مالي التي قامت على أنقاض مملكة غانا حيث ساهمت بنصيب كبير في نشر الدعوة الإسلامية.[١]

وبعد انهيار مملكة مالي ظهرت على أنقاضها مملكة صنغي وحمل ملوكها لواء الدعوة الإسلامية ابتداءً من القرن الرابع عشر الميلادي حتى أواخر القرن السادس عشر الميلادي عندما تعرضت هذه المملكة للغزو المراكشي من بلاد المغرب فقضى عليها في سنة ١٥٩١م وذلك بدخوله عاصمة المملكة تمبكتو وعاث المغاربة فسادًا في هذه المناطق الإسلامية واختلطت البدع والعادات الوثنية بالقيم الدينية ولم ينقذ هذا المنطقة من حالة الفساد والفوضى إلا بعد ظهور جماعات الفولاني بثورتهم الكبرى مع إشراقه القرن التاسع عشر الميلادي.[٢] وقبل الحديث عن دعوة الشيخ عثمان بن فودي وجهاده للقضاء على البدع والخرافات يجدر بنا أن نلقي نظرة على شعب الفولاني ومنطقة جهاده.

لقد اختلف المؤرخون حول أصل شعب الفولاني ولكن مهما اختلفت الآراء فإن الفولانيين انتشروا في كل غرب أفريقيا كدعاة بدو مستقلين وأنهم أعتنقوا الدين الإسلامي منذ القرن الحادي عشر الميلادي على أيدي المرابطين وأنهم تحمسوا للدعوة الإسلامية ونشروها في مملكة غانا وعاشوا في ظل دولة مالي وكانت جماعة منهم قد انتقلت إلى بلاد الهوسا منذ القرن الثامن عشر الميلادي واستقرت جماعة منهم في إمارة جوبير.[٣]

أما منطقة جهاد الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودي هي بلاد الهوسا التي تقع حاليًا ضمن الجزء الشمالي من دولة نيجريا والهوسا ليسوا مجموعة قبلية بل أنهم ينتمون إلى أصول جنسية مختلفة يتحدثون لغة مشتركة هي لغة الهوسا وكانت هناك سبعة إمارات قامت في وقت مبكر تابعة للهوسا هي (كانو، رانو، زاريا، دورا، جوبير، كتيسنا، وزامغار) وكانت قبائل الهوسا تتدين بالوثنية قبل أن تتحول في القرن الثالث عشر الميلادي إلى الإسلام. وقد قام فيها نظام للحكم مستمد من تعاليم الشريعة الإسلامية ولكن رغم انتشار الإسلام في هذه الإمارات، إلا أن أمراءها كانوا يدينون بالوثنية وكان الإسلام قد أخذ يضمحل في هذه الإمارات حتى أتيح له يسترد قوته من جديد على يد شعب الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودي.[٤]

يجدر بنا أن نتوقف لنلقي الضوء على سيرة هذا الزعيم الذي كان له ولحركته الإسلامية فضل كبير في نشر الدين الإسلامي على نطاق واسع في غرب أفريقيا.

ثانيًا: نشأة الشيط عثمان بن فودى وطلبه للعلم

ولد عثمان بن محمد بن صالح بن هارون الملقب بفودي (الفقيه) في قرية (مرت) من أعمال إمارة جوبير بولاية صكتو بشمال نيجريا حاليًا في سنة ١١٦٨هـ، الموافق ١٧٥٤م.[٥] وقد نشأ في بيت علم وفتوى، إذ أعتنق أجداده الإسلام من زمن بعيد، واشتغل أبوه وأفراد أسرته بالعلم، وتلقى دروسه الأولى في اللغة العربية على يد أبيه محمد وأمه حواء، وجدته رقية، ويلاحظ هنا أن نساء شعب الفولاني كن يتمتعن بنصيب وافر من العلم وتعلم العلوم الإسلامية ودراسة مبادئ القراءة والكتابة باللغة العربية وحفظ القرآن الكريم.[٦]

وقد تجول عثمان بن فودي من بلد إلى أخر في سبيل طلب العلم كعادة الطلاب في ذلك الزمان وكان منهجهم يعتمد على شيخ متبحر في علم من العلوم لتدريسهم فنًا أو كتابًا معينًا وبعد إجازتهم في ذلك العلم أو الكتاب يذهبون إلى عالم متضلع في فن من الفنون أو متمكن من كتاب في فرع من الفروع لينهلوا من معينه،[٧] ولا تقف عملية الدراسة بعمر معين ولا لفترة الدراسة كانت تحدد بزمن فهي عملية مستمرة يستوعب فيها الطلاب عشرات أو مئات المؤلفات في فنون شتى في سن معينة، ويعود إليها في سن متأخرة. وعلى هذا المنوال درس عثمان بن فودي مختصر خليل بن إسحاق علي خاله عثمان بن الأمين ولم يقتصر هذا الشيخ بإتقانه لمختصر خليل بن إسحاق فقط، بل أشتهر أيضًا بتقواه وصلاحه ودعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد تأثر عثمان بن فودي بهذا الشيخ ومكث معه لمدة عامين وتطبع بطبائعه الحميمة، وبعد ذلك انتقل عثمان بن فودي إلى الشيخ ثنب بن الشيخ عبد الله لشهرته العلمية ومقدرته الفائقة لحفظ القران الكريم.[٨]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ولكنه لم ينتفع بما درس وحصل عليه من العلوم ورغب في الاستزادة والتبحر فارتحل شمالاً إلى بلاد الطوارق جنوب الصحراء حيث بلدة أقاديس ذات المكانة الإسلامية، وهناك أخذ العلم عن الشيخ جبريل بن عمر فتفتحت عيناه على أمور إسلامية جديدة وسمع لأول مرة ضرورة العودة إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة ونبذ كل ما لا يتفق مع الكتاب والسنة فلازم شيخه لمدة عام كامل.[٩] ولا شك أن الشيخ جبريل بن عمر قد أثر في عثمان بن فودي تأثيرًا كبيرًا وقد أقر بذلك عثمان بن فودي حيث يقول عن شيخه: "أنه أول مَنْ قام بهدم العادات والتقاليد الذميمة في بلادنا السودانية وكان كمال ذلك ببركة الله على أيدينا ونحن بالنسبة إلى مقامه نسبة الضالع من الضليع" وقال في ذالك شعرًا معلومًا نذكر منه هذا البيت[١٠]

إن قيل في بحسن الظن ما قيلا فأنا موجة من أمواج جبريلا

ومن أجل أن يكمل عثمان بن فودي تعليمه تلقى دروس التفسير على يد الشيخ أحمد بن محمد الأمين، ثم انتقل إلى الشيخ هاشم الزنفري لدراسة تفسير القران الكريم، ثم جلس إلى الشيخ محمد راجي لدراسة الحديث النبوي الشريف، حيث درس صحيح الإمام البخاري وقد أتاح ذلك التكوين العلمي لعثمان بن فودي تميزه ببعض الصفات الشخصية منها الحكمة، والمرونة في المسائل التي لا تؤثر في المبادئ كما أشتهر بالتسامح ولكنه تمسك بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،[١١] بالإضافة إلى ذلك كان عثمان بن فودي (حسن الخلق، جميل العشرة كريم الصحبة، كثير الحياة والشفقة على الخلق، متواضعًا يرى نفسه كأقل الحشرات، واقفًا عند حدود الشريعة آلفًا مألوفًا لقي من المحبة والتعظيم من الخلق ما لم يعهد حتى كان أحب الناس إلى أنفسهم يتزاحمون عليه مع طلاقة وجه وحسن خلق وبشاشة وكان حليمًا رحيمًا بالمؤمنين).[١٢]

ولما بلغ عثمان بن فودي مبلغ الشباب وأوتي من النضوج العقلي والفكري هاله حال المسلمين في بلاد الهوسا فهم يخالطون الوثنيين دون تحرج ويقلدهم العامة ويتشبهون بهم فأرتد بعضهم عن الإسلام.[١٣] ولعل خير ما نستشهد به في هذا الصدد ذكره أبو الحسن على السماني في كتابه (تطبيق نصوص الفكر السياسي في صكتو) عن تفشي الفساد والبدع في مجتمع الهوسا إذ يقول (لقد وجد في هذه البلاد من أنواع الكفر والفسق والعصيان أمورًا فظيعة وأحوالاً شنيعة طبقت في هذه البلاد وملأتها حتى لا يكاد يوجد في غالبهم مَنْ يعرف التوحيد ويحسن وضوءه والزكاة والصلاة والصيام وسائر العبادات ومنهم كفار يعبدون الأشجار ولا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ويسبون الله ويقولون في حقه ما لا يليق بجنابه الأعلى وهؤلاء غالب عامة السودانيين ومنهم قوم يقولون بالكلمة ويصلون ويصومون ويزكون من غير استكمال شروط...... مع أنهم يخلطون هذه الأعمال بأعمال الكفر وعلى هؤلاء يحمل قول الشيخ جبريل بن عمر في قصيدته:[١٤]

فلا ترى فيهم سوى من يدعي إسلامه بفمه الموسع
فهو حق كافر صريح لأنه محرم صبيح
في الخوض دائم ومستمر في عقيدة خالفه الجمع الوافي
راضي بحكم الجاهلية التي أزالها الله بجمع الشرعة

ويؤيد ذلك الشيخ محمد بلو، إذ يقول: (لقد حدثونا أن سلاطينهم وأمرائهم مواطن يركبون إليها ويذبحون بها ويرشون الدماء على أبوب قريتهم، ولهم بيوت معظمة فيها حيات وأشياء يذبحون لها ويفعلون للبحر كما كانت تفعل القبط للنيل أيام الجاهلية ولهم في ذلك أعياد يجتمعون فيها هم وسلاطينهم وعامتهم لا يحضرها غيرهم ويسمون ذلك عادة البلد ويزعمون أن ذلك صدقات ليستعينوا بها على جلب المصالح ودرء المفاسد فإذا لم تفعل تلك العادات بطلت معايشهم وقلت أرزاقهم وضعفت شوكتهم وتوارثوا هذه العادات كابرًا عن كابر).[١٥]

ويضيف العالم النيجيري آدم عبد الله الألوري إلى ما ذكر سابقًا قوله (لما انتشرت البدع بين اللمعاء ودب الفساد في نفوس المسلمين وعظموا الأشجار والأحجار ونسبوا إليها الرزق والولد والخير والشر، وتعمق الملوك في الجور والطغيان حتى إذا مرض أحدهم ذبح عبدًا أو أمة له ليفديه من الموت).[١٦]

لقد كان ما سمعه عثمان بن فودي عن شيخه جبريل بن عمر عن الدعوة الوهابية التي انتشرت في أنحاء شبه الجزيرة العربية دافعًا قويًا له على أن يشد الرحال إلى بيت الله الحرام لكي يؤدي الفريضة ويلم بتعاليم الدعوة التوحيدية ويطلع على مؤلفات شيخها، وجاء عثمان بن فودي حاجًا إلى مكة المكرمة.[١٧] وفيها خالط دعاة الدعوة الوهابية وسمع منهم الدعوة التوحيدية وأسلوبها وكيف قامت وكيف انطلقت في شبه الجزيرة العربية فتشرب بمبادئ الدعوة الوهابية وتحمس لها فأغيظت في نفسه رغبة ملحة في إصلاح المجتمع في بلاده ومحاربة البدع والخرافات التي تفشت في بلاده.[١٨]

ثالثًا: مراحل حركة الشيط عثمان بن فودي الإصلاحية

ويمكننا أن نقسم حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية إلى ثلاث مراحل رئيسة هي:

٣/١- مرحلة الدعوة (١٧٧٤م ـ ١٨٠٣م)

عندما عاد الشيخ عثمان بن فودي من سياحته العلمية أستقر في مدينة (دغل) ثم بدأ عمله الشاق والصعب في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى إذ أخذ على عاتقه مهمة تحرير شعبه من البدع فأنكر الصلاة على روح الميت، وتعظيم أضرحة الأولياء، وحارب شرب الخمر، وفساد الأخلاق أي أنه اهتم بتربية الناس على أسس إسلامية متبعًا فيها أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،[١٩] كما قام أيضًا بالدعوة إلى إقامة السنة الشريفة على طريق الوعظ التعليمي والإرشاد الديني حيث كان يجمع الناس ويتحدث إليهم في

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

أمور دينهم من طهارة ووضوء وصوم وزكاة وحج وأمور فقهية وتفسير وغيره وكانت له مجموعة أخرى من الطلاب الذين يقدم لهم العلم المتقدم في مختلف الأمور وفي سبيل نشر الدعوة الإسلامية سافر إلى عدة أماكن داخل بلاد الهوسا لإرساء قواعد الإسلام وفي هذا الصدد يقول ابنه محمد بلو (كان يخرج كل ليلة جمعة يعظ الناس ويحضر مجالسه خلق كثير، ويخرج في سائر الليالي بعد العشاء لبث العلوم وكان يخرج بعد صلاة العصر للتدريس فيفسر القرآن ويدرس الحديث والفقه والتصوف).[٢٠]

ولم تقتصر دعوة الشيخ عثمان بن فودي على الأشياء العامة فقط بل ذهب إلى الأشياء الدقيقة مثل العلاقات الزوجية، وتوكيل الجهال في التجارة والمقايضة ودعا إلى عدم تشبه المسلمين بالنصارى، بالإضافة إلى ذلك اعتباره تقلد الجهلة للمناصب الشرعية عن طريق الوراثة وتقديمهم على العلماء بدعة محرمة.[٢١]

وقد وجدت دعوة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية تجاوبًا كبيرًا خاصةً في أواسط العامة وذلك بسبب الأسلوب المنطقي الذي اتبعه لتبليغ رسالة الإسلام إلى كل الناس، واستطاع بعد فترة وجيزة من قيام دعوته الإصلاحية من تكوين مجموعة من أتباعه سماهم (الجماعة) بهدف نشر الصورة الجلية للإسلام، وتقديم النموذج الأرقى للدين القويم، وفضح علماء السوء الذين كانوا يرون المنكر فلا يعملون على تغييره بأي شكل من أشكال التغيير المتاح. وكان من عادة الشيخ عثمان بن فودي أن لا يزور أصحاب السلطان ولا يتعامل معهم حتى لا تفرض السلطات السياسية هيمنتها عليه فضلاً عن ذلك لوقف تدخل السلطات السياسية في بلاد الهوسا في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ دعوته الإصلاحية حتى لا يدخل في معركة انصرافيه يكون ضحيتها الشيخ عثمان بن فودي وجماعته.[٢٢] ولعله بهذا الابتعاد أراد أن يهتم بتربية الناس دينيًا سالكًا في ذلك أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد ألف الشيخ عثمان بن فودي في هذه المرحلة الكثير من المؤلفات الهادفة لإصلاح أحوال العلم والعلماء وتطبيق أحكام الله سبحانه وتعالى وتصحيح الإيمان بشكل يؤدي إلى إقامة الشريعة الإسلامية بما أمر الرسول (ﷺ) ونهى عن التبصر في الدين وأخيرًا العلم بأصول الطريق الذي يريد سلوكه.[٢٣] فألف الشيخ عثمان بن فودي عددًا كبيرًا من المؤلفات التي نادت بإحياء السنة الشريفة ومحاربة البدع والخرافات نذكر منها كتاب إحياء السنة وإخماد البدعة، وحصن الإفهام من جيوش الأوهام، ونجم الإخوان يهتدون بإذن الله في أمور الزمان، ونجم الإخوان من أهم ما يحتاجون إليه في هذا الزمان، وإفحام المنكرين في الزجر عن البدع والأهواء، وكتاب أصول الدين وغيرها من المؤلفات التي عالجت أمور العقيدة المحمدية بل لم تقتصر مؤلفاته على الأمور الدينية بل راح يناقش مسائل تتصل بالنظم الاجتماعية والسياسية.[٢٤]

ولما قويت شوكة جماعة الشيخ عثمان بن فودي حاول حكام إمارة جوبير التقرب إليه بغرض إسكاته، ولكنه كان كل مرة يلتقي بهم كان يدعوهم إلى الإسلام وترك العادات التي لا تتماشى مع تعاليم الإسلام.[٢٥] مما يؤكد لنا أن الشيخ عثمان بن فودي لم يكن طامعًا في ملك أو سلطان بل كان عاكفًا على العلم والتعليم.

وفي أحد الأعياد (١٧٨٨م) استدعى حاكم جوبير (باو) علماء بلاده وكان من بينهم الشيخ عثمان بن فودي للاجتماع، ولما اجتمعوا به حاول (باو) ارضاء الشيخ عثمان بن فودي بإعطائه هدية من الذهب كمكرمة له لكن الشيخ عثمان ابن فودي رفض تلك الهدية وطالب (باو) كبدل لها أن يسمح له بدعوة الناس في بلاده إلى الإسلام، وأن يحترم العلماء وألا يعترض سبيل أي شخص يريد الاستجابة للدعوة، وأن يطلق سراح المسجونين فضلاً عن ذلك عدم فرض ضرائب باهظة على الرعية فقبل حاكم جوبير (باو) هذه المطالب مرغمًا، وهكذا كان الموقف بمثابة نقطة انطلاقة حقيقة لدعوة الشيخ عثمان بن فودي إذ إنه يعتبر أول انتصار سياسي على حكام بلاد الهوسا.[٢٦]

وبعد أن كثر أتباعه وذاعت شهرته انتقل الشيخ عثمان بن فودي إلى المرحلة التالية من دعوته وفكر في الاتصال بأحد الحكام ليشد من أزره، فاتجه إلى حاكم جوبير (نافتا) الذي تسلم زمام الأمور بعد وفاة الحاكم (باو) في سنة ١٧٩٤م وبين له الحق وشرح له الإسلام الصحيح وطلب إليه أن يعاونه في إحياء معالم الدين، وإقامة العدل بين الناس. ويبدو أن (نافتا) استجاب أول الأمر فعهد إليه الفتوى والإرشاد في مجلسه، فسعى العلماء الحاقدون إلى الوقيعة بينه وبين الحاكم (نافتا) واتهموه بأنه إنما اتصل بالحاكم (نافتا) رياء ومنافقة وطلبًا للرئاسة وحبًا في عرض الدنيا،[٢٧] فعزم (نافتا) إلى نهاية حاسمة للدعوة الإسلامية في بلاد الهوسا حيث أصدر مرسومًا يقضي بثلاث أمور هي: عدم السماح لأي شخص باعتناق الإسلام إلا من ورثه عن أبائه وأجداده، ولا يسمح لأي أحد بأي حال من الأحوال بلبس العمامة ولا تضرب امرأة بخمارها على جيبها، ويمنع العلماء من الدعوة إلى الإسلام ماعدا الشيخ عثمان بن فودي.[٢٨] وهذا المرسوم الغرض منه الحد من نشاط الشيخ عثمان بن فودي وعدم السماح لدخول أفراد جدد في الدعوة الإسلامية وعودة النساء إلى السفور والخروج عن تقاليد الشريعة الإسلامية وحصر الوعظ والإرشاد على الشيخ عثمان نفسه وكل هذه الأمور تعرقل مسيرة الكفاح والجهاد ونشر الدعوة.[٢٩]

اتجه الشيخ عثمان بن فودي إلى إمارتي زنفر وكبي لينشر دعوته ومبادئه فأسلم على يديه عدد كبير من الوثنيين وازداد الناس له أتباعًا، ورأى فيه الحكام خطرًا ملحًا يريد أن ينقص سيادتهم وأن يحد من نزوتهم ويؤلب عليهم رعيتهم.[٣٠] ولما توفى الحاكم (نافا) خلفه أبنه (يونفا) في حكم إمارة جوبير سنة ١٨٠٢م، وعلى الرغم من أنه كان تلميذًا للشيخ عثمان فودي فقد كان لا يقل عن أبيه انتصارًا للوثنية، ورأى الحاكم (يونفا) في ازدياد قوة الشيخ عثمان بن فودي وكثرة أنصاره خطرًا يهدد حكمه فانقلب رأسًا على عقب ووصلت به الحال إلى التفكير في قتل أستاذه.[٣١] وواصل العداء

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

للدعوة الإسلامية وإلى جماعة المسلمين وهجم على أموالهم وأعراضهم وقتل عدد كبير من الفقهاء والقُرّاء، وأمر جنوده بحرق المصاحف والكتب والألواح.(٣٢)

وطالب (يونفا) أستاذه بالمغادرة هو وأتباعه فخرج الشيخ عثمان فودي مع جماعته من قرية (دغل) سنة ١٨٠٣م مهاجرين إلى قرية (قدو) على أطراف الصحراء ونادى الشيخ عثمان بن فودي أتباعه معلنًا الهجرة من دار الكفر إلى دار الهجرة من خلال رسالة حملت اسم (أهل السودان ومَنْ شاء الله من الإخوان) حيث جاء فيها (فأعلموا يا إخواني أن الأمر بالمعروف واجب إجماعًا، وأن النهي عن المنكر واجب إجماعًا، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة إجماعًا، وإن موالاة المؤمنين واجبة، وأن تأمير أمير المؤمنين واجب إجماعًا، وأن طاعته وجميع نوابه واجبة إجماعًا، وأن الجهاد واجبًا إجماعًا، وأن تنفيذهم أحكام الشرع واجبًا إجماعًا، وأن حكم البلد حكم سلطانه واجبًا إجماعًا، إن كان مسلمًا كان البلد بلد إسلام، وإن كان كافرًا كان البلد بلد كفار ووجبت الهجرة منه).(٣٣)

وهكذا؛ صارت الوثيقة أساس الجهاد كما حدد الشيخ عثمان بن فودي لزوم الهجرة من بلاد الكفار. وقد قابل حكام الهوسا عمل الشيخ عثمان بن فودي وجماعته بتعقبهم أينما ذهبوا فلم يجد الشيخ بن فودي بدًا من إعلان الجهاد ضد أعداء الإسلام واستجابت له عشائر الفلاني والهوسا والتابعين له وانضموا إلى جيشه وبايعوه على الجهاد وطاعة الله ورسوله وبايع هو (أي الشيخ عثمان بن فودي) أتباعه على العمل بالكتاب والسنة وصار يلقب (بأمير المؤمنين).(٣٤)

٢/٣- مرحلة الجهاد وقيام الدولة الإسلامية (١٨٠٤-١٨٠٩م)

تزعم حاكم جوبير (يونفا) المعارضين للشيخ عثمان بن فودي وسار لحربه، وجاء إعلان الجهاد رسميًا سنة ١٨٠٤م ببداية دور جديد في الحركة الإصلاحية هو دور الفتح والجهاد فعقد الشيخ عثمان بن فودي اللواءات الأربعة عشرة من أصحابه وأحرزوا نصراً على حاكم جوبير (يونفا) وحلفائه من الطوارق وأثارت هزيمتهم الخوف والهلع في بلاد الهوسا واستولى المجاهدون على إمارة زاريا سنة ١٨٠٤م وإمارتي كانو وكتسنا سنة ١٨٠٥م كما وقعت في أيديهم عاصمة إمارة جوبير سنة ١٨٠٨م وكما كانت الحماسة الدينية تدفع هؤلاء المجاهدين إلى طلب الشهادة تمكنوا في سنة ١٨١٠م من إخضاع إمارات الهوسا لنفوذهم.(٣٥)

لم يكن الجهاد عند الشيخ عثمان بن فودي موجهًا فقط نحو الوثنيين وحدهم بل كان موجهًا أيضًا ضد المسلمين العابثين بدينهم فرأى الشيخ عثمان بن فودي أن تشمل حركته الإصلاحية بلاد برنو الإسلامية (إحدى ممالك السودان الأوسط) بسبب ميول سلطانها للوثنيين ومساعدتهم ضد المجاهدين من أتباع الشيخ عثمان ابن فودي واستولوا على كثير من أقاليم بلاد برنو لمتاخمتهم لبلادهم من ناحية الشرق.(٣٦) وهكذا؛ نجحت جماعة الشيخ عثمان بن فودي من تأسيس دولة إسلامية كبرى شملت جميع إمارات الهوسا القديمة دون مرحلة انتقالية طويلة.

٣/٣- مرحلة توطيد دعائم الدولة الإسلامية الجديدة (١٨١٠م-١٨١٧م)

تميزت هذه المرحلة من حركة الشيخ عثمان بن فودي بعمل إداري مكثف من أجل إرساء قواعد الدولة الإسلامية الجديدة، فقد واجه الشيخ عثمان بن فودي مشكلات عديدة في الميادين الاجتماعية والسياسية والإدارية نذكر منها مشكلة كيفية تسيير دفة الأمور اليومية وتنسيق الأعمال بين الأجهزة التنفيذية ممثلة في أمير المؤمنين والوزارة وبين الإمارات المختلفة لاسيما الإمارات التي لم تسبق لها أي خبرة إدارية في الماضي وأيضًا العلاقة بين (صكتو) وبعض المجموعات التي بايعت الشيخ عثمان بن فودي على السمع والطاعة مع الاحتفاظ بكينونتها الخاصة كمجموعات الطوارق التي أقرها الشيخ عثمان بن فودي على الحكم الذاتي تحت ظل الخلافة الصكتية.

وقد ساهمت كتابات الشيخ عثمان بن فودي في مجال الإدارة والسياسة في إثراء الفقه السياسي ومن القضايا التي أدلى فيها الشيخ عثمان بن فودي بدلوه قضية الألقاب السياسية المناسبة لحكام الدولة الإسلامية كأمير المؤمنين، والسلطان، والوالي وكان رأي الشيخ عثمان بن فودي جواز استعمال أي من الألقاب لأن الألقاب في نفسها لا تعني شيئًا والمهم هو تطبيق أحكام الإسلام في الدولة وينسب إليه أنه كان متسامحًا إلى حد ما في بعض القضايا المعقدة التي لم يقطع فيها الشرع برأي واضح حيث كان هدفه من ذلك استقرار الأمور حتى يسهل للدولة الإسلامية الجديدة مواجهة التحديات الكبرى، كما نلاحظ أن هدفه في آرائه الفقهية الاجتماعية هو إسداء النصح للأمة وليس فتح باب التساهل في المعاصي والبدع.(٣٧)

وبعد أن استقرت الأوضاع العامة في الدولة رأى الشيخ عثمان بن فودي تقسم البلاد بين ابنه وأخيه فجعل ابنه حاكمًا على القسم الشرقي وعاصمته (صكتو) وجعل أخاه عبد الله حاكمًا على القسم الغربي من الدولة وعاصمته (جندوا) في إقليم كبى. أما الشيخ عثمان بن فودي فأنه آثر التفريغ للدراسة ونشر الإسلام وتفقيه الناس في الدين متخذًا (صكتو) مقرًا له، ولما توفى الشيخ عثمان بن فودي سنة ١٨١٧م بُويع ابنه محمد بلو أميرًا للمؤمنين.(٣٨)

رابعًا: آثار حركة عثمان بن فودي

لقد تركت هذه الحركة الإصلاحية أثرًا عميقًا في بلاد المسلمين في نيجريا وأيضًا غرب أفريقيا إذ عمت المفاهيم الإسلامية وعاد الإسلام إلى سيرة السلف الصالح وقضت على كل الخرافات والبدع التي كانت سائدة في تلك المنطقة كذلك نجاحها في ميدان الجهاد وتوحيد جميع إمارات الهوسا المتنازعة واتحادها في ظل دولة إسلامية واحدة تطبق الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة.(٣٩)

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

كذلك أثرت حركة الشيخ عثمان بن فودي في بعض الحركات الإسلامية في غرب أفريقيا مثل حركة الشيخ لبو الماسني (مالي الحالية) وحركة الشيخ عمرابن سعيد الفوتي، كما أحدثت حركة فكرية وثقافية وتغييرًا اجتماعيًا في بلاد غرب أفريقيا حيث انتشر التعليم وتضاعف عدد المساجد والمعاهد الدينية بفضل توجهات الشيخ عثمان بن فودي وجهود الدعاة الذين يجوبون البلاد ويدعون الناس إلى تعاليم الإسلام.(٤٠)

كثير من الناس لا يعرفون الأثر الذي تركته حركة الشيخ عثمان بن فودي والمؤلفات التي ألفت في تلك الفترة على حركة المهدية بالسودان، كما لا يعرفون الأثر الذي تركته الثورة المهدية في تلك الجهات. فقد ألف الشيخ عثمان بن فودي بعنوان (تحذير الإخوان من أدعاء المهدية الموعودة في آخر الزمان) وفيه يناقش كثرة الحديث عن دعوة المهدية في زمنه وإضفائها عليه ويخلص إلى أنه ليس بالمهدي المنتظر ونص ذلك بعبارته (اعلموا أيها الإخوان أن أدعاء المهدية مما أبتلى به الناس قديمًا وحديثًا واعلموا أيضًا يا إخوان أن خروج المهدي أمر مقطوع به وأن كونه أمر مقطوع به، وأن كونه من زرية فاطمة بنت النبي (ﷺ) هو الصحيح الذي عليه الجمهور.

ويذكر أن جماعته أشاعوا بأنه هو المهدي المنتظر مما دفعه إلى الكتابة نافيًا عن نفسه صفة المهدية قائلاً: (اعلموا أيضًا إخواني بأني لست بالإمام المهدي ولا ادعيت المهدية وأتساءل كيف ادعي المهدية وقد ولدت في بلاد السودان في مكان يسمى مرت ؟ وقد عرف في الأحاديث النبوية أن المهدي يولد في المدينة)،(٤١) إلا أنه بشر بقرب ظهور المهدي في الشرق،(٤٢) أي بالشرق من الخلافة الصكتية، ولعله كان يقصد بلاد سودان وادي النيل. وتحديد الشرق كموضع لظهور المهدي قد ورد نقلاً عن الشيخ عثمان بن فودي في ثلاث وثائق هي:

الوثيقة الأولى: رسالة من ابنه أمير المؤمنين محمد بلو الى مودبو أدم أمير أدماوا (شمال نيجريا الحالية) يحسه على تأمين الطريق المؤدي إلى الشرق كما يلي: (والأمر الذي ذهبت به من عندنا هو إنقاذ الجيوش إلى جنوب وادي وجنوب دار فور وإلى ناحية بحر النيل واجتهدوا في ذلك وأنفذوا العيون إلى تلك البلاد، فأن شيخنا رضي الله عنه أشار لنا بأن جماعته تنتقل إلى تلك النواحي عند قرب ظهور المهدي هناك ويبايعونه إن شاء الله).(٤٣)

قد حوت **الوثيقة الثانية:** رسالة من أمير المؤمنين أبي بكر عتيق بن الشيخ عثمان إلى جماعة فواندو عاصمة القسم الغربي للخلافة الصكتية يعلمهم بوصية والده حول انتقال أهل بلاد هوسا إلى النيل كما يلي: (ومما أخبرنا الشيخ وهو أن جماعة أهل الرباط الذين نصبوهم هم الذين ينتقلون إلى بحر النيل والى بلاد الحجاز هم بعينهم أو ذريتهم وهم بقية أمراء الشيخ، وفيها نوره وبركاته وهم يجتمعون بالأمام المهدي ويبايعونه ومعهم رايات الشيخ.

وقد حوت **الوثيقة الثالثة** رسالة من مريم بنت الشيخ عثمان إلى أمير كنو ردًا على خطاب ورد منه يعبر فيه عن قلقه لموجات الهجرات المتكررة نحو الشرق في الفترة (١٨٤٠م-١٨٦٠م) باسم المهدية ففي هذه الرسالة تقول مريم (وقد ذكر الشيخ الوالد أنا نهاجر من أرض هوسا ولم يعين ذلك الوقت حتى رحمه الله بين لنا طريق الهجرة فقال في ذلك أول الطريق من بقو (bago) إلى مشيكم فش (moshkuam fush)، ثم إلى سارا (SARA)، ثم إلى سروا (SASUA)، ثم إلى أندم (ANDUM)، ثم الجبل المسمى كغم (Kagum)، ثم إلى الجبل المسمى زوزيات (zuziyat)، ثم إلى الجبل المسمى أبو زرا (Aba-zara)، ثم رواح (Rawaha)، ثم إلى ديقا (Dega)، ثم إلى كاجا (kaja)، كتولو (katulu)، ثم إلى جبال النوبة، ثم تقلى وبعد يومين تسير إلى نيل الأمصار إلى أخر ما قاله رحمه الله).(٤٤)

نخلص مما تقدم إلى: أن معالم مكان ظهور المهدي المنتظر كانت أكثر وضوحًا لدى مجتمع الخلافة الصكتية من وقت مبكر. وقد كان لهذه التنبؤات الواردة سابقًا أثر كبير في المجتمع الإسلامي في غرب أفريقيا عامة وشمال نيجريا بصفة خاصة، حيث بدأت حركة هجرات جماعية منذ القرن التاسع عشر الميلادي من خلافة صكتو إلى سودان وادي النيل لمبايعة المهدي ومناصرته فور ظهوره ولعل خير دليل يكشف لنا حقيقة ذلك المناخ المهدوي الذي وضحت معالمه في المجتمع الإسلامي في غرب أفريقيا ما ذكره – حياتو بن سعيد– حفيد الشيخ عثمان ابن فودى (.... قد بايعتك أنا ووالدي وجميع ما تعلق بي من قبل ظهورك الحسي وشأننا من شأنك معلوم عندنا لاسيما قد أوصانا جدنا الشيخ عثمان دان فودي رضي الله عنه ويجازيه عنا خيرًا بالهجرة إليك ونصرتك ومعيتك إذا ظهرت ونحن معك قلبًا وقالبًا في نصرة الدين وسنة رسول الله (ﷺ).(٤٥)

وهكذا؛ كانت لحركة الشيخ عثمان بن فودي أثر فكري في دعوة المهدي في سودان وادي النيل، إذ بشرت تلك الحركة الإصلاحية بظهور المهدي المنتظر في بلاد الشرق (سودان وادي النيل) وشجعت أتباعها على مناصرته، ويذكر محمد بلو بن عثمان بن فودي أن والده قد أخبره عن قرب ظهور المهدي المنتظر، وأن أتباع الشيخ عثمان بن فودي هم أبكار أتباع المهدي وأن الجهاد الفلاني لن يخمد أوراه حتى يظهر المهدي ويستلم القيادة.(٤٦) وتقاطرت أعداد كبيرة من قبيلة الفلاني إلى سودان وادي النيل بقصد ملاقاة المهدي ومبايعته.(٤٧) ولا ريب أن تلك الهجرات الجماعية إلى الشرق قد روجت لفكرة المهدية الأمر الذي جعل شعب سودان وادي النيل على استعداد لتقبل دعوة المهدية.

ونجد أن محاولات حياتو بن سعيد والذين استجابوا لخطاب الشيخ عثمان ابن فودي ولبوا نداءات المهدي بالهجرة إليه رد فعل طبيعي للتواصل الفكري الذي يسود السودان الشرقي وأواسط بلاد السودان، حيث كان الإسلام يمثل حجر الزاوية للتواصل الفكري

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بين جهاد الشيخ عثمان بن فودي وظهور المهدية في سودان وادي النيل، فقد استمدت هاتان الحركتان كثيرًا من تعاليمهما من مصادر محددة ومتداولة في أواسط بلاد السودان وشرقه فمع القرآن الكريم والسنة الشريفة كان التصوف وأدبياته مصدرًا أساسيًا لمعرفة كل من الشيخ عثمان بن فودي والمهدي كما تأثر المناخ الذي عاشا فيه في المنطقتين بنتائج حركة الإصلاح الديني التي اجتاحت معظم أنحاء العالم الإسلامي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

وكان المتجولون من علماء ومتصوفة وأيضًا الحجاج الوافدين من بلاد السودان الأوسط والطلاب هم رسل هذا التواصل وبهذا يصبح الأثر الفلاني أحد المحاور التي أرتكز عليها الفكر المهدوي في سودان وادي النيل فهو يمثل محورًا مهمًا لأنه ظل ينساب بقوة منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي. وقد تزامن هذا الانسياب مع الهجرات الفولانية وترافق مع الحجيج المسلم عبر طريق سودان وادي النيل بل اتسعت حركة الهجرة فيه مما زاد ترقب المهاجرين للمنقذ كلما اقتربوا من بلوغ نهاية القرن الثالث عشر الهجري فضلاً عن الوجود البشري لأعداد كبيرة من أهالي حوض شاد والنيجر حيث كان لهما دور كبير في حث محمد أحمد بن عبد الله ليفصح عن مهديته.(٤٨)

خاتمة

يتضح مما سبق في البحث: أن حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية قامت على ثلاث مراحل مرحلة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وسنة رسول الله (ﷺ) حيث أهتم بتربية الناس على أسس إسلامية متبعًا فيها أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولما اشتهر أمر الشيخ عثمان بن فودي وقف حكام بلاد الهوسا في وجهه وتفاقمت الأمور فأمر أتباعه بالهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام فقابل حكام بلاد الهوسا عمل الشيخ عثمان بن فودي وجماعته بتعقبهم أينما ذهبوا مما جعل أتباعه يبايعونه على الجهاد وطاعة الله ورسوله وبايع هو جماعته على العمل بالكتاب والسنة وصار الشيخ عثمان ابن فودي يلقب (بأمير المؤمنين). ثم جاءت مرحلة الجهاد ضد القبائل الوثنية التي اجتمعت على حرب الإسلام ودعوته الجديدة في السودان الغربي واتبع الشيخ عثمان بن فودي استراتيجية الجهاد على عدة محاور وضم الشعوب الإسلامية تحت رايته، كما أنه أعاد بعث الإسلام ونشره بين القبائل الوثنية في شتى أرجاء السودان الغربي فأسس دولة إسلامية حملت أسم الخلافة الفولانية. أما المرحلة الثالثة فقد اهتم فيها الشيخ عثمان بن فودي على بناء الدولة الإسلامية التي أخذت في الاتساع شيئًا فشيئًا حتى أصبحت أقوى دولة إسلامية في أفريقيا آنذاك استمرت قرنًا من الزمان حتى سقطت أمام الغزو الإنجليزي في مطلع القرن العشرين من الميلاد في سنة (١٩٠٣م).

الهوامش:

(١) د. عبد الرحمن عمر الماحي: **الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل**، ديوان المطبوعات الجامعية ٩/٢، الساحة المركزية أبن عكنون، الجزائر، ص٨٨.

(٢) د. شوقي الجمل، ود. عبد الله عبد الرازق: **تاريخ غرب أفريقيا الحديث والمعاصر**، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ص١٣٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

(٤) د. حسن إبراهيم حسن: **انتشار الإسلام في القارة الأفريقية**، ط٣، ١٩٨٤م، ص ١١٦، ص ١١٨.

(٥) د.عبد الرحمن عمر الماحي: مرجع سابق، ص ١٢٧.

(6) Trimingham(z.j):Ahistory af islam in west Africa London 1979. p.153.

(٧) علي القرشي: **التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي**، دار الزهراء للأعلام العربي ١٤٠٩- ١٩٨٦، ص١٢٥.

(٨) أحمد عبيد الله: **الأسس التربوية لحركة التجديد عن الشيخ عثمان دار نوبلو** (مطبوع ضمن بحوث الندوة العالمية التي عقدتها جامعة أفريقيا العالمية للاحتفاء بذكراه)، الخرطوم (٢٦ – ٢٧) جمادي الأخر ١٤١٦هـ/ (١٩-٢١) نوفمبر ١٩٩٥، تحرير الأستاذين عمر أحمد سعيد، وعبد الحليم الحسن، ص ١٠٥- ١٠٦.

(٩) أحمد محمد كاني: **الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا**، ط١، ١٩٨٧، القاهرة، ص ٦١.

(١٠) د.عبد الرحمن عمر الماحي: مرجع سابق، ص ١٢٩.

(١١) د.أحمد محمد كاني: مرجع سابق.

(١٢) محمد بلو بن عثمان بن فودي: **إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، تحقيق علي عبد العظيم وآخرون، دار مطابع الشعب القاهرة (١٣٨٣هـ-١٩٦٤م)، ص ٤٠.

(13) Hogben (s.j): *the muhmmedan Emirates of Nigeria*, Oxford 1930. P.73.

(١٤) أبو الحسن علي السماني: **تطبيق نصوص الفكر السياسي في صكتو**، الخرطوم، دار هايل، ص ٢٤٨.

(١٥) محمد بلو بن عثمان بن فودي: مرجع سابق، ص٣٤.

(١٦) آدم عبد الله الألوري: **تاريخ الإسلام في نيجريا**، بيروت ١٩٥٦، ص٣٥-ص٣٦.

(١٧) د.عبد الودود إبراهيم شلبي: **الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته المكتبة الأفريقية**، دار المعارف، ص٥٧.

(١٨) آدم عبد الله الألوري: مرجع سابق، ص ٣١.

(١٩) د.حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص ١١٩- ١٢٠.

(٢٠) محمد بن بلو بن عثمان فودي: مرجع سابق، ص ٩٤- ٩٥.

(٢١) د.عبد الرحمن عمر الماحي: مرجع سابق، ص١٣٤.

(٢٢) د.أحمد محمد كاني: **حركة الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي (الاستراتيجية-المنهجية-الأهداف)**، في بحوث الندوة العالمية التي عقدتها جامعة أفريقيا العالمية للاحتفاء بذكرى الشيخ عثمان دان فوديو، الخرطوم (٢٦-٢٨ جمادي الأخر ١٤١٦هـ/ ١٩-٢١ نوفمبر ١٩٩٥)، تحرير الأستاذين/ عمر أحمد سعيد وعبد القيوم عبد الحليم الحسن، ص١٤٧.

(٢٣) عثمان بن فودي: **حصن الأفهام في جيوش الأوهام (مخطوط)**، نقلاً عن د.شوقي الجمل، ود.عبد الله عبد الرازق، في **تاريخ غرب أفريقيا الحديث والمعاصر**، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ص ١٤٧.

(٢٤) د.شوقي الجمل ود.عبد الله عبد الرازق: مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٢٥) د.عبد الرحمن عمر الماحي، مرجع سابق، ص١٣٤- ١٣٥.

(٢٦) د.أحمد محمد كاني: مرجع سابق، ص١٩.

(٢٧) آدم عبد الله الألوري: مرجع سابق، ص٣٦.

(٢٨) د.عبد الرحمن عمر الماحي: مرجع سابق، ص١٣٦- ١٣٧.
(٢٩) د.شوقي الجمل ود. عبدالله عبد الرازق: مرجع سابق، ص ١٣٨- ١٣٩.
(٣٠) د.حسن أحمد محمود: **الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا**، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٢٢٣.
(٣١) د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم، **المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا**، عالم المعرفة (١٣٩) المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت، ١٩٩٨م، ص ٣٤.
(٣٢) د. عبد الرحمن عمر الماحي: مرجع سابق، ص ١٣٧.
(٣٣) د.أحمد محمد كاني: مرجع سابق، ص٨٤.
(٣٤) د.حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص ١٢٠.
(٣٥) د. احمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي،ج١، ص٢٢٨.
(٢٦) حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص١٢٠.
(٣٧)د.عمر عبد الرحمن الماحي: مرجع سابق ص١٤٠-ص١٤١
(٣٨) د.حسن إبراهيم حسن : مرجع سابق ، ص١٢٠- ص ١٢٢
(٣٩) محمد بلو بن عثمان بن فودي: مرجع سابق، ص ٥٨- ٦٠.
(٤٠) د.عمر عبد الرحمن الماحي: مرجع سابق، ص ١٤٤.
(٤١) **الشيخ عثمان بن فودي**: تحذير الأخوان من ادعاء المهدية الموعودة في أخر الزمان (مخطوط)، جامعة سكوتو نقلاً عن البروفيسر يوسف فضل الله حسن أثر حركة الشيخ عثمان دان فوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل في بحوث الندوة العالمية التي عقدتها جامعة أفريقيا العالمية للاحتفاء بذكراه الخرطوم (٢٦-٢٨ جمادي الأخر ١٤١٦هـ/٢١-١٩ نوفمبر ١٩٩٥م) تحرير الأستاذين/ عمر أحمد سعيد وعبد القيوم عبد الحليم الحسن، ص٢٩٢.
(٤٢) محمد محجوب مالك: **المقاومة الداخلية لحركة المهدية (١٨٨١-١٨٩٨م)**، ط١ بيروت ١٩٨٧، ص٢٤.
(٤٣) عُمر عبد الرازق النقر: **الجذور العقائدية والتاريخية لهجرة مى ورنو إلى السودان**، مجلة الدراسات السودانية، معهد الدراسات الإفريقية والأسيوية، السودان، الخرطوم العدد الأول المجلد الثاني، ١٩٧٠، ص١٠٨.
(٤٤) الأمين أبو منقه: **العلاقات السودانية النيجرية في أطار المهدية**، سلسلة الدراسات السودانية رقم(١٧)،١٩٩١، ص١٩٥- ١٩٧.
(٤٥) د.محمد إبراهيم أبو سليم: **منشورات المهدية**، بيروت ١٩٦٩، ص٣٣٦.
(٤٦) د.محمد إبراهيم أبو سليم: **الحركة الفكرية في المهدية**، ط٣، ١٩٨٩، ص١٦.
(٤٧) محمد محجوب مالك: مرجع سابق، ص ٢٤.
(٤٨) أ.د.يوسف فضل الله حسن: **أثر حركة الشيخ عثمان دان فوديو على دعوة المهدية في سودان وادي النيل**، في بحوث الندوة العالمية التي عقدتها جامعة أفريقيا العالمية للاحتفاء بذكراه. الخرطوم (٢٦-٢٨ جمادي الأخر ١٤١٦هـ/ ١٩-٢١ نوفمبر ١٩٩٥)، تحرير الأستاذين/ عمر أحمد سعيد وعبد القيوم عبد الحليم الحسن، ص٣٠٧- ٣٠٨.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



محمد بن عبد الكريم المغيلي ودوره الإصلاحي في السودان الغربي



د. خالدي مسعود

أستاذ محاضر في التاريخ الإسلامي
جامعة ٨ ماي ١٩٤٥
قالمة – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خالدي مسعود، محمد بن عبد الكريم المغيلي ودوره الإصلاحي في السودان الغربي.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ١٧ – ٢٠.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

محمد بن عبد الكريم المغيلي من العلماء البارزين المغاربة خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. أشتهر بمؤلفاته العديدة والتي كان عددها خمسة عشر مؤلفًا في علوم اللغة والفقه والمنطق وأصول الحكم والسياسة. عاش في تلمسان مسقط رأسه، وأنتقل منها إلى مدينة فاس ثم توات في الصحراء حيث كان له بها موقفًا معاديًا لليهود. رحل بعد ذلك لبلاد السودان وأتصل بحكامها منهم محمد رمقا أمير مملكة كانو والإسقيا محمد الأول وسلطان مملكة كانم. أثناء تواجده بهذه الدول روّج لأفكاره الإصلاحية من خلال النصائح التي قدمها لحكامها منها تطبيق الشريعة الإسلامية في معاملاتهم السياسية وتقريب أهل الخير إليهم والاهتمام بالعلماء لأن المجتمع لا يصلح إلا بصلاحهم وتصحيح المفاهيم وإحياء السنة وإعاقة البدعة، وبذلك يكون هذا العالم الجليل قد أحدث ثورة فقهية في عهده تمثل بداية لليقظة الفكرية الإسلامية في بلاد السودان الغربي والمغرب. وفي آخر حياته عاد إلى توات وتوفي بها سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م).

مُقَدِّمَةُ

يُعَدّ محمد بن عبد الكريم المغيلي من العلماء المغاربة البارزين خلال القرن التاسع الهجري/ الحادي عشر الميلادي. نالت مؤلفاته شهرة واسعة في المغرب والسودان الغربي، ويجسد صورة لجانب من التبادل الفكري والثقافي بين المغاربة والسودانيين. كانت له مكانة مرموقة في مجتمعاتهم نتيجة لأفكاره الإصلاحية الكبرى الداعية إلى تصحيح المفاهيم وإحياء السنة ومحاربة البدع. تمخضت جهوده إلى إحداث صورة فقهية. كانت له أبحاث تتعلق بالسياسة وإصلاح الحكم، كما كانت له رحلات إلى السودان الغربي، زار خلالها "جاو" عاصمة مملكة سنغاي و"كانو" و"كاتسينا" في بلاد الهوسا. كتب عدة رسائل للملوك وسلاطين هذه المنطقة، بيّن لهم فيها الحكم الراشد المستمد من الشريعة الإسلامية. عرف عنه تصديه لليهود في منطقة توات بعد أن لاحظ الامتيازات التي تحصلوا عليها، فحاربهم، ولكن مجموعة من الفقهاء المعاصرين له لم يوافقوه الرأي.

فمَنْ هو عبد الكريم المغيلي؟ كيف كانت نشأته العلمية؟ ما هي الظروف السياسية والثقافية التي عايشها والتي جعلته يثور ضدها ؟ وما نوع الإصلاحات التي قام بها في السودان الغربي ؟ وهل كانت لعلاقته الحسنة مع ملوك وأمراء هذه المنطقة عاملاً مكنه من نشر أفكاره ؟ للإجابة على هذه الأسئلة أنجزت هذا المقال التاريخي، أبرزت فيه حياته ونشأته العلمية في تلمسان وفاس، وبينت موقفه من اليهود وأسباب مخالفة بعض الفقهاء البارزين في عهده، ورحلاته التي قام بها في بلاد السودان والإصلاحات التي قدمها لملوك وأمراء المنطقة. واعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع العربية والسودانية أهمها كتاب نيل الابتهاج لتطريز الديباج لأحمد

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بابا التنبكتي وكتاب البستان لابن مريم ومؤلفات المغيلي منها كتاب أسئلة الإسقيا وأجوبة المغيلي وكتاب مصباح الأرواح.

١ـ نشأته العلمية

ينتسب الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي إلى قبيلة مغيلة التي تقطن نواحي تلمسان. ولد في تلمسان ولم يضبط تاريخ مولده غير أن وفاته كانت سنة (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م).(١) تلقى العلم من يد والده الذي علمه قراءة القرآن الكريم، وأحتفل في المسجد عند تخرجه مع جمع كبير، وهو العالم رقم عشرين في سلالة المغيلي التي تبتدئ بإلياس المغيلي والذي شارك طارق بن زياد في فتح الأندلس. درس الفقه عند الإمام الفقيه محمد بن عيسى الشهير بالجلاب التلمساني (ت. ٨٤٥هـ/ 1441م) أخذ عنه بعض التفسير والقراءات ولقنه الفقه المالكي، وختم عليه المدونة ومختصر خليل والفرائض من مختصر ابن الحاجب والرسالة،(٢) ثم توجه إلى علماء تلمسان في ذلك الزمان، فتلقى العلم من شيوخها منهم عبد الرحمن بن محمد بن علي يحي التلمساني وهو من أكابر فقهاء المالكية (ت.٨٤٥هـ/ ١٤٤١م). وفي سنة (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م) رحل إلى تونس وأقام بها لمدة شهرين ثم دخل الى القاهرة ومنها أدى فريضة الحج وعاد إليها ثم سافر إلى الشام، فزار القدس ودخل دمشق فتزاحم الناس لرؤيته حيث علموا فضله، وأنتقل بعدها إلى بجاية وأخذ عن علمائها التفسير والحديث الشريف والفقه منهم الشيخ أحمد بن إبراهيم البجائي (ت.٨٤٠هـ/١٤٣٤م) الذي أشتهر بالتفسير، قرأ عنه الصحيحن وموطأ مالك والفقه المالكي. وأنتقل بعد ذلك إلى الجزائر فأتصل بالمفسر المشهور عبد الرحمن محمد بن مخلوف طلحة الثعالبي صاحب التفسير فزوجه أبنته "الجواهر الحسان" اعترافًا بعلمه وفقهه وأدبه.(٣)

٢ – أسفاره في المغرب

وذهب المغيلي إلى فاس، إلا أن نتيجة تصرفاته مع علمائها أغضب عليه أميرها وخاطبه خطابًا لم يرق للمغيلي فغادرها. ومن تلمسان تنقل إلى منطقة توات سنة (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م)، ونزل في مدينة تمنطيط، وبنا بها زاوية للطريقة القادرية، وأتخذها قاعدة للاتصالات في بلاد السودان الغربي لنشر الإسلام والقضاء على البدع الوثنية خاصةً بإمارات الهوسا. ومما ساعده على ذلك قبيلة كونتا، وهي قبيلة ذات أصول عربية سكنت توات، كان لها نفوذ كبير في المنطقة، وكان شيوخها يزورون بلدان السودان منها بلاد برنو. وقد يكون سبب تنقل المغيلي من تلمسان إلى توات هو تضايقه من وضعية عصره وتنكره على الحكام المسلمين بخروجهم على التقاليد الإسلامية في حكم رعاياهم، بالإضافة إلى ضيق العيش بالشمال حيث سيطر اليهود على أهم المدن وعلى مصادر التجارة والمال وتوغلوا في شراء ذمم بعض المسؤولين فأصبحوا صنائع لهم.

وعندما أستقر بتوات تبين له أن اليهود هناك قد أفسدوا الحياة، لذلك صمم على طردهم منها رغم معارضة قاضيها الشيخ عبد الله العصنوني، وأبو محمد عبد الله بن أبي بكر الأبنوسي التلمساني. ورحل المغيلي إلى بلاد السودان كما سنرى فكان له دور واضح في الدعوة الإسلامية وإصلاح المجتمع. فزار عدة بلدان وأتصل بحكامها فكتب لهم رسائل ينصحهم فيها ويوضح لهم واجبات الأمير ومؤهلات حكم رعيته.(٤) وعاد بعدها ليستقر في مدينة توات خاصةً بعد أن قتل اليهود والده البكر عبد الجبار انتقامًا منه بسبب تضييقه عليهم بفقهه وعلمه وتوفي سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) في قصر بوعلي التابع لزاوية كنته بتوات عن عمر يناهز مائة سنة.(٥)

٣ ـ آثاره العلمية

كتب المغيلي مؤلفات عديدة في مجال الفقه واللغة العربية والحديث الشريف وعلم الكلام والمنطق وقد أحصاها الفقيه أحمد بابا التنبكتي بخمسة عشر مؤلفًا.(٦) كان لها أثرها على الأمة الإسلامية في عهده وفي الأجيال من بعده. من أهم مؤلفاته في مجال الفقه كتاب "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" في كراسين وحاشية ومختصر خليل سماه "إكليل معنى اللبيب"، ورسالة على البيوع سماها "مفتاح الكنوز"، و"إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل"، و"تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين"، و"مختصر تلخيص المفتاح وشرحه" وغيرها.

وفي مجال اللغة العربية وآدابها ألف المغيلي مقدمة في العربية، أما في الشعر ألف كتاب "تفسير فاتحة الكتاب"، و"البدر المنير في علوم التفسير"، وفي مجال الحديث الشريف ألف كتاب "رجز المغيلي" في المنطق، و"منح الوهان في رد الفكر إلى الصواب" وثلاثة شروح عليها. وكان للمغيلي عدة أعمال علمية مهمة تتعلق بالسياسة وإصلاح الحكم منها إجابته عن سؤال وجهه إليه أمير الهوسا والذي طلب فيه من المغيلي أن يكتب له "جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام"، وأجابه برسالة مطولة بين فيها حرصه الشديد على التمسك بالشريعة الإسلامية. وترك المغيلي رسالة مطولة أجاب فيها عن سبعة أسئلة وجهها له سلطان مملكة سنغاي الإسقيا محمد، عثر عليها الباحث الجزائري عبد القادر زبادية في مكتبة الجزائر وكانت في كتاب بعنوان "أسئلة الإسقيا وأجوبة المغيلي". وكان للمغيلي مراسلات مع محمد بن يوسف السنوسي حول عداءه لليهود بعد أن قتلوا ابنه في مدينة توات ومراسلات مع علماء فاس أوردها في كتابه "مصباح الأرواح" ومراسلة مع جلال الدين السيوطي في علم المنطق.(٧)

٤ ـ موقفه من اليهود

كسب المغيلي نفوذًا كبيرًا في المجتمع المغربي والسوداني، وزادت شهرته عند إمامته في منطقة توات والتي كان يسكنها عدد كبير من العلماء والمشاهير. ومن الأمور التي شدّت انتباهه بعد تنقله من تلمسان إلى توات هي الامتيازات الكبيرة التي تحصل عليها اليهود، لذلك حث الناس على محاربتهم وقتلهم وتدمير ممتلكاتهم ومعابدهم، فحدث جدال كبير في عهده حول كيفية معاملتهم، فأستشار علماء فاس وتونس وتلمسان حول هذه القضية. ولم يوافقه الرأي عبد الله العصنوني قاضي تمنطيط وأشار الى ذلك

صاحب كتاب المعيار الونشريسي ووافقه الرأي كل من محمد بن يوسف بن عمر شعيب السنوسي عالم تلمسان ومحمد عبد الله بن عبد الجليل التنسي مؤرخ وفقيه هو الآخر من تلمسان.[٨] وراسل أحدهم حاكم تمنطيط قائلاً: "كل الشكر والعرفان إلى أخينا العالم المتحمس الذي كانت لديه الشجاعة في هذه الأزمان الفاسدة ليعلن رأيه بصراحة ويقاوم المفاسد، ويثير النفوس السيئة ويدعو هذه النفوس التي تحتاج إلى الحماس للعودة إلى الدين الإسلامي الصحيح، إنه شرف له أن يعارض بكل هذا الحماس مشروعات اليهود، إنه هو الوحيد المؤمن حقًا لكي يوقظ الشعوب التي انهمكت في الأمور الدنيوية وأغلقت آذانها عن صوت الحق وصوت الرسول . (ﷺ) ".[٩]

ولما علم المغيلي بهذا الجواب أستعد للحرب في خروجهم، فأجتمع مع أنصاره وطاردوهم وهدموا عددًا من معابدهم في توات. وكان للمغيلي رأي فقهي في معاملته لليهود، فهل يعاملون كأهل الذمة أم لا. ويعتقد المغيلي عدم السماح لهم ببناء الكنائس والبيع لأنهم لا يدفعون الجزية، وأورد جزء مما كتبه عنهم في رسالة مصباح الأرواح فذكر أسباب اتخاذه قرار محاربة اليهود وانتقاده لمَنْ يتعامل معهم فيقول: "تجد قومًا يزعمون أنهم يؤمنون بالنبي . (ﷺ) . ويحبونه وهم مع ذلك يتقربون من أعدائه... قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ".[١٠]

٥ ـ رحلته وإصلاحاته في السودان الغربي

١/٥- رحلته إلى تكدة وبلاد الهوسا:

بعد مشكلة اليهود رحل المغيلي من توات إلى بلاد السودان الغربي، فزار عدة بلدان كان له فيها أثر عظيم، فزار بلدة تكدة وأجتمع بسلطانها ونشر العلم بين أهلها، وأجتمع بسلطان "كانو" واستفاد منه، كما كتب له رسالة ترشده في أمور سلطنته وتوضح له الطريقة الإسلامية الصحيحة في الحكم منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلم أهل كانو أمور دينهم، ثم رحل إلى بلاد التكرور وكان له أثر عظيم على أهلها، ووصل إلى بلاد كانم وأجتمع بسلطانها وقام بدوره في ترشيد الناس بالإسلام الصحيح، كما ألف كتابًا لسلطان كانم أجابه فيه في عدة مسائل.[١١] يذكر أحمد بابا التنبكتي عن هذه الرحلة فيقول: "... ثم دخل بلاد أهير ودخل بلاد تكدة وأجتمع بصاحبها وأقرأ أهلها وأنتفعوا به ثم دخل بلدة كنو وكشن من بلاد السودان وأجتمع بصاحب كنو واستفاد عليه وكتب رسالة في أمور السلطنة يحضه على إتباع الشرع وأمرهم بالمعروف والنهي عن المنكر وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده".[١٢]

ومن المرجح أن زيارة المغيلي لمنطقة كانو حدثت في الربع الأخير من القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي أثناء حكم محمد رونقا. وتحكي السجلات التاريخية لكانو أن المغيلي عندما وصل إلى هذه البلاد أمر بقطع الشجرة المقدسة وبنى مكانها مسجدًا وبفضل نشاطه في الوعظ والإرشاد ونشر المعرفة فقد أزداد عدد العلماء زيادة كبيرة.[١٣] ولم تقتصر نشاطات المغيلي على التدريس والوعظ فحسب ولكنها شملت أيضًا المشاركة في الشؤون الإدارية للبلاد وشجعه على ذلك أن الحاكم محمد رونقا الذي كان على قدر من العلم، وكان يشعر أن هناك نقصًا في القوانين والأحكام الدستورية لدولته الذي كتب له بحثًا شاملاً عن تصوره لهيكل الحكومة، ضمن آراءه كتابًا بعنوان "تاج الدولة فيما يجب على الملوك"، ينصح المغيلي فيه الحاكم بأن يعمل ما فيه الصالح العام لرعيته، ومعالجة مسألة الفساد وإعادة تنظيم سير العمل في الدولة.[١٤]

٢/٥- إصلاحاته في مملكة سنغاي:

بعد بلاد الهوسا ودخوله كانو والتقائه مع سلطانها الشرعي، كما أسلفنا ذكره، رحل الى جاو وأتصل بالإسقيا الحاج محمد سلطان مملكة سنغاي فجعله مسشارًا له في مختلف المسائل الفقهية والشرعية، ويثبت صاحب كتاب البستان أن المغيلي كتب مؤلفه بعد وصوله مباشرة. فقد وجه الإسقيا محمد مجموعة من الأسئلة إلى المغيلي فأجابه هذا الأخير برسالة قيمة أوضح له فيها الفتاوى الإسلامية في الموضوعات التي آثارها وهي في مجموعها تلقي الضوء على المشاكل التي تواجه الحكام المسلمين في السودان الغربي وقتذاك، كما تعطينا صورة واضحة لأثر بلدان المغرب في الفكر السياسي والثقافي.

عرض الحاج الإسقيا على العالم المغيلي لحل العلماء في بلاده وجهلهم اللغة العربية ووصفهم بعلماء السوء، ويقول أنه لا يجد مَنْ يوليه المناصب السياسية والمراكز الدينية، فهل يجوز له أن ينصب هؤلاء ويترك المسؤولية الشرعية عليهم ويطلب منهم أن يبين مَنْ يصلح لذلك شرعًا. وأجابه المغيلي برسالة أثبت فيها إطلاعه الكامل على أحوال بلاد السودان وملوك أمرائها وعادات سكانها، كما أثبت حرصه الشديد على أن يحكم المسلمون وفقًا لقواعد الشريعة الإسلامية.[١٥] ورد المغيلي في إجابته على الإسقيا جملة من النصائح حثه فيها على تقريب أهل الخير منه وأن يسأل أهل الذكر ليحكم بمقتضى الشريعة الإسلامية، وكان من نصائحه أن يصلح الأحوال الثقافية في بلاده وأن يهتم بالعلماء ويقربهم إليه لأن المجتمع لا يصلح إلا بصلاحهم، ويفسد بفسادهم.[١٦] ومما ذكره فيمن يصلح للولاية: "... لا يلتبس حال أهل الذكر دجال علماء السوء أصلاً لا قولاً ولا فعلاً، بل أن يجعل الله لكل هاد من أهل الذكر أنوارًا على أنوار في كل عصر من الأعصار... ولذلك روي في أن كل قرن يرسل الله عالمًا للناس يجدد لهم دينهم، فلا بد لهذا العالم من علماء عصره، فيكون بذلك غريبًا بينهم لإنفراده بصفة أحواله وقلة أمثاله...".[١٧]

٣/٥- دوره في نشر الطريقة القادرية في السودان الغربي:

تشير بعض المصادر التاريخية أن محمد بن عبد القادر المغيلي قام بدور هام في نشر الطريقة القادرية في السودان الغربي، فقد ورد في مجموعة سلسلة الذهب في الورد القادري،[١٨] أن الشيخ البكاي الكنتي كان من تلاميذه وتلقى الطريقة القادرية منه، وقبيلة

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

كنتة من القبائل العربية كان لها نفوذ كبير في جنوب الصحراء انتقلت من واحة توات موطن المغيلي خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، تولت مهمة نشر الطريقة القادرية، فقد وصلت بلاد السودان الغربي في الفترة التي وصل فيها المغيلي إلى المنطقة. وقد ساعد ذلك المغيلي في نقل تعاليم الطريقة في بلاد الهوسا وبلاد أهير عن طريق الدروس التي كان يلقيها.[١٩]

خاتمة

من خلال ما تقدم ذكره نستنتج؛ أن الصلات الثقافية بين السودان الغربي وبلاد المغرب كانت قوية، وتمثل شخصية عبد الكريم المغيلي معلمًا أساسيًا لهذه العلاقات خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، فبفضل معارفه العلمية ومواقفه الصارمة ضد الحكام الظالمين واليهود كسب ود سلاطين وأمراء السودان الأوسط والغربي. وكان للمغيلي دور واضح في الدعوة إلى الإسلام، خلفت زيارته لدول إفريقيا جنوب الصحراء، سنغاي وممالك الهوسا ودولة الكانم أثرًا ثقافيًا وسياسيًا كبيرًا، من خلال حثه الحكام على الإصلاح بإسداء النصح والإرشاد، فبين لهم طريق الحكم الراشد وحثهم على تطبيق الشريعة الإسلامية مستغلاً معارفه العلمية في المجال الفقهي، وأوضح لهم واجباتهم تجاه الرعية وكيفية التعامل مع الناس.

الهوامش:

(١) أحمد بابا التنبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ج٢، ص٢٦٩.

(٢) ابن مريم التلمساني: **البستان في ذكر أولياء وعلماء تلمسان**، تحقيق محمد ابن شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، ص٢٤٤.

(٣) محمد بن عبد الرحمن السخاوي: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، دار الجيل، بيروت، ج١٠، ص٧٤.

(٤) محمد بن عبد الكريم المغيلي: **أسئلة الإسقيا وأجوبة المغيلي**، تحقيق عبد القادر زبادية، المطبعة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤. ص١٠.

(٥) أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٩.

(٦) نفسه، ج٢، ص٢٦٧.

(٧) ابن مريم: المصدر السابق، ص٢٥٤، ٢٥٦.

(٨) أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي (ت.٩١٤هـ): **المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج٤، ص١٥٠.

(٩) فيليكس ديبوا: **تنبكت العجيبة**، ترجمة عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٢٣٩.

(١٠) ابن مريم: المصدر السابق، ص٢٥٤، ٢٥٦.

(١١) الونشريسي: المصدر السابق، ج٤، ص١٥٠.

(١٢) فيليكس ديبوا: المرجع السابق، ص٢٣٩.

(١٣) قرآن كريم: **سورة التوبة**، الآية (٢٩).

(١٤) الأمين محمد عوض الله: **العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي**، دار المجتمع العلمي، جدة، ١٣٤٩هـ/١٩٧٩م، ص١٨٥.

(١٥) أحمد بابا التنبكي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٥.

(١٦) أحمد أمين كاني: **مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان**، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، السنة الثالثة، العدد الأول، يناير ١٩٨١، ص١٨.

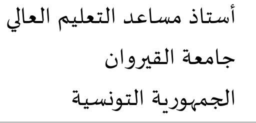
(١٧) محمد بن عبد الكريم المغيلي: **تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين**، تحقيق محمد خير ورمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٥. ص٤٨، ٥٤.

(١٨) نفسه، ص٥٤.

(١٩) المغيلي: **أسئلة الإسقيا وأجوبة المغيلي**، المصدر السابق، (المقدمة)، ص١٧، ١٨.



السياسي والديني في شخصية الأمير عبد القادر ومدى استجابته لمفهوم الدولة (١٨٣٢ – ١٨٤٧)



د. محمد صلاح حقي

أستاذ مساعد التعليم العالي

جامعة القيروان

الجمهورية التونسية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد صلاح حقي، السياسي والديني في شخصية الأمير عبد القادر ومدى استجابته لمفهوم الدولة (١٨٣٢ – ١٨٤٧).- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص٢١– ٢٧.



www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

اخترت هذا الموضوع للنظر في ما إذا كانت شخصية الأمير عبد القادر ذات بعد سياسي أو ديني خاصة وأن الشخصية تعتبر من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر باعتبار أنه قاد مقاومة كبيرة ضد الاستعمار الفرنسي للجزائر، ووصلنا إلى نتيجة هي أن الشخصية ذات بعد سياسي باعتباره مقاومًا ويحمل صفة المجاهد من ناحية، وذات بعد ديني باعتبار أنه يحمل صفة الشيخ أو الأمير وكما نعلم فإن عبارة الشيخ ذات مدلول ديني، أما الجزء الثاني من المقال فيتعلق بتلك الدولة التي كونها الأمير عبد القادر في الجنوب والجنوب الغربي الجزائري بين (١٨٣٢، ١٨٤٧) وتساءلنا إن كان فعلاً المجال الذي كونه ينطبق عليه مفهوم الدولة ووصلنا إلى نتيجة وهو أنه دولة بكل معنى الكلمة نظرًا لتوفر شروط تكون الدولة في مجال الأمير عبد القادر وهي الرقعة الجغرافية والراية والمجموعة البشرية والحدود الجغرافية.

مُقَدِّمَةُ

مَثل النصف الأول من القرن التاسع عشر لاسيما الثلاثينات منه والأربعينات حلقة هامة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر إذ شهدت حراكًا سياسيًا وعسكريًا فرض على الباحثين مزيد الاهتمام بها، وعندما نتحدث عن تاريخ الجزائر في هذه الفترة فإننا سنمر حتمًا على شخصية جزائرية ميزت هذا القرن وفرضت الاعتراف بها عربيًا وفرنسيًا وساهمت في نحت تاريخ هذا البلد. إنها شخصية الأمير عبد القادر الذي استطاع أن يكوّن مجالاً جغرافيًا في الجنوب والجنوب الغربي الجزائريين بين (١٨٣٢)، (١٨٤٧م).

لقد كانت هذه الشخصية محل دراسة من قبل الباحثين العرب أو الأجانب فلا تكاد تفتح كتابًا يتناول تاريخ الجزائر في القرن التاسع عشر إلا وتجد فيه بابًا أو عنصرًا كاملاً خُصص للحديث عن الرجل، ولكن اقتصرت جل الكتابات إن لم نقل كلها على الجانب العسكري في شخصيته أي الحروب التي قادها ضد الاحتلال الفرنسي فجاءت مشحونة بسرد للوقائع العسكرية، ونظرًا لأن هذا الجانب قد استوفى حقه في الدراسة رأينا الغوص في شخصية الرجل وطرح إشكالات تتعلق بالمفهوم سواء لشخصية عبد القادر أو لدولته مثل مدى إضفاء صبغة دينية أم سياسية على الرجل يعني هل يمكن الحديث عن مقاوم أم مجاهد؟ ومدى استجابة المجال الجغرافي الذي كونه في الجنوب والجنوب الغربي للجزائر لمفهوم الدولة المعرف بالألف واللاّم. وفي هذا الإطار تتنزل مداخلتنا والتي رأينا تقسيمها إلى جزأين كبيرين الأول يتعلق بشخصية الأمير بينما يتناول الثاني دولته ولكن قبل الخوض في العمل وجب التعريف بالأمير عبد القادر.

تمهيد: (مَنْ هو عبد القادر؟)

هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الحسيني (عبارة موجودة في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار) الذي بايعه سكان غرب الجزائر في ٢٧ نوفمبر ١٨٣٢م (٣ رجب ١٢٤٨هـ).[1] ولد

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

في ٦ سبتمبر ١٨٠٨م بالقرب من مدينة معسكر، أمير وسلطان جزائري، رجل سياسة ومقاوم للوجود الفرنسي تعود جذوره إلى قبيلة بني يفرن البربرية،[٢] وهو ثالث أبناء سيدي محي الدين الشيخ الصوفي، تلقى تعليمًا متنوعًا من العلوم الدينية إلى الأدب العربي والتاريخ والفلسفة والرياضيات وعلم الفلك والطب.

زار مكة إثر رحلة حج صحبة والده سنة ١٨٢٦م وعمره آنذاك (٨) سنوات وهو ما سمح له بالاطلاع على معالم وثقافة الشرق وإثر عودته مرّ ببغداد لزيارة ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني،[٣] ثم زارها مرة ثانية وفي طريقه مرّ بالإسكندرية والمدينة وبغداد لزيارة نفس الضريح. انظم عبد القادر ووالده سنة ١٨٣٠م إلى المقاومة الشعبية حيث عرف بشجاعته وذكائه. إثر تعرض الجزائر إلى الاحتلال الأجنبي[٤] طلب سكان غرب البلاد من الشيخ محي الدين بن مصطفى تزعم المقاومة لتحرير الأرض، إلا أنه اعتذر لكبر سنه ونصحهم بمبايعة ابنه عبد القادر وهو ما حصل فعلاً في (٢٧ نوفمبر ١٨٣٢م / ٠٣ رجب ١٢٤٨ هـ)[٥] حيث تم منحه لقب "سلطان" ومنذ ذلك الحين انخرط في "الحرب المقدسة".

وللتذكير فإن حروب عبد القادر لم تكن موجهة ضد الفرنسيين فحسب بل أيضًا ضدّ بعض القبائل المتمرّدة ففي مرحلة أولى تمكن الرجل من إجبار الفرنسيين على الاكتفاء بالبقاء في مدن مستغانم، أرزيو ووهران[٦] الأمر الذي دفع بالجنرال الفرنسي لويس ألكسيس (Louis Alexis Desmichels) حاكم وهران آنذاك إلى إبرام معاهدة معه سنة ١٨٣٣م، وفي ١٨٣٤م خاض الأمير معارك ضارية ضد الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال تريزل الذي عوض (Desmichels) وكان أهمها معركة ٢٢ جويلية ١٨٣٤م والتي مُني خلالها جيش الأمير بهزيمة وكذلك الشأن بالنسبة لمعركة "المقطع" التي وقعت في ٢٦ جويلية ١٨٣٥م غير أن الأمير تدارك الأمر وأجبر الفرنسيين على الانسحاب إلى مدينة أرزيو في ٠٨ أوت ١٨٣٥م وفي نفس السنة تمكن الماريشال كلوزيل الذي عوض تريزل من إلحاق هزيمة بجيش عبد القادر في مدينة معسكر.

لا تحجب هذه الهزائم انتصارات حققها الأمير لعل أهمها كان في سنة ١٨٣٦م في مدينة تلمسان في معركة تافنا الشهيرة والتي انتهت بإبرام معاهدة تافنا في ٣٠ ماي ١٨٣٧م، وفي ٢١ نوفمبر ١٨٣٩م قام عبد القادر بهجوم على معسكر ثم وادي علاق في المتيجة وألحق خسائر بشرية بالجيش الفرنسي الأمر الذي أدى إلى غضب القيادة الفرنسية التي قررت الدخول في حرب إبادة فجهزت سنة ١٨٤١م حوالي ٧٨.٠٠٠ جنديًا وضابطًا بقيادة "بيجو" ونظرًا لعدم تكافؤ القوى التجأ الأمير إلى المغرب الأقصى في أكتوبر ١٨٤٣م، إلا أنه اضطر إلى العودة إلى الجزائر في سبتمبر١٨٤٥م وذلك إثر ضغوطات تعرّض لها السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان من قبل فرنسا[٧] عندها وجد الأمير نفسه مضطرًا إلى القبول بشروط القائد الفرنسي سنة ١٨٤٧م والتي انجر عنها سجنه في سجن "أمبواز" بفرنسا مدة خمسة سنوات ثم تم السماح له فيما بعد بالسفر إلى دمشق أين عاش وتوفي ودفن في ٢٤ ماي ١٨٨٣م.

لم يأخذ الأمير عبد القادر على عاتقه محاربة الجيش الفرنسي فحسب بل واجه أيضا عدة قبائل تمرّدت في الداخل مثل قبائل الجنوب والجنوب الشرقي في شهر آب[٨] ١٨٣٧م التي رفضت دفع الضرائب وأعلنت العصيان وأهم القبائل نذكر الجعافرة جنوب ولاية وهران وقبائل جبال عمّورة وهوارة وقبيلة أولاد الشايب، أما في الشرق نذكر قبائل ولاية تيطري مثل الزنافرة، وأولاد نائل، وأولاد مختار، وهي قبائل موجودة في المقاطعة الجنوبية الشرقية لولاية التيطري. أما قبائل الجهات الشمالية الشرقية فنذكر منها قبيلتي عمّورة والزواتنة. المنطقة الصحراويّة (بلاد الزّاب وعين ماضي) كانت هي الأخرى على موعد مع المواجهة مع عبد القادر، نذكر على سبيل المثال قبائل الذواود، ونواحي مجانة، وسطيف في بلاد الزاب، أما ناحية عين ماضي والأغواط فنذكر مثلاً قبيلة جبال آمور وولد البيضة.

نكتفي بهذا القدر من تعريف عبد القادر وأعماله، ونمر إلى الجزء الأول من مقالنا والمتعلق بشخصية الرجل، والحديث عن عبد القادر يطرح أكثر من سؤال خاصة فيما يتعلق بالجانبين الديني والسياسي في شخصيته لذلك سعينا إلى تجاوز أعمال وحروب الرجل والبحث في شخصيته يعني هل يمكن وصف الرجل بـ "المقاوم"، وهنا نعطيه صبغة سياسية أم بـ "المجاهد" وهنا نظفي عليه صبغة دينية، أم أنه يجمع بين الصفتين ؟

أولاً: شخصيّة عبد القادر بين السّياسي والدّيني

١/١- الدّيني في شخصيّة الأمير:

إن المتتبع للكتابات التي تناولت هذه الشخصية بالدرس يلاحظ أن المؤرخين أو الكُتّاب عادة ما يسبقون اسم عبد القادر بلقب "الأمير"، ولا أظن أن هذه الصفة أو اللقب كان حضورها مجانيًا بل إن هناك مسكوتًا عنه في استعمالها ومصطلح الأمير هذا استعمله العرب والمسلمون إما للتعبير عن شخصية سياسية، أو عن شخصية دينية، وهذا يجعلنا ندخل في حيرة لأن الأمر تعلق بشخصية عربية – مسلمة وهي عبد القادر، هذه الحيرة ستبددها بعض الكتابات التي كانت واضحة في الحكم على شخصية الرجل فلقد أسبق مثلاً محمد بيرم الخامس في "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" اسم عبد القادر بن محي الدين الحسيني بلقب "سيدي"،[٩] ونحن في ثقافتنا العربية – الإسلامية عادةً ما نستعمل هذا المصطلح للحديث عن ولي صالح أو رجل دين كأن نقول مثلاً "سيدي أحمد الباهي"، أو "سيدي عبيد الغرياني"، أو "سيدي الشيخ"... وذلك تقديرًا لعلم الرجل أو لكراماته والعلم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هو علم الفقه.

ولعل محمد بيرم الخامس الذي عاش في القرن التاسع عشر (١٢٥٥ – ١٣٠٧ هـ/ ١٨٤٠ – ١٨٨٩م) والذي درس بجامع الزيتونة والذي نهل من المذهبين الحنفي والمالكي وكذلك اطلاعه على عديد

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الكتب الدينية مثل كتب التفسير ك"الكشاف" للزمخشري، و"تفسير البيضاوي"، و"روح البيان في تفسير القرآن" لإسماعيل حقي، واطلاعه أيضًا على عشرات الكتب والرسائل الفقهية وكذلك حرصه على نيل الإجازة في الطريقة القادرية نسبة لعبد القادر الجيلاني ولعل ذلك كان له تأثير على وعيه الديني رغم أن الرجل كتب في السياسة والاقتصاد وربما كان ذلك دافعًا أساسيًا لإضفاء الصبغة الدينية على شخصية عبد القادر إذ لا يمكن استعمال مصطلح "سيدي" للتعبير عن شخصية سياسية في عالمنا العربي الإسلامي هذا إذا استثنينا بعض المجتمعات العربية التي ترى في حاكمها "سيّدًا".

إذا قبلنا بهذه الفرضية يمكننا القول: بأن محمد بيرم الخامس يرى في عبد القادر "مجاهدًا" وليس "مقاومًا" أي أضفى عليه صبغة دينية، ولعل ما يدعم استنتاجنا هذا تلك المصطلحات المشحونة بمعاني دينية مثل "كرامات"، و"صحبة النّصرة الإلهية"،(١٠) ولعل بيرم أراد أن يجنبنا عناء التأويل فصرح برأيه عندما قال متحدثًا عن تواطؤ سلطان المغرب مع السلطات الفرنسية: "...إلى أن سولت الغلطات النفسية المخالفة للديانة الإسلامية لسلطان المغرب الاتحاد مع الفرنسيين..."(١١) دعّم هذا الرأي عبد القادر نفسه عندما أقر بأن ما يقوم به يدخل في باب الجهاد أي الدين وليس السياسة: "... ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال، وإنما المقصود دفع الفرد والملأ إلى كلمة الحق، ولو أمكن حصول ذلك من غير قتال، حُرّم القتال..."،(١٢) أو قوله: "اللهم ثبت خطاي وقوّني على الجهاد حتّى النصر أو الاستشهاد"(١٣) أو قوله لما زار قبيلة فليتة زيارة مفاجئة متحدّثا عن نفسه: "... وإنما هو رجل منكم ابن الجزائر الذي سيحكم بالعدل على هدي القرآن وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر..."(١٤) ألا نشتم رائحة الديني في خطاب الأمير حيث لم يستعمل مصطلحات تدل على المقاومة أي على السياسي مثل "تحرير الجزائر"، أو "دفع العدو عن الوطن"، وإنما تحدث عن جهاد وهو ما يعني أن معارضته للوجود الفرنسي في الجزائر كانت تحكمها الغيرة على الدّين وإن كان الوطن حاضرًا في باطنه وهو ما يعني أن الرجل كان مستعدّا لمواجهة أعداء الإسلام في أي مكان حتى وإن كان خارج الجزائر.

وقد كان عبد القادر حريصًا على إقحام آيات قرآنية مثل الآيات (٣٣) ثم من (٤١) إلى (٤٣) من سورة الأحزاب، وآيات من سورة النساء خاصةً الآية (٤) و (٥٩)، كما اعتمد في الأحكام على الشريعة الإسلامية مثل قطع يد السّارق.

عندما نتصفح ردّ الأمير على خطاب أرسله له الجنرال الفرنسي (Desmechels) والمتعلق بمطالبته بإطلاق سراح الأسرى الذين وقعوا في أيدي قواته إثر حادثة مستغانم نلاحظ أن الأمير لا يتوانى لحظة في التذكير بالجهاد وبضرورة إتباع تعاليم الدين الإسلامي حيث قال: "...إن ديننا لا يسمح لنا بطلب الصلح معكم ولكنه يسمح لنا بقبوله إذا عرض علينا... وإذا كنا ضعفاء بزعمكم فنحن أقوياء بالإيمان بالله الذي لا شريك له... والشهادة في سبيل الله هي مطلبنا"(١٥)

لو عدنا إلى لباس الرجل وجيشه لأكدنا ما كنا نقول فعبد القادر يرتدي برنسًا أبيضًا وشاشية حمراء ويمتطي الجواد وبحوزته سيف، أليست هذه صورة المجاهد في المخيال العربي الإسلامي ؟ ألا يذكرنا ذلك بلباس قادة الغزوات ؟ ألا يعني رمز البياض في الحضارة العربية – الإسلامية العفّة والصفاء ؟ ألا يذكرنا السيف بحقبة الانتشار الإسلامي والفتوحات ؟.

لنتصفح شارات الجيش فالقوّاد كانوا يحملون شارات كتبت عليها عبارات تدعو إلى الجهاد مستوحاة من القرآن الكريم مثل تلك التي يحملها القائد / الآغا والتي كتب عليها "أشهد أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله"، وأخرى على صدره تحمل عبارة "وبشّر الصالحين"، أما نائب القائد فقد كان يحمل شارات من الفضة كتب عليها "لا إله إلا الله"، أما قائد المشاة فقد كان يحمل شارات على اليمين كُتب عليها "نصر من الله وفتح قريب"، وأخرى على اليسار حملت عبارة "الجنة تحت ظلال السيوف". قائد رماة السهام يحمل على عضده الأيمن شارة كُتب عليها "ما رميت إذ رميت لكن الله رمى"،(١٦) وعلى صدره شارة تحمل عبارة "كل نفس ذائقة الموت"،(١٧) وتتجلى صفة المجاهد في شخصية عبد القادر في شمولية مفهوم الجهاد عنده واستشارته لفقهاء من داخل الجزائر وخارجها إذ لا يعترف مفهوم الجهاد عنده بالحدود الجغرافية، وهو ما عبر عنه الأمير عندما اتصل به (Desmechels) للمرّة الثانية يطلب عقد صلح معه، فما كان منه إلا أن طلب التريث لاستشارة علماء الشريعة وفقهائها واقترح إرسال وفد إلى السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام ثم التوجه إلى علماء فاس والزيتونة والأزهر "لأن هؤلاء الأئمة مصابيح الظلام" على حدّ تعبيره.

ويتجلى الديني في شخصية عبد القادر في تطبيقه للشريعة الإسلامية في "دولته" إذ حرّم التعامل بالربا وحرّم قطع رأس العدوّ، بل إنه كان يكافئ كل مَنْ يأتي بأسير حيّ غير مهان. هناك إذن نفس ديني يتجلى واضحًا في تصرّفات الرجل وفي لباسه ولباس جيشه وفي خطاباته والمبادئ التي أسس عليها دولته أو تنظيمه السياسي، ولعلّ أبرز دليل على ذلك هو راية الدّولة التي أنشأها والتي تحمل عبارة "إن الدين عند الله الإسلام"، وكذلك نوعية القماش التي صنعت منها وهو الحرير المرتبط عندنا في ثقافتنا العربية الإسلامية بالدين (استعماله مثلا لتغطية أضرحة الأولياء الصالحين وككفن للميت)، وكذلك اللونين الأبيض – رمز العفة والصفاء في الإسلام – والأخضر - رمز الجنة في مخيلتنا كعرب مسلمون – اللذان تتكوّن منهما الرّاية إضافة إلى وجود كفّ مرسوم في الوسط يرمز إلى المبايعة والمتكون من خمسة إصبع تذكرنا بقواعد الإسلام الخمسة، والمبايعة هي في الأصل مصطلح ديني وليس سياسي لأننا في مجال السياسة نتحدث عن تزكية أو مناشدة أو انتخاب.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وقد اتخذ حسين مؤنس هذا المنحى عندما قال: "... ولكن العصب الإسلامي في الحقيقة هو الذي قاد المقاومة... وسواء في الجزائر أو في المغرب الأقصى فإننا سنرى أن الإسلام نفسه كان هو البطل، وهو الذي حرّك النفوذ وقاد المعارك، وكان في النهاية هو الذي انتصر والمراد طبعًا هو الجزائر أو المغرب المسلم، فإن في نفس المواطن المغربي– في كل أقطار المغرب – بطولة أحياها الإسلام وقواها وأنهضها بما فيه من روح حرّة يحسّ بها مَنْ يؤمن بالإسلام إيمانًا حقًّا... ويتجلى هذا في سيرة الأمير عبد القادر الجزائري...".[١٨]

٢/١- عبد القادر شخصيّة سياسيّة أم أن الدّيني قد امتزج بالسّياسي:

إنّ ما تعرضنا إليه من تأكيد على أن عبد القادر لم يكن سوى مجاهد لا ينفي صفة المقاومة عليه أي لا يدحض حضور السياسي في شخصيته وقد أقرّ عمّار بوحوش بأن الرجل مقاوم عندما تحدث عنه وعن تكوينه: "للجيش الوطني وإنشاء المؤسسات... وتحديد الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها من خلال تنظيم المقاومة الجزائرية...".[١٩] ثم عندما نتمعن في القوات التي كوّنها عبد القادر نلاحظ أنها ذات صبغة سياسية وليست دينية إذ عادة ما يلتزم المجاهد بمجموعة صغيرة تتخذ من الجبال مركزًا لها معتمدة على الإغارة وهو ما لم نلاحظه في قوات الأمير بل إن هذا الأخير قسّم قواته إلى كتائب وسرايا وفرق حيث نجد أربعة فرق: خيالة، مشاة، مدفعية، رماة وسهام وهو ما يدلّ على أنها المقاومة العصريّة المنظمة ولكنها مشحونة بنفس ديني ولعل هذا ما يجعلنا نتحدّث عن المزج بين الديني والسياسي في شخصية الأمير إذ عندما خطب في الناس إثر تواطؤ قبائل الزمالة والدوائر مع الجنرال الفرنسي تريزيل ردّد عبارتي "المقاومة"، و"الجهاد" في نفس الوقت: "أيها المسلمون قد قررنا العودة إلى المقاومة المسلحة فهلمّوا جميعًا إلى الجهاد، ومن قتل منا قضى شهيدًا، ومن بقي حيّا نال العزّ وثواب الجهاد".[٢٠]

وفي الحقيقة؛ فإن استعمال هذه المفاهيم الدينية مثل "الجهاد"، و"القتال" وتطعيمها أحيانًا بمصطلحات من شأنها أن تقوي المقاومة مثل "دخول الجنة" واستعمال آيات قرآنية كلها من أجل شحذ العزائم وتقوية المقاومة وكسب الأنصار، وهذا ما أقدمت عليه بعض البلدان التي قاومت الاستعمار ليس فقط الإسلامية، بل أيضًا غير الإسلامية إذ عادة ما يلازم الديني الدنيوي وعادة ما يستغل الدين لخدمة المقاومة وهنا ربّما يتلازم الجانب الجهادي مع جانب المقاومة وهو أمر ذكرته بديعة الحسني التي رأت أنه لا اختلاف بين "الجهاد"، و"المقاومة".[٢١]

وعمومًا عندما نتتبع تاريخ عبد القادر ومسيرته نلمس ازدواجية بين الجهاد والمقاومة أي بين الديني والسياسي، فالسياسي نلمسه في دعوته لأعضاء مجلس الشورى للاجتماع بعد تأسيس الدولة في شوال[٢٢] سنة ١٢٤٨م وفي بحثه إمكانية القيام بزيارات مفاجئة للقبائل، وقد كان يقوم بها مصحوبًا بحجابه وحرسه من الفرسان وقادة الأمن وهذا الموقف عبّر عنه صراحة رينيه (René Gassillot) في مقاله:

"*Abd el – Kader et la nationalité Algérienne Interprétation de la chut de la régence d'Alger et des premières résistance à la conquête Française* (1830 – 1839).[23]

وفي النهاية استطاع عبد القادر – سواء كان مجاهدًا أو مقاومًا – أن يجمع حوله قبائل متعددة ويكوّن مجالاً جغرافيًا ظل خاضعًا لسلطته حتى سنة ١٨٤٧م اعترفت به فرنسا سمّي في عديد الكتابات بـ "الدولة الأميريّة". فكيف تكونت هذه الدولة؟ وما هو امتدادها الجغرافي؟ وهل استجابت لمفهوم الدولة المعرّف بالألف واللاّم ؟

ثانيًا: دولة الأمير عبد القادر ومدى استجابتها لمفهوم الدّولة

١/٢- ظروف نشأة الدّولة ومجالها:

تحدث محمد بيرم الخامس في "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" عن الأسباب التي أدت إلى خراب الجزائر[٢٤] نتيجة الفساد الحاصل في عهد حسين باشا واستئثار فرنسا بها وكيف استطاعت هذه الأخيرة السيطرة على "القاعدة" - يقصد العاصمة - وما حولها بينما ظلت بقية الجهات خارج سيطرتها مثل الجهات الشرقية التي كانت تحت سلطة الحاج أحمد باي قسنطينة والجهات الجنوبية والغربية التي تشتت تحت رؤساء القبائل،[٢٥] وقد كانت إيالة الغرب تحت حكم الباي حسن الذي تخلّى عن السلطة في (٧ جانفي ١٨٣١م) وخير العيش في المنفى[٢٦] بعد سيطرة الجيش الفرنسي على ميناء المرسى الكبير في (٠٤ جانفي ١٨٣١م) وقام مولاي سليمان – سلطان المغرب الأقصى – باحتلال تلمسان في (٠٧ نوفمبر ١٨٣٠م)، وفي هذه الأثناء تم تعيين باي تونس على وهران، غير أن المغاربة انسحبوا من تلمسان في مارس ١٨٣١م نتيجة مقاومة السكان المنحدرين من آباء أتراك وأمهات جزائريات من جهة، ونتيجة الضغط الفرنسي على السلطان المغربي الذي كان يعاني من مشاكل داخلية من جهة ثانية، أما التونسيون فقد انسحبوا أيضًا بسبب عدم وجود أية سلطة تدفع رواتبهم وكذلك نتيجة استياء باي تونس من المبلغ المالي الذي فرضته عليه فرنسا مقابل حكمه لوهران.[٢٧]

استمر الاحتلال الفرنسي للأرض فطلب سكان غرب البلاد من الشيخ عزالدّين بن مصطفى (والد عبد القادر) قيادة المعركة ضد الأجانب المتبقين، ولكنه اعتذر لكبر سنه ونصحهم بمبايعة ابنه وهو ما حصل فعلاً يوم (٢٧ نوفمبر ١٨٣٢م/ ٠٣ رجب ١٢٤٨هـ) وانطلق القائد الجديد في تنظيم الدولة الناشئة، واتخذ معسكر عاصمة لها وسميت هذه الدولة بالأميرية نسبة له.

٢/٢- مجال الدّولة الأميريّة:

كان تحديد محمد بيرم الخامس لهذه الدولة عامًا، حيث يقول إنها الجهات الجنوبية والغربية من البلاد،[٢٨] مكتفيًا بذكر عاصمتها وهي معسكر، ولقد حددها عمار بوحوش بثمانية مقاطعات أقيمت على أسس فيدراليّة وكل مقاطعة يترأسها خليفة للأمير[٢٩] وهذه المقاطعات هي: (تلمسان – معسكر – مليانة – التيطري – مجانة – بسكرة - برج حمزة - المنطقة الغربية من الصحراء) تمدّ الدولة الناشئة على خط طولي من الحدود المغربية غربًا إلى مسافة غير بعيدة عن الحدود التونسية شرقًا، ثم تتجه نحو الصحراء جنوبًا،[٣٠] والمتمعن أيضًا في تركز هذه المدن يلاحظ أن فيها مدنًا ساحلية تنفتح على البحر، ومدنًا صحراوية، وكل المدن تمرّ منها طرقًا تجارية.

لماذا اتخذ الأمير مدينة معسكر عاصمة لدولته؟

تقع مدينة معسكر كما هو مبين في الخريطة السابقة في أقصى غرب الجزائر بالقرب من الحدود المغربية، ويبدو أن اختيارها لم يكن مجانيًا باعتبار أن الرجل تربطه علاقة طيبة بالسلطان المغربي قبل أن ينقلب عليه، فالحظوة التي يتمتع بها الأمير عند المغاربة هي التي دفعته – على ما يبدو– إلى اختيار مدينة قريبة من الحدود المغربية حتى تظل في حماية السلطان وقت المحن، أو ربما حتى يستطيع مؤسسها التمتع بإعانة المغرب بسهولة بعيدًا عن الرقابة الفرنسية، هذا علاوة على أنها تربط بين المدن الساحلية والمدن الصحراوية وبالتالي فهي تلعب دورًا هامًا في التجارة وتمر بها الطرقات التجارية الحيوية والقوافل.

عمومًا؛ إذا استثنينا مدينة وهران فإن الجزائر انقسمت إلى جزئين أو إلى "دولتين": جزء شرقي تحت الاحتلال الفرنسي وجزء غربي – جنوبي تحت سيطرة عبد القادر، أما سيطرة فرنسا على الجزء الساحلي من الجزائر فهو عادة اتبعتها السّلط الفرنسية في كافة المستعمرات تقريبًا وربما ذلك ناتج عن سهولة إخضاع هذا النوع من المناطق نظرًا لطبيعة تضاريسها التي عادة ما تنعدم فيها الجبال القادرة على حماية الرافضين للاحتلال.

٣/٢- الدّولة الأميريّة: (دولة أم مجرّد ردّة فعل)

قبل كل شيء ما مفهوم الدّولة؟

لئن تعددت مفاهيم الدولة فإنها التقت كلها حول التعريف الفلسفي لها، فالدولة حسب ج. بيردو[٣١] (G. Burdeau) بما هي واقع هي جملة الحكام والهيآت والنظم والقوانين والمؤسسات والتشريعات، هي الجنسية، هي الأرض، الشعب، الحدود... كما قدمها توماس هوبز[٣٢] على أنها وسيلة لضمان السلام، وهي شكل من أشكال السلطة تتجسد في السلطة السياسية حسب ميشال فوكو،[٣٣] وتستوجب هذه السلطة وجود شعب كي تمُارس عليه. بعد هذا التعريف هناك سؤال يطرح نفسه وهو: هل تنطبق هذه التعريفات على ذلك المجال الذي كوّنه عبد القادر في الجنوب والجنوب الغربي للبلاد؟

تحدث محمد بيرم الخامس في مؤلفه "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" عن دولة الأمير عبد القادر ولكن بأسلوب غامض حيث استعمل عبارة "البيعة" - وهنا يُحيلنا على الإمارة الإسلامية- عندما ذكر أن الجهات الغربية والجنوبية أجمعت على مبايعة الأمير عبد القادر،[٣٤] وبهذا يكون الرجل قد حدد لنا المجال الجغرافي لهذه "الدولة"، أو هذا التنظيم السياسي دون أن يبن إن كنا إزاء دولة أم مجرد ردة فعل[٣٥] ولكنه تحدث على وجود المؤسسات والمجموعة البشرية التي تقطن هذا المجال والتي " أجمعت على مبايعة عبد القادر"، بل إنه -أي بيرم الخامس- استعمل عبارة "حكومة"، عندما تحدث على ضرب السّكة[٣٦] وتذكر بديعة الحسني أن الأمير قام بإنشاء الدواوين مثل ديوان الإنشاء والتعمير والإدارات المركزية وقسم البلاد -تقصد الجزء الغربي والجنوبي- إلى ثلاثة مقاطعات والمقاطعات إلى دوائر، كما أشارت إلى وجود تنظيمات إدارية وقضائية واقتصادية وعسكرية حتى أنها أطلقت عبارة "فيدرالية" على الدّولة الأميريّة،[٣٧] بل إن عمار بوحوش لم يتردد في استعمال مصطلح "دولة".[٣٨]

من خلال ما تقدم يتبين لنا؛ أن مقومات الدولة موجودة وهي المقومات الجغرافية والتنظيمية والسيادة، والملاحظ أن هذه الدولة قامت على مبادئ "ديمقراطية" مستمدة من الشريعة الإسلامية وهو أمر عادةً ما يلجأ إليه الأمير حيث اعتمد مبدأ "التصويت" في اتخاذ القرارات. وجود الراية هو علامة من علامات الدولة، وراية الدولة الأميرية هي من الحرير الأبيض والأخضر حُذف منها اللّون الأحمر حتّى لا تكون مطابقة للرّاية العثمانيّة،[٣٩] ولعل في ذلك إشارة إلى استقلالية دولته عن الدولة العثمانية، رسم وسط هذه الراية كف يرمز إلى المبايعة، كما قام بإنشاء مجلس للشورى. وللتدليل أكثر على مظاهر الدولة تقول بديعة الحسني؛ أن القوانين بلغت أربعًا وعشرين ولها ملحقات بنفس العدد تتضمن تحديد المراتب، والملابس، والرواتب للقادة والجنود، والأطباء والممرضين، ورواتب السيّاس والبيطريين الذين يشرفون على صحة الخيول وغذائها والقضاة ورواتب حملة الراية والميدانيين.

نأتي الآن إلى مسألة الاعتراف بهذه الدّولة من قبل فرنسا التي كانت تسيطر على الجزء الشرقي من الجزائر، فبخصوص هذه المسألة تشير المصادر والمراجع إلى تعامل الجنرال (Desmechels)- ممثل القوات الفرنسية في الجزائر- مع الأمير عبد القادر وقبوله بالأمر الواقع، وإن كان ذلك إلى حين وهو ما يعني الاعتراف - ولو ضمنيًا- بدولته حتى أننا أصبحنا إزاء دولتين واحدة فرنسية وتتكون من مستغانم وأرزيو ووهران، وثانية أميرية في الجنوب والجنوب الغربي الجزائريين وهو ما يبينه الخطاب الذي أرسله (Desmechels) إلى عبد القادر إثر واقعة مستغانم التي احتلتها فرنسا كردّ فعل على حصار وهران من قبل الجيش الأميري وكان ذلك في أول كانون الثاني[٤٠] ١٨٣٣م والتي جاء فيها ما يلي: "إلى سمو الأمير، إن واجبي الإنساني ومركزي جعلاني أتصل بكم وأطلب

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

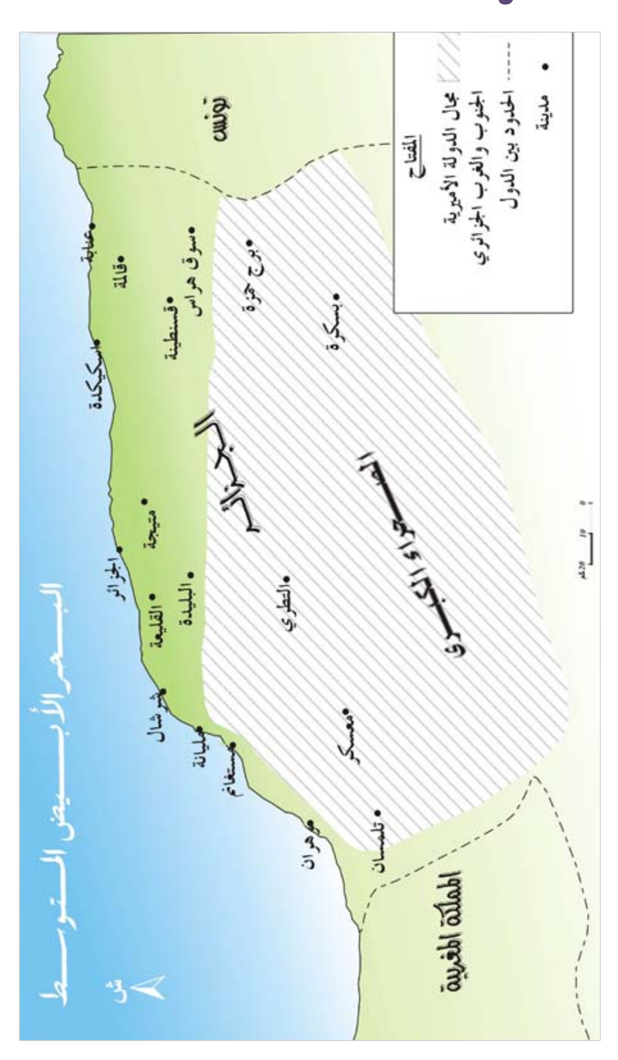
إطلاق سراح الأسرى من جنودنا الذين كانوا يقومون بحراسة عدد من العرب كانوا في طريقهم إلى منازلهم، وإذا بكمين يخرج إليهم ويقاتلهم، ولا أظن أن قوة شهامتكم تأبى تسريحهم..."[٤١].

نلاحظ أن هذا الخطاب موجه إلى جهة رسمية معترف بها، ثم ألا تعتبر المعاهدات التي كانت تبرم بين الأمير والفرنسيين دليلاً على وجود دولة إذ عادة ما تبرم المعاهدات بين دول مستقلة؟ ففي الصلح الذي أبرم بين الجنرال (Desmechels) والأمير عبد القادر سنة ١٨٣٣م تعهّد الطرفان بردّ الأسرى والتزم كل طرف بإرجاع كل مَنْ يفرّ إلى الطرف الآخر،[٤٢] هذا إضافة إلى معاهدة تافنا في (٣٠ ماي ١٨٣٧م) بين الفريقين والتي جاءت إثر إلحاق الأمير هزيمة بالفرنسيين في معركة تافنا سنة ١٨٣٦م وقد اعترفت فرنسا – مجبرة- بالدولة الأميرية من خلال تعيين وكيل لها في عاصمة الدولة الأميرية معسكر.

خاتمة

في الختام نستطيع القول؛ بأن عبد القادر قد جمع بين صفتي "المجاهد"، و"المقاوم"، ولعل ذلك يعود إلى منشأ الرجل إذ هو من بلد عربي – مسلم عادةً ما يمتزج فيه الديني بالسياسي عندما يتعلق الأمر بمحاولة تحرير البلاد من الهيمنة الأجنبية، وهي طريقة اعتمدها زعماء حركة التحرير فيما بعد إذ عادةً ما يسعون إلى استعمال القرآن الكريم في خطاباتهم لشحذ عزائم المقاومين، كالتذكير بالآيات التي تحث على الجهاد أو تلك التي تبشر بالجنة. ومهما يكن؛ فإن عبد القادر استطاع تكوين دولة بالمفهوم العصري للكلمة أطلق عليها البعض مصطلح "الأميرية"، وأن يفرض اعتراف فرنسا بها وذلك من خلال قبولها بممثل للأمير في المجال الذي تسيطر عليه، إلا أن هذه الدولة لم تستطع الصمود إذ سرعان ما تم القضاء عليها سنة ١٨٤٧م وفرّ مؤسسها عبد القادر إلى المغرب، ثم سجن مدة خمس سنوات في فرنسا ليسافر بعدها إلى دمشق أين قضى بقية حياته ثم توفي. وبنهاية الدولة الأميرية دخلت الجزائر في طور الاحتلال الكلي مما سيولّد مقاومة شعبية ستستمر حتى استقلال البلاد في ١٩٦٢م.

الملاحق:



خريطة رقم (١)

مجال الدّولة الأميريّة أثناء معاهدة التافنا

٣٠ مايو ١٨٣٧م

المصدر: أنجزت الخريطة استنادًا إلى المعلومات الواردة في: بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، دار صادر، بيروت، ط١، ج٤، المطبعة الإعلامية بمصر، ١٣٠٢ هـ

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) بيرم الخامس (محمد)، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، دار صادر، بيروت، طبعة أولى بالمطبعة الإعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ هـ، ٥ أجزاء، طبع بيرم الأجزاء الأربعة الأولى في مطبعته "المطبعة الإعلامية" ١٣٠٢ و١٣٠٣ هـ/ ١٨٨٥م بمصر بينما تكفل ابنه بطبع الجزء الخامس في مطبعة "المقتطف" سنة (١٣١١ هـ/ ١٨٩٣ م – ١٨٩٤م)، يتكون من ٧٤٦ صفحة لم نستطع قيس حجمها نظرًا لأننا اعتمدنا على نسخ.ج ٤، ص ١٠.

(٢) أنترنات.

(٣) عبد القادر الجيلاني: (٤٧١ هـ/ ١٠٧٨م – ٥٦١ هـ/ ١١٦٦م)، هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، ولد في جيلان بين بغداد وواسط، فقيه حنبلي متصوّف، درس على أيدي شيوخ العلم والتصوّف مثل التبريزي وبرز للجميع بعد الخمسين من عمره، متضلع من الفقه والتفسير، أسلم على يده كثير من اليهود والنصارى وكان يأكل من عمل يده، انتقد سياسة الخليفة، دعا إلى جهاد الشرك المستمر وهو النفس، انتصب للتدريس والإفتاء في بغداد، مؤسس الطريقة القادرية. من مؤلفاته "الفتح الرباني" وله أيضًا "فتوح الغيب": القاسمي (فتحي)، **الشيخ محمد بيرم الخامس حياته وفكره الإصلاحي**، تونس، وزارة الثقافة والإعلام، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ج٤، ص ٢ – ١٧٢.

(٤) احتلال السلطان المغربي مولاي سليمان تلمسان في ٠٧ نوفمبر ١٨٣٠ م، احتلال فرنسا لميناء المرسى الكبير في ٠٤ جانفي ١٨٣١م، تعيين الجنرال كلوزيل لباي تونس على وهران مقابل أموال يدفعها إلى فرنسا.

(٥) بوحوش (عمار)، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ١٠٨ – ١٠٩. أنظر أيضًا بيرم الخامس (محمد)، **صفوة الاعتبار** … ، مص س، ج ٤، ص ١٠.

(٦) بيرم الخامس (محمد)، **صفوة الاعتبار** …، مص س، ج٤، ص ١٠.

(٧) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٠.

(٨) أوت (أغسطس) في السنة الميلادية/ شعبان في السنة الهجرية مع مراعاة تغير الأشهر في السنة الهجرية. البدوي (محمد)، **المنهجية في البحوث والدراسات الأدبية**، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، ١٩٩٨، ص ٣٥.

(٩) بيرم الخامس (محمد) ، **صفوة الاعتبار** … ، مص س ، ج ٤ ، ص ١٠.

(١٠) بيرم الخامس (محمد) ، **صفوة الاعتبار** …، مص س، ج ٤، ص ١٠.

(١١) **المصدر نفسه**، ج٤، ص ١٠.

(١٢) **المقراض الحاد لقطع منتقص دين الإسلام بالكفر والإلحاد**، ص٣٥٥، ورد في: الحسني الجزائري (بديعة)، **وما بدّلوا تبديلا تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته**، دمشق، ط١، شوّال ١٤٢٣ هـ/ كانون الأول ٢٠٠٢م، ص٦.

(١٣) الحسني الجزائري (بديعة)، **وما بدّلوا تبديلا** … مر س، ص٣٦.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٣٦.

(١٥) الحسني الجزائري (بديعة)، **وما بدّلوا تبديلا** … مر س، ص ٥٤.

(١٦) سورة الأنفال: الآية (١٧).

(١٧) وردت هذه الآية في عديد السور نذكر منها: * سورة الأنبياء: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ": الآية (٣٥).* سورة العنكبوت: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ": الآية (٥٧).* سورة آل عمران: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ": الآية (١٨٥).

(١٨) مؤنس (حسين)، **تاريخ المغرب وحضارته قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، م٢، ج٢ و٣، ص ٣٨٠.

(١٩) بوحوش (عمّار)، **التّاريخ السّياسي للجزائر**…، مر س، ص ١٠٩.

(٢٠) الحسني الجزائري (بديعة)، **ما بدلوا تبديلا** ….مر س، ص ٨٠.

(٢١) نفس المرجع ، ص ٦.

(٢٢) أكتوبر في السنة الميلادية / تشرين الأول في السنة السريانية: البدوي (محمد)، **المنهجية في البحوث**… ، مر س، ص ٣٥.

(23) René Gassillot , Abd el – Kader et la nationalité Algérienne Interprétation de la chut de la régence d'Alger et des premières résistance à la conquête Française (1830 – 1839), **Revue Historique**,89ème Année , Tom CCXXXIII, 1965, p 351.

(٢٤) بيرم الخامس (محمد)، **صفوة الاعتبار**… مص س، ج٤، ص ١٠. أنظر أيضا مؤنس (حسين)، **تاريخ المغرب وحضارته** … مص س، م٢، ج II و III، ص ٣٨٠.

(٢٥) بيرم الخامس (محمد)، **صفوة الاعتبار**…، مص س.

(٢٦) الإسكندرية ثم مكة.

(٢٧) **صفوة الاعتبار**…، مص س، ج٤، ص ٤.

(٢٨) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٠.

(٢٩) بوحوش (عمّار)، **التّاريخ السّياسي للجزائر**…، مر س، ص ١٠٩.

(٣٠) الحسني الجزائري (بديعة)، **وما بدّلوا تبديلا**… مر س، ص ٣٤.

(٣١) مفكر سياسي فرنسي معاصر.

(٣٢) توماس هوبز: فيلسوف أنقليزي (١٥٨٨ – ١٦٧٩).

(٣٣) ميشال فوكو: فيلسوف فرنسي (١٩٢٦ – ١٩٨٤).

(٣٤) بيرم الخامس (محمد)، **صفوة الاعتبار**… مص س، ج٤، ص ١٠.

(٣٥) يذكر محمد بيرم الخامس الحدود وهي: الجهات الغربية والجنوبية الغربية للجزائر.

(٣٦) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٠.

(٣٧) الأميرة (بديعة الحسني)، **وما بدلوا تبديلا** … مر س، ص ٣٤.

(٣٨) بوحوش (عمار)، **التاريخ السياسي للجزائر**… مر س، ص ١٠٩.

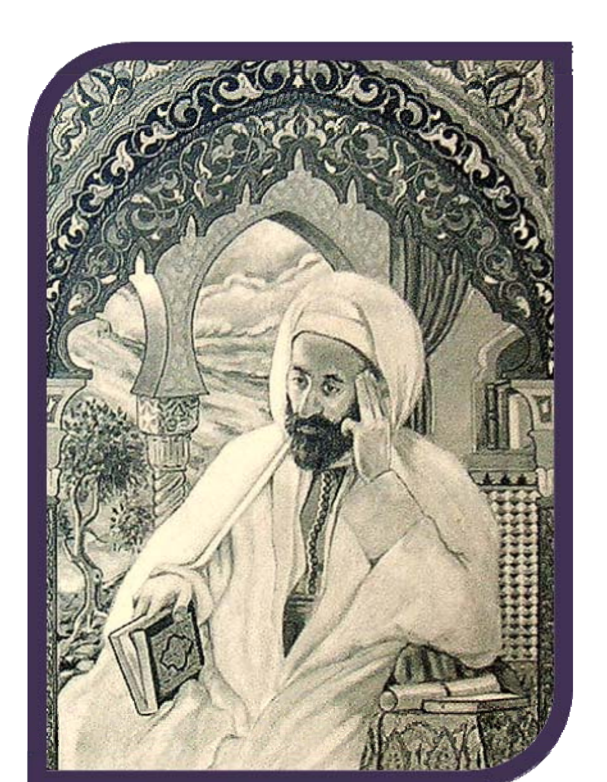
(٣٩) حرب (أديب)، **التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨ – ١٨٤٧)**، ج٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٣م، ص ٤١.

(٤٠) كانون الثاني في السنة السريانية وهي سنة شمسية يقابله شهر جانفي (يناير) في السنة الميلادية وهي الأخرى شمسية وشهر محرّم في السنة الهجرية وهي قمرية: البدوي (محمد)، **المنهجية في البحوث والدراسات الأدبية**، مر س، ص ٣٥.

(٤١) الأميرة (بديعة الحسني)، **وما بدلوا تبديلا** … مر س، ص ٥٣.

(٤٢) بوحوش (عمار)، **التاريخ السياسي للجزائر**… مر س، ج٤، ص ١١١.

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



التراث الباديسي بين السلفية والتجديد



بن ساحة بن عبد الله

أستاذ الثقافة والفنون الشعبية
جامعة المدية
الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بن ساحة بن عبد الله، التراث الباديسي بين السلفية والتجديد.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٢٨ – ٣٢.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

يتناول المقال قضية مهمة من القضايا التاريخية والتي تتعلق بالتراث الذي تركه لنا الشيخ عبد الحميد ابن باديس الذي استطاع أن يجمع بين النهج السلفي المعتدل وبين الحركة الجهادية، وفي هذا المقال سنحاول إماطة اللثام عن هذا الكنز ومعرفة النهج الذي كان ينتهجه الشيخ عبد الحميد ابن باديس في كتاباته، وكيف استطاع أن يجمع بين نهجين هما النهج السلفي الذي يركز على تصحيح العقيدة والقضاء على البدع، وبين النهج الاخر الذي يدعو إلى الجهاد في سبيل الله ومحاربة الاستعمار الفرنسي بكل الوسائل.

مُقَدِّمَةٌ

لقد ترك لنا الشيخ عبد الحميد ابن باديس تراثًا هائلاً من المصنفات العلمية التي تزخر بالقيم الفنية والجمالية التي لو تدارسناها اليوم وبتمعن لوجد فيها كل مصلح اجتماعي أو سياسي ضالته يهتدي بها، بحيث لو استقرأنا كتابات ابن باديس لوجدنا فيها المنهج الخاص الذي انتهجه الشيخ في دعوته الإصلاحية والبعد السياسي الذي أعطاه لحركته الإصلاحية، كما أنه جمع بين السلفية المعتدلة والحركية الجهادية، فنجد في كتاباته أنه كان يحارب الجهل وعبادة القبور والتوسل بالأضرحة، فقد كان يدعو إلى العودة على ما كان عليه السلف الصالح من ترك البدع وإحياء السنة النبوية، كما أن الشيخ ابن باديس قد شن هجومًا لاذعًا على المتصوفة خاصةً الطريقة التجانية، خاصةً في ما يسمى بقراءة الفاتح لما أغلق أو بعض الأوراد التي كانوا يعتبرونها مقدسة وقراءتها فيها من الأجر أكثر من قراءة القرآن الكريم فقد رد عليهم الشيخ خاصةً في كتابه الآثار الذي يسمى أثار ابن باديس الذي حققه وعلق عليه الدكتور عمار الطالبي.

أما في كتابه "العقائد الإسلامية" من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فقد ركز فيه على أهمية الالتزام بقواعد الإسلام الخمس ثم ركز على معنى الإسلام والإيمان، فقد كان يركز في دعوته على غرس مبادئ الدين الإسلامي في قلوب الناس، ويحارب الشعوذة والدجل، أما في الجهة المقابلة فقد كان يحارب الاستعمار الفرنسي، وهذا ما نجده جليًا في مجلة الشهاب، كما أنه كان مدافعًا عن فلسطين واعتبر أن رحاب القدس مثل رحاب مكة والمدينة، فقد جمع الشيخ في كتاباته بين السلفي الداعي للعقيدة الصحيحة، والمحارب للبدع والخرافات، المجاهد الذي جاهد بفكره وقلمه الاستعمار الفرنسي، كما أنه كان يكشف مخططات اليهود والصهاينة، وهذا ما سنكشفه من خلال تراثه العلمي الكبير الذي تزخر به الجزائر.

(١) حياة ابن باديس

يجدر بنا قبل أن نبدأ الكلام عن شخصية الإمام المجدد عبد الحميد ابن باديس أن نقدم لمحة عن حياته وتكوينه العلمي وذلك قبل ان نتكلم عن جوانب التجديد في الفكر الإصلاحي وجمعه بين السلفية والتجديد. ولد عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بن باديس في ديسمبر ١٨٨٩ في مدينة قسنطينة في الجزائر وأسرته مشهورة بالعلم والثراء والجاه، وأمه من أسرة مشهورة في قسنطينة تدعى زهيرة بن جلول بنت على بن جلول.

حفظ ابن باديس القرآن في السنة الثالثة عشر من عمره، وقد صلى التراويح في الجامع الكبير ثلاث سنوات متتابعة، وقد تعلم الشيخ ابن باديس العلم والأخلاق على يد الشيخ أحمد أبو حمدان لونيسي الذي كان منتميًا للطريقة التجانية. وحين بلغ الخامسة عشر من عمره زوجه أبوه سنة ١٩٠٤، وفي سنة ١٩٠٨ سافر ابن باديس إلى مدينة تونس وكان له من العمر تسعة عشر عامًا فانتسب إلى جامع الزيتونة فأخذ يتعلم على يد أكابر علماء الزيتونة، وفي سنة ١٩١٢ وعمره ثلاثة وعشرين سنة تخرج بشهادة التطويع، وعلم سنة واحدة في جامع الزيتونة على عادة المتخرجين في ذلك الوقت، ويعتبر الشيخ الطاهر بن عاشور من أهم الشخصيات الذين أثروا في الشيخ عبد الحميد بن باديس.[١]

(٢) عوامل تكون شخصية ابن باديس

من أهم العوامل الأساسية التي كونت شخصية عبد الحميد بن باديس، هي: الأسرة، والمدرسة، والقرآن الكريم:

١/٢- عامل الأسرة:

يعود الفضل الأول في تكوينه وتوجيهه بعد الله عز وجل إلى أسرته خاصة أبوه الذي رباه ووجهه وجهة أخلاقية وعلمية وحماه من المكاره صغيرًا وكبيرًا.

٢/٢- بيئة الدراسة:

وتأثير المربين من المعلمين والشيوخ الذين نموا استعداداته وتعهدوه بالتوجيه والتكوين، ويعترف الشيخ بفضل أساتذته عليه فيقول :"وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية... حمدان لونيسي القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها، وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله".(٢)

٣/٢- الشعب الجزائري: وما يحتويه هذا الشعب من استعدادات للخير ، وهو ما عمل على تنميته وتغليبه على جوانب النقص فيه

٤/٢- زملاؤه من العلماء: الذين ساعدوه منذ فجر النهضة على بروز نجمه أمثال الشيخ العربي التبسي و الشيخ الإبراهيمي و الشيخ مبارك الميلي

٥/٢- عامل القرآن الكريم: وهو العامل الذي فاق كل العوامل الأخرى وصاغ نفسه وهز كيانه واستولى على قلبه وناجاه ليلاً ونهارًا يستلهمه ويسترشده، فكان همه أن يكون رجالاً قرآنيين، ولذلك فإنه جعل القرآن الكريم قاعدة أساسية ترتكز عليها تربيته وتعليمه للجيل.

(٣) ابن باديس والدعوة السلفية

لو تتبعنا كتاب العقائد الإسلامية لوجدنا أن الشيخ ابن باديس كان يدعو إلى إصلاح العقيدة من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة، بل كان مصلحًا حتى في طريقة تناول موضوع العقيدة نفسها، فقد كانت كتب التوحيد والعقائد قبل ذلك يتشعب فيها البحث لأنها تحتوي على أفكار الفلاسفة المستمدة من الثقافات الأجنبية والديانات المختلفة، إضافة إلى كتب العقائد التي كانت تكتب وتحتوي على آراء المذاهب الدينية والفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج والمرجئة، إضافة إلى علم الكلام الذي امتلأت به كتب العقيدة بين الأشاعرة والمعتزلة، وانتشر الصراع بين الفرق الإسلامية، فألفت مؤلفات كثيرة في علم الكلام كل منها ينصر فرقة ويكفر أخرى، هذا كله دفع الشيخ ابن باديس إلى التكلم عن العقيدة الإسلامية بمنظور جديد وهو القرآن والسنة، وهي الطريقة المثلى في هداية الناس إلى معاني الإسلام والإيمان والإحسان والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء القدر.

لقد اتبع الشيخ ابن باديس الدعوة السلفية الرشيدة التي تعتمد على الكتاب والصحيح من السنة النبوية، والابتعاد عن تفسيرات المذاهب المختلفة، فقد دعا إلى ضرورة العودة إلى إصلاح العقائد الإسلامية وشرح المصطلحات، وحل القضايا على نمط سلفي واضح بصريح نص الكتاب والسنة الصحيحة، والابتعاد كل البعد عن آراء الفلاسفة، فقد اختار في تعليم العقيدة في التوحيد هي طريقة الشارع الحكيم من خلال مراعاة الفطرة الإنسانية السليمة، وعلى هذه الطريقة سار الإمام ابن باديس في وضع العقائد على أسس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، فقد كان يدعو إلى إحياء السنة وإماتة البدعة.[٣] وقد أورد الدكتور عمار الطالبي في كتاب "آثار ابن باديس" أقواله أنه كان يدعو إلى الإسلام الخالص والعلم والصحيح و اتباع هدي السلف الصالح والابتعاد عن البدع والخرافات ومفاسد العادات، وقد ذكر ابن باديس أنهم وصفوا بالوهابيين رغم أنه أنكر أنه قد رد عليهم بقوله :"ولا والله ما كنت أملك يومئذ كتابًا واحدًا لابن عبد الوهاب ولا أعرف من ترجمة حياته إلا القليل ووالله ما اشتريت كتابًا من كتبه".[٤]

(٤) حرية العقل عند ابن باديس

رغم أن دعوة ابن باديس كانت دعوة سلفية، فقد تأثر بالحركة الوهابية، إلا أن هذا لم يمنعه من حرية العقل ومسايرة الاجتهاد، فعندما نقرأ بعض كتبه نلمس فيها فنية وجمالاً فلو نتصفح على سبيل المثال كتاب آثار ابن باديس الذي صنفه الدكتور عمار الطالبي فقد ذكر أنه كان يتبرم كثيرًا من بعض المفسرين ويضيق صدره من تأويلاتهم فقد ذكر في معرض حديثه عن شيخه محمد النخلي بتونس لما قال :"وذلك أني كنت متبرمًا من بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله فذاكرت يومًا الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي :"اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه الآراء

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المضطربة، يسقط الساقط ويبقى الصحيح، وتستريح.. فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقًا واسعة لا عهد له بها"[٥]

(٥) موقف ابن باديس من التفسير

لقد فسر كثير من العلماء القرآن الكريم إما تفسيرًا بلاغيًا أو علميا أو بتوضيح معانيه وشرح ألفاظه، ويعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس واحدًا ممَنْ فسر القرآن الكريم فأتقن تفسيره وبيانه، وخرج على عادة المفسرين السابقين فقد كان يتميز بالاجتهاد، ولم يكن يقبل كل شيء يقرأه أو يسمعه، بل كانت لديه شخصية نقدية ينقد كل ما لا يقبله عقله أو يراه منافيًا للشريعة الإسلامية، فقد كان شخصية ثائرة على الفرق المذهبية التي تدخل في تفسير القرآن الكريم الاختلافات المذهبية وجدل علماء الكلام الذي لا يستفيد منه طالب العلم أو الباحث عن تفسير كلام الله، لأن هذه الاختلافات قد تدخل القارئ في متاهات لا يستفيد منها بشيء غير مزيد من الاختلاف وتوسيع الهوة بين المسلمين، وكأن الشيخ ابن باديس بهذه الفكرة كان يريد لم شمل المسلمين والدعوة إلى الوحدة ونفي التفرقة، ويريد كذلك جلب الاهتمام إلى حقيقة القرآن الكريم وفهم معانيه وتطبيقها في الواقع أما الخوض في المجادلات الكلامية والاختلافات المذهبية فقد تبعد القارئ عن الهدف الأساسي لقراءة القرآن وفهم معانيه، فكان الشيخ يريد الفهم الحقيقي للقرآن الكريم بأنه رسالة ودعوة إلى التحرر من الاستعمار ونبذ دعاة التشبث بالشكل وترك الجوهر، وإنما دعوة للتفقه والتعلم والتفسير الحقيقي للقرآن الكريم وفهم معانيه. فقد جاء في كتاب أصول الهداية[٦] أن الشيخ ابن باديس فسر ثمانية عشر من سورة الإسراء، جمعت أصول الهداية وقواعد العقائد الحقة، والحقائق العلمية، والأعمال المستقيمة، والكلمات الطيبة، والأخلاق الكريمة، فنلاحظ في تفسيره هذا قدرته التفسيرية العالية وتفننه العلمي الكبير فهو يورد الأحاديث، ويتكلم في أحكامها، ثم يعرج بعد ذلك إلى مباحث في علم النحو أو البلاغة، وأحيانا يورد القراءات القرآنية ثم يتكلم عن المسائل الفقهية، ثم يتكلم في رقائق القلوب وخبايا النفوس.[٧]

(٦) موقف ابن باديس من التقليد

إن الشيخ عبد الحميد بن باديس وهو مازال طالبًا يدرس في جامع الزيتونة ثار على التقليد، وأراد أن يرسم لنفسه منهجًا خاصًا به فعندما قال: "وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد" وكأنه لم يكن مقتنعًا بالتقليد فنلمس في أفكاره حرية العقل والاجتهاد، فهو في الحقيقة فتح باب الاجتهاد الذي أغلق بعد ظهور المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة فقد كانت له نزعة عقلانية تدعو إلى الاجتهاد، فقد كان شديد الإعجاب بالدراسات الأصولية الشرعية، التي تكون وتصوغ العقل الأصولي، لأن المصلح الاجتماعي يجب عليه أن تكون لديه عقلية أصولية أي ينطلق من إصلاحاته من قواعد أصول الفقه، لأن هذه المعاني تقتضي التقديم والتأخير في بعض مواقع الإصلاح، فهذا العقل الأصولي يعتبر عنصرًا مهمًا لمَنْ يباشر الإصلاح الاجتماعي أو الجهادي فقد اعتمد الشيخ في دراسته على كتاب الموافقات للشاطبي،[٨] كما أن هناك نزعة إنسانية تدعو إلى عالمية الرسالة وجمالها.

(٧) النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس

لقد كان ابن باديس يدعو إلى خدمة الوطن والأمة هو خدمة للإنسانية قال ابن باديس: "إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحدب عليها في جميع أوطانها واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده، ونرمي إليه ونعمل على تربيتنا وتربية من آلينا إليه، ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة، فوجدت التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع".[٩] وقد استمد ابن باديس هذه النزعة الإنسانية من التصور القرآني للحقيقة الإنسانية، تلك الحقيقة التي احترمت الكائن البشري وأولته الدرجة الأولى من الكرامة، وأوضحت للناس اجمع أن بني الإنسان من طينة واحدة، وأن هذه الطينة تتساوى فيها جميع الأجناس، إن القرآن الكريم قد صرح بالكرامة الإنسانية تصريحًا لا تشوبه شائبة شك قال تعالى: { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ } سورة الإسراء: الآية (٨٠).

كما أن الشيخ ابن باديس قد وظف القرآن الكريم من خلال اهتمامه بالنزعة الإنسانية فرغم أن دعوته كانت سلفية متأثرة بالحركة الوهابية في السعودية، إلا انه لم يكن ضيق التفكير، بل كان تفكيره واسعًا ينظر نظرة شاملة وذلك لأنه فهم حقيقة القرآن الكريم، وقد سبق وأن ذكرنا أنه كان ينتقد بشدة مَنْ يفسرون القرآن الكريم تفسيرًا بعيدًا عن الواقع ويتيهون فيه في متاهات من المجادلات الفكرية والاختلافات المذهبية، بل أن ابن باديس لم يكن من هؤلاء فهو قرأ قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ} سورة النساء: الآية(١). الشيخ ابن باديس فهم أن أصل البشرية واحد، فهم كان يدعو إلى التعاطف والتراحم والمحبة والأخوة، لأن الله تعالى خاطب بني آدم، فالنظرة الجمالية التي كان يتميز بها الشيخ ابن باديس هو أنه لما يخدم شعبه ووطنه فيعتبر ذلك خدمة للبشرية جمعاء لأنهم كلهم إخوة متحابين.

وكذلك ابن باديس استمد هذه النظرة الإنسانية من القرآن الكريم مستندًا في ذلك إلى قوله تعالى: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيْعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيْعًا} سورة المائدة: الآية (٣٢). فاعتبر القرآن الكريم الاعتداء على نفس واحدة هو بمثابة الاعتداء على البشرية كلها، ولإحياء نفس هو إحياء لكل البشرية، فمن هذا المنطلق انطلق الشيخ ابن باديس في نظرته للإنسانية، فهو عندما يقدم نفعًا لشعبه فهو بمثابة إحياء لهذه النفس، فكأنما أحيا كل البشرية فبتقديم النفع لواحد من أفراد الأمة هو إحياء لكل البشرية

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

جمعاء، وقتل واحد من الناس وذلك عن طريق تركه يتخبط في الجهل هو بمثابة الاعتداء عليه، الذي يعتبر اعتداء على كل البشرية جمعاء.

دعا الإسلام إلى التعايش السلمي بين كل البشر واحترام الأديان قال تعالى: "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ" (الكافرون: ٦) وقوله تعالى: "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا" (البقرة: ٨٣) فأمر الإسلام باحترام كل الأديان ودعا إلى التعايش السلمي بين مناهج الناس في الحياة كلها، واعتبر الاختلاف أمر طبيعي بين الناس قال تعالى: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً" (سورة المائدة: ٤٨) وهكذا فهم ابن باديس هذه الحقيقة الإنسانية وحللها، وانتهى إلى أن الحقيقة الإسلامية هي حقيقة دينية إنسانية فقال: "علمنا أنه دين الإنسانية... فإذا عشت له فإني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وأفكارها"[١٠] فليس هناك تناقض بين حب الوطن وحب الإنسانية بل الإنسان إذا أحب وطنه فإنه يحب الإنسانية، وكانت الأرض كلها وطنًا له، فلا يمكن للإنسان أن يحب الوطن الأكبر إلا إذا أحب الوطن الأصغر. وأوضح ابن باديس أنه يهدف إلى التقريب بين جميع العناصر الإنسانية رغم اختلاف الأديان والأجناس وهذا بصفته إنسانًا مسلمًا ووضح ذلك قائلاً: "أنا كمسلم أدين بالأخوة الإنسانية وأحترمها في جميع أجناسها وأديانها وأسعى للتقريب بين جميع عناصرها."[١١]

(٨) ابن باديس الثائر على الجمود

عندما نستقرئ كتابات ابن باديس نجده أنه انتهج لنفسه منهجًا خاصًا به في دعوته الإصلاحية ذات البعد السياسي، فقد أنشأ المدارس القرآنية وذلك بغية تخريج جيل قرآني، مع ربط الأجيال بالقرآن الكريم، فرغم الدعوة السلفية التي كان يمتاز بها ابن باديس إلا أنه لم يكن منغلقًا على نفسه جامدًا على النصوص، فقد أسس في سنة ١٩٢٥ صحيفة المنتقد، فقد أراد من خلال هذه الصحيفة انتقاد كل ما يحتاج إلى انتقاد وتكسير الحاجز الذي يعتقده الصوفية عندما يرددون اعتقد ولا تنتقد، وكأنه أراد أن يبرز حقيقة إسلامية وهي حق انتقاد الغير، وبتأسي صحيفة الشهاب وكأنه أراد أن يبرز المشعل الذي نسير به في الطريق المظلم وبذلك فهو يثور ضد كل قديم متحجر،[١٢] بل رغم دعوته السلفية إلا أنه مقابل ذلك كان مجددًا بمعنى الكلمة وباشر الإصلاح الديني والاجتماعي خاصةً بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين، وكان يحتك بالأحزاب السياسية داعيًا إلى الاتحاد مبشرًا بالتغيير، كما أنه كان يشارك في كل التجمعات والمؤتمرات التي تدافع عن الهوية العربية والإسلامية للجزائريين.

وقد أشارت الدكتورة فاطمة الزهراء سيدهم في دورية كان التاريخية، العدد الثامن عشر في مقالها بعنوان "أساليب عبد الحميد ابن باديس في مواجهة الإدماج"،[١٣] إلى أنه لم يكن منضويًا تحت أي حزب ورغم ذلك فقد شارك مع بعض العلماء في المؤتمر الإسلامي للدفاع عن القضية الوطنية، كما أنه انتقل إلى باريس مع الوفد من أجل التعريف بمطالب الأهالي، كما أنه سعى إلى تأسيس المطبعة الجزائرية الإسلامية في قسنطينة سنة ١٩٢٥ التي جعلها وسيلة لطبع جريدة الشهاب ثم البصائر لتكون وسيلة للإصلاح والدعوة، كما نلاحظ أن الشيخ ابن باديس كان يحاول دائمًا الابتعاد قدر الإمكان عن الدائرة الإدارية الفرنسية حتى لا يتعرض للضغط والابتزاز من الاستعمار الفرنسي.

كما يمكن أن نقول؛ أن الشيخ ابن باديس قد انتفع كثيرًا من علاقة عائلته مع الإدارة الاستعمارية، كما أن الشيخ ابن باديس كانت له نظرة إصلاحية أشمل من نظرة العلماء الآخرين، فبينما انحصر دور العلماء الإصلاحيين في المؤتمر الإسلامي في تحرير الدين عن الدولة الفرنسية وعن تعميم اللغة العربية، فإنه قد أشار الدكتور خالد بوهند في مقال له بعنوان "الإمام ابن باديس وموقفه من الاندماج"[١٤] إلى أن ابن باديس قدم مطالب العلماء التي وافق عليها المؤتمر وهي:

- اعتبار اللغة العربية لغة رسمية كالفرنسية.
- تسليم المساجد للمسلمين.
- تأسيس كلية لتعليم الدين.
- تنظيم القضاء على يد هيئة إسلامية.
- تسوية نواب الجزائريين بنواب الفرنسيين في جميع المجالس.
- المساواة في الحقوق والواجبات.

خاتمة

ونستخلص مما سبق؛ أن الشيخ عبد الحميد ابن باديس أثرت فيه عوامل كثيرة منها عامل الأسرة التي جعلت من شخصيته شخصية إسلامية ثائرة على الاستعمار، كما أثرت فيه كذلك بيئة الدراسة بفضل زملائه وشيوخه الذين صقلوا شخصيته وأثروا فيها، كما أن القرآن الكريم كان له الدور الأساسي في تكوين شخصيته، ولذلك فإنه جعل القرآن الكريم قاعدة أساسية ترتكز عليها تربيته وتعليمه للجيل، كما أن العلماء أمثال الشيخ مبارك الميلي، والشيخ الإبراهيمي ساعدوه في صقل هذه الشخصية الفريدة من نوعها.

ويتضح من العرض السابق؛ أن الشيخ ابن باديس كان يدعو إلى إصلاح العقيدة من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة، بل كان مصلحًا حتى في طريقة تناول موضوع العقيدة نفسها، وهذا ما يبين النهج السلفي الذي كان ينتهجه في طريقة إصلاحه للمجتمع، وهذا لم يمنعه من حرية العقل ومسايرة الاجتهاد. ويعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس واحدًا ممن فسر القرآن الكريم فأتقن تفسيره وبيانه، وخرج على عادة المفسرين السابقين فقد كان يتميز بالاجتهاد، ولم يكن يقبل كل شيء يقرأه أو يسمعه بل كانت لديه شخصية نقدية ينقد كل ما لا يقبله عقله أو يراه منافيًا للشريعة الإسلامية، إن الشيخ عبد الحميد بن باديس وهو مازال طالبًا

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

يدرس في جامع الزيتونة ثار على التقليد، وأراد أن يرسم لنفسه منهجًا خاصًا به، كما أن الشيخ ابن باديس قد وظف القرآن الكريم من خلال اهتمامه بالنزعة الإنسانية فرغم أن دعوته كانت سلفية متأثرة بالحركة الوهابية في السعودية إلا أنه لم يكن ضيق التفكير، بل كان تفكيره واسعًا ينظر نظرة شاملة وذلك لأنه فهم حقيقة القرآن الكريم.

الهوامش:

(١) عمار الطالبي، **آثار ابن باديس**، المجلد الأول، الشركة الجزائرية، الجزائر، ص٧٢.

(٢) عمار الطالبي، نفسه، ص٧٧.

(٣) الشيخ عبد الحميد بن باديس، **العقائد الإسلامية من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية**، تعليق محمد الصالح رمضان، تقديم محمد البشير الإبراهيمي، دار الفتح، الشارقة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص١٠.

(٤) الدكتور عمار الطالبي، **آثار ابن باديس**، المجلد الثاني، الشركة الجزائرية، الجزائر ص٢٨.

(٥) عمار الطالبي، **آثار ابن باديس**، المجلد الأول، الشركة الجزائرية، الجزائر، ص٧٨.

(٦) الشيخ عبد الحميد بن باديس، **أصول الهداية**، ضبط وتعليق علي بن الحسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، دار الريان، الإمارات العربية المتحدة، ص٦.

(٧) الشيخ عبد الحميد بن باديس، نفسه، ص٠٦.

(٨) عبد الرشيد زروقة، **جهاد ابن باديس بالجزائر ضد الاستعمار الفرنسي** (١٩١٣-١٩٤٠)، دار الشهاب بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص٨٨.

(٩) محمد بهي الدين سالم، **ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير**، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ص١٢٥.

(١٠)محمد بهي الدين سالم، نفسه، ص١٢٦.

(١١)محمد بهي الدين سالم، نفسه، ص١٢٧.

(١٢)محمد الميلي، **ابن باديس وعروبة الجزائر**، وزارة الثقافة، ٢٠٠٧. ص١٢.

(١٣)الدكتورة فاطمة الزهراء سيدهم، **"أساليب الإمام عبد الحميد ابن باديس في مواجهة سياسة الإدماج"**، دورية كان التاريخية، العدد الثامن عشر؛ ديسمبر ٢٠١٢، ص١٣٥.

(١٤)خالد بوهند، **"الإمام ابن باديس ومواقفه من الاندماج"**، دورية كان التاريخية، العدد التاسع عشر؛ مارس ٢٠١٣، ص٤٦.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





النزاع الفرنسي ـ الأمريكي
حول حرية التجارة في المغرب



د. محمد مزيان

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
فاس – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد مزيان، النزاع الفرنسي – الأمريكي حول حرية التجارة في المغرب.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٣٣ – ٤١.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

لم تبادر الولايات المتحدة الأمريكية بالاعتراف بالحماية الفرنسية على المغرب سنة ١٩١٢ كما فعلت الدول الامبريالية الأخرى. بل أرجأت الأمر إلى غاية ١٩١٧ وفق شروط محددة، أهمها حماية حقوق مواطنيها في المغرب كما هو منصوص عليه في الاتفاقيات الثنائية الموقعة سلفًا مع سلاطين هذا البلد، والحفاظ على مبدأ المساواة الاقتصادية "مبدأ الباب المفتوح" بين جميع الدول كما أكد عليه ميثاق الجزيرة الخضراء لسنة ١٩٠٦. مما ترتب عنه تنامي التجارة الأمريكية بالمغرب ومنافستها للتجارة الفرنسية خاصة بعد الإنزال الأمريكي ٨ نونبر(نوفمبر) ١٩٤٢. أمام هذه المعطيات سنت الإقامة العامة مجموعة من الظهائر لتقنين عمليتا الاستيراد والتصدير وحماية مصالح المعمرين الفرنسيين من الزحف التجاري الأمريكي. الشيء الذي اعترضت عليه الإدارة الأمريكية، عن طريق اللجوء إلى محكمة العدل الدولية للفصل في هذا النزاع. فيما يسمى بـ "قضية حقوق الرعايا الأمريكيين في المغرب". وعليه يحاول هذا المقال رصد وتتبع مسار هذا النزاع القانوني في ردهات محكمة العدل الدولية وقرار هذه الأخيرة، وردود الفعل جميع الأطراف المترتبة عن هذا القرار.

مُقَدِّمَة

تحيلنا مختلف المعاهدات التي وقعت بين المغرب والولايات المتحدة الأمريكية على الاهتمام الأمريكي بالتجارة مع المغرب، لهذا اتخذ التوغل الأمريكي في هذا المجال منذ البداية شكلاً اقتصاديًا تطور مع توقيع معاهدة الحماية الفرنسية. كما يمثل الاتفاق الاقتصادي "مورفي- جيرو" في فبراير ١٩٤١ خطوة ناجحة لحكومة واشنطن في سياستها الاقتصادية في شمال إفريقيا التابعة تقليديا لبريطانيا وفرنسا.(١) وهو ما يعني رغبة الولايات المتحدة الأمريكية التغلغل في دائرة نفوذ استراتيجية داخل النصف الغربي للمعمورة، وهي دائرة يجب أن يقصى منها آخرون، كما يستدعي النفوذ الاستراتيجي فيها التحكم الاقتصادي كذلك. من جانب آخر أقر مؤتمر الجزيرة الخضراء الحضور الاقتصادي للولايات المتحدة عن طريق دسترة الباب المفتوح حيث كرست حضورها الاقتصادي عن طريق المنافسة الاقتصادية.

أولاً: أسس النزاع الفرنسي الأمريكي حول حرية التجارة في المغرب

تأسست الدبلوماسية الأمريكية ابتداء من سنة ١٩١١ خلال إدارة طافت (١٩٠٩- ١٩١٣)(٢) على القوة الاقتصادية والمالية للولايات المتحدة في العالم، بحيث بحثت عن تطوير مصالحها التجارية والاستثمارات الأمريكية عبر العالم، وتعويض قذائف المدافع بالدولار أي دبلوماسية الدولار حسب تعبير "طافت". مما ترتب عنه ارتفاع نسبة الاستثمارات الأمريكية بإفريقيا سنة ١٩١٤ إلى ١٣ مليون وبلغ سنة ١٩٤٠، حوالي ١٢٤ مليون دولار فيما لم يتجاوز مليون دولار سنة ١٨٩٧، متجاوزة بذلك نسبة الاستثمارات

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

الأمريكية في مناطق أخرى من العالم.[٣] وهو ما اعتبره جابريل بيو، تهديدا للسيادة الفرنسية.[٤]

غير أن الأمريكيين كانوا مهتمين بدعم توسعهم الرأسمالي ولم يقبلوا الحماية الفرنسية على المغرب نظرا لعدة اعتبارات سياسية واستراتيجية واقتصادية تماشيا مع السياسة التقليدية للولايات المتحدة الأمريكية التي تمنع الحكومة الفدرالية المشاركة في تسوية المشاكل السياسية الخاصة بأوربا وهو ما يتمظهر في رفض الولايات المتحدة الأمريكية الانخراط في الاتفاق الفرنسي الألماني ٤ نونبر(نوفمبر) ١٩١١ حول المغرب، خاصةً ما يهم الحقوق التجارية وتنظيم القضاء،[٥] فالأكيد أن انخراط حكومة واشنطن في هذا الاتفاق كان سيدخل تعديلات في الحقوق المخولة لها بناء على المعاهدات السابقة الموقعة بينها وبين المغرب وهو ما كانت ترفضه بشدة.

ففي مذكرة مؤرخة بـ ٢ يناير ١٩١٧ اقترح كاتب الدولة في الخارجية "لانزين Lansing " التمييز بين الحماية الفرنسية التي ستعترف بها الولايات المتحدة الأمريكية وبين الامتيازات القضائية والحمائية التي تستوجب مناقشات ومداولات جديدة وموافقة مجلس الشيوخ.[٦] إنها وجهة نظر تعبر عن تشبث الولايات المتحدة الأمريكية بامتيازاتها الحقوقية والتجارية في المنطقة الفرنسية. وهو ما يبرز أن التنافس الفرنسي الأمريكي حول المغرب لم يتوقف باعتراف حكومة واشنطن بالحماية الفرنسية على المغرب بل ظلت تلوح دائما بمبادئ مؤتمر الجزيرة الخضراء مما سمح لها بتطوير تجارتها معه،[٧] خاصة خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨) حيث أصبحت المزود الأساس للمغرب بمجموعة من المواد الشيء الذي انعكس على تطور بنية الصادرات والواردات المغربية.

كما طورت الولايات المتحدة الأمريكية مبادلاتها التجارية مع المغرب ما بين (١٩١٢- ١٩٣٩)، حيث بلغت حصة الواردات المغربية (٠,٦ %) من النسبة العامة للواردات المغربية سنة ١٩١٣ وهي نسبة غير مرضية، غير أنه في سنة ١٩٣٩ تجاوز هذا الرقم عتبة (٥,٩%) مما جعل الولايات المتحدة الأمريكية تحتل الرتبة الثانية بعد فرنسا، كما أن اندلاع الحرب العالمية الثانية سمح لها بأن تصبح هي المزود الرئيس للمغرب. فلم تشكل لها الحماية عائقًا حيث استغلت مبدأ الباب المفتوح وكان وسيلتها الفعالة في الاختراق الاقتصادي.[٨] وبدت وكأنها تزحف على أنقاض الإمبراطوريات الاستعمارية.[٩]

أصبح المغرب منذ أربعينيات القرن الماضي ساحة اختبار بالنسبة للأمريكيين لتجريب مختلف الاستراتيجيات بهدف تحقيق تغلغل اقتصادي وعدم السماح لفرنسا بالانفراد بالمنطقة. فمن التلويح بالشعارات الرنانة كالحرية والمبدأ الشعوب في تقرير المصير، إلى الضغط على الإقامة العامة من أجل تسريع وثيرة الإصلاح ودعم الوطنيين وقبل هذا وذاك، استعمال مبدأ الأمة ذات الأفضلية، بهذه الأوراق استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية الضغط على فرنسا حسب ما تقتضيه مجريات الأحداث.

يتضح أن المغرب كان مفتاحًا للانتشار الاقتصادي السريع الأمريكي نظرًا لموقعه الاستراتيجي وعمقه التاريخي وموارده الاقتصادية والتجارية. بحيث وضع على رأس الطموحات الاقتصادية الكبرى لواشنطن، فغداة الإنزال الأمريكي بالشواطئ المغربية، زار المغرب عدد كبير من رجال الأعمال الأمريكان وخرجوا بخلاصة أساسية مفادها أن المغرب يقف على بُعد خطوات من تحقيق التطور التجاري والصناعي والفلاحي، وهو ما يمكن تحقيقه.[١٠] حيث اقترحت إحدى هذه البعثات في خريف ١٩٤٤ دراسة فورية لشروط عودة المغرب لإقامة اقتصاد معقلن ووسائله متوفرة مما يسمح بمشاركة كبيرة للقطاع الخاص في التعاملات الحكومية، وفي نفس الاتجاه قامت الغرف التجارية الأمريكية بمضاعفة عروضها للتجار المحليين بأن يصبحوا وكلاء تجاريين معتمدين لها.[١١]

أضف إلى ذلك تحول عدد من الجنود الأمريكيين المرابطين بالقواعد العسكرية في المغرب، إلى تجار وأصحاب مشاريع بعد أن نزعوا عنهم لباس الجندية، وأسسوا وكالات تجارية حققت أرقام معاملات كبيرة بالإضافة إلى تمتعهم بالحقوق والامتيازات التي خولتها لهم الاتفاقيات القديمة كمواطنين أمريكيين. وهو ما أزعج الإقامة العامة التي رأت في ذلك منافسة لها بعد أن تضررت تجارتها جراء وقوعها في مجموعة من الأزمات الاقتصادية والمالية الحقيقية. خاصة بعد أن أججت البنود الاقتصادية لميثاق الحلف الأطلسي رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في وضع مخطط إعادة تقسيم المواد الأولية حيث لا يمكن تجاهل المواد المنجمية في المغرب، كما أنه في بداية أكتوبر ١٩٤٥ استعلمت باريس حول معلومات مفادها أن المصالح الاقتصادية الأمريكية تدرس الكيفية التي يمكن بها لفرنسا أن تترجم روح معاهدة الجزيرة الخضراء، لضمان حرية المنافسة ليس فقط بين المواد الفرنسية والأجنبية فيما يخص المبادلات التجارية بل حتى في المجال الصناعي واستثمار رؤوس الأموال.[١٢]

بناءً عليه أعلن الجنرال "جوان" في دجنبر(ديسبر) ١٩٤٧: "أن السياسة الأمريكية لم تتغير منذ مؤتمر الجزيرة الخضراء فرغم إعلان الولايات المتحدة الأمريكية باحتفالية شديدة أنها ليس لها مصالح سياسية بالمغرب إلا أنها حافظت برعاية وحرص كبيرين على مصالح محمييها والدفاع عنهم، بموجب الحقوق التي تحفظها لهم المعاهدات لهذا لم تعترف بالحماية، كما كتب جوان إلا في حدود امتيازات مقيمية حتى لا تضطر إلى إعادة تحديد بعض حقوقها".[١٣] وأضاف: إن التناقض الموجود بين الهدوء السياسي والشراسة الاقتصادية والتجارية مشحوذ بإمكانية التبادل في مشروع مارشال، حيث تؤسس مصالح المحميين الأمريكيين تقليديا الأنشطة الأساسية للقنصلية العامة بالدار البيضاء".[١٤]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

أعاد التحريض السياسي لموظفي القنصلية الأمريكية ابتداءً من صيف ١٩٤٧ بسرعة الانشغالات الاقتصادية لتصبح ذات أهمية قصوى؛ فحدة طموح المحميين الأمريكان ونشاط القناصل طرح مشاكل عديدة وصريحة للإقامة العامة. وفي هذا الإطار نجد اتهام "رودس" للسلطات الفرنسية بتحويل المساعدات المالية الأمريكية التي تلقاها المغرب في إطار برنامج مشروع مارشال، كما تحتكر التجارة وتمنع حقوق الأمريكيين التي تحفظها لهم المعاهدات الدولية، وعليه فقد دعا لجنة المالية التابعة لمجلس الشيوخ منع تقديم القروض الموجهة إلى المغرب.[١٥] مما يبرز أن هدف الحكومة الأمريكية هو رؤية مغرب متطور على المستوى الاقتصادي وكذا السياسي وفي نفس الآن الحفاظ على الحقوق الأمريكية بالمغرب.[١٦]

عملت الإدارة الفرنسية إلى بداية الحرب العالمية الثانية على مراعاة النصوص الدولية التي كانت تربط المغرب بالخارج. لكن الحرب وظروفها الاستثنائية اضطرتها إلى تطبيق قوانين خاصة محافظة على وضعية البلاد الاقتصادية غير أن العمل بهذه القوانين استمر إلى ما بعد الحرب بدعوى قلة العملة الأجنبية وتقنينها فكان من شأن ذلك أن يمس بحرية التجارة وبالتالي بمصالح الرعايا الأمريكيين الذين تمتعوا بامتيازات واضحة حسب مقتضيات المعاهدات السابقة،[١٧] أضف إلى ذلك تزايد عددهم بالمغرب بعد نهاية الحرب الأخيرة.[١٨]

أمام هذه المعطيات قررت الإقامة العامة في ١٩٤٧ إلغاء نظام حرية المبادلات - الواردات دون أداء الرسوم- لذلك قام التجار الأمريكان المستقرون بالمغرب بحملات قوية بواشنطن خاصة في الأوساط البرلمانية تدعو الحكومة الأمريكية إلى أخذ تدابير مماثلة كإلغاء مساعدة مارشال للحصول على نظام جمركي ملائم.[١٩] وفي ١١ مارس ١٩٤٨ دخل الخلاف بين التجار الأمريكيين والإدارة الفرنسية في طوره الحاسم عندما نشرت الإدارة الفرنسية لائحة بالبضائع التي يمكن للأمريكيين استيرادها بكل حرية بدعوى المحافظة على قيمة الفرنك. ولكن المبادلات التجارية التي كانت تجري عبر طنجة اضطرتها في دجنبر(ديسمبر) من السنة نفسها إلى الرجوع عن القرار الأول ومنع الاستيراد إلا بإذن خاص. لذلك طالب التجار الأمريكيون بتطبيق الحقوق الاستثنائية التي تخولها إياهم معاهدة ١٨٣٦ ومعاهدة الجزيرة الخضراء وطلبوا من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية التدخل لإنهاء المشكل. وبعد أخذ ورد بين واشنطن وباريس دام عامين اتفق الطرفان سنة ١٩٥٠ على عرض الخلاف على محكمة العدل الدولية.[٢٠]

ثانيًا: تدخل محكمة العدل الدولية

مكننا أرشيف محكمة العدل الدولية من الاطلاع على مجموعة من المراسلات الخاصة بهذه القضية فبدءًا بالمراسلات التي بعثت بها الحكومة الفرنسية حول رفعها دعوى ضد الولايات المتحدة الأمريكية خاصة بحقوق رعاياها المقيمين بالمغرب وكذلك تحديد تواريخ تقديم المذكرات الدفاعية من الطرفين بالإضافة إلى موقف كل من إسبانيا وإنجلترا من هذه القضية.

بالرجوع إلى مجريات الأحداث فقد سلم أوليفر ماني (*Olivier Manet*) إلى المحكمة مراسلة بتاريخ ٢٨ أكتوبر ١٩٥٠ حول قرار الحكومة الفرنسية رفع عدوى ضد الحكومة الأمريكية بشأن حقوق التجار الأمريكيين المقيمين بالمغرب. وقد تم اختيار أندري كرو (*Andre Gros*) وبول روتر (*Paul Reuter*) مساعد المستشار القانوني لوزارة الخارجية الفرنسية، كنائبين عن حكومة الجمهورية الفرنسية في هذه القضية.[٢١] ووفقًا للمادة (٤٠) من الفقرة الثانية من النظام الأساسي للمحكمة الدولية فقد تم إخبار الحكومة الأمريكية من طرف كتابة المحكمة بإيداع ملف القضية.[٢٢] هو ما أكده المسؤول عن الإطار القانوني بوزارة الخارجية الأمريكية (*Kerno*) فور تسلمه قرار المحكمة في ١٣ نونبر(نوفمبر) ١٩٥٠.

كما بعث محامي فرنسا رسالة إلى نائب رئيس المحكمة مؤرخة بـ ١٥ نونبر ١٩٥٠ جاء فيها : "بعد موافقة حكومة الولايات المتحدة، فإن حكومتي تود معرفة الآجال المحددة للنظر في هذه القضية".[٢٣] بناءً على ذلك وحسب اتفاق الطرفين حددت المحكمة التواريخ التالية:

- تقديم المذكرة الفرنسية في فاتح مارس ١٩٥١.
- تقديم المذكرة الأمريكية في ١ يونيو١٩٥١ .
- الرد الفرنسي في ١ شتنبر(سبتمبر) ١٩٥١.
- رد الولايات المتحدة الأمريكية في ١ نونبر(نوفمبر) ١٩٥١.[٢٤]

وقد علقت الأوساط الفرنسية أهمية كبرى على نتيجة حكم محكمة لاهاي ويرجع سبب هذا الاهتمام إلى توتر العلائق بين المغرب وفرنسا واحتمال عرض الخلاف بينهما على الهيئة الأممية في دورتها المقبلة، إذا لم تعمل فرنسا على تفهم المطالب المغربية.[٢٥] وقد تلخصت النظرة الفرنسية بحسب المذكرة التي رفعتها حكومة باريس إلى المحكمة شهر نونبر(نوفمبر) ١٩٥٠ في النقط التالية:

- أن الحقوق التي اكتسبها رعايا الولايات المتحدة الأمريكية في المغرب بمقتضى المعاهدة المغربية الأمريكية لسنة ١٨٣٦ قد فات أوانها بسبب العلاقات الدولية الراهنة وأن انجلترا نفسها قد تنازلت عن تلك الحقوق مثلما تنازلت اسبانيا قبل ذلك.
- أن نصوص معاهدة الجزيرة نفسها قد استبقتها أحداث ففقدت كثيرًا من أهميتها منذ ١٩١٢.
- أن وضع الباب المفتوح الذي نصت عليه معاهدة الجزيرة الخضراء يتنافى مع فصول معاهدة "بريتن وودز" التي تخول للدول أن تتخذ الإجراءات الضرورية لحماية اقتصادها وعملتها المحلية.[٢٦]

ومن نافلة القول؛ إن سلطات الحماية وجهت الاقتصاد المغربي وجهة خاصة بإقدامها على اتخاذ إجراءات لفائدة أرباب الأموال الفرنسيين واجتهدت ليصبح المغرب من هذه الناحية معزولا عن

ISSN: 2090 – 0449 | علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

بقية أسواق العالم وليس إخضاع الواردات على المغرب لنظام الرخص الإدارية وربط الفرنك المغربي بالفرنك الفرنسي إلا من جملة الوسائل للوصول إلى هذا الهدف.(٢٧)

انطلقت الجلسات بمحكمة لاهاي يوم الأربعاء ١٥ يوليوز على الساعة الرابعة بعد الزوال بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية للنظر في النزاع حول حق الرعايا الأمريكيين في جلب البضائع من بلادهم بدون رخص. وترأس الجلسة القاضي البريطاني "أرنولد مال نير". ومثل فرنسا وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، "كرو" ونائبه بول روتير. في حين مثل الحكومة الأمريكية الأستاذ أدريان فيشر المستشار القانوني لوزارة الخارجية الأمريكية.(٢٨) استغرقت المحاكمة بضعة أسابيع، قبل النطق بالحكم في هذه القضية.

انعقدت الجلسة الثانية على الساعة ٩ من صباح ١٧ يوليو لمواصلة نظرها في القضية الخلاف بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية. باستماعها لمرافعة ثانية من طرف "كرو" ممثل فرنسا عن وجهة نظر حكومته حول الامتيازات الأمريكية في المغرب، فتحدث عن النظرية الأمريكية بشأن الأمة ذات الأفضلية على غيرها من الأمم في المغرب. وهذه النظرية تعتمد على معاهدة سنة ١٨٥٦ المبرمة بين المغرب وبريطانيا وعلى معاهدة سنة ١٨٦١ الموقعة بينه وبين إسبانيا، لذلك شدد على خطأ هذه النظرية وعدم مفعوليتها في الوقت الراهن إذ قال: "إنه عندما كان المغرب مرتبط مع الولايات المتحدة بمعاهدات فإن هذه الأخيرة قد استفادت من تلك الحالة، لكن حينما لم تعد تلك المعاهدات في دائرة التنفيذ فلا يمكن للولايات المتحدة أن تثيرها".(٢٩) وكان رد الجانب الأمريكي من خلال المرافعة التي تقدم بها محامي الحكومة الأمريكية إذ قال: "إن أمريكا لا تروم من دفاعها هذا أن تمس بعقد الحماية بل تأمل أن تثمن العلاقات الفرنسية المغربية وتريد احترام مصالح الأمريكيين بمقتضى المعاهدات التعاقدية مع المغرب وكذا معاهدة الحماية".(٣٠)

إن احترام حقوق الأمريكيين في المغرب لا يتنافى مع ازدهار المغرب الذي يتمناه الأمريكيون... إن الوضع الدولي للمغرب قد تقرر في الجزيرة الخضراء وقد قال الجنرال جوان نفسه: بأن هذا العقد يعد عقد ميلاد المغرب العصري.(٣١) وتنص معاهدة الجزيرة على ثلاثة مبادئ:

- احترام وحدة التراب المغرب.
- احترام سيادة جلالة الملك.
- المساواة الاقتصادية.(٣٢)

وهذه المبادئ لم تنص عليها الدول المتعاقدة عبثا فمحتواها وكذلك الظروف التي نشأت عنها تبرهن على ما تخوله تلك الدول من أهمية لتلك المبادئ، فالأمم في ذلك العصر ومن جملتها المغرب كانت تريد أن يسمح لهذه البلاد بإدخال ما تحتاجه من إصلاحات ورؤوس أموال ومساعدة من الخارج. لكن هذه الدول وضعت هذه المبادئ الثلاث لتحول دون استقرار مصالح خاصة أو مصالح استعمارية في المغرب. فعقد الجزيرة كان قصده الأساس هو حماية المغرب من الاستعمار ومن الاحتكار الخاص وكانت تريد أن يبق المغرب مفتوحا في وجه العالم بأسره.(٣٣)

فالمسألة التي يتوجب على المحكمة النظر فيها هي هل يمكن لمعاهدة الحماية أن تنسخ ما قبلها من معاهدات بما فيها معاهدة الجزيرة الخضراء؟ ففرنسا تعتقد أن هذه المسألة تعني غيرها من الدول ولكن الولايات المتحدة الأمريكية لا يمكنها أن تقبل وجهة النظر الفرنسية. فالمغرب من ناحية الحقوق الدولية له شخصية قانونية، وأمريكا تطالب بحقوق رعاياها بمقتضى معاهدة الجزيرة. غير أن فرنسا خرقت هذه الحقوق عن طريق مراقبة الواردات في سنة ١٩٣٩ وكذلك قرارات ٣٠ دجنبر (ديسمبر) ١٩٤٨. لهذا رفضت أمريكا مراقبة التجارة بين المغرب والولايات المتحدة وصرحت بأن هذه المراقبة ستخول فرنسا احتكار السوق المغربي على حساب مصالح الدول الأخرى ومن جملتها المغرب. إن من مصلحة المغرب السياسية والاقتصادية أن تكون له علاقات مع جميع الدول وأمريكا تتمنى وتقترح ازدهار الحرية الاقتصادية في المغرب، وهذه الحرية ستشجع على الحرية السياسية.(٣٤)

عمومًا فقد أكد فيشر من خلال مرافعته على أن مراقبة الواردات بالمغرب ستؤدي إلى ارتفاع الأسعار حيث أبرز أن ثمن السكر هو أقل في طنجة منه في الدار البيضاء ثم تعرض لقضية الفرنك المغربي وربطها بالفرنك الفرنسي، خلافا لما ادعاه المحامي الفرنسي، إذ لم ترتفع قيمته خلال المدة التي تم فيها إقرار الواردات بدون عملة. وأن الحالة الاقتصادية المغربية التي هي الآن مرضية لا تبرر اتخاذ أي تدابير باسم النظام العمومي أي لا تسوغ اتخاذ أي قرار يهدف إلى تقنين الواردات بدون عملة. لأن هذا التقنين يضعف الفرنك وقد سبق للممثلين المغاربة والفرنسيين أن انتقدوا في مجلس الشورى تعادل قيمتي الفرنك الفرنسي والفرنك المغربي ولم يكن المغرب قادرا على مواجهة توالي انخفاضان مفجعان على قيمة عملته.(٣٥)

أما فيما يخص الحرية التجارية والاقتصادية، فقد اعتمد ممثل الحكومة الأمريكية على ما قاله الجنرال جوان عندما كان على رأس الإقامة العامة أمام مجلس الشورى، بأن من مصلحة المغرب ومن بواعث تطوره ورفاهيته أن يتخلى عن كل تقنين في حركته التجارية مع الدول الأخرى. ثم قال المحامي الأمريكي: "وهكذا فإن الحكومة الفرنسية طالبت باسم النظام العمومي وبإرادتها وحدها بإيقاف مجرى الحقوق التجارية التي تملكها الولايات المتحدة بمقتضى معاهدتها مع المغرب".(٣٦) وقد شكل القرار المتخذ في دجنبر(ديسمبر) ١٩٤٨ تناقضًا واضحًا مع ما أشار به الجنرال "جوان"، وأن السوق السوداء لم تزد إلا استفحالاً في المغرب بعد صدور هذا القرار. كما أن ضم الفرنك المغربي للفرنك الفرنسي هو مظهر جديد للاستبداد الفرنسي إزاء الاقتصاد المغربي.

ومن جهة أخرى؛ تجمدت السياسة الاقتصادية منذ ١٩٤٨ في الاعتمادات الممنوحة باسم مشروع مارشال.[٣٧] واستعملت كوسائل مالية لبسط السيطرة الفرنسية على المغرب بصورة متزايدة، ذلك أن المقابل لهذه الإعانات من الفرنكات الفرنسية والذي كان الغرض منه أن يصرف لفائدة الاقتصاد المغربي قد استخدم لتقوية سياسة الاستيطان الفرنسي ومضاعفة المؤسسات الفرنسية سواء من حيث العدد أو من حيث الأهمية. وبذلك أصبح الشعب المغربي شيئا فشيئا يستحيل في مجموعه إلى جمهور من العمال وفقراء الفلاحين يفرض عليهم نظام سيطرة اقتصادية على مرأى من سلطة شرعية مكتوفة الأيدي مجردة من كل نفوذ ولا تتحمل أية مسؤولية في تسيير شؤون البلاد.[٣٨]

وبخصوص المحاكم القنصلية فقد عبر فيشر عن وجهة نظر واشنطن بقوله: "إن المعاهدات المبرمة بين المغرب وأمريكا قد جعلت المحاكم القنصلية هي وحدها صاحبة الاختصاص في القضايا الجنائية والمدنية التي تهم الرعايا الأمريكيين. وأكدت معاهدة الجزيرة هذا الاختصاص، وفي سنة ١٩١٢ عندما تنازلت إسبانيا عن حقوقها المتعلقة بالمحاكم القنصلية نالت مقابل ذلك صفة الاستقرار في المنطقة الشمالية للمغرب. إن الاتفاق الفرنسي الاسباني لسنة ١٩١٢ لم يبرم باسم جلالة السلطان. ولا نقصد بهذا المس بسيادة المغرب الترابية وإنما نعني بذلك أن لا نترك لفرنسا حق استبدال سلطة الرعايا الأمريكيين القضائية بسلطتها".[٣٩]

إن الولايات المتحدة الأمريكية ترفض بشدة تحطيم شخصية المغرب القانونية، فالولايات المتحدة الأمريكية ما زالت تعتبر المغرب دولة متميزة عن فرنسا. وأن الولايات المتحدة الأمريكية بتشبثها بالمادة التي تنص على حق الأسبقية لها كامل الحق في المطالبة بنفس الحقوق القضائية التي نالتها فرنسا بعدما بسطت حمايتها على المغرب. ففرنسا قد حصلت بظهير شريف على أن تكون لها في التراب المغربي محاكم أجنبية عن المغرب لرعاياها القاطنين في هذه البلاد، والأمريكيون يطالبون بنفس الحق لرعاياهم".[٤٠]

تمثل تجارة المغرب مع أمريكا نسبة واحد ونصف في المائة من مجموع التجارة الخارجية الأمريكية وثمانية في المائة من مجموع تجارة المغرب مع الخارج بينما التجارة الفرنسية مع المغرب تمثل (٦٠%) من مجموع المبادلات التجارية المغربية. فالرهان بسيط لكن المبدأ أعظم: وهذا المبدأ هو احترام العقود الدولية.[٤١] انتهت المرافعات بعد عدة جولات أمام محكمة لاهاي يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢.[٤٢] حيث أكد المحامي الأمريكي في نهاية مرافعته أن الولايات المتحدة الأمريكية ما تزال في موقفها من الدفاع عن مصالح رعاياها في المغرب وأنها تلح في ضرورة احترام المعاهدات التي أبرمها المغرب معها وأثار المحامي في مداخلته أمام المحكمة النقط التالية:

- حق موافقة الحكومة الأمريكية على المرسوم المتخذ في المغرب.
- نتائج الفصل المتعلق بالدولة الممتازة التي من حق أمريكا أن تطالب بها.
- المراقبة على الصرف متميز عن مراقبة الواردات.
- لا تبرر فصول الخزينة النقدية الدولية تقنين الواردات على المغرب بدون عُملة نظرا للحقوق التعاقدية التي لأمريكا.

وقال أثناء مرافعته: "إن فرنسا تدعي بأن الإجراءات المتخذة سنة ١٩٤٨ إنما اتخذت لصالح المغرب بينما يقول القانوني الفرنسي "دولوبادير" إن هذه الإجراءات غيرت اتجاه الاقتصاد المغربي رأسا على عقب وأنها خنقته، فيترتب عن ذلك أن مصلحة المغرب هي في بقاء الباب المفتوح". ففرنسا تبيع وتشتري وتضع رؤوس الأموال في هذه البلاد، وهو ما تطالب به أمريكا، ومرسوم ١٩٤٨ لا يخولها ذلك. فمراقبة الصرف لا يطبق بين المغرب وفرنسا وإنما يطبق بين المغرب وباقي الأقطار. ثم ختم مرافعته قائلاً: "إذا احتفظ بمبادئ عقد الجزيرة فلن يبق لفرنسا وحدها حق تنمية المغرب بل سيصبح من حق كافة الدول".[٤٣]

أصدرت محكمة لاهاي الدولية حكمها يوم الأربعاء ٢٧ غشت ١٩٥٢ في الخلاف الفرنسي الأمريكي حول حرية التجارة.[٤٤] وجاء الحكم لفائدة الولايات المتحدة الأمريكية ويمكن أن نقول إنه كان على طول الخط مؤيدًا لمعاهدة الجزيرة الخضراء ومؤكدًا للضمانات التي أحرزت عليها السيادة المغربية سواء من الميدان الاقتصادي أو الميدان التشريعي والقضائي المترتبة عن تلك المعاهدة. ونذكر بأن جوهر الخلاف انحصر في نقطتين؛ الأولى: طلب من المحكمة الدولية أن تحكم هل النظام الاقتصادي الذي أسسته الحماية الفرنسية مطابق لعقد الجزيرة فيما يرجع لحرية التجارة والمساواة بين جميع الدول أم لا؟ وهل لا يجعل هذا النظام فرنسا في وضع ممتاز بالنسبة لبقية الدول الموقعة على معاهدة الجزيرة؟ الثانية: هل للولايات المتحدة الأمريكية الحق في الاحتفاظ بامتيازات قنصلية داخل التراب المغربي؟ وهل لا تتنافى هذه الامتيازات مع السيادة المغربية؟

فكان جواب المحكمة على هذين النقطتين كالآتي:[٤٥]

إن القرار المقيمي المؤرخ ليوم ٣٠ دجنبر(ديسمبر) ١٩٤٨ يحرر فرنسا من مراقبة وارداتها إلى المغرب بينما تخضع الولايات المتحدة الأمريكية لهذه الرقابة. وهو ما يشكل تمييزا لصالح الدولة الحامية. وهذه المعاملة المبنية على الميز متنافية مع معاهدة الجزيرة التي تعطي الحق لأمريكا في المطالبة بالمساواة في الحقوق مع فرنسا في كل ما يرجع للمسائل الاقتصادية. ولهذا فالمحكمة ترى أن هذا الوضع يستلزم رفض النظرية الفرنسية التي تدعي أن القرار المقيمي موافق للوضعية الاقتصادية القانونية بالنسبة للمعاهدات الدولية.

فيما يرجع للامتيازات القنصلية؛ قررت المحكمة بالإجماع فيما يتعلق بالامتياز القضائي أن الولايات المتحدة محقة في التمتع بهذا الامتياز بمقتضى فصول معاهدة مكناس المؤرخة بـ ١٦ شتنبر(سبتمبر) ١٨٣٦ بين المغرب والولايات المتحدة الأمريكية. ويشمل هذا الامتياز القضايا المدنية والجنائية الناشئة بين رعايا الولايات المتحدة أو محميها. ثم حكمت المحكمة بأغلبية عشر أصوات ضد واحد بأن الولايات المتحدة محقة في التمتع بالامتياز القضائي أيضا في كافة القضايا المدنية والجنائية الموجهة ضد الرعايا والمحميين الأمريكيين وفقا لبنود عقد الجزيرة الخضراء.

وفيما عدا القضايا المدنية والجنائية حكمت المحكمة بستة أصوات ضد خمس بعدم أحقية أمريكا في التمتع بما طالبت به اختصاصات أخرى للمحاكم القنصلية الأمريكية، وفيما يتعلق بضريبة الاستهلاك التي نص عليها ظهير فبراير ١٩٤٨ والتي تطبق على جميع السلع المستوردة أو المنتجة في المغرب قررت المحكمة بسبعة أصوات ضد أربع أن الولايات المتحدة الأمريكية غير معفية منها كما أنها غير معفية من الضرائب الأخرى.(٤٦)

ثالثا: ردود فعل الأطراف

أجمعت الصحف الفرنسية على اندحار الأطروحة الفرنسية فيما يخص المسألة الجوهرية من نزاعها الذي يتعلق بمعاهدة الجزيرة الخضراء والذي ينص على المساواة الاقتصادية لجميع الدول الموقعة على المعاهدة. وأكدت على أخطاء وزارة الخارجية الفرنسية بمبادرتها رفع الدعوى، أما من الناحية السياسية فقد اعتبر الحكم هزيمة للاستعمار الفرنسي.

أما على مستوى الرأي العام الدولي، فقد خلف قرار المحكمة نوع من الارتياح على مستوى إنهاء الاحتكار التجاري الفرنسي بالمغرب وحماية المصالح الاقتصادية للدول الأوربية بالمحمية الفرنسية فقد سجلت الصحافة البلجيكية: "لو أن محكمة العدل أعطت الحق لفرنسا لأصبحت المصالح الأجنبية ومنها المصالح البلجيكية معرضة لخطر داهم لأن العراقيل التي وضعتها فرنسا ضد الاتفاقات الدولية أصبحت ذات صبغة قانونية ويكون ذلك مدعاة لمراجعة معاهدة الجزيرة كما يمكن فرنسا من جعل المغرب صيدًا خالصًا لها".(٤٧) في حين ذهبت الصحافة السويسرية إلى طرح تساؤل حول ما ستفعله حكومة واشنطن بعد الحكم، فهل ستحاول المس بالوضع السياسي للمغرب من خلال تأييد شكوى الكتلة العربية -الأسيوية في هيئة الأمم المتحدة(٤٨) ؟

ابتهج التجار الأمريكان المقيمون في المغرب بقرار محكمة العدل الدولية، بحيث اعتبروا أن معنى هذا القرار هو قدوم عدد من التجار إلى المغرب للاستقرار به، كما صرح أحد التجار "ليوجودبتز": أنه يمكن لنا الآن أن نستورد من جديد ونحن عازمون على جلب بضائع نثري منها البلاد بأثمان أقل من الأثمان التي كان العمل بها جاريا لحد الآن".(٤٩) في حين ذهب "هارولد جيرمان" صانع عدسات النظارات إلى اعتبار أن هذا القرار معناه اختصارًا "بأنه يمكنني أن أصنع عدسات بأسرع ما يمكن وبأقل ثمن وعلى أجود قيمة".(٥٠) وقال "روبير روديس": "يفيد هذا القرار أن المغرب سيصبح ميدانا تزدهر فيه المشاريع الحرة من الطراز الأمريكي التي كانت لحد الآن محوطة بسياج من التقنينات تغمر اقتصاد أكبر جزء من النصف الشرقي للكرة الأرضية".(٥١)

أصدرت الحكومة الفرنسية عقب الحكم بلاغًا تشرح فيه الكيفية التي تنوي أن تطبق بها قرار المحكمة مما جاء فيه: "أن وزارة الخارجية الفرنسية بعد استشارة الهيآت المنتخبة بالمغرب وبحث المسألة مع الإدارات المختصة في الرباط قد اتخذت مجموعة من التدابير بقصد تنفيذ ما اشتمل عليه الحكم الذي أصدرته محكمة العدل بتاريخ ٢٧ غشت (أغسطس) فيما يتعلق بالواردات إلى المغرب. وأن أهم مميزات نظام الجلب الجديد هو: إلغاء القرارات المقيمية الصادرة بـ ١١ مارس ١٩٤٨ و٣٠ دجنبر(ديسمبر) من السنة نفسها، وكذلك جميع النصوص التي اتخذت لوضعها حيز التنفيذ.(٥٢) يمكن بصفة عامة استيراد السلع مهما كان مصدرها بدون رخص إذا لم تعط من أجل ذلك من الجهات الرسمية، وهذا يطبق على ما يستورد من المناطق الواقعة خارج منطقة الفرنك، لكن حرية الاستيراد حسب المسطرة المعمول بها فيما يخص تقديم الإدارة المغربية مخصصة لتسديد ثمن المواد الضرورية لتموين البلاد. لكن يبقى العمل جاريًا بالقيود على استيراد بعض السلع كالأسلحة والخمور والحبوب والزيوت. وإذا بدا أنه من الضروري اتخاذ تدابير مماثلة في حق بضائع أخرى بسبب التطور الاقتصادي والاجتماعي في المغرب فيجب ألا تتضمن تلك التدابير أي تمييز مهما كان القطر المصدر لها.

تقدم جميع التسهيلات لتوريد البضائع المنتجة في منطقة طنجة إلى المنطقة الفرنسية. ويكتفي في الإذن بتسديد ذلك ماليًا، بمجرد الأداء بما يبرر دخول تلك البضائع ومصدرها. لكن توريد البضائع من منطقة طنجة سيظل مفتقرا إلى رخصة إذا كانت هذه البضائع أجنبية عما تنتجه منطقة طنجة نفسها. وهنا نعرض مشكلة خاصة هي التالية: إن منطقة طنجة داخلة في الإقليم الجمركي للمملكة المغربية لكنها ليست ضمن منطقة الفرنك وإن كان الفرنك المغربي هو العملة القانونية فيها. الأمر الذي يضر بالنقد لذا فقد اتخذت تدابير مناسبة للتأكد من أن العمليات تسير بما يتفق مع التشريع المتعلق بالصرف. وفي مقابل الحرية الممنوحة للواردات بدون عملة يتعين على المستوردين في حالة ما إذا طلبت منهم السلطات المختصة أن يدلوا ببيانات عن استخدام الأموال التي يدرها عليهم بيع أو استعمال البضاعة المستوردة.

تضمن جميع هذه التدابير قرار مقيمي بتاريخ ٣ أكتوبر ١٩٥٢ يجري العمل به ابتداء من ١٠ أكتوبر.(٥٣) وهنا يحق لنا أن نطرح التساؤل التالي: هل مقتضيات هذا القرار المقيمي تقر بمبدأ المساواة الاقتصادية بين جميع الدول الموقعة على ميثاق الجزيرة الخضراء؟ الجواب قطعا لا، وذلك للأسباب التالية:

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

- لقد صرح القرار أن المستوردين الذين لا يزودون رسميا "بالعملة الصعبة" أحرار في جلب ما شاءوا من البضائع إلى المغرب باستثناء مواد محددة، غير أن حرية المبادلات تستوجب إلغاء مراقبة الصرف، ومع ذلك فهذه الرقابة المفروضة على الصرف لا تزال قائمة لأن فرنسا لا تعترف بأن هذه الرقابة -حسب تأويلها- منافية لمقتضيات القرار الدولي. والحال هذه فإن الإبقاء على مراقبة الصرف هو بمثابة استمرار عدم المساواة في المعاملة بين فرنسا وباقي الأقطار الموقعة على ميثاق الجزيرة الخضراء.
- إن هذه المراقبة تفسح للمستوردين الفرنسيين مجالاً أوسع وحرية أكبر للاستيراد نظرًا لحرية الصرف بين الفرنك الفرنسي والفرنك المغربي.(٥٤)
- أما فيما يخص الواردات الآتية من منطقة طنجة، فإن الميز الاستبدادي سيبقى مستمرًا، وهكذا فإن طنجة التي هي قطعة من الوطن المغربي والتي يشملها النظام الجمركي المنصوص عليه في عقد الجزيرة الخضراء مفصولة عن باقي المملكة الشريفة بحواجز جمركية اصطنعت داخل البلاد خلافًا لما جاء في المعاهدات. ومما يزيد الوضع استفحالاً كون الفرنك المغربي المرتبط بالفرنك الفرنسي، هو العملة القانونية لمدينة طنجة التي هي مع ذلك خارجة عن منطقة الفرنك. وهو ما يعتبر مساسًا بمقتضيات الجزيرة الخضراء المتعلقة بوحدة النظام الجمركي في مجموع البلاد.(٥٥)

فعلى المستوى السياسي، نعلم أن مسألة التصنيع الذي تود الولايات المتحدة الأمريكية إدخالها إلى المغرب ليست مسألة اقتصادية فحسب، بل سياسية أيضًا، فعندما يطالب الوطنيون بتطوير الصناعة المحلية فليس بهدف اقتصادي لكن لأهداف وطنية، وذلك لاعتقادهم العميق أن التصنيع هو مفتاح الحصول على الاستقلال وتحقيق المطالب الوطنية.(٥٦) والجلي أن الحركة الوطنية لم تكن غائبة عن هذا الصراع، بل تفاعلت معه حيث تتبعت أطوار المحاكمة وأرادت المشاركة لإسماع صوتها للعالم خاصة، وأن الأطروحة الأمريكية شكلت دفعة قوية للنخبة السياسية في تسوية مشروع استقلالها. يتجلى ذلك في المذكرة التي رفعتها جبهة الأحزاب الوطنية المغربية إلى محكمة العدل في ١٠ مايو ١٩٥٢.(٥٧) حيث ارتأت الأحزاب السياسية رفع المذكرة لإبراز لا مشروعية الدعوى التي أقامتها السلطات الفرنسية بناءً على كون المغرب الذي يهمه مصير هذا النزاع غير ممثل في هذه المحكمة تمثيلاً قانونيًا لأنه لا يوجد في معاهدة الحماية التي تستند عليها فرنسا لتأييد دعواها أي بند يأذن لهذه الدولة باتخاذ مثل هذا الإجراء بدون استشارة حكومة جلالة السلطان وسابق موافقتها.(٥٨)

كما أبرزت توافقًا مع وجهة نظر الولايات المتحدة الأمريكية، إذ اعتبرت أن الحكومة الفرنسية تتوخى من وراء الإجراءات التي أقدمت عليها في سبيل تضييق الخناق على حرية التجارة بالمغرب، رغبتها في توجيه الاقتصاد المغربي لصالح الاقتصاد الفرنسي، وبالتالي ربط الفرنك المغربي بالفرنك الفرنسي في أفق سيطرة هذا الأخير. الأمر الذي يعني طمس السيادة المغربية التي من أهم رموزها العملة، وهذا الأمر لن يتأتى إلا بسن قوانين تسمح بخنق الاقتصاد المغربي وفي هذا السياق جاءت القوانين المتعلقة بمراقبة الواردات. وهو ما يعني خرق فرنسا لقاعدة الحرية التجارية والمساواة الاقتصادية كما تنص على ذلك مقررات الجزيرة الخضراء. مما يعني زيادة الاستغلال والاحتكار الفرنسي للسوق المغربية، وبالمقابل فإن المغرب يزداد من جراء هذا التوجه الذي يخضع له اقتصاده انعزالاً عن السوق الدولية بحيث ترسل ثلاث أرباع صادرات المغرب إلى فرنسا التي لها عملة ضعيفة وأكثر من ثلثي الواردات على المغرب يأتي من فرنسا ومن جملة المنتوجات المجلوبة إلى المغرب عدة مواد تأتي من أقطار أخرى عن طريق فرنسا فتصبح بذلك ذات أصل فرنسي بعد أداء الواجبات الجمركية بفرنسا وبهذه الطريقة ترتفع أثمان البضائع.(٥٩)

وتضيف المذكرة: "إن البضائع المستوردة من فرنسا تكون على وجه العموم غالية جدًا إذا قيست بالأسعار العالمية العادية". وهكذا فإن جمهور المستهلكين المغاربة الذين لهم قدرة شرائية ضعيفة جدا لا يتمتعون بفوائد المزاحمة الأجنبية الحرة فلا يمكنهم أن يكتسبوا -بأحسن الشروط- الآلات الضرورية لتجهيز البلاد. إن فرنسا تتصرف في المغرب تصرف دولة ذات سيادة بقطع النظر عن التزاماتها السالفة بل حتى عن الالتزامات التي تعهدت بها في الفصل الثالث والسبعين من ميثاق الأمم المتحدة الذي يؤكد المبدأ القاضي بأن مصالح أهل البلاد القاصرة لها المقام الأول. تحفظت جبهة الأحزاب الوطنية في مذكرتها التي كتبها كل من الحاج عمر بن عبد الجليل، وعبد القادر بن جلون، إلى محكمة لاهاي هي:

١- أن المغرب لا يخضع طواعية للنظام الذي وضعته فرنسا فإنه لا يعترف لها كذلك بأية صبغة للتصرف باسمه وبدون الموافقة الصريحة من الحكومة الشرعية.

٢- لا يعتبر المغرب نفسه في أية حالة من الأحوال مرتبطًا بقرار يكون من عواقبه إعطاء صبغة مشروعة لحالة واقعية قد تضر بمصالحه، وحتى مع تجريد المغرب من امتيازات قديمة تفرض عليه امتيازات جديدة أشد خطرًا.

٣- لا يعتبر المغرب نفسه في أي حال من الأحوال مرتبطًا بقرار قد يضر بمصالحه المشروعة مهما يكن المستفيد.(٦٠)

خاتمة

قصارى القول؛ شكل النزاع الفرنسي الأمريكي حول حرية التجارة في المغرب مظهرًا من مظاهر البراغماتية الأمريكية ودفاعها المستميت عن مصالحها أينما وجدت. كما أبرز ضعف الأطروحة الفرنسية واتجاهها نحو نهاية حمايتها للمغرب. ومن جهة ثالثة استطاعت لنخبة المغربية التعبير عن تطلعات الشعب المغربي وإبراز طموحاته في ممارسة سيادته. وبرز كذلك المناخ السياسي العام الذي أصبح تعيشه الحركة الوطنية ومحاولة استفادتها من الأوضاع الدولية التي اتسمت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ببروز حركات التحرر الوطني في آسيا كما في إفريقيا. نسجل من جهة ثانية انخراط الصحافة الوطنية في هذه القضية ومساهمتها في تنوير الرأي العام المغربي والدولي والدفاع عن الأطروحة المغربية وتفنيد الدعاية الفرنسية الرامية إلى تسويق صورة "الأبيض الطيب"، حيث اهتمت المقالات التي أوردتها الجرائد المغربية بتتبع أطوار المرافعات وعملت على تحليل الموقفين الفرنسي والأمريكي وإظهار نواقص الأطروحة الفرنسية.

الهوامش:

(1) El Machat (Samya), ***- Les Etats–Unis et Le Maroc, Le choix stratégique 1945-1959,*** l'Harmattan, Paris, 1996. , p. 15.

(٢) هو "وليام طافت" الرئيس السابع والعشرين للولايات المتحدة الأمريكية عن الحزب الجمهوري ما بين ٤ مارس ١٩٠٩- ٣ مارس ١٩١٣. مهندس ما كان يعرف "بدبلوماسية الدولار".

(3) Berramdane (Abdelkhaleq), ***Le Maroc …*** , op. cit., p. 34.

(4) El Machat (S), ***Les Etats-Unis…,*** op.cit, p. 15.

(5) Berramdane Abdlkhaleq, ***Le Maroc et l'Occident***, Ed Karthala, Paris, 1987, p. 35.

(6) Ibid, p. 3٦.

(7) Ibid, p. 3٩.

(8) Ibid, p. 3٩.

(9) La croix Riz (Annie), ***Les protectorats d'Afrique du nord entre la France et Washington***, l'Harmattan, Paris, 1988, p. 11.

(10) Ibid, p. 12.

(11) Ibidem.

(12) Ibid, p. 14.

(13) El Machat (S), ***Les Etats-Unis…,*** op. cit., p. 1٦.

(14) La croix Riz (A), ***Les protectorats d'Afrique du nord …,*** op. cit., p. 49.

(15) Ibid, p. 61.

(16) ***"Policy Statement prepared in Department of State Washington", (september 11, 1950)***, in F.R.U.S, vol V, 1950, p. 173٧.

(17) ***Background Memorandum Prepared by The Office of Ligal Advice***, in. F.R.U.S 1950, vol V, p.1755.

(18) F.R.U.S, vol XI, 1952, p. 60١.

(19) El Machat (S), ***Les Etats-Unis…,*** op. cit., p .17.

(20) ***Memorandum of conversation, by Robert Mc Bride, Office of Western European Affairs, Washington, (May13, 1952***), in F.R.U.S, vol XI, 1952 , p. 602-603.

(21) International Court of Justice, Pleadings, Oral Arguments, Documents, "***Case Concerning Rights of Nationals Of The United States of America In Morocco***", Correspondance IV partie, p. 398.

(22) Ibid, p. 39٩.

(23) Ibid, p. 400.

(24) Ibid, p. 404.

(٢٥) "**حقيقة الخلاف الفرنسي الأمريكي حول حرية التجارة بالمغرب**"، جريدة العلم، عدد ١٨٤٨، ١٥ يوليوز ١٩٥٢.

(٢٦) تناولت هذا الحدث مجوعة من الصحف المغربية ينظر: "حول الخلاف الفرنسي الأمريكي بحرية التجارة في المغرب"، جريدة العلم، عدد ١٨٤٨، ١٥ يوليوز ١٩٥٢؛

- "***Le procès Franco-américain s'ouvre aujourd'hui devant la cour de la Haye***", le petit Marocain, n°11066, 15 Juillet 1952 ;
- "***Aujourd'hui s'ouvre a la Haye le procès France***, Le courrier du Maroc, n° 5102, 15 juillet 1952.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(27) El Machat (S), ***Les Etats-Unis...***, op. cit., p. 1٩.

(28)"***Le procès Franco-américain s'ouvre aujourd'hui devant la cour de la Haye***", le petit Marocain, n°11066, 15 Juillet 1952.

(٢٩) "**ملخص مرافعة محامي الحكومة الفرنسية في الدعوى بين فرنسا والولايات المتحدة حول حرية التجارة في المغرب**"، جريدة العلم، عدد ١٨٥٠، ١٧ يوليوز ١٩٥٢؛

"***La cour de la Haye se rendra sa sentence que l'hiver prochain***", le petit marocain, n° 11068, 17 juillet 1952.

(٣٠) "**محامي الحكومة الأمريكية أمام محكمة لاهاي**"، جريدة العلم، عدد ١٨٥٥، ٢٢ يوليوز ١٩٥٢.

(٣١) نفسه.

(32) F.R.U.S, vol II, 1906, p. 1470.

(٣٣) "**محامي الحكومة الأمريكية أمام محكمة لاهاي**"، جريدة العلم، م. س.

(٣٤) نفسه.

(35) International Court of Justice, Pleadings, Oral Arguments, Documents, *Counter -memorial submitted By The Government of The United States of America*, op. cit., p. 260.

(٣٦) "**محامي الحكومة الأمريكية بلاهاي يفند حجج الجانب الفرنسي**." جريدة العلم، عدد ١٨٥٦، ٢٣ يوليوز ١٩٥٢.

(٣٧) سمي مشروع مارشال، أو برنامج الإنعاش الأوروبي على اسم وزير الخارجية الأمريكي جورج مارشال الذي تضمن خطابه في جامعة هارفارد في ١٩٤٧ الفكرة الأصلية. فقد اقترح مارشال أن تنشئ الولايات المتحدة برنامجاً لتقديم المساعدة الاقتصادية لمساعدة الحكومات والشعوب الأوروبية على إعادة بناء اقتصادها التي دمرتها الحرب العالمية الثانية.

(٣٨) جريدة العلم، عدد ١٨٥٨، ٢٥ يوليوز ١٩٥٢.

(٣٩) "**المحاكم الفرنسية محاكم أجنبية في المغرب**"، جريدة العلم، عدد ١٨٥٧، ٢٤ يوليوز ١٩٥٢..

(٤٠) نفسه.

(٤١) جريدة العلم، عدد ١٨٥٧، ٢٤ يوليوز ١٩٥٢. م، س.

(٤٢) "**انتهاء المرافعات أمام محكمة لاهاي**"، جريدة العلم، عدد ١٨٦٠، ٢٧ يوليوز ١٩٥٢.

(٤٣) جريدة العلم، عدد ١٨٦٠، ٢٧ يوليوز ١٩٥٢. م، س.

(44) International Court of Justice, Pleadings, Oral Arguments, Documents, "***Case Concerning Rights of Nationals of the United States of America in Morocco***", Judgment of August 27, 1952, p.32-33.

(45) Ibidem.

(46) Ibidem.

(٤٧) نفسه.

(٤٨) "**ارتباك الإدارة وأرباب الأموال الفرنسية في المغرب أمام قرار محمكة لاهاي**"، جريدة العلم، عدد ١٨٩٣، ٣٠ غشت ١٩٥٢.

(٤٩) "**الأمريكيون القاطنون بالمغرب يبتهجون بقرار المحكمة**" جريدة العلم، عدد ١٨٩٢، ٢٩ غشت ١٩٥٢.

(٥٠) نفسه.

(٥١) نفسه.

(٥٢) "**الحكومة الفرنسية تصدر بلاغا تشرح فيه الكيفية التي تنوي أن تطبق بها حكم محكمة لاهاي**"، جريدة العلم: عدد ١٩٢٨، ٣ أكتوبر ١٩٥٢.

(٥٣) "**الحكومة الفرنسية تصدر بلاغا تشرح فيه الكيفية التي تنوي أن تطبق بها حكم محكمة لاهاي**"، جريدة العلم، عدد ١٩٢٨، ٣ أكتوبر ١٩٥٢.

(٥٤) "**القرار المقيمي لا يقر مبدأ المساواة الاقتصادية**"، جريدة العلم، عدد ١٣٧٢، ٥ أكتوبر ١٩٥٢.

(٥٥) نفسه.

(56) Henry (Paul), "***L'aide Américaine et le développement de l'Afrique française***", Politique Etrangère, op. cit., p. ٣١١.

(٥٧) "**المذكرة التي رفعتها جبهة الأحزاب الوطنية المغربية إلى محكمة لاهاي حول النزاع الفرنسي الأمريكي على حرية التجارة في المغرب**". جريدة العلم: عدد ١٨٥٨، سنة ٢٥ يوليوز ١٩٥٢.

(٥٨) نفسه.

(٥٩) نفسه.

(٦٠) نفسه.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449



مظاهر الاستغلال الاستعماري للمغرب في المجال الفلاحي
خلال الفترة الفرنسية



د. جلال زين العابدين

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – سايس
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

جلال زين العابدين، مظاهر الاستغلال الاستعماري للمغرب في المجال الفلاحي خلال فترة الحماية الفرنسية.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٤٢ – ٥٠.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

تعرض القطاع الفلاحي في المغرب خلال فترة الحماية الفرنسية (١٩١٢- ١٩٥٦) بفعل التوغل الاستعماري إلى تحولات عميقة أعادت هيكلة بناه الإنتاجية على أساس مقتضيات السوق الفرنسية، والمراكز الرأسمالية. فاحتكر الأوربيون الفلاحة العصرية المعتمدة على التقنيات والمفاهيم الزراعية الحديثة والتي تحظى بمختلف أشكال الدعم من إقامة بنيات تحتية، ونظام المكافآت المتعددة والمتنوعة للمستوطنين الزراعيين لتسهيل غرس جذورهم في التربة المغربية أولاً، ولتسهيل اندماجهم في الاقتصاد الفلاحي الفرنسي ثانيًا. وإلى جانب الفلاحة الكولونيالية نجد الفلاحة المغربية التي كانت تلعب دورًا اجتماعيًا واقتصاديًا لأكثرية بشرية، والتي تعرضت خلال فترة الحماية إلى تحولات عميقة رغم أهميتها الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة للسكان الحضريين والقرويين على السواء، نتجت عما لحقها في علاقتها بالاقتصاد الاستعماري الذي سيطر على أجود أراضي الفلاحين المغاربة بشتى الطرق والوسائل، وحصرهم في المناطق القاحلة، فتضاءلت وسائل عيشهم ودفع بالعديد منهم إلى العمل كعمال في ضَيْعات المعمرين، أو الهجرة إلى المدن ليشكلوا النواة الأولى "للبروليتاريا". كما أن إدارة الحماية أحاطتها بحزام من البؤس والتخلف، فكان من نتائجها تجميد وتفتيت هذه الفلاحة ، فأغلقت أمامها جميع أبواب الطموح لتجاوز وضعية "فلاحة الكفاف".

مُقَدِّمَة

أدت الهيمنة الاستعمارية والسياسة الفلاحية التي اتبعتها السلطات الاستعمارية في المغرب إلى إحداث تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة في الوسط القروي؛ حيث ستتم هيكلة بناه الإنتاجية على أساس مقتضيات السوق الفرنسية والمراكز الرأسمالية، فاحتكر الأوربيون الفلاحة العصرية المعتمدة على التقنيات والمفاهيم الزراعية الحديثة والتي تحظى بمختلف أشكال الدعم من إقامة بنيات تحتية، ونظام المكافآت المتعددة والمتنوعة للمستوطنين الزراعيين لتسهيل غرس جذورهم في التربة المغربية أولاً، ولتسهيل اندماجهم في الاقتصاد الفلاحي الفرنسي ثانيًا. وإلى جانب الفلاحة الكولونيالية، نجد الفلاحة المغربية التي أحاطتها سياسة الحماية بحزام من البؤس والتخلف، فكان من نتائجها تجميد وتفتيت هذه الفلاحة رغم أهميتها الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة للسكان الحضريين والقرويين على السواء، فأغلقت أمامها جميع أبواب الطموح لتجاوز وضعية الفلاحة المعاشية.

أولاً: الفلاحة "الأهلية" واستمرارية الإكراهات

كانت الفلاحة تلعب دورًا اجتماعيًا واقتصاديًا مهمًا في حياة المغاربة، وقد ظلت لوقت طويل تقوم على علاقات بين عاملين: الإنتاج المحلي والاستهلاك الذاتي للسكان، فكانت تقوم بتلبية حاجياتهم كمًا ونوعًا. وإذا كان إنتاج هذا القطاع قد ظل تحت رحمة التقلبات المناخية، فإن عوامل أخرى أسهمت في تغيير

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ملامحه، وخاصةً الإكراهات الجديدة التي أفرزها التدخل الاستعماري. ذلك أن دخول المستعمر إلى المغرب وما تبعه من جحافل المعمرين، أدى إلى خلخلة هذا التوازن من خلال استيلائهم على أجود وأخصب الأراضي الفلاحية، فأخذت وسائل العيش تتضاءل بالنسبة للفلاحين تدريجيًا بسبب نقص مساحة الأراضي الصالحة للزراعة، ويقول القبطان روميو (Romieu) في هذا الصدد عن بني وراين بجهة تازة: "إن دخولنا البلاد قد أخل بالتوازن العريق بين أعداد السكان وبين الإنتاج، وهو توازن كان يفيد السكان أنفسهم، فأعطي المعمرون أزكى الأراضي التي كان الناس يستغلونها (...) وحددت مناطق الغابات وأسندت إدارتها إلى مصلحة المياه والغابات، وذلك ما اعتبر نقصًا من حقوق السكان على هذه المناطق".[١]

إن ما تجب الإشارة إليه هو: أن السيطرة والاستيلاء على أراضي الفلاحين في المغرب، قد ارتبط إلى حد كبير بالغزو العسكري، فالمستوطنون المزارعون كانوا يسيرون على حد تعبير أحمد تافسكا، في عصابات مسلحة خلف القوات الاستعمارية التي تتولى إبادة ومطاردة السكان لتتيح المجال للمستوطنين للحصول على أملاك فلاحية، وتزيل كل ما من شأنه أن يشعرهم بأنهم غرباء في مجتمعهم الجديد، وتصفهم الصحافة الاستعمارية بأنهم "طلائع جيش قوي".[٢] لذلك قامت السلطات الفرنسية بتمهيد الطريق أمام الاستيطان الزراعي وتدعيمه، لأنه هو الذي يعطي حضورًا واستمرارًا للنفوذ الفرنسي بالمنطقة، وهو ما يوضحه كاديل (J. Cadile) بقوله: "لقد تم الاستيطان الرسمي بشرق تازة في ١٩٢٤، وفي الريف ما بين ١٩٢٦ و١٩٣٠ بالموازاة مع التهدئة العسكرية".[٣] وقد وصل هذا الاستيطان إلى أقصى تأثيره في حياة الفلاحين، كما يؤكد ذلك ألبير عياش حيث يقول: "في الريف الشرقي وسهول ما بين تازة ووجدة وزعت القبائل الرحلية سابقًا فيما بينها أراضي فقيرة تزرعها بالحبوب (...) غير أن الهجرة نحو السهول المستعمرة تبدو مفروضة".[٤]

واستولى المعمرون على أجود وأخصب الأراضي الفلاحية عنوة، أو بيعت لهم بأثمان منخفضة. فقد صدر قرارات وزيرية رخصت لإدارة الأملاك الخاصة بالدولة الشريفة بشراء عدد كبير من الأراضي الأهلية وتحويلها إلى قطع للاستيطان الفلاحي.[٥] ولم تسلم أراضي الجموع والأحباس هي الأخرى من جشع المستوطنين الأوربيين، فقد قامت إدارة الأملاك المخزنية بشراء مساحات كبيرة من إدارة الأحباس، وأعادت تنظيم ملكيتها العقارية حتى تكون قابلة للبيع.[٦]

ونشير إلى أن الاستيطان الزراعي كان قد تعرقل تطوره في المغرب في بداية الحماية بسبب تمسك المغاربة بأراضيهم، واستمرار المقاومات المسلحة بشكل أعاق الاستيطان الأوربي، والدليل على ذلك أن المساحات المزروعة من طرف الأوربيين لم تكن كبيرة.[٧] وبعد القضاء على هذه المقاومات، أصبح الفرنسيون أحرارًا وسارعوا إلى الحصول على المزيد من أراضي الأهالي المغاربة مما أدى إلى تدمير القاعدة الاقتصادية للفلاحين المغاربة الذين تزايدت أراضيهم المغتصبة والمسلوبة، وتحول قسم كبير منهم إلى "خماسة"، أو إلى عمال في المزارع الأوربية.[٨] كما تحول الوسط القروي إلى مصدر واسع النطاق للهجرة سواء كان داخل البلاد أو إلى خارجها.

وهكذا؛ وجدت تشكيلة من المعمرين نافسوا الفلاحين المغاربة الذين أصبحوا في درجة دنيا مقارنة معهم، لأن زراعاتهم التقليدية ذات الإنتاج البسيط لم تصمد أمام الزراعات المنتجة في الضَيْعات الأوربية العصرية المستفيدة من الأسمدة الكيماوية، والبذور المنتقاة، كما أن الفلاحين المغاربة لم يستفيدوا من الامتيازات المختلفة التي منحتها سلطات الحماية للمعمرين الأوربيين. فرغم أن الظهائر لم تميز بين الأهالي والمستوطنين من حيث حق الاستفادة من المنح والمكافآت، إلا أن إمكانيات الفلاحين المغاربة المتواضعة لم تسمح لهم باستيفاء الشروط المحددة لنيل هذه المكافآت. فكيف يمكن الحديث عن إدخال تقنيات وأساليب حديثة في عملية الإنتاج أو الزراعة على الطريقة الأوربية لفلاحين جردوا من أراضيهم الخصبة ؟

لقد ظل الفلاح المغربي خارج منظومة الإرشاد الكولونيالي، الذي ركز على توعية الكولون الأوربي بأهمية وضرورة استعمال الأساليب العصرية في الفلاحة، كما حرص الفلاحون الأوربيون على عدم انتقال المعرفة بهذه الأساليب العصرية إلى جيرانهم الفلاحين المغاربة، ليحافظوا على تفوق إنتاجهم، فبقي الفلاحون المغاربة يعتمدون على ما ورثوه عن أسلافهم من طرق ووسائل زراعية تقليدية، وهو ما كان يدفع أحيانا بعض الفلاحين المغاربة إلى "التجسس المعرفي" على الكولون الأوربي عبر استخدام معارفهم وأصدقائهم العاملين في مزارع الأوربيين، لاكتشاف سر تخلف إنتاجهم عن إنتاج الأوربيين، أو سر عدم تأثر حقول الكولون بأمراض تجتاح المنطقة، أو طرق تخلص الأوربيين من أعشاب ضارة تعجز الأساليب التقليدية عن مكافحتها.[٩]

وشكلت الضريبة الفلاحية (الترتيب) إلى جانب العوامل السابقة عبئًا ثقيلاً على الفلاحة الأهلية في المغرب، مما زاد في تأزيمها.[١٠] ولم تكن مصلحة الضرائب تأخذ في الحسبان ظروف الفلاحة المغربية، حيث كانت تحدد مبلغها بناء على تقديرات اللجن الجهوية المكلفة بوضع تقديرات إنتاج المغاربة، وعلى ضوء ذلك كانت تتم عملية تحديد الترتيب الواجب على كل فلاح، وكذلك إعداد تقديرات الإنتاج الفلاحي.[١١] كما أن هذه التقديرات لم تكن تتم على أساس بحث موضوعي لوضعية الفلاحة والأشجار المثمرة ورؤوس الماشية التي توجد في حوزة المغاربة، بل كانت تتم بناء على تصورات أعوان السلطة المحلية التي غالبًا ما كانت تجانب الواقع، ليجد الفلاح نفسه ملزمًا بمبالغ تفوق إلى حد كبير محصوله الفلاحي.[١٢]

لقد أدت السياسة التي نهجتها الحماية الفرنسية في الميدان الضريبي، إلى اعتبارها، "دائمًا وفي أي جهة، غير شعبية، فالمغاربة

كانوا ملزمين بالأداء قل أو كثر الإنتاج، بشكل مباشر أو غير مباشر".[١٣] وهكذا؛ فإن إهمال إدارة الحماية للفلاحة المغربية وجعلها تواجه مصيرها بنفسها، استفادت منه الفلاحة الكولونيالية. فمن بؤس وتدهور الفلاحة المحلية، كانت (الفلاحة الكولونيالية) تستمد بعض عناصر انتعاشها وخاصة من اليد العاملة، وينتعش المرابون المغاربة والأجانب، ويجد الكولون الزراعي الفرص الثمينة للاستيلاء على ما تبقى من أراضي جيرانهم المغاربة بهدف توسيع استغلالياتهم.[١٤]

واتخذت الإدارة الفرنسية عدة مبادرات، لتظهر أنها تريد النهوض بالفلاحة المغربية التقليدية وإصلاح العالم القروي، فتم التفكير في إنشاء تعاونيات فلاحية تقوم بتخزين المنتوج وتحويله وبيعه وتقديم قروض لصغار الفلاحين لحمايتهم من المرابين، ويتعلق الأمر بما كان يعرف بالجمعيات أو "الشركات الاحتياطية الأهلية" (Sociétés Indigènes de Prévoyance) أو (SIP) التي أنشئت ونظمت بمقتضى ظهير ٢٦ مايو ١٩١٧[١٥] المغير بظهير ١٩ يوليوز١٩١٧، وظهير ١٢ أبريل ١٩١٢، وظهير ٢٨ نونبر ١٩٢١، ثم ظهير ٢٨ يناير ١٩٢٢؛ وهي عبارة عن مؤسسات مدنية تحدث بقرار وزاري يحدد دائرتها الترابية، تشمل إلزاما كل الفلاحين الأهليين غير المحميين المسجلين في قائمة الترتيب. وتهدف إلى إعانة الفلاحين بالقروض، مادية كانت أو عينية، ليتمكنوا من مواصلة أعمال فلاحتهم ومن توسيع نطاقها، واعتماد التقنيات الحديثة الضرورية في ميدان الفلاحة وتربية الماشية والمساهمة في تطبيقها، وتهدف أيضًا إلى حماية الفلاحين الأهالي من المضاربات العقارية (الربا- الاحتكار)، كما يمكنها أن تقوم مقامهم عند الحاجة بإلغاء كل رهن أو التزام يبدو لها مبالغًا أو العمل على الحد منه، والمساهمة كذلك في عقد تأمينات ضد الكوارث الفلاحية (حريق، موت المواشي، جراد...).[١٦]

وإضافة إلى تقديم السلفات والإعانات، كان بإمكان الشركات الاحتياطية الأهلية، إحداث جمعيات تعاونية يعهد إليها هي الأخرى بصيانة المنتوج وتحويله وتسويقه وفق الشروط المتبعة في المؤسسات الصناعية (مضاربة، احتكار، تحقيق القيمة المضافة...)، وذلك- كما ينص عليه ظهير ٢٤ أبريل ١٩٣٧- بعد الحصول على ترخيص من إدارة الداخلية استنادًا إلى موافقة إدارة الفلاحة والتجارة والغابات، وكذا المسؤول عن الصناعة التي قد يهمها الأمر.[١٧] وفي هذا الصدد شهدت سنة ١٩٣٧ في المغرب تأسيس ١١ "تعاونية أهلية فلاحية"(Coopérative Indigène Agricole أو CIA) بمقتضى ظهير ٢٤ أبريل ١٩٣٧ في مجموعة من المدن، الرباط، البيضاء، القنيطرة، مكناس، فاس، تازة، وجدة، واد زم، مازاكان، آسفي، ومراكش.[١٨] وحتى لا نعطي لإجراءات سلطات الحماية أبعادًا أكثر من حجمها، نتساءل ماهي حقيقة وفعالية هذه المحاولات التحديثية؟

لم تؤد هذه المجهودات في الواقع إلى النتائج المرجوة من طرف الأهالي لأسباب عديدة، ذلك لأن إدارة الحماية كانت تسعى من وراء كل المبادرات التي اتخذتها في هذا المجال إلى الاستحواذ على أقصى ما يمكن من الأراضي لتوزيعها على المستوطنين، وإلى تكوين "طبقة" متوسطة من الفلاحين الذين يزكون سياستها، والحد في الوقت نفسه من الهجرة القروية للحفاظ على حشود العمال الفلاحين الذي يمكن استثمارهم في ضَيْعات المعمرين.[١٩] فالقبائل ارتفعت معاناتها من هذه القروض التي كانت تمنحها هذه التعاونيات المحلية[٢٠] بفوائد عالية،[٢١] كما أن هذه القروض لم يكن يستفيد منها إلا الفلاحون الميسورون، أما صغار الفلاحين فقد كانوا في حالة عدم تأدية ديونهم في الأجل المحدد عرضة لفقدان أراضيهم، أضف إلى هذا أن عدم إشراك الفلاحين، وهم المعنيون الأساسيون بكل ما تقرره الشركات الاحتياطية الأهلية (SIP) والتعاونيات الفلاحية الأهلية (CIA) في اتخاذ القرار، أفرغ الجانب التعاوني التي تدعو إليه هذه المؤسسات من كل مضمون حقيقي، وجعل منها مجرد مجال لتكوين الأطر التقنية والمراقبين أكثر منها مجالا لتكوين الفلاحين وتحسين أوضاعهم.[٢٢]

وأنشأت الإقامة العامة إضافة إلى هاتين التعاونيتين، مركزية التجهيز الفلاحي للبيزانا Central d'Equipement Agricole du Paysanat) وC.E.A.P) بظهير ٢٦ يناير ١٩٤٥؛ وهي مؤسسة عمومية تتمتع بالشخصية المدنية والاستقلال المالي،[٢٣] تهدف إلى تنمية الفلاحة وتربية الماشية، بتقديم قروض للفلاحين وتأطيرهم تقنيًا وبيع المعدات الفلاحية أو كرائها لهم.[٢٤] ولإنجاز مهامها، اعتمدت مركزية ال (C.E.A.P) على مكاتب محلية تقوم بتقديم معلومات حول التكوين الكيميائي للتربة ونوعية الأسمدة التي ينبغي استخدامها وطريقة محاربة التعرية والأمراض النباتية لقطاع التحديث الفلاحي (Secteur de Modernisation du Paysanat) أو S.M.P المنشأ بظهير ٥ يونيو ١٩٤٥، وهو عبارة عن مؤسسة عمومية تسيرها السلطة المحلية، ترمي إلى تحقيق أهداف مادية واجتماعية وأخلاقية، تتمثل في تحسين الإنتاج وتوجيه الفلاحين نحو زراعات جديدة والعمل على تطبيق مخطط للتنمية وتحسين أوضاع الفلاحين الاجتماعية، وذلك ببناء المدارس والمستوصفات ودور السكن قصد تحسين أوضاع الفلاحين الاجتماعية، وإشراكهم في مداولات مجالس (S.M.P) قصد تهيئتهم لتحمل مسؤولياتهم مستقبلاً.[٢٥]

وعمومًا؛ كانت ترمي "البيزانا" من خلال تدخلاتها هاته تحقيق تغيير جذري وإصلاح شامل في حياة الفلاح المغربي. فالتعليم الإجباري، والمراقبة الطبية ضد الأمراض، والمساعدة الاجتماعية واستخدام الآلات ...، ستسهم في توعية الفلاح وتجعله يتحرر من الاعتقادات الروتينية والقيود التي كانت تقف عائقًا أمام تقدمه. وبلا شك فالإصلاح سيكون صدمة نفسية صادرة عن المكننة، وهو

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ما سيؤدي إلى زعزعة أنماط الانتاج التقليدية والرفع من القدرة الإنتاجية للفلاح ثم تغيير نمط عيشه.[٢٦]

إن إدارة الحماية كانت تهدف من وراء البيزانا إلى هدم التوازن الاجتماعي التقليدي، وتعويضه بتوازن جديد يتيح الاستيلاء على الأراضي الجماعية، وأراضي الجيش التي ضمت قسطًا منها إلى الأراضي المخزنية ثم وزعتها على المعمرين، وترسيخ الوجود الفرنسي في المغرب، كما عبر عن ذلك منظر البيزانا جاك بيرك (Jacques BERQUE) الذي يرى من الضروري التوفيق بين ازدهار الفلاح وانتشار الوجود الفرنسي، الشيء الذي يمثل هدفا من أهداف العمل الفرنسي في إفريقيا الشمالية،[٢٧] ناهيك عن خلق فلاحة على النمط الأوربي أي فلاحة رأسمالية، حيث حتى إذا ما اتفق أن استقل المغرب، فإنه سيبقى مرتبطًا بالمتربول وتابعًا له.[٢٨]

وإذا كانت سلطات الحماية قد ادعت بأن وضعية الفلاحين في المغرب على عهد الحماية تحسنت كثيرًا عما كانت عليه من قبل، واستدلت على ذلك بالتخلي عن التقنيات الفلاحية البدائية، وتوحيد بعض المنتوجات الزراعية وتزايد القدرة الاستهلاكية للأهالي المغاربة، إضافة إلى انتشار الاقتصاد النقدي بالبوادي وتحسن الوضعية المعيشية (اللباس، السكن...).[٢٩] فإن الواقع يؤكد بأن الاقتصاد الاستعماري العصري قد أدى إلى خلخلة البنيات السوسيو-اقتصادية للبوادي المغربية، ذلك أن القطاع الأوربي الذي يعتمد على زراعات حديثة في المناطق الأكثر شساعة والأكثر خصوبة والذي يستعمل أحدث الآليات، سيسهم في تهميش وتأزيم القطاع الفلاحي التقليدي، هذا بالإضافة إلى أن المعمرين قد استولوا على أجود الأراضي بشتى الطرق، مما أدى إلى تشريد العديد من الفلاحين وتحول جزء منهم إلى عمال في مزارع الأوربيين بأجور يومية لا تتعدى ١٥ ف،[٣٠] أو إلى الهجرة الموسمية إلى الغرب الجزائري للبحث عن لقمة العيش.

ففي سنة ١٩٣٣ بلغ عدد المهاجرين مثلاً من جهة تازة إلى الجزائر حوالي (١٥.٠٠٠) مهاجر،[٣١] وارتفع هذا الرقم عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية، إلى حوالي (٢٠٠٠٠) مهاجر يعملون في مواسم جني العنب والحصاد،[٣٢] فيما اضطر آخرون إلى الهجرة نحو المدن للاشتغال في الأوراش والمعامل التي أنشأتها إدارة الحماية، مشكلين المادة الديمغرافية التي منها ستتكون طبقة اجتماعية جديدة، والتي كانت "جيش الاحتياط" الضروري للصناعات الجديدة المتمركزة في المدن. وقد دفعت الأوضاع المتأزمة الفلاح الأهلي خاصة في فترات الجفاف والمجاعة إلى بيع الأرض بثمن أقل من ثمنها الحقيقي، وهو ما جعل الدولة تتدخل بإصدارها لظهير٨ فبراير ١٩٤٥ الذي أقر "الملك العائلي" للحفاظ على الملكية الصغيرة؛ وهو ملك من الأراضي ضروري لعيش العائلة، لا يقبل أي بيع أو رهن أو تفويت.[٣٣] وقد حدد هذا الملك العائلي في ٧.٥ هكتارات بالأراضي غير المسقية، وهكتار ونصف في الأراضي المسقية، و٠.٧٥ هكتار في الأراضي المغروسة بالأشجار المثمرة.[٣٤]

نخلص مما سبق إلى القول؛ أن النشاط الفلاحي الذي ظل المورد الاقتصادي الرئيسي لمعظم الأهالي، سيتعرض لتحولات عميقة خلال فترة الحماية. فإذا كان إنتاج هذا القطاع قد ظل تحت رحمة التقلبات المناخية، فإن عوامل أخرى أسهمت في تغيير بعض ملامحه، وخاصة الإكراهات الجديدة التي أفرزها التدخل الاستعماري. فقد أحدث هذا الأخير تغييرًا كبيرًا في الوسط القروي، وكسر التوازنات السابقة بما يخدم مصالحه الاستغلالية. فلم يعد الفلاح المغربي يكتفي بالحد الأدنى الذي تقدمه الأرض والقطيع أمام تزايد حاجته للنقود لمواجهة الضغط الضريبي، ولاقتناء حاجياته الاستهلاكية.

ثانيًا: فلاحة الاستيطان (هيمنة الكولون الزراعي)

شكلت مسألة تملك الأرض في المغرب نقطة جوهرية في العلاقات المغربية الأوربية خلال القرن التاسع عشر، واعتبر استيطانها من أهم الأدوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ارتكزت عليها الدول الإمبريالية لإحكام السيطرة على المغرب وتقويض دعائمه الاقتصادية والاجتماعية. ولذلك حظيت هذه المسألة باهتمام معاهدة مدريد (١٨٨٠م) التي أعطت إجابات واضحة لقضية تملك العقار من طرف الأجانب المقيمين في المغرب، وذلك من خلال مقتضيات المادة ١١ التي حددت مجال التملك أو الكراء للأراضي بشقها القروي والحضري في شعاع لا يتجاوز ١٥ ميلاً عن الموانئ المفتوحة للتجارة، شريطة الحصول على ترخيص مسبق من السلطات المخزنية.[٣٥] وبهذه الطريقة، بدأ التغلغل الأجنبي يتسرب داخل القرى المغربية في محاولة للسيطرة على المجال الفلاحي باعتباره الركيزة الأساسية والعمود الفقري للاقتصاد المغربي، إلا أنه سرعان ما تبدلت الأحوال في بداية القرن العشرين بسبب المستجدات الناتجة عن مؤتمر الجزيرة الخضراء (٦ أبريل ١٩٠٦)، والذي فتح أمام الأجانب الباب لامتلاك الأراضي في كل أرجاء الدولة الشريفة.[٣٦] وهكذا؛ فقبيل الحماية (في فاتح يناير ١٩١٢)، أصبحت الملكية القروية للأوربيين تغطي أكثر من (١٠١٠٠٠) هكتار مقسمة على (٥٢٤) ملاك.[٣٧]

لقد أدرك منظرو السياسة الاستعمارية من اقتصاديين وعسكريين بعد التوقيع على معاهدة الحماية، أن الوجود الاستعماري مهزوز ما لم يستند إلى دعامة من المستوطنين الزراعيين يضربون جذورهم في اعماق التربة المغربية، ويشكلون بذلك ضمانة لترسيخ السلطة الاستعمارية أقوى من الضمانة العسكرية.[٣٨] فإلى أي حد كانت سياسة الحماية الفرنسية الاستيطانية كفيلة بتحقيق أطماع وأحلام المعمرين؟

كان الجنرال ليوطي حذرًا منذ البداية في تعامله مع مسألة الأرض في المغرب، فقد كان يدرك أن "مس آلة دقيقة على شاكلة التنظيم الاجتماعي للمغرب (...)، يمكن أن تكون له انعكاسات خطيرة جدا على أمن وتنظيم البلاد. ويجب التحرك باحتياطات دقيقة، وعدم الإقدام على تغيير الوضعية القانونية للأراضي

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

الجماعية إلا بعد أن تكون قواعد الغزو قد ترسخت، وحتى تكون الإدارة قد بدأت تسير بشكل طبيعي".[٣٩]

ولم يكن من السهل العثور على صيغة تمنع الابتزاز الذي جرى في الجزائر، وتحول دون تجريد الفلاحين المغاربة من أراضيهم،[٤٠] مع ما عرفوا به من تعلق وارتباط غريزي بأرضهم وغيرتهم عليها.[٤١] فنشط تفكير ساسة الحماية على مستوى التحليل والتشريع واستنباط الحلول، لوضع أسس بناء ضخم من التأويلات والنظريات والنصوص القانونية، تشرع وتبرر ابتزاز الفلاحين والسيطرة على أراضيهم، تارة باسم استرجاع أراضي الدولة التي استولى عليها السكان في مراحل ضعف السلطة المركزية، وتارة بحجة الحصول عليها بتواطؤ مع عناصر قيادية في السلطة المركزية، وتارة أخرى لعجز الفلاحين وعدم قدرتهم على الإدلاء بالوثائق الضرورية التي تؤكد ملكيتهم للأرض.

وهكذا؛ سنت إدارة الحماية مجموعة من التشريعات شكلت القاعدة القانونية للنهب والابتزاز،[٤٢] فأصدرت ظهير ١٢ غشت ١٩١٣ الذي نص على تسجيل العقارات، وضرورة التدقيق في الوثائق المدلى بها.[٤٣] فأصبح لكل قطعة أرضية بمقتضاها سند عقاري يحمل اسمًا ورقمًا وتصميمًا للملكية، وسهل ذلك تسلط الأجانب على الأرض لجهل المغاربة بالإجراءات القانونية الجديدة. ثم صدر ظهير ٧ يوليوز ١٩١٤ فجعل الأراضي الجماعية وأراضي الأحباس وأراضي الكيش، غير قابلة للتفويت، ووضعها تحت حماية الدولة التي أصبح لها حق مراقبتها تسييرها.[٤٤] غير أنه بعد سنتين (١٩١٦) تم تأسيس "لجنة استعمار الأراضي "من أجل تشكيل وتوزيع القطع الأرضية القروية، وقررت سلطات الحماية انسجامًا مع مبادئ الاستعمار المختبرة، تدعيم الاحتلال العسكري بإسكان عائلات فرنسية في القرى المغربية، وسيكون لهذه العائلات تأثير حضاري على الفلاحين المغاربة بالمثل الذي ستعطيه لهم.[٤٥] وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى، صدر ظهير جديد في ٢٧ أبريل ١٩١٩ جعل الأراضي الجماعية تحت رقابة مجلس وصاية له صلاحيات تفويت أراضي الجماعات لطرف ثالث، فاقتطعت أجزاء مهمة من الأراضي تحت غطاء المصلحة العامة، وسهلت الاستيلاء عليها لفائدة الكولون بطرق شرعية غير منازع فيها.[٤٦] ونذكر هنا على سبيل المثال، بيع ٧ وحدات استغلالية سنة 1928 للمعمرين بجهة تازة تتراوح مساحتها بين (١٢٠) و(٢٠٠) هكتار كانت ملكًا للدولة،[٤٧] فتدهورت الجماعات ولحق التفقير بأفرادها وتغيرت الهياكل الزراعية التقليدية مما انعكس على الوضع الاجتماعي لسكان البوادي.

وترتب عن ذلك أن أصبح في المغرب أيام الحماية استيطان زراعي خاص، وآخر رسمي. وقد تطور الاستعمار الزراعي الأوربي الخاص خلال فترة ما بين الحربين، ففي سنة ١٩٣٧ بلغت مساحة أراضي كل كولون زراعي حوالي ٣٠٠ هكتار. وقد وصلت العناصر الأولى منهم رفقة قوات الغزو الاستعماري، وهم "عصابات مسلحة يشكلون قواعد خلفية للقوات الاستعمارية وفرق استطلاعية لها يحمون ظهرها ويحتمون بها بغية الحصول على الأراضي، وإزالة كل ما من شأنه أن يشعرهم بأنهم غرباء في "محميتهم".[٤٨]

وتجدر الإشارة إلى؛ أن الأوربيين لم يكتفوا بما حصلوا عليه من إدارة الحماية من مساحات شاسعة، بل كان يزحفون على أراضي جيرانهم المغاربة، أو بعض الأراضي التي تم التخلي عنها من طرف بعض الكولون فيبتلعونها تدريجيًا. ولم تكن حدود مزرعة الأوربي تعتبر حدودًا نهائية إلا عندما تلتقي بحدود مزرعة أوربي آخر،[٤٩] كما كانت إدارة الحماية تستجيب لطلب المستوطنين المزارعين بتوسيع استغلالياتهم، بحجة أن توسيع الملكية سيتيح لهم الفرصة أفضل للاستغلال الاقتصادي للضيعة. وما أن استحوذ الأوربيون على أجود الأراضي، حتى أقدموا على تطبيق كل أشكال الاستغلال العصري في الميدان الفلاحي، مستفيدين من دعم إدارة الحماية التي كانت تعتبر أن وجودها مهزوز ما لم يستند إلى دعامة من الكولون الزراعي، يضربون جذورهم في اعماق التربة المغربية، ويشكلون بذلك ضمانة لترسيخ السلطة الاستعمارية أقوى من الضمانة العسكرية.

بادرت سلطات الحماية إلى إنعاش استغلاليات الكولون باتخاذ مجموعة من الاجراءات القانونية، تجلى أبرزها في إصدار مجوعة من الظهائر والمراسيم، نذكر من بينها القرار الوزاري المؤرخ ب٢٠ فبراير ١٩٢٨، المعدل لقرار٨ مارس ١٩٢٠ الذي نص على منح مكافأة للفلاحين الذين يقومون باستصلاح أراضيهم،[٥٠] ويوضح الجدول التالي قيمة المكافآت التي رصدت لدعم إصلاح أراضي المعمرين ما بين سنتي (١٩١٨)، و(١٩٢٨).

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

مكافآت لدعم إصلاح الأراضي المعمرين ما بين (١٩١٨ – ١٩٢٨)

السنة	وجدة	فاس وتازة	مكناس	القنيطرة	الرباط	الدار البيضاء	الجديدة وآسفي	مراكش	المجموع	حجم المكافأة(ف)	حصة الهكتار
١٩١٨	٧٤٨	٣٠٢	٤٢١	٠	٤٣٠	١٥٧٢	١٤٣	٢٩	٣٦٤٥	٢٠١٨٨٨	٥٥.٣٩
١٩١٩	١٦٦٩	١٥٧	٢٣	٠	١٢٣١	١٥٩٥	١٩٠	٠	٤٨٦٥	٢٦٣١٥٨.١	٥٤.٠٩
١٩٢٠	٣٤٧٩.٥	٣٦٥	٦١٣.٥	٠	٥٣٠.٧	١٦٦٨	٦٦٣.٥	٥.٥	٧٣٢٥.٧	٤٦٣٠٢٢.٩	٦٣.٢١
١٩٢١	٢٧٣٣.٩٥	٦١٦	١٦٧١.٦٥	٠	٢٥٠٧.٠٢	٥٢٧١	١٩٧٥.٣٥	٣٦١	١٥١٣٥.٩٧	١١٥٣٩٨٣.٤	٧٦.٢٤
١٩٢٢	٤٧٧٠.٨٦	١٠١٢.٦٢	١٨٢١.٠٨	٥٩٢.٣٥	١٧١٥.٨٧	٢٨١٥.٦٨	٩٧٥.٣٥	٥٤٦.٧٩	١٤٢٥٠.٦	١٢٤٨٥٣٦.٩١	٨٧.٦١
١٩٢٣	٣٣٩١.٠١	١٥٦٤.٣٥	٣٣٨٣.٤٥	٤٧٧.٨٧	١٩٥١.٦١	٣٨٥٦	٩٥٦.٨٣	٧٥٧.٥٥	١٦٣٢٠.٦٧	١٣٩٦٦٧٠.٨٤	٨٥.٥٨
١٩٢٤	٢٣٦٩.٤٥	١٣٦٠.٧٢	٣٦٨٤.٨٨	٦٩٦.٧٨	٢١٧٧.٦٥	٣٦٨٠.٥	٨٦٩	٤٧٠.٢٢	١٥٣٠٩.٢	١٣١٣١٠٠.٢٥	٨٥.٧٧
١٩٢٥	٢١٤٠.١٥	٩٩٠.٦	٤٣٠٤.٥٨	٢٢٠٦.٥	٢٥٢٢.١٦	٤٨٠٥.٠٨	١٢٢٦.٨	٧٠٧.٤٧	١٨٩٠٣.٣٤	١٩٠٥٩١١.٩٥	١٠٠.٨٢
١٩٢٦	٢٧٩١.٢٥	١٧٢٥.٨١	٥٥٢٢.٩٤	٢٢٨٤.٥	٥٤٧٩.٧	٩٣٠٨.٢٦	١٧٨١.١١	٢٠١٥.٢	٣٠٩٠٨.٧٧	٣٤٦٦١٢٤.١	١١٢.١٤
١٩٢٧	١٧٧٤.٣٥	٤٨٦٤.٢٢	٧٦٦٨.٠٤	١٨١١.٥	٧٥٥٤.٠٢	٩٦٦٥.١	٢٤٢٨.٥١	٣٢٧١.٦٤	٣٩٠٣٧.٣٨	٤٠٩١٩٧٨.٦	١٠٤.٨٢
١٩٢٨	١٩٩٣.٧١	٣٨٩٠.٨٣	٧٠٩٦.٩٠	٩٥٠.٧	٤٦١٢.٥	١١٠٩.٥	٨٤٦.٦٨	١١٧٣.٥	٢١٦٧٤.٣٢	٢٢٣١٩٤٣.١٥	١٠٢.٩٨
المجموع	٢٧٨٦١.٢٣	١٦٨٣١.١٥	٣٦٢١١.٠٢	٩٠٢٠.٢	٣٠٧١٢.٢٣	٤٥٣٤٦.١٢	١٢٠٥٦.١٣	٩٣٣٧.٨٧	١٨٧٣٧٥.٩٥	١٧٧٣٦٣١٨.٢	٩٤.٦٦

المصدر:- تافسكا (أحمد)، الفلاحة...، ص١٣٧.

ولدعم المكننة أعطت إدارة الحماية مكافآت تشجيعية لمقتني الجرارات والآلات الميكانيكية الموجهة لتقليب الأرض، حيث كانت تمنح مثلا سنة ١٩٢٥ جائزة مالية قدرها ٣٠ ف عن كل هكتار من الأرض تم حرثه بواسطة آلة فلاحية ذات محرك، شريطة أن يتجاوز عمق الحرث ١٥ سنتيمترًا.(٥١) كما منحت بموجب ظهير ٢٣ يونيو ١٩٢٣ مكافأة تشجيعية من أجل نشر الأساليب الأوربية• في الزراعة، حددت قيمتها في ٥٠% من قيمة الترتيب المفروضة على الزراعة التي امتدت إليها هذه الطرق.(٥٢) ورصدت مكافأة مالية تشجيعية لتنشيط غرس الزيتون والخروب أو تلقيحهما، حدد قدرها في ثلاثة ف سنة ١٩٢٥ عن كل شجرة تم غرسها أو تلقيحها،(٥٣) وذلك لدعم المستوطنين على توسيع مساحة بعض المغارس. كما خصصت دعمًا ماليًا للمستوطنين المزارعين لمواجهة ارتفاع أسعار الطاقة.(٥٤)

واستفاد الكولون الأوربي بسخاء من القروض التي كانت تقدمها له سلطات الحماية، وبشروط ميسرة لتدعيم الاستقرار الاستعماري القروي. وفي هذا الصدد سيتم تأسيس صندوق القرض الفلاحي بموجب ظهير ١٥ يناير ١٩١٩.(٥٥) وقد تم استعمال ثلاثة أنواع من القروض: القروض القصيرة المدى أو قروض الموسم الفلاحي التي لا تتعدى مدتها ١٠ أشهر، وتوضع رهن إشارة المزارعين لشراء البذور، والأسمدة وحيوانات الحرث، والوقود، وأداء أجور اليد العاملة ...(٥٦)، ثم القروض المتوسطة المدى التي نظمت بظهير ٨ ماي ١٩٢٣، المعدل بظهير٢٥ نونبر ١٩٢٥، وهي قروض يتراوح مداها بين (٦) و(١٠) سنوات، تستغل في شراء الماشية، وخاصة فحول الحيوانات المعدة لتحسين النسل، وشراء الآلات، والأشغال المتعلقة باستصلاح الأراضي، وغرس الأشجار (الفواكه، الكروم، الأشجار المعدة للصناعة)، والبناءات المشيدة بمواد ولوازم غير صلبة، وبصفة عامة كل الأعمال التي تهدف إلى الزيادة في قيمة الأرض. وكانت هذه القروض تمنح بموجب ضمانات عينية كرهن العقارات.(٥٧) وقد تطور حجم القروض المتوسطة المدى التي حصل عليها الكولون الزراعي في المغرب على الشكل التالي:

١٩٢٦: ١٤.٤٥٢.٠٠٠ ف

١٩٢٧: ٢١.٨٩٥.٠٠٠ ف

١٩٢٨: ٣٣.٥٦١.٠٠٠ ف

١٩٢٩: ٤١.٣١٢.٠٠٠ ف

١٩٣٠: ٥٢.٣٠٧.٠٠٠ ف(٥٨)

أما عن القروض الطويلة المدى، فتكلف بها صندوق القروض العقارية في المغرب،(٥٩) وهدفت إلى تزويد المزارعين بالوسائل الضرورية للرفع أو تحسين في قيمة أراضيهم.(٦٠) ولم تقف القروض التي كانت تمنح للكولون عند صناديق القرض الفلاحي، فقد استفادوا من صناديق القرض العقاري (المنظمة بظهير وبقرار وزاري مؤرخين بـ ٢٢ دجنبر ١٩١٩)،(٦١) التي كانت تضع تحت تصرف المستوطنين المزارعين قروضًا لاستصلاح الأراضي، وشراء الماشية، والعتاد الفلاحي، وتسديد ديونهم لصندوق القرض الفلاحي.(٦٢) وقد وجد صندوق ثالث، هو الصندوق الفدرالي للتعاون الفلاحي، تم تأسيسه بموجب ظهير ٥ دجنبر ١٩٣٠،(٦٣) ويتكلف بالقروض الموسمية وبالقروض المتوسطة المدى.

وكانت إدارة الحماية تتدخل في كل مرة بأشكال مختلفة من الدعم والتعويضات من أجل مساعدة وإنقاذ المستوطنين المزارعين، وامتصاص تأثير الانعكاسات الاقتصادية التي تواجههم من جراء الأزمات الفلاحية، لاسيما وأن عددًا كبير منهم كان يفتقر إلى تجربة فلاحية، مثل الموظفين، وقدماء المحاربين، وأرباب العائلات الكبيرة، وقدماء تلاميذ المدارس الفلاحية.(٦٤) وقال المقيم العام لوسيان سان (Lucien Saint) (١٩٢٩- ١٩٣٣) في هذا الصدد بمناسبة خطاب افتتح به جلسة مجلس الحكومة المنعقدة بتاريخ ٢٧ دجنبر ١٩٣٠ ما يلي: "نعتبر من الضروري أيضًا توجيه كامل جهودنا بهدف دعم هذه الفئة (المستوطنين)التي استجابت منذ البداية لنداء الحماية، وأسهمت بعملها الفلاحي الجاد وبالمثابرة في إنعاش هذا

البلد".[٦٥] وبالتالي كانت إدارة الحماية تجد نفسها مدفوعة إلى اتخاذ قرارات والتدخل لصالحهم لدى المؤسسات القرضية لتمديد مدة تسديد ديونهم، والتخفيض من فوائدها، وتمتيعهم بقروض جديدة.

ومن المؤسسات الفلاحية التي أنشأتها إدارة الحماية خدمة للكولون الزرعي، وبغية مساعدتهم على بيع محاصيلهم الزراعية، تعاونيات المخازن (Coopératifs Docks Silos)، التي حدد دورها في تخزين وإيداع وبيع محاصيل أعضائها.[٦٦] وقد سمح ظهير ٢١ مايو ١٩٣٠ لهذا النوع من التعاونيات أن يتحد فيما اصطلح عليه باتحاد تعاونيات المخازن (Union des Docks-Silos Coopératifs). وحدد دوره في إجراء كل العمليات المتعلقة بشراء وبيع المحاصيل الفلاحية المودعة في تعاونيات المخازن، وفي إعطاء تسبيقات عن الحبوب المخزونة قبل بيعها.[٦٧]

وأورد تقرير مديرية الشؤون الاقتصادية عن الوضعية الاقتصادية بمنطقة النفوذ الفرنسي في المغرب، بتاريخ ٣١ يناير ١٩٣٧، أن هذا النوع من المخازن مكن المستوطنين من تخزين محاصيلهم الزراعية بعد الحصاد، بهدف ضمان سلامتها، وبالتالي تجنيبها كل الخسائر الناتجة عن تقلب أحوال الجو أو عن الحشرات الضارة. وأضاف التقرير أن الحبوب كانت تنظف وتصنف حسب نوعها، وهو ما كان يرفع من قيمتها. وقد حدد التقرير عدد المخازن التي أنشئت إلى حدود يناير ١٩٣٧ في ثمانية، بطاقة استيعابية تقدر بحوالي (١.٥٠٠.٠٠٠) قنطار، وأشار إلى أن الدولة قدمت لها تسبيقات مالية بلغت قيمتها (١٥.٨١٦.٠٠٠ ف).[٦٨] كما قامت إدارة الحماية بإنشاء صندوق يعرف بصندوق القمح، حدد ظهير ١٣ يوليوز ١٩٣٣ مهمته في تسهيل رفع ثمن القمح وبيعه بكيفية منتظمة، وبوجه أعم تعديل سوق القمح للحصول تدريجيًا على أسعار ثابتة لا يتلاعب بها، وأيضًا في دعم المنتجين ومنحهم تسبيقات وإعانات مالية.[٦٩]

ومن التحولات الفلاحية التي عرفها المغرب، والتي تأتي في إطار دعم إدارة الحماية المتواصل لفلاحة الكولونيالية، ومنحها القدرة على امتصاص تأثير أزمات الجفاف، ظهور وتوسع الفلاحة المسقية، حيث سيتم رصد عدة اعتمادات مالية لإنجاز مشاريع لسقي ضَيْعات المستوطنين المزارعين. وهنا تجب الاشارة إلى أنه لمواجهة صعوبات تمويل الأشغال الهيدروليكية، تم تأسيس صندوق الري الزراعي والاستيطان بموجب ظهير ٤ يناير ١٩٢٧ يتكلف بتنفيذ الأشغال الكبرى للسقي.[٧٠]

اتجه الكولون الأوربي إلى التخصص في الإنتاج الزراعي القابل للتصدير الذي يضمن ربحًا سريعًا مثل الحبوب، ودعمتهم المتروبول، واعتبرت ذلك هو جوهر الاقتصاد العصري التصديري التي تريد إقامته في المغرب، فشجعت زراعة القمح لأنها "أساس الاستيطان الفرنسي".[٧١] كما شجعت إدارة الحماية الكولون الزراعي على التوجه نحو الزراعات المكملة للفلاحة الفرنسية، مثل القطن، وبعض الزراعات النباتية، وأشجار الفواكه، ووضعت في متناولهم كل التسهيلات وأشكال الدعم من سقي وتزويد بالآلات، ووفرت لهم كل ما يحتاجونه، بل وتعهدت بشراء منتوجهم، ومساعدة كل من يريد إنشاء مصانع لتحويل منتوجه إلى مواد صناعية.[٧٢]

إن الفلاحين الأوربيين في المغرب، وعلى الرغم من أنهم كانوا يمثلون أقلية عددية، فقد استفادوا كثيرًا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، ونورد هنا مقتطفًا من مقال ورد بجريدة الأطلس اعتمادا على الاحصائيات الرسمية عن ناحية تازة لسنة (١٩٣٥-١٩٣٦)، يوضح التفاوت الصارخ بين الفلاحين الأهالي ونظرائهم من المعمرين "في ناحية تازة ٥٤.٩٠٦ عائلة من الفلاحين الأهالي وعدد أفرادها ٣١٣.٩٤٣ شخصًا. أما المعمرون الأوربيون فهم ٣١٥ فردًا تضمهم (٥٢) عائلة. بينما هؤلاء يحصدون في المتوسط ٧٠ قنطارًا من الحب لكل فرد في السنة نجد الأهالي لا يحصدون إلا قنطارين، يعني (٣٥) مرة أقل من الأوربي ولكن نسبة ما يؤدونه من الضرائب تفوق ما يؤديه المعمر. ومتوسط ما يملكه كل واحد من المعمرين الأوربيين في تلك النواحي هو (٨٠) شجرة مثمرة و٢.٥٠٠ كرمة من العنب، وأما الفلاحون الأهالي فكل واحد منهم يملك (٣) شجرات و(٤) كرمات من العنب، وكل أوربي يملك (١٩) حوليًا والأهلي يملك حوليين والأوربي(٣) نعجات و(٤) بقرات وفرسا وبغلا. والأهلي لا يملك إلا نعجتين وبقرة لأربعة أشخاص وفرسا أو بغلا لخمسة عشر شخصًا. لا موجب للمغربي في كراهية العمال الأجانب الذين يعيشون مثله من كدهم ويكادون لا يملكون شيئا. ولكن كيف يمكنه أن يقدر المعمرين الذين سلبوا منه كل شيء ولم يتركوا له إلا ما يمنعه من الموت والتناسل لبقاء جنسه".[٧٣]

إن قراءة في المقارنة التي أوردتها جريدة الأطلس، تجعلنا نقر بالتفاوت الصارخ بين الفلاح الأهلي ونظيره "البراني"، وهو تفاوت يعزى إلى الحظوة التي لقيها هذا الأخير من إدارة الحماية، لما له من دور فعال في تثبيت الوجود الفرنسي. فرغم قلة أفراده استطاع الكولون الأوربي الاستحواذ على جزء كبير من الإنتاج، سواء الزراعي أو الحيواني بفعل تركز استيطانه في أخصب الأراضي الفلاحية، واستفادته من الإمكانيات الهائلة التي رصدت له، ومن الامتيازات الضريبية، على عكس نظيره الأهلي الذي جرد من أرضه، وأثقلت كاهله ضريبة الترتيب، وظل في وضع متخلف على مستوى تقنيات الإنتاج والاستغلال. وللحفاظ على الامتيازات التي اكتسبوها على مر الأعوام، فرض الكولون أنفسهم على إدارة الحماية بواسطة جمعياتهم التمثيلية، والغرفة الفلاحية التي لا تعدو أن تكون بوقًا يوصل كل طلبات واحتجاجات ورغبات المستوطنين المزارعين.

خاتمة

يتضح من المعطيات السالفة الذكر، أن الظاهرة الاستعمارية كل لا يتجزأ، على اعتبار أن الوجود الفرنسي في المغرب لم يكن ليختلف كثيرًا عما عرفته باقي الدول المغاربية الأخرى، من حيث التصور العام الذي يؤطر نظرة الإقامة العامة للمجال الفلاحي،

وكيفية تفكيكه وتشكيله في مرحلة موالية انسجامًا مع منطقها واستراتيجيتها العامة. وتمثلت التحولات التي عرفها المغرب في تحوله إلى مزرعة كولونيالية، بعدما قامت إدارة الحماية بنسف المؤسسات والمبادئ التي كان يقوم عليها المجتمع المغربي، والتي كانت تشكل عائقا أمام احتلال الأرض المغربية، حيث غيرت الوضعية القانونية للأرض بسن ترسانة من التشريعات شكلت السند القانوني للاستحواذ على أراضي المغاربة، وتوزيعها على الكولون الأوربي، مما أدى إلى حدوث تحولات في شكل البنية العقارية. و حرص الأوربيون على تطبيق أشكال الاستغلال الرأسمالي في الأراضي المغتصبة، باعتبار الأرض بمثابة رأسمال يدر دخلاً أي ينتج فائض قيمة، فركزوا على إنتاج مزروعات تسويقية يوجه إنتاجها لتلبية حاجيات الجاليات الأوربية، ويصدر جزء منها إلى الخارج لتلبية متطلبات المتربول، مستفيدين من مساعدة ودعم إدارة الحماية من إقامة للبنيات التحتية، ومن مختلف التسهيلات المالية والتقنية.

أما الفلاحة المغربية المحلية التي كانت تلعب دورًا اجتماعيًا واقتصاديًا لأكثرية بشرية، فقد تعرضت خلال فترة الحماية إلى تحولات عميقة، نتجت عما لحقها في علاقتها بالاقتصاد الاستعماري الذي سيطر على أجود أراضي الفلاحين المغاربة بشتى الطرق والوسائل، وحصرهم في المناطق القاحلة، فتضاءلت وسائل عيشهم ودفع بالعديد منهم إلى العمل كعمال في ضَيْعات المعمرين، أو الهجرة إلى المدن ليشكلوا النواة الأولى "للبروليتاريا". وهكذا؛ كانت النتيجة التي خلفها التدخل الاستعماري في الوسط القروي، هي بروز ازدواجية في البنيات الفلاحية. حيث أصبح يتعايش قطاع فلاحي يملكه الأوربيون على درجة عالية من العصرنة، ركز على الإنتاج التسويقي، مع قطاع فلاحي "فقير" يملكه الأهالي موجه لأغراض الاكتفاء الذاتي، ويشار إليه غالبًا بأنه تقليدي ومتخلف.

الهوامش:

(١) أكومي (توفيق)، "**أربع عشرة سنة من المقاومة في ناحية تازة**"، مذكرات من التراث المغربي - تجزئة ومقاومة-، ج.٥، الخزانة العامة والأرشيف بالرباط، ١٩٨٥، ص١٤٦.

(٢) تافسكا (أحمد)، **الفلاحة الكولونيالية في المغرب ١٩١٢-١٩٥٦**، مطابع إمبريال، الطبعة الأولى، الرباط، ١٩٩٨، ص.٤١.

(3) EL ARJI (Mostafa), **Immigration rurale et urbanisation à Taza (Maroc)**, Thèse de doctorat du 3ème cycle, Université de Toulouse de Mirail,1984., p.47.

(٤) عياش (ألبير)، **المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي، نور الدين السعودي، مراجعة وتقديم إدريس بنسعيد، عبد الأحد السبتي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى (المغرب) ،أبريل ١٩٨٥، ص.٢٦٣.

(٥) الجريدة الرسمية، العدد٧٧١، ٢غشت ١٩٢٧، الموافق ل٣ صفر١٣٤٦، ص.١٨٠٩.

(٦) الجريدة الرسمية، العدد٧٧٤، ٢٣ غشت١٩٢٧، الموافق ل٢٥ صفر١٣٤٦، ص.٢٠٣٠.

(7) Bibliothéque Nationale de Rabat, **Culture :Superficies ensemencées et production du Maroc occidental, année1915 à 1919** , Annuaire statistique de la France(1921), trente neuvième volume, Imprimerie Nationale, Paris,1921, p.438.

(8) EL ARJI (Mostafa), **Immigration rurale**..., **op.cit**., p.51.

(٩) تافسكا (أحمد)، **الفلاحة**...، **مرجع سابق** ، ص.١٠٢.

(10) Archives Nationale de Rabat,Carton C 361, **La séance officielle du 27 octobre 1932**, Bulletin de la Chambre mixte française d'agriculture, du commerce et d'industrie, p.4.

(١١) تافسكا (أحمد)، **الفلاحة**...، **مرجع سابق** ، ص.١٠٢.

(١٢) **المصدر.نفسه**، والصفحة نفسها.

(13) AL-FALLAH, « **La Colonisation et la misère du fellah Marocain** », Maghreb-Revue mensuelle de documentation éconemique et sociale-, n°18-19, janvier-février1934, Imprimerie Labor, Paris, p.11.

(14) Archives Nationale de Rabat, Carton F 54, Sous Comité de colonisation, **P-V difinitif de la séance du vendredi 28 juillet 1933** , p.14.

(١٥) الجريدة الرسمية، العدد (٢١٥)، ١١ يونيو ١٩١٧،الموافق ل٢٠ شعبان ١٣٣٥، ص ص.٤٦٠-٤٦١.

(١٦) الجريدة الرسمية، العدد (٤٦١)، ٢٨ فبراير ١٩٢٢، الموافق ل٤ جمادى الثانية١٣٤٠، ص.ص.٢٤٢-٢٤٨ .

(١٧) حليم (عبد الجليل)، "**الإصلاح القروي في عهد الحماية، البيزانا والتحديث**"، مجلة المناهل، العدد ٦٩/٧٠، السنة السادسة، منشورات وزارة الثقافة، يناير ٢٠٠٤،ص.٥٣.

(18) ANONYME, Rapport **général sur le mouvement cooperatif en milieu autochtone (1934-1950)**, in Documents du Centre des hautes Etudes sur l'Afrique et l'Asie., Rabat, 1950, p.3.

(١٩) حليم (عبد الجليل)، "**الإصلاح القروي** ..."، **مرجع سابق** ، ص.٥٤.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(20) Bibliothéque Nationale de Rabat, **Rapport mensuel du Protectorat, décembre, 1920**, p.21.

(21) Rosier (René), **Les societés indigènes agricoles de prévoyance au Maroc**, Librairie Emille la rose, 1925., p.126.

(٢٢) حليم (عبد الجليل)، "**الإصلاح القروي...**"، **مرجع سابق** ، ص.٥٤.

(٢٣) الجريدة الرسمية، العدد (١٦٨٨)، ٢ مارس١٩٤٥/الموافق ل ١٧ ربيع الأول ١٣٤٦، ص.١٧٠.

(24) HALIM (Abdeljalil), **Structures Agraires et Changement Social au Maroc de l'iqtae au capitalisme**, Imprimerie Info-Printe, Fès, 2000, p.103.

(٢٥) حليم(عبد الجليل)، "**البيزانا**"، معلمة المغرب ، ج.٦ ،ص.ص.١٩٤٤-١٩٤٥.

(26) BERQUE(J) et COULEAU(J), «**Vers la modernisation du fellah marocain**», in Bulletin Economique et Social du Maroc, vol.7, n°26, juillet1945, p.20.

(27) BERQUE(Jacques), **La question agraire au Maroc ;Nouvelle politiques de la France au Maroc**, in Documents du Centre des hautes Etudes sur l'Afrique et l'Asie, n°749, 8 octobre 1945, p.26.

(٢٨) حليم(عبد الجليل) ،"**الإصلاح القروي ...**" ، **مرجع سابق** ،ص ص.٥٦-٥٧.

(29) «**L'agriculture indigène**», Taza-journal-Hebdomadaire indépendant-, n°21, deuxième année, 20 avril 1932.

(30) FAUST (M), **La colonisation rurale du peuplement au Maroc**, Alger 1933, p.19.

(31) CELERIER(J), « **Les mouvements migratoires des indigènes au Maroc**», in Bulletin Economique du Maroc, vol.1, n°4, avril 1934, p.234.

(٣٢) حليم(عبد الجليل) ،"**الإصلاح القروي ...**" ، **مرجع سابق** ،ص ص.٥٦-٥٧.

(٣٣) الجريدة الرسمية، العدد (١٦٩١)، ٢٣ مارس١٩٤٥/ الموافق ل٠٨ ربيع الثاني١٣٤٩، ص.٢٤١.

(٣٤) رويان (بوجمعة)، "**مجاعة ١٩٤٥**"، ندوة وقفات في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ١٧، ٢٠٠١، ص.٢٦١.

(35) BOUDERBALA(Negib), « **La question agraire au Maroc** » ,in Bulletin Economique et Social du Maroc, n°triple123-124-125, aôut1974, p.9.

(36) HALIM (Abdeljalil), **Structure agraire**..., **op. cit**, p.59.

(37) EL KHAYARI(Thami), **Agriculture au Maroc**, Editions Okad, Imprimerie de Fédala, 1987, p.78.

(٣٨) تافسكا (أحمد)، **تطور الحركة العمالية في المغرب (١٩١٩- ١٩٣٩)**، دار ابن خلدون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص.١١.

(٣٩) تافسكا (أحمد)، **الفلاحة...، م. س**، ص.٣٥.

(٤٠) تافسكا (أحمد)، **تطور الحركة...، م. س**، ص.١٢.

(41) JULLIEN (Charles André), **L'Afrique du Nord en marche:nationalismes musulmans et souveraineté française**, vol.1, Tunis, 200, p.210.

(٤٢) تافسكا (أحمد)، **الفلاحة ...، مرجع سابق**، ص ٣٥- ٣٦.

(43) HOFFHERR(René), **L'économie marocaine**, Librairie du Recueil Sirey, Paris, 1932 ., p.126.

(44) HOFFHERR(René), **L'économie**..., **op.cit**, pp.126-127.

(٤٥) عياش(ألبير)، **المغرب...، مرجع سابق** ، ص. ١٧٤.

(٤٦) تافسكا (أحمد)، **الفلاحة...، مرجع سابق** ، ص.ص٣٨-٣٩.

(47) «**Vente des terrains domaniaux**», L'Ouest-Eclair, Journal républicain du Matin, n°9745, 29éme année, Mardi 03 juillet1928, p.10.

(٤٨) تافسكا (أحمد)، **تطور الحركة... مرجع سابق** ، ص.١٣.

(٤٩) تافسكا (أحمد)، **تطور الحركة... مرجع سابق** ، ص.٢١.

(٥٠) الجريدة الرسمية، العدد ٨٠٩، ٢٤ أبريل ١٩٢٨، الموافق ل ٤ ذي القعدة ١٣٤٦، ص.ص.١١٨٦-١١٩١.

(٥١) الجريدة الرسمية، العدد(٦٣٨)، ١٣ يناير ١٩٢٥/الموافق ل١٧ جمادى الثانية ١٣٤٣،ص.٦٤.

• استثنت هذه المكافأة زراعة الكروم، التي لم تكن الإقامة العامة تنظر بعين الرضى لغرسها بالمغرب بسبب المنافسة التي ستتولد عن ذلك بين المغرب وفرنسا في مجال صناعة الخمور. الجريدة الرسمية، العدد٥٣١، ٣ يوليوز ١٩٢٣/ الموافق ل ١٨ قعدة ١٣٤١، ص.ص.٦٥٣-٦٥٤.

(٥٢) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٥٣) الجريدة الرسمية، العدد (٦٣٨)، ١٣ يناير ١٩٢٥، الموافق ل١٧ جمادى الثانية ١٣٤٣، ص.٦١.

(٥٤) تافسكا (أحمد)، **الفلاحة ...، مرجع سابق** ، ص.ص.٧٨-٧٩.

(55) NATAF(Félix), **Le Crédit et la Banque au Maroc**, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1929. , p.136.

(56) **Ibid.**, p.137.

(57) Bulletin Officiel, n°684, 01 décembre 1925, p.1895

(٥٨) تافسكا (أحمد)، **الفلاحة...، مرجع سابق** ، ص.٨٧.

(59) Bulletin Officiel, n°684,01 décembre 1925, p.1892

(60) NATAF(Félix), **Le Crédit**...,**op. cit.**, p.140.

(61) Bulletin Officiel, n°375, 29 décembre 1919, pp.1529-1531.

(62) **Ibid.**

(63) Bulletin Officiel, n°959,13 mars 1931, p.298.

(٦٤) عياش (ألبير)، **المغرب...، مرجع سابق** ، ص.١٨١.

(65) Bulletin Officiel, n°959, 13 mars 1931, pp.302-303.

(66) Bulletin Officiel, n°833 , 9 octobre 1928, p.2629.

(67) Bulletin Officiel, n°920, 13 juin 1930, p.708.

(68) Archives Nationale de Rabat,Carton S275, **Situation économique de la zone française du Maroc a la date du 31 janvier1937**, Direction des affaires économiques, p.39

(٦٩) الجريدة الرسمية، العدد (١٠٨٦)، ١٨ غشت ١٩٣٣/ الموافق ل٢٥ ربيع الثاني ١٣٥٢، ص.١٤٠٢.

(٧٠) تافسكا(أحمد)، **الفلاحة...، مرجع سابق** ، ص.٥٠.

(٧١) تافسكا (أحمد)، **تطور الحركة... مرجع سابق**، ص٢١- ٢٢.

(72) Archives Nationale de Rabat, Carton C 361, **Bulletin de la Chambre mixte française de Taza**, n°13, mars 1936, pp.4-5.

(٧٣) مريستان (جان)، "**الاستعمار**"، جريدة الأطلس، السنة الأولى، العدد الخامس، الجمعة ٦ محرم١٣٥٦، الموافق لـ ١٩ مارس١٩٣٧.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



المخزن
المفهوم، التمثلات، التصورات



عبد المجيد أيت القائد

باحث ماجستير في التاريخ المغاربي المقارن
كلية الآداب – القنيطرة
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد المجيد أيت القائد، المخزن: المفهوم، التمثلات، التصورات.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٥١ – ٥٩.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

يعتبر موضوع الدولة المغربية أو ما اصطلح على تسميته بـ "المخزن"، من المواضيع التي أصبحت تستهوي العديد من التخصصات العلمية، كما أنه أصبح من القضايا الراهنة والمستأثرة على حيز هام من اهتمام الباحثين، سواء المتخصصين منهم في الدراسات التاريخية، أو غيرهم من المختصين في باقي العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، بل أصبح الموضوع متداولاً حتى في الخطاب الصحفي. وتماشيًا مع التوجهات الراهنة في البحث التاريخي، يهدف هذا المقال إلى تتبع مسار مفهوم المخزن من الأصول إلى القرن التاسع عشر، كما يهدف إلى الكشف عن تمثلات هذا المفهوم عند النخبة التأريخية التي عاشت قبل قرنين من الآن أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من خلال نموذج مؤلف كتاب الإستقصا. تتناول هذه الدراسة موضوع مفهوم المخزن والتصورات التي حملها هذا المفهوم في خطاب مؤلف كتاب الاستقصا، عبر مبحثين؛ الأول يتتبع مفهوم المخزن نشأته وتطوره، وإشكالية مماثلته بمفهوم الدولة، ثم التغيرات والتحولات التي طالته عبر الزمن. ويسعى المبحث الثاني إلى الوقوف عند التمثلات والتصورات التي حملها المفهوم، في خطاب الناصري، باعتباره موظفًا مخزنيًا عايش أبرز الأحداث التي عرفها المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فهو يجسد المخزن بكل دلالاته في شخص السلطان، ويصور الصراع حول السلطة كمعضلة رافقت الدولة المخزنية منذ نشوئها.

مُقَدِّمَة

يستمد هذا الموضوع راهنيته، من كونه لا يزال حاضرًا وبقوة في الساحة الثقافية والفكرية، إذ "أضحى موضوع المخزن خلال السنوات الأخيرة يشكل مادة دسمة، ليس فقط للكتابات الأكاديمية ولكن حتى للخطاب الصحفي بالمغرب"،[١] كما أن الحراك السياسي الدائر في المغرب حاليًا، يدور حول ضرورة تحقيق الديمقراطية وتغيير النمط المخزني للسلطة، الذي يجد فيه البعض جميع مقومات السلطة المهيمنة غير الديمقراطية، ويتحجج أصحاب هذا الطرح بالقول إن المغرب، يبدو على غرار الدول الحديثة يتوفر على جميع العناصر التي من شأنها تحقيق الديمقراطية، "غير أن الحقيقة السياسية بعيدة عن هذا الواقع، إذ لا وجود حقيقي وراء هذه الواجهة الديمقراطية، سوى لمنشأة واحدة ووحيدة؛ هي منشأة المخزن".[٢]

وإذا كان بناء نظرة واضحة عن ماضي مؤسسة المخزن، يمكن أن يسهم في فهم سياسات الجهاز المخزني و"تشخيص آليات استمراريته وتغيره في آن واحد"،[٣] على اعتبار "أن أية سياسات ترتكز على تصورات الماضي"،[٣] فإن الكشف عن تمثلات مفهوم المخزن عند النخبة التأريخية، التي عاشت قبل قرنين من الآن وبالضبط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يُعَدّ أمرًا بالغ الأهمية. وبقدر ما يكتسي موضوع المخزن من الصعوبة والتعقيد،

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

يمكن القول كذلك إنه موضوع أسيل فيه الكثير من المداد، بيد أن أغلب الدراسات التي تناولت الموضوع عالجته وفق منهجية يحكمها التخصص وركزت على جوانب مختلفة مست المخزن من زوايا متباينة.[٤] ومن هنا يمكن التأكيد على أن جل الدراسات التي تناولت الموضوع، والكثير من الأبحاث التي أنجزت حوله لا تكاد تخلو من ثغرات، وذلك لكون معظمها اهتمت إما بجانب من جوانب هذا المفهوم المركب، أو أنها اختزلت دلالاته المتعددة في وظيفة من وظائفه، ومن هذا المنظور، يعتبر التعامل الشمولي والمنظم مع مختلف هذه الدراسات أمرًا ملحًا، على اعتبار عنصر التكامل والتقاطع اللذين يمكن ملاحظتهما بينها. فما هي أهم منطلقات هذه الدراسات؟ وكيف عالجت موضوع المخزن؟

على المستوى الأول، يمكننا التمييز بين ما يمكن أن نسميه بالكتابات الكولونيالية، والتي حاولت "فهم الميكانيزمات المحركة لجهاز المخزن" عبر "تفكيك مكونات الذاكرة المغربية"، فركزت اهتماماتها على "الزاوية والقبيلة والعلماء والسلطة السلطانية"،[٥] ومن أبرز رواد المدرسة الكولونيالية: ميشو بيلير (Bilaire Michaux) وروبير مونطاني (Robert Montagne)، اللذين انطلقا من فكرة اعتبار المخزن مجرد جهاز طفيلي جاثم على رقاب القبائل، يسلبها خيراتها عن طريق فرض الضرائب التي كانت المبرر الوحيد لوجوده،[٦] وأن المجال السياسي المغربي ينقسم إلى خطين منفصلين: "(خط القبيلة) وتسوده سلطة الزاوية، و(خط الدولة) وتسوده سلطة المخزن، ويصر الكولونياليون على أن هناك حدودًا قارة وثابتة تفصل بين الخطين، مما يكرس وضع "الانفصال" و"القطيعة" بين مجالي القبيلة والدولة".[٧]

وفي المقابل، سخر الطرح الوطني حيزًا هامًا من جهوده، لتفنيد الأطروحات الكولونيالية، التي كان يحكمها منطق تحاملي على المغرب، فأعادت تلك الكتابات الوطنية الاعتبار لهوية المغرب التاريخية،[٨] مقترحةً تقسيمًا بديلاً مناقضًا للتقسيم الكولونيالي، يقوم أساسًا على مفهوم "الاتصال" بدل "الانفصال"، ويظهر فيه المجال السياسي المغربي "كخط متصل، يمتد من الدولة إلى القبيلة- مع ما يعنيه ذلك من اندماج وانسجام تامين بين مكونات هذا المجال".[٩] غير أن الصعوبة التي تواجه الباحث في موضوع المخزن، كلما حاول مقاربة مضامين مفهوم المخزن، وخاض في سبر أغواره وتحديد كنهه، هو تنوع المقاربات والأطروحات التي نسجت حول الموضوع، واختلافها بل وتضاربها في بعض الأحيان، وذلك راجع لاختلاف وتنوع المشارب المعرفية، إذ شكل موضوع المخزن محورًا تقاطعت عنده، اهتمامات المؤرخ باهتمامات السوسيولوجي والأنثروبولوجي وكذلك عالم السياسة، كما أن ذلك راجع أيضًا، إلى اختلاف المنطلقات الإيديولوجية لأصحابها.

إلا أن محاولة تركيبية لما جاء في مختلف المصادر التي تناولت الموضوع بطريقة أو بأخرى – استنادًا إلى التوجهات الراهنة في البحث التاريخي، التي تحث على ضرورة انفتاح التاريخ على مختلف العلوم الاجتماعية- قد يفضي إلى نتائج مرضية. و"مادام أن سبر أغوار مضامين مفهوم المخزن ينبغي أن ينطلق من تصورات تلك المضامين في أذهان السلاطين، كان الاعتماد على ما أورده الإخباريون الرسميون عن ممارسات السلاطين في مختلف المجالات والأصعدة ضروريًا على الرغم من تركيزهم على الأحداث السياسية والعسكرية وإغفالهم للوقائع الاقتصادية والاجتماعية والإدارية".[١٠]

فماذا يعني المخزن إذن؟ وما السياق التاريخي الذي رافق بروزه وتبلوره مغربيًا؟ **وما أبرز الصور الراسخة في المتخيل الجمعي عن المخزن؟** وما الثابت والمتحول في خصائصه ووظائفه؟ **وما القاسم المشترك بين مختلف المقاربات التي عالجت الموضوع؟**

أولاً: مفهوم المخزن، السياق والدلالات

يثير الحديث عن المخزن كمفهوم بالضرورة الحديث عن سياق بروز هذا المصطلح وظروف تبلوره، وذلك راجع لكونه اتخذ في البداية تحديدًا بديهيًا، خاصة على المستوى المعجمي،[١١] لينطلق بعد ذلك نحو اتخاذ حمولات ودلالات معقدة ومتشابكة خصوصًا في القاموس السياسي المغربي.[١٢]

١/١- السياق التاريخي للمفهوم:

وهكذا كلما ابتعدنا عن "دائرة اللغة تتبدى التغيرات والاختلافات على صعيد زمن وولادة المخزن، حقيقته وطبيعته ووظائفه، ثم كيفيات انتقاله من المعنى اللغوي الدال على تيمة المكان بتخزين الضرائب إلى مجموع أجهزة الحكم".[١٣] وقد أفضى الجدل النظري القائم حول ماهية المخزن وكنهه إلى بروز آراء متباينة. ويعتبر العصر الوسيط، كما بين ذلك مجموعة من الباحثين، الفترة التي ظهر فيها مفهوم المخزن لأول مرة، خاصة عند الأغالبة (٨٠٠-٩٠٩م)، "غير أن المخزن في تلك المرحلة لم يكن سوى الخزين الذي كانت تحفظ فيه الأموال المجباة مؤقتا قبل إرسالها إلى الخزينة المركزية في بغداد".[١٤]

وشكل "ارتخاء و تراجع تبعية إيالات شمال إفريقيا لمركز الخلافة في بغداد"،[١٥] منعطفًا أساسيًا في مسار هذا المفهوم، حيث أن هذه الفترة هي التي بدأ يترسخ فيها مصطلح المخزن في المغرب الأقصى. فكيف تبلور مفهوم المخزن و ترسخ؟ و متى حصل ذلك؟

تجدر الإشارة عند الحديث عن المخزن، إلى ملاحظتين رئيسيتين:

أولاهما: ضرورة التمييز بين المخزن في معناه اللغوي، الذي يشير إلى المكان الذي يتم فيه الخزن، والمشتق من فعل خَزن، كما يشير إلى ما كان يجمع في بيت المال من ضرائب وجبايات.[١٦] وبين المخزن كمصطلح، الذي يحمل دلالات متعددة ومركبة، "ويقدم في الواقع السياسي مرادفًا لمفاهيم الدولة والسلطة والنظام".[١٧]

أما **الملاحظة الثانية**، فتتمثل في إقرار معظم الباحثين والمهتمين بموضوع المخزن، على صعوبة التحديد الدقيق والحصر الكامل لإحداثيات هذا المصطلح، بحيث لم يتفقوا سوى على تعريفه اللغوي، أما معناه الاصطلاحي فقد حدده كل من وجهة نظر

ISSN: 2090 – 0449
علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

تخصصه، ومحصلة تلك المقاربات والنقاشات، بروز أطروحات منها ما يتكامل ومنها ما يتعارض،[١٨] فمن تلك المقاربات ما حصر المخزن في وظيفة من وظائفه المتعددة، انطلاقًا من حمولة لغوية، رغم أن المفهوم يكثف دلالات متعددة من غير المنطقي اختزالها في توصيف محدد.[١٩] إلا أن هناك مَنْ تعامل مع المخزن بغض النظر عن وظائفه المتنوعة، ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ليضفي عليه صبغة دينية فاعتبر على سبيل المثال، أنه مفهوم يكثف معنى المؤسسة التي تستمد سلطاتها مباشرة من الله.[٢٠]

ومرة أخرى، فالاختلاف والتباين هما سمة النقاش الدائر بين الباحثين حول أصول نشوء وتشكل مفهوم المخزن، فمن قائل يقول؛ بأن عهد الدولة الموحدية هي الفترة التي أصبح فيها مصطلح المخزن متداولاً في الكتابات الرسمية وعلى الألسن[٢١] "وكان البيدق هو أول مَنْ استعمل الكلمة "عبيد المخزن" في كتابه "أخبار المهدي ابن تومرت وبداية الدولة الموحدية".[٢١] إلى قائل بأنه "ثمة شبه إجماع على أن مؤسسة المخزن أصبحت منذ العصر الحديث تدل على مجموع التنظيمات الإدارية".[٢٢] غير أن هذا الباحث تساءل عن مدى ارتباط تدعيم هياكل المخزن بالصعوبات الداخلية والخارجية التي واجهتها البلاد، أم أن ذلك حال على العكس دون تعزيز تلك الهياكل؟ وأشار إلى الدور الذي اضطلعت به التجارة بالنسبة لمؤسسة المخزن، إلى الحد الذي يمكن، في نظره، اختزال ظهور تلك المؤسسة في عوامل لها علاقة بالتجارة، "بحيث أصبح المخزن يجسد سلطة سياسية تشرف على تنظيم النشاط التجاري، الذي نتج عن تحول شرايينه إلى المحيط الأطلنطي بفعل وصول العثمانيين إلى الجزائر"، كما أدى "الاحتكاك بالأتراك إلى اقتباس بعض المظاهر" التي ساهمت في تحديث هياكل المخزن".[٢٣]

وخلص إلى أن عهد السعديين وخاصة عهد أحمد المنصور، كما أكدت ذلك مجموعة من الدراسات، هي الفترة التي أصبح فيها المخزن يحمل دلالة دولة أو سلطة مركزية،[٢٤] وأرجع ذلك إلى الضغوطات الخارجية التي شهدها المغرب خلال هذه المرحلة، والتي ألقت بثقلها على المخزن، بما فيها التهديد العثماني واستحواذ الإيبريين على السواحل، مما أدى إلى ظهور ما سماه "بالوحدة السياسية والاثنية داخل مجال ترابي، أصبح أكثر تميزًا من منظور السلاطين والنخب الدينية والمتعلمة".[٢٥] وتجدر الإشارة هنا إلى؛ أن ظهور الوعي بوحدة الرقعة الترابية للمغرب، ناتج عن مخلفات القرن الخامس عشر ككل، بما فيها التحديات الخارجية السابقة الذكر، والتحولات الداخلية المرتبطة بانتشار الفوضى الاجتماعية وتنامي المد الصوفي، وكذلك الغياب التام للدولة، مما أدى إلى "تراجع دينامية المجال – وهو تراجع أدى إلى انحسار الفضاء الجغرافي للبلاد".[٢٦]

بالإضافة إلى الاتجاهين السابقين، ذهب اتجاه ثالث إلى اعتبار نهاية القرن التاسع عشر؛ الفترة التي أصبح فيها المخزن يعني السلطان وحكومته وإدارته، كما أن الاستعمال الرسمي لكلمة المخزن بدأ في القرن التاسع عشر،[٢٧] عكس الاتجاه الأول الذي أرجع التوظيف الرسمي لهذا المصطلح إلى عهد الدولة الموحدية، وهو الأمر الذي وصفه مجموعة من الباحثين، في حقل التاريخ على الخصوص، بقصور المقاربة السياسية للموضوع، وخلوها من الحس التاريخي.

وقد ربط عبد الله العروي ظهور أجهزة المخزن، بظهور الدولة بمفهومها العصري، بحيث أن كلمة المخزن كانت تطلق في المغرب على هيئة إدارية، و"المخزن كان سيفًا وقلمًا نما وتطور مع كل دولة وإمارة من الدول المتعاقبة على حكم المغرب، بما فيها الدولة الزيانية التي كانت أقل اتساعًا".[٢٨] وفي نفس الاتجاه الذي سار فيه عبد الله العروي، ذهب ميشو بيلير إلى القول بشيء من التفصيل؛ إن مصطلح المخزن مر من مراحل ثلاثة، الأولى استعمل فيها لنعت مستودع تخزن فيه الأموال الموجهة إلى بيت مال الأمة الإسلامية، و اقتصر في المرحلة الثانية على التعبير عن خزينة المغرب عندما استقلت مع الدول "البربرية"، ليتخذ دلالة إدارية في مرحلة ثالثة مع الدولتين الشريفتين السعدية و العلوية.[٢٩]

وتتجسد أيضًا صعوبة تحديد مفهوم المخزن، بسبب تداخله مع مفاهيم أخرى ذات طبيعة سياسية واجتماعية، فضلاً عن ارتباطه بمؤسسة يمكن أن تطلق عليها مسميات مختلفة، ليطفو على السطح إشكال المماثلة بينه وبين تلك المفاهيم، خصوصًا إذا علمنا أن الظروف المرافقة لنشأة المخزن، تختلف تمامًا عن الظروف المتحكمة في بروز المفاهيم الأخرى، كمفهوم "الدولة الحديثة"، على سبيل المثال.

غير أن ما أجمع عليه جل الباحثين الذين تناولوا موضوع المخزن؛ هو أن هذا الأخير، وإن كان يحمل في فترات معينة البعض من المواصفات والسمات التي وُسِمت بها الدول الحديثة، إلا أن ذلك لا يعني، في نظرهم، أن جهاز المخزن انسلخ عن تربته التقليدية وعانق سماء الدول الحديثة، مما أفضى إلى بروز جدل نظري حول طبيعة النظام السياسي المغربي من جديد، خصوصًا من جانب المؤرخين، الذي تحفظوا كثيرًا في إطلاق مصطلحات على المخزن، اعتبروا أنها لا تعبر عن محتواه، وأن إطلاقها مجازفة ستؤدي لا محالة، إلى إفراغه من محتواه، ونسف الخصوصية التي ميزت هذا النسق. فما حقيقة هذا الجدل وما مسبباته؟

٢/١- إشكالية المماثلة بين المخزن والدولة:

تميز الفكر الإسلامي القديم، بما فيه فكر ابن خلدون، بعدم وجود نظرية للدولة،[٣٠] لذلك فإشكال المصطلح لم يكن مطروحًا على مستوى المصادر التاريخية، لأن مصطلح الدولة كما وظفه الناصري في كتابه الاستقصا . على سبيل المثال . لم يكن يعني سوى فترة حكم معين، مرتبط بشخص السلطان، ورهين بحضوره، فهو يقوى بقوة السلطان ومدى تحكمه في الأمور، ويضعف وينحل بضعفه. كل هذا يسعفنا للتأكيد على أن مصطلح الدولة كما هو

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

متداول في الإسطوغرافية التقليدية، لم يكن يتجاوز المعنى البسيط للكلمة، انطلاقًا مما جاء في الآية الكريمة {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}.(آل عمران: ١٤٠)

أما على المستوى النظري، وكما أكدت على ذلك مجموعة من الأبحاث، فمقاربة مفهوم المخزن، انطلاقًا من خلفيات معينة، رغبة في إصباغه بصبغة معينة، أمر فيه مجازفة كبيرة، بالنظر إلى ما يمثله ذلك من مخاطرة قد تؤدي إلى تشويه مضامينه وإفراغه من محتواه.[٣١] وكما أن مفهوم المخزن كان محل جدل في أوساط الدارسين، اكتست إشكالية مماثلته بمفهوم الدولة في شكلها الحديث، طابعًا جدليًا ومعقدًا، فطرحت تساؤلات عديدة في هذا الصدد؛ من قبيل هل مثل المخزن دولة؟[٣٢] وهل يشكل المخزن نسخة "أركيولوجية" عن الدولة، وأن الدولة نسخة حديثة ومنقحة عن المخزن؟.

لا شك أن بروز مفهوم الدولة في أوربا في العصر الحديث، قد تزامن مع تحديث هياكل المخزن، بيد أن "ترجمة مفهوم المخزن بمفهوم الدولة بالمعنى الحديث أمر في غاية المجازفة".[٣٣] على الرغم من أن وظائفه ووسائله توحي بوجود نظام له أسسه وقواعده ومنطقه الخاص الذي يعتبر السلطان نقطة رسوه، و هو الأمر الذي عبر عنه الطيب بياض حين قال بأن "الكشف عن القوى العميقة المفسرة لسلوك المخزن هي الكفيلة بالرد على من يرفضون وجود قانون منظم ويرون أن المسألة مزاجية تتحكم فيها رغبات السلطان وأهواؤه".[٣٤] وأكد أن التحديد الذي قدمه محمد صلاح الدين هو الأقرب إلى استيعاب عمق المخزن، الذي رأى أن "مفهوم المخزن يكشف في نفس الوقت معنى المؤسسة التي تستمد سلطاتها مباشرة من الله لكن يعني كذلك الملك والوزراء والسلطات المحلية، والمال، والقرض والسجن".[٣٥] وهو ما يسمح بالحديث عن شكل من الازدواجية "مخزن تقليدي بإدارة تحمل بعض مواصفات الدولة الحديثة".[٣٦]

هذه الازدواجية والتداخل هي ما اعتبره مجموعة من الدارسين، العقبة التي تجعل من الصعب "تشخيص دولة بمواصفات مثيلتها في أوربا العصر الحديث".[٣٧] فمن جهة، يتوفر المخزن على بينة خاصة لها نظامها وعقلانيتها وقانونها، ومن جهة، نجد ذلك التداخل فيما بين ما هو ديني وعسكري ومدني، وهو ما ذهب عبد الله العروي إلى إقراره. ومن جهة أخرى؛ اختلفت الظروف التي رافقت بروز الدولة الحديثة في أوربا، عن مثيلتها المتحكمة في ظهور المخزن، ففي الوقت الذي ارتبط فيه نمو الدولة بأوروبا ارتباطًا عضويًا بالطبقة الوسطى لم يكن المخزن يمثل مصالح طبقة معينة،[٣٨] فظل تاريخ المغرب مفتقدًا إلى ذلك المحرك الأساسي، أي البورجوازية، الذي قاد الدول الأوروبية نحو معانقة عوالم جديدة، والسير باتجاه التطور، الاقتصاد الميركانتيللي، والدولة القومية.[٣٩]

وإذا كان المخزن تبعًا لما سلف، لا يعكس محتوى الدولة في القاموس الأوربي الحديث، فإن بعض الدارسين، اعتبر أن استعارة عبارة "السلطة المركزية"، ملائمة أكثر "لمقاربة مفهوم المخزن في العصر الحديث".[٤٠] ويرجع ذلك الخلط بين مفهوم المخزن ومفهوم الدولة، حسب إبراهيم بوطالب، إلى "اختلاط مفهوم الدولة مع مفهوم وظيفتها الكبرى، التي هي جمع أموال الجماعة للحفاظ على أمنها في الداخل..."[٤١] وأكد أنه لا عجب في أن ينتهي أمر المخزن، الذي استقر في يد الشرفاء العلويين منذ ما يزيد عن ثلاثمائة وخمسين سنة، بخلط مطلق بين مفاهيم الدولة والمخزن.

للمخزن، إذن، جذور عريقة في التاريخ المغربي، فهو ظاهرة مستمرة في الزمن، استطاع –بفضل ديناميكية وتجدد آلياته . أن يقاوم مختلف الأخطار التي واجهته، وأن يتكيف مع مختلف الأوضاع المستجدة، على الرغم من هشاشته داخليًا، واسما بذلك تاريخ المغرب بخصوصية متفردة، فهو جهاز اكتسى، في مختلف تجلياته وأبعاده، سمات الأساطير التي تحاك حولها الحكايات وتضربُ بها الأمثال. فكيف كانت فئة العامة تتمثل المخزن؟، وما صورة حضور المخزن في المتخيل الشعبي؟

٣/١- المخزن وتمثلات المجتمع:

إذا كانت الاسطوغرافية التقليدية، قد اعتنت بالدرجة الأولى خاصة، بإبراز مواقف السلطة من الناس، دون أن تتطرق إلا في بعض الأحيان لموقف السكان من السلطة، كان من الصعب الإحاطة "بطبيعة الأفكار التي حملها الناس عن مؤسسة الحكم".[٤٢] إلا أن ذلك لا ينقص من قيمة الذهنية العامة باعتبارها مصدرًا هامًا لتحديد مضامين المخزن كمفهوم، فما طبيعة الأفكار التي حملها السكان تجاه مؤسسة المخزن، انطلاقًا من بعض المعلومات المشار إليها هنا وهناك في كتابات الإخباريين؟

إن أول استنتاج خلصنا إليه، في قراءتنا لنصوص المؤرخ الناصري، هو تجسيده لمؤسسة المخزن بكل هياكلها في شخص واحد هو السلطان، ومن هنا يمكن التأكيد، مع بعض الباحثين، على ذلك الرابط الجدلي بين المجتمع والسلطان، فبحضور هذا الأخير تتبدد كل الشكوك التي تخامر الصدور، وغيابه لأي سبب من الأسباب يفضي لا محالة إلى الارتباك وتزايد البلبلة في صفوف الناس، كما أن السلاطين أنفسهم يسارعون كلما تماثلوا للشفاء من أية وعكة صحية قد تصيبهم، إلى تفقد أحوال الرعية وتبديد تلك الشكوك فالطرفان إذن "كانا على وعي بأهمية ذلك الحضور في تحيين العلاقات بينهما".[٤٣] وباعتبار السلطان مركز الإشعاع، والثابت الرئيسي، والمحور الأساسي، الذي يدور في فلكه كل النظام المخزني، "فإن الصور التي أوردتها الاسطوغرافية عن نظرة الرعية للمخزن، لا يمكن فصلها عن نظرة الرعية للسلطان".[٤٤]

بالإضافة إلى هذه المكانة التي حظي بها السلطان، سواء في المخيلة العامة، أو في ذهنية المؤرخين الإخباريين، شكل الخوف وعدم الثقة أبرز مظهر لازم السكان في تعاملهم مع المخزن، ويجد هذا الخوف مبرره "في طغيان هاجس عدم الثقة لأن المخزن لا أمان فيه حسب تصور القبائل"،[٤٥] وذلك نابع من تعود الأطر

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المخزنية على بث العداوة والبغضاء بين القبائل، مما يستوجب الحذر، وكان مما زاد من ترسخ هاجس الخوف لدى السكان، ما يلجأ إليه المخزن أثناء حركاته من استعراض لقوته العسكرية أمامهم،"مما يبث الرعب في النفوس".(٤٦) ومن أبرز ما كان السكان يتخوفون بشأنه من المخزن، هو إجراءات المصادرة التي كان يتخذها في حقهم، مما يجبرهم على إخفاء كل ممتلكاتهم في أماكن بعيدة إلى حين مرور الحركة. ولعل في المثل الشعبي المتداول بين الناس، والذي يفيد بأن لا خوف إلا من ثلاث: "المخزن"، و"العافية"،(٤٧) و"البحر"، ما يلخص الصورة المُتَمثَّلَة في أذهان العامة تجاه المخزن.

والغريب في أمر المخزن، هو أن هاجس الخوف وصوره لم تترسخ فقط في مخيلات العامة، بل امتدت لتشمل مواقف النخبة المخزنية من السلطان، بحيث أن كبار المقربين من المخزن يرتعدون خوفًا "كلما تم استدعاؤهم للمثول بين يدي السلطان حتى ولو تعلق الأمر بالتدابير الاعتيادية".(٤٨) مما يبرهن مرة أخرى على دور مؤسسة السلطان المحوري في النظام المخزني. فالسلطان هو صانع النخبة المخزنية، "يختارها ويرقيها ويراقبها، وينزع منها نفوذها وأموالها إذا اقتضت ذلك مصلحة البلاد دون أن يشكل ذلك أي صعوبة مصدرها الوزن الاجتماعي".(٤٩) فبنية خدام المخزن، لم تكن فئة متجانسة، بقدر ما كانت متنوعة الأصول، وعرضة للتغيير من عهد سلطان إلى آخر.(٥٠)

من جانب آخر، وعلى الرغم من توجيه هاجس الخوف لمواقف العامة من المخزن، فإن الإسطوغرافية التقليدية وفي طليعتها المؤرخ الناصري، تكشف عن "وجود حاجة ملحة إلى استمراريته تحت حكم السلاطين الأقوياء، باعتبار أن وجودهم يوفر الأمن ويحقق السكينة"،(٥١) استنادا إلى قاعدة مفادها أن "الإمام الجائر خير من الفتنة"، وهو ما يؤكده قول الناصري في معرض حديثه عن وفاة السلطان المولى إسماعيل بنبرة ملؤها الحسرة على أيامه التي كانت "من الأمن والعافية وتمام الضبط حتى لم يبق لأهل الذعارة والفساد محل يأوون إليه ويعتصمون به ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه".(٥٢)

وبالإضافة إلى التصورين السابقين للمخزن في ذواكر الناس، واللذين ارتبطا بطريقة أو بأخرى بالسلم والطمأنينة والخوف، تمخض أيضًا عن نظرة السكان للمخزن صور أخرى، من ضمنها "تلك المتعلقة بما يوفره العمل في دواليب أجهزته من هيبة وجاه، ترق بأصحابها إلى مراتب عليا في المجتمع".(٥٣) ولئن كرس النفوذ، الذي استأثرت به الأطر المخزنية، صور الهيبة تلك، فإن المظهر الخارجي لأولئك الأطر الذي ميزهم من غيرهم شملته أيضا الهيبة، إذ لطالما كان زي أهل المخزن وطريقة عيشهم محلا للاستغراب والتعجب، فاللباس الرفيع ارتبط في ذهنية الناس بالانتماء إلى المخزن، كما أنه يصنف أهله بالإضافة إلى السكن الذي يقطنونه، في قمة التراتبية الاجتماعية.(٥٤)

٤/١- التغيير الخصائصي لمدلول المخزن:

تقعيدًا لما سبق، يمكن القول إن دراسات عدة اتخذت من فكر ابن خلدون أساسًا لتطعيم أطروحاتها، وتراوح مفهوم المخزن كما جاء عند ابن خلدون، بين كونه سلطان قبيلة أو زاوية، وفي الحالة الأولى، حسب عبد الله العروي، تغلب على المخزن خصائص القبيلة في تنظيماته وسياساته، كما كان الأمر زمن المرابطين والموحدين والمرينيين، وفي الحالة الثانية يتصف المخزن بصفات الزاوية كما الشأن عند الأدارسة والسعديين والدلائيين،(٥٥) وبالإضافة إلى تلك الصفات التي تميز بها المخزن زمن المرابطين والموحدين، غلب عليه أيضًا الطابع العسكري، فضلاً عن تسرب العنصر الأندلسي إلى دواليب الدولة.(٥٦)

وهكذا يتضح؛ أن المخزن في الحقبة الوسيطية، يتحدد من خلال ممارسة الوظائف الثلاثة: "الوزارة كمخطط"، و"الكتابة كَمُعلِن"، و"أصحاب الأعمال كمنفذين"، ويلخص عبد الله العروي هذه الوظائف الثلاثة في ثلاث جماعات؛ الأولى ضيقة جدًا، وهي المخططة والمسيرة فعليًا لسياسة البلاد على المستويين الداخلي والخارجي، وتنحصر في شخصين أو ثلاثة أحيانًا، وينبغي لِمَنْ أراد الترشح لتلك المرتبة العالية، أن تتوفر فيه شروط معينة، وبينما تُعرِب المجموعة الثانية، المكونة من الكتاب، عن السياسة المرسومة، بترجمتها إلى لغة رسمية مضبوطة، كانت الجماعة الثالثة؛ وهي الأكثر اتساعًا من السابقتين، تقوم بتنفيذ الأوامر، وكانت مكونة من أصحاب الأشغال والأعمال،(٥٧) لكن مع مرور الأيام والسنوات، طرأت تحولات على مفهوم المخزن، ليصبح في نهاية القرن التاسع عشر يعني السلطان وحكومته وإدارته.(٥٨)

إن هذه التحولات، التي طرأت -من حيث الخصائص- على المخزن ومدلوله، أفضت بدورها إلى ذلك الاختلاف في المقاربات والاتجاهات حوله، اختلاف ناتج بالأساس عن تناول موضوع المخزن ككل وفق منهج تجزيئي، بدل المقاربة الشاملة والكلية للموضوع، باعتباره ظاهرة اجتماعية مهيكلة لتاريخ المغرب لفترة طويلة من الزمن. فإلى أي حد يُفيدنا كتاب الاستقصا- باعتباره مصدر رئيسي لتاريخ المغرب – في استخلاص بعض سمات مفهوم المخزن؟، أي بعبارة أخرى ما تمثلات وتصورات مفهوم المخزن في خطاب مُؤلِّف كتاب الاستقصا؟

ثانيًا: مفهوم المخزن من خلال كتاب الاستقصا*

تتسم منهجية المؤرخ الناصري في كتابة "تاريخ المغرب" بالجرأة والميل نحو استقلالية الرأي، فهو كما وصفه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنصال: "يمثل في حركة التأليف التاريخي في المغرب ظاهرة جديدة".(٥٩) وقد برهن هذا المؤرخ فعلاً، عن ذلك من خلال انخراطه في مناقشة بعض القضايا الحساسة، مما جر عليه بعض اللوم من طرف المخزن؛ مثل موقفه من تجربة الأمير عبد القادر الجزائري وعلاقته بالمخزن المغربي على عهد السلطان الحسن الأول، فتمسكه بالاضطلاع بدور الفقيه، القائم بمهمة الإصلاح، ومراقبة

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

السلطة السياسية، جعل علاقته بالمخزن الحسني تعرف نوعًا من التوتر. وإذا كانت طبيعة كتاب الاستقصا التقليدية، تعطي الانطباع منذ الوهلة الأولى بعدم جدوى مقاربة موضوع المخزن من خلاله، فإن المعلومات الواردة به والتي ركزت بالأساس على الأحداث السياسية، إضافة إلى كونه أول مصدر يعالج تاريخ المغرب بشكل شمولي منذ مجيء الإسلام إلى نهاية القرن التاسع عشر، فضلاً عن ما تميزت به كتابته من حس نقدي، كلها أمور تجعل الانطباع الأول يذوب أمام الرغبة في استخلاص بعض السمات والمحددات العامة حول هذا الموضوع، إيمانًا منا بأن المخزن هو ظاهرة اجتماعية مهيكلة لتاريخ المغرب، وتخترقه طولاً وعرضًا. فما الثوابت الرئيسية والقواسم المشتركة بين المخزن عبر تاريخ المغرب منذ الأدارسة إلى العلويين، كما هي بارزة في كتاب الاستقصا؟ وما المداخل الرئيسية لموضوع المخزن من خلال كتاب الاستقصا؟

١/٢- المخزن مجسدًا في مؤسسة السلطان:

تُعَدّ مؤسسة السلطان من أبرز مكونات ومرتكزات النظام المخزني منذ بداياته الأولى، بحيث نجد السلطان محورًا أساسيًا وثابتًا رئيسيًا داخل الجهاز المخزني، ويتمتع بسلطات متداخلة ومركبة، فهو إمام يسهر على حماية الشريعة الإسلامية، كما أنه قائد عسكري بالنسبة للجند.[٦٠] والمخزن في نظر عبد الله العروي يستمد شرعيته من وظيفة الإمامة، ويتجسد في شخص هو السلطان،[٦١] كما أنه في نظر الصدر الأعظم على عهد السلطان المولى عبد العزيز (١٨٩٤-١٩٠٨) (أحمد بن موسى المعروف بـ"باحماد")[٦٢] عبارة عن خيمة كبيرة عمودها الأساسي ودعامتها هو السلطان، وأوتادها التي تحيط بها هم رجال السلطة.[٦٣]

وما يلاحظ من تفشي الفوضى وانتشار الريبة والخوف عند العامة، حين يتعرض السلطان لوعكة صحية تمنعه من الظهور، خير دليل على المكانة التي يحظى بها داخل مؤسسة المخزن، و قد أورد الناصري ذلك، في الاستقصا، في عدة مناسبات، بل ووقف عنده بشكل مطول، "ولما أولت الاسطوغرافيا التقليدية عناية خاصة لتوظيف مادتها الإخبارية في إظهار عظمة السلطان دون أن تعير اهتمامًا لسمات المؤسسة التي جسدها"،[٦٤] فقد ركز الناصري، باعتباره أحد أعمدة الاسطوغرافيا التقليدية، في الاستقصا على مؤسسة السلطان، وأورد عدة عبارات عن المخزن في سياق الحديث عنها، مما يحق معه القول، إنه فعلاً جسد المخزن بدلالاته المتعددة في مؤسسة السلطان.

ولما كان الشغل الشاغل للمخزن المغربي؛ هو فرض الأمن والاستقرار وقمع الثورات والتمردات، ولما كان الجهاد من أبرز الأسس التي بنت عليها مختلف الدول المغربية شرعية قيامها، خصوصًا في العصر الوسيط، فقد أولت الكتابات الإخبارية عناية خاصة بهذا الجانب، وركزت على مسألة العلاقة بالآخر، ككائن أصبح يشكل تحديًا للدولة المغربية، ويهدد هويتها وثقافتها ووحدتها الترابية، لذا فقد نصب أغلب المؤرخين التقليديين أنفسهم مدافعين عن الهوية المحلية، ونجد الناصري في طليعة هؤلاء، بحيث كانت له مقالات في هذا الجانب.

كما أكد بعض الدارسين، على الدور المحوري الذي لعبه الاحتكاك بالأجنبي ومحاولات ربط العلاقات معه، وكون ذلك من أبرز العوامل التي ساهمت في تبلور المخزن وتطور هياكله، فمن جهة اعتُبِرت نهاية القرن التاسع عشر الفترة التي أصبح فيها المخزن يعني السلطان وحكومته،[٦٥] في حين ذهب بعض الباحثين،[٦٦] إلى أن مؤسسة المخزن أصبحت منذ العصر الحديث تدل على مجموع التنظيمات الإدارية التي تشكلت تدريجيًا، بفعل عاملين أساسيين:
أولاً: الضرورة الداخلية المتمثلة في حفظ الأمن وتحصيل الضرائب.
ثانيًا: التزامات السياسة الخارجية وما واكبها من تبادل المبعوثين.
ومن جهة أخرى؛ أكد على أن الاحتكاك بالأجانب أفضى إلى اقتباس بعض المظاهر التي ساهمت في تحديث هياكل المخزن وأجهزته.

٢/٢- الصراع حول السلطة ومسألة المشروعية السياسية:

شكل الصراع حول السلطة من بين العقبات الرئيسية التي واجهت المخزن المغربي منذ العصر الوسيط، سواء تعلق الأمر بالصراع بين أبناء السلطان بعد وفاة هذا الأخير، كما حدث بين أبناء أحمد المنصور السعدي، والمولى إسماعيل العلوي، بحيث "شكل تعدد الأمراء خطرًا دائمًا على مؤسسة المخزن"،[٦٧] أو حتى فيما يتعلق بتمردات وثورات بعض القبائل، وقد اعتُبِر هذا العنصر من أبرز مكامن الهشاشة في النظام المخزني، لذا فلا غرابة في أن نجد معظم الإخباريين الذين أرخوا للمخزن المغربي، يخصصون حيزًا هامًا من كتاباتهم للحديث عن هذه المسألة، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو كان متضمنا في خطابهم، ونجد صاحب الإستقصا في مقدمة هؤلاء، ومن ذلك قوله متحدثًا عن دولة المولى إسماعيل العلوي: "... ولا نغص عليه دولته منغص سوى ثورة ابن محرز وابنه محمد العالم ومن سلك سننهم من القرابة".[٦٨]

وقد طفت مسألة المشروعية السياسية على السطح لكون "الانتقال السياسي من سلطان لآخر، ومن سلالة حاكمة لأخرى، أبرز عقبة اعترضت بناء قواعد مضبوطة للصيغ التي يتم بموجبها التعاقب على السلطة".[٦٩] وهذا الأمر هو ما جعل اكتساب الشرعية مرتبطًا بمدى قدرة الحاكم على فرض قوته وسيطرته، فكلما كان الحاكم قويًا واستطاعت سلطته أن تدافع عن شرعيتها، كان محل وحدة ولحمة، وكلما كان فاقدًا لتلك السلطة كان مجلبة للفرقة والاختلاف. فبقيت، إذن، السلطة مرتبطة بمدى القدرة على ممارسة القوة، مستفيدة من إجماع العلماء على أن الإمام الجائر خير من الفتنة، مما "فتح الباب أمام الورثة الشرعيين من أجل الإدلاء بدلوهم والبحث عن موطئ قدم لهم في معركة الخلافة بعد وفاة السلطان".[٧٠]

وفضلاً عن القوة، كانت للمشروعية الرمزية، المرتبطة بالبيعة، مكانة متميزة، باعتبارها من أهم الأسس والركائز التي يقوم عليها الحكم في تاريخ المغرب، ولعل أبرز ما يؤكد ذلك، ما أورده

ISSN: 2090 – 0449 علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية

الإخباريون من إشارات، تؤكد ارتباط استمرار الدولة بالاعتراف الرمزي بها، عن طريق البيعة، من طرف الأعيان والشرفاء والقضاة وقواد القبائل، أو مَنْ يُنعتون في أدبيات الإسطوغرافية التقليدية، بجماعة أهل الحل والعقد، وفي هذا الصدد يقول صاحب الاستقصا: "لما توفي أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله... أجمع قواد العسكر البخاري وقواد الودايا وأعيان الدولة وقضاتها وكتابها وبايعوا أبا العباس أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي لبسط يده بالعطاء... ثم تقدم عليه قواد القبائل والأمصار وأعيانها من أهل الحواضر والبوادي مبايعين ومؤدين الطاعة".(٧١)

غير أن مَنْ كان بيدهم منح المشروعية الرمزية، كانت معارضتهم للسلطة من بين الأسباب التي كانت تؤدي إلى خفوت الدولة وانحلالها، فقد أورد الناصري متحدثًا عن بيعة عبد الملك بن إسماعيل، قوله؛ "...وأمسك الله يده عن العطاء فلم يسمح للعسكر ولا للوفود بدرهم، فكان ذلك من أكبر الأسباب في اختلاف أمره وتفسخ دولته".(٧٢) ولعل في قضية عبد الواحد بن أحمد الونشريسي وموقفه من الصراع بين الوطاسيين والسعديين في القرن السادس عشر، أكبر دلالة على ذلك؛ إذ تتداول مصادر الفترة ما قيل لمحمد الشيخ السعدي، من أن "الناس لن يبايعوه إلا إذا بايعه ابن الونشريسي"، وهذا التركيز، من قبل المصادر، على الونشريسي، ليس له تأويل آخر غير كونه الوحيد الذي يمكن لموقفه أن يُتيمَّ شرعية حكم السعديين "فالرجل هو الذي حرر العقد الذي فتح لهم باب الشرعية في صلح أنماي".(٧٣)

٣/٢- المخزن كضامن للأمن والاستقرار:

يُعَدّ الأمن من بين الدلالات الأكثر شيوعًا لدى عامة الناس حول مفهوم المخزن، وفي هذا السياق، نجد صاحب الاستقصا، يَسِمُ المخزن على أنه المجسد الفعلي للأمن والضامن لتحققه، ومن دونه تحل الفوضى، خصوصًا حين يتعلق الأمر بالحديث عن التمردات، والثورات، فأبرز صورة لازمت خطاب هذا المؤرخ حول المخزن، كان يحكمها هاجس الأمن، وأبرز دليل على ذلك تكراره في العديد من المواقف المقولة التي مفادها، أن "الإمام الجائر خير من الفتنة"، وبالتالي فأمن الرعايا وسلامتهم من بطش المتمردين وانحرافاتهم، هي عند الناصري مسألة فوق كل اعتبار، لا يمكن تفاديها إلا بوجود سلطان قوي، يفرض هيبته على الكل، ويوحد الكلمة، حتى وإن كان ذلك بقوة الشوكة وصلابة القبضة، لذلك نجده يؤكد على أن "من محاسن الدولة الإسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كيد العدو عنه...".(٧٤)

خاتمة

شكل مفهوم المخزن محل نقاش حاد في الخطاب الفكري والثقافي، وعلة ذلك كما أوضحنا في متون هذا العرض تتلخص في نقطتين أساسيتين؛ **الأولى:** بداهة تعريفه اللغوي مقابل تعقد حمولاته ودلالاته الاصطلاحية. **والثانية:** ذلك التداخل بين مضامينه ودلالاته من جهة، وبين وظائفه وأدواره من جهة ثانية. وقد أفرز هذا الوضع المشحون بنوع من الضبابية، مقاربات متعددة ومتباينة، بل ومتعارضة أحيانًا، وقد تحكم في هذا الاختلاف، بالإضافة إلى بعض الإيديولوجيات المحكومة بمنطق التحامل، اختلاف تخصصات الباحثين وتنوع مشاربهم المعرفية، وعدتهم المنهجية التي انطلقوا منها في تحديدهم ومقاربتهم للمفهوم. فكانت الأطروحة الاستعمارية، على المغالطات التي طبعت النتائج التي توصلت إليها، أول مَنْ خاض غمار البحث في هذا المجال، محاولة إظهار المغرب مشطورًا إلى شطرين؛ الأول ضيق لا تتعدى حدوده ضواحي المدن، والثاني واسع جدًا؛ تحتله قبائل سائبة لا تعترف بسلطة أحد، و"كان المنطق يحتم في ظل تحامل الأطروحة الاستعمارية، بروز تيار دفاعي دشنته أطروحة قانونية في تخصصها في أوائل عهد الاستقلال، وصفت من قبل العديد من الباحثين بأنها كانت مفعمة بالوطنية، وغارقة في الدفاع عن المخزن".(٧٥) لتتوالى بعد ذلك المقاربات، محاولة الوصول إلى تحديدات أكثر دقة، فقابلت بين مفهوم المخزن وغيره كمفهوم "الدولة" مما زاد من تعقد المفهوم، غير أن دراسات جادة اتخذت من تاريخ الذهنيات منطلقًا لأطروحاتها، وجسرًا ربطت به ذهنية وأفكار الممارسين للفعل المخزني (السلاطين) وبين أبحاثها، فتوصلت إلى نتائج أكثر موضوعية من غيرها.

فخلصت على سبيل المثال لا الحصر؛ إلى أن مفهوم المخزن يتضمن معاني كثيرة يصعب اختزالها في صفة معينة، وأن أي تحليل أحادي المنظور لن يفضي إلا إلى التعسف عليه وتشويه مضامينه، كما اعتبرت أن مقاربة مفهوم المخزن بهدف إضفاء صفة معينة عليه، أمر في غاية المجازفة.(٧٦) وإجمالاً؛ فإن مفهوم المخزن تضمن معاني ودلالات متعددة ومتنوعة، ويكثف معنى مؤسسة لها جذور عميقة في التاريخ المغربي، وهي ظاهرة مستمرة في الزمن لا يمكن الاقتصار في دراستها على مرحلة معينة من تاريخها مما يجعل التاريخ المقارن في هذا السياق مهمًا جدًا.

ومن جانب آخر؛ فإن دراسات أخرى اتخذت من تناولها لتاريخ المغرب في إطار علاقته بأوروبا، منطلقًا لتحديد هياكل وبنيات وتطور جهاز المخزن، كشفت عن جوانب مهمة من تطور المخزن المغربي، فركزت على مسألة التجاوز، كإطار حدد معالم العلاقة بين المغرب وأوروبا خلال العصر الحديث، من جهة، وربطت بين مسألة التجاوز،(٧٧) وطبيعة النظام المغربي (المخزن) العتيق والذي لم تتوفر فيه شروط الحداثة، مستدلة على ذلك بفشل كل المحاولات التحديثية التي قام بها بعض السلاطين (كأحمد المنصور ومحمد بن عبد الله).

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) محمد جادور، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث، الدار البيضاء،٢٠١١، ص ١٦.

(٢) عباس بوغالم "**الامتدادات المخزنية في المغرب الحديث**"، مجلة وجهة نظر، عدد (٣٨)، ٢٠٠٨، الدار البيضاء، ص١٧.

(٣) محمد جادور، **مؤسسة المخزن**... ، مرجع سابق، ص ١٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧.

(٥) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٦) نشير إلى أن هذه النظرة تصدى لتفنيدها المؤرخ جرمان عياش، واصفا إياها "بالرؤية المتساهلة والساذجة، بلورت على يد مؤلفين فرنسيين في وقت كان مناسبًا لتوظيفها في خدمة أغراض فرنسا الاستعمارية"، جرمان عياش، "**الوظيفة التحكيمية للمخزن**"، ضمن: **دراسات في تاريخ المغرب**، تعريب محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الدار البيضاء، ص ١٤٥.

(٧) محمد حجاج، "**الزوايا، المجتمع والسلطة بالمغرب (مقاربة سوسيو-أنثروبولوجية)**"، مجلة فكر ونقد، عدد (٩٤)، يناير ٢٠٠٨، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص ٥١.

(٨) محمد جادور، **مؤسسة**....، المرجع السابق، ص ١٧.

(٩) محمد حجاج، المرجع السابق، ص ٥١.

(١٠) محمد جادور، "**من ثوابت الحكم المخزني في تصور المولى إسماعيل**"، مجلة أمل، عدد (٣٣)، ٢٠٠٨، الدار البيضاء، ص ٤٦.

(١١) ورد في **معجم لسان العرب** لابن منظور أن المخزن مصدر ميمي لفعل خزن يخزن.

(١٢) محمد جادور، **مؤسسة المخزن**...، مرجع سابق، ص٣٨.

(١٣) هند الوالي عروب، "**المخزن ماهيته، جذوره، استمراريته**"، مجلة وجهة نظر، عدد (٣٨)، ٢٠٠٨، الدار البيضاء، ص٨.

(١٤) إبراهيم بوطالب، "**المخزن**" ضمن معلمة المغرب ج٢١، ٢٠٠٥، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ص ٧٠٣٨.

(١٥) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(١٦) محمد أديب السلاوي، **السلطة: تحديات التغيير**، البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، القنيطرة، ٢٠٠٢، ص ٣٠.

(١٧) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(١٨) هند الوالي عروب، المرجع السابق، ص ٨.

(١٩) محمد جادور، **مؤسسة المخزن**...، مرجع سابق، ص ٣٨٨ – ٣٨٩.

(20) Mohamed salahdine, *tribus, makhzen et colons*, essai d'histoire économique et sociale, ed, l'hahmattan, paris 1986. p 125.

(٢١) إبراهيم بوطالب، المرجع السابق، ص ٧٠٣٨.

(٢٢) المرجع نفسه، ص٣٨٥.

(٢٣) المرجع نفسه، ص ٣٨٦.

(٢٤) قيل وكتب الكثير عن كون المغرب، دخل إلى العصور الحديثة مع قيام دولة السعديين، وتحديدًا في عهد أحمد المنصور، إلا أن المآل الذي آلت إليه الأمور بعد وفاة هذا السلطان، يؤكد، حسب مجموعة من الباحثين، أن ما شهده المغرب من قوة آنئذ كان ظرفيًا، بحيث انهارت البلاد كبناء من ورق بمجرد وفاة المنصور، بسبب تطاحن الأمراء من بعده على السلطة، وتعاقب الأزمات البيولوجية.

(٢٥) محمد جادور، **مؤسسة المخزن**...، مرجع سابق، ص ٣٨٧.

(٢٦) محمد القبلي وآخرون، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، ٢٠١١، ص ١٥.

(27) Rachida cherif, *le makhzen politique au Maroc hier et aujourd'hui*, Afrique orient, Casablanca, 1988, p.17

(٢٨) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، الجزء الثاني، ١٩٩٤، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص ٢٠٩.

(٢٩) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار ضريبة الترتيب** (١٨٨٠ – ١٩١٥)، منشورات أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص ٦٨.

(٣٠) محمد جادور، **مؤسسة المخزن**...، مرجع سابق، ص ٣٩٢.

(٣١) نفسه، ص ٣٨٨.

(٣٢) المرجع نفسه، ص٣٩١.

(٣٣) المرجع نفسه، ص٣٩٢.

(٣٤) الطيب بياض، "**مفهوم المخزن**"، مجلة أمل، عدد (٣٣)، ٢٠٠٨، الدار البيضاء، ص١٠٩.

(35) Mohamed Salahddine, Op.cit, p.125

(٣٦) الطيب بياض، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٣٧) محمد جادور، **مؤسسة**...، مرجع سابق، ص ٣٩٣.

(٣٨) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٣٩) محمد حبيدة، "**أكادَ المغرب دخول العصور الحديثة**"، مجلة رباط الكتب الإلكترونية، عدد (١٤)، شتاء ٢٠١٤.

(٤٠) محمد جادور، **مؤسسة**...، مرجع سابق، ص ٣٩٤.

(٤١) إبراهيم بوطالب، مرجع سابق، ص ٧٠٤٠.

(٤٢) محمد جادور، **مؤسسة**...، مرجع سابق، ص ٣٩٦.

(٤٣) المرجع نفسه، ص ٣٩٧.

(٤٤) المرجع نفسه، ص ٣٩٧-٣٩٨.

(٤٥) المرجع نفسه، ص ٣٩٨.

(٤٦) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٤٧) "العافية" هي كلمة عاميَّة مغربية، تعني النار.

(٤٨) المرجع نفسه، ص ٤٠٠.

(٤٩) مصطفى الشابي، **النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم (٢٦)، ١٩٩١، الرباط، ص ١٧٥.

(٥٠) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٥١) محمد جادور، **مؤسسة**...، مرجع سابق، ص ٤٠٠.

(٥٢) أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج٧، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، الطبعة الثانية، ١٩٩٧، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص ٩٩.

(٥٣) المرجع نفسه، ص ٤٠١.

(٥٤) المرجع نفسه، ص ٤٠٢.

(٥٥) عبد الله العروي، **من ديوان السياسة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص ٣٠.

(٥٦) الحسن أسكان، "**الدور التاريخي للمدرسة، في التعليم بالمغرب الوسيط**"، مجلة أمل، عدد مزدوج (٢٨-(٢٩)، مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٣ البيضاء، ص ١٩.

(٥٧) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**...، مرجع سابق، ص ٢٠٩ – ٢١٠.

(٥٨) تجدر الإشارة هنا؛ إلى أن الاستنتاج المتعلق بكون المخزن لم يصبح يعني السلطان وإدارته وحكومته إلا في القرن التاسع عشر، هو ما توصلت إليه

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

دراسات قاربت الموضوع من وجهة نظر العلوم السياسية، وهو ما اعتبره بعض الباحثين استنتاجا يفتقر إلى الحمولة التاريخية.

* أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقق: محمد الناصري وجعفر الناصري، تسعة أجزاء، دار الكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧، الدار البيضاء.

(٥٩) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، ترجمة: عبد القادر الخلادي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٧، ص ٢٦١.

(٦٠) الطيب بياض، المرجع السابق، ص١٠٧.

(٦١) عبد الله العروي، **من ديوان السياسة**، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٦٢) هو أحمد بن موسى البخاري، **برز اسمه في الفترة الممتدة من سنة ١٨٩٤ إلى سنة ١٩٠٠**، التي تميزت بالوصاية التي فرضها على السلطان المولى عبد العزيز، تحكم خلالها في تسيير شؤون البلاد باسم السلطان الشاب. علي بنطالب، **المخزن والقبائل، الضغط الجبائي وتداعياته ١٨٩٤ ـ ١٩١٢**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ٢٠١٣، ص ١٤٩.

(٦٣) محمد أديب السلاوي، **السلطة**...، مرجع سابق الذكر، ص ٣٣.

(٦٤) محمد جادور، "**بعض ثوابت الحكم**..."، مرجع سابق، ص ٤٦.

(65) Rachida cherifi, Op.cit..., p.17.

(٦٦) محمد جادور، **مؤسسة المخزن**...، مرجع سابق، ص٣٨٥.

(٦٧) المرجع نفسه، ص ٤٤٥.

(٦٨) أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا**، مصدر سابق، ص ٩٩.

(٦٩) محمد جادور، مرجع سابق، ص ٣٠٧.

(٧٠) المرجع نفسه، ص ٣٠٨.

(٧١) أحمد بن خالد الناصري، مصدر سابق، ص ١١٥.

(٧٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٧٣) عثمان المنصوري، "**تأملات في الأدوار السياسية لعلماء المغرب نماذج من الفترة الحديثة**"، ضمن: **السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب**، الائتلاف والاختلاف، أعمال مهداة للأستاذ أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، ٢٠١٣، ص ١٨٥.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٧٥) أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إنولتان نموذجا (١٨٥٠ ـ ١٩١٢)**، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (أطروحات ورسائل رقم ١)، الرباط، ص. ٤٦٧

(٧٦) نشير هنا إلى الدراسة المهمة والعميقة للباحث المغربي محمد جادور، حول المخزن المنصوري والمخزن الإسماعيلي، التي نشرت تحت عنوان **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**.

(٧٧) لمزيد من التفاصيل حول مسألة التجاوز في علاقة المغرب بأوروبا، راجع: عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوربا ما بين القرنين ١٥- ١٨ (مسألة التجاوز)**، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. (صدرت مؤخرًا لنفس المؤلف طبعة جديدة، وصياغة جديدة باللغة الفرنسية).

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



التحضيرات المادية للثورة التحريرية في منطقة سور الغزلان (١٩٤٧ – ١٩٥٤)



د. سعاد يمينة شبوط

أستاذة محاضرة

قسم التاريخ وعلم الآثار

جامعة أبي بكر بلقايد – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سعاد يمينة شبوط، التحضيرات المادية للثورة التحريرية في منطقة سور الغزلان (١٩٤٧ – ١٩٥٤).- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٦٠ – ٦٦.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

وقفت في هذا البحث على الأوضاع والظروف العامة التي شهدتها منطقة سور الغزلان منذ مرحلة ما قبل اندلاع الثورة التحريرية في أول نوفمبر ١٩٥٤ مركزًا على عملية التحضير لانطلاق العمل المسلح ،واهم العراقيل والصعوبات التي واجهتها قيادة الثورة أثناء ذلك، كما تتبعت فيه تطور الوضعية التنظيمية للمنطقة -سور الغزلان- بين سنوات(١٩٥٤- ١٩٥٦) كما ركزت في هذه البحث على حقيقة الدور الذي لعبته منطقة سور الغزلان في المرحلة الأولى من عمر الثورة التحريرية (١٩٥٤- ١٩٥٦) باعتبارها إحدى أبرز قلاع الثورة التحريرية، خصوصًا بعد مؤتمر الصومام ١٩٥٦. وفي هذا السياق حاولت الإجابة على الكثير من التساؤلات التي ما زالت عالقة بتاريخ المنطقة إلى اليوم من قبيل: ما هي الظروف والأوضاع التي عرفتها منطقة سور الغزلان عشية انطلاق الثورة التحريرية ليلة أول نوفمبر ١٩٤؟ ولماذا تأخر انطلاق العمل المسلح في المنطقة إلى غاية ربيع ١٩٥٦ ؟....إلخ.

مُقَدِّمَة

ظلت فكرة مشروع الخيار العسكري تراود أذهان نشطاء المنظمة الخاصة (L'OS) منذ تأسيسها سنة ١٩٤٧ إلى غاية إنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل في ٢٣ مارس١٩٥٤.(١) ولم يكن في واقع الأمر، محور النشاط الرئيسي لهذه اللجنة هو مباشرة العمل المسلح ميدانيا، وإنما يكمن في تحقيق هدفين هما:- العمل على تسوية العلاقات القائمة داخل قيادة الحزب (حركة الانتصار للحريات الديمقراطية،-ومنع تصدع صفوف القاعدة وتحزبهم لأحد الطرفين.(٢) وفي هذا لسياق يذكر المناضل محمد بوضياف بأن اشتداد الصراع في الحزب بين أنصار مصالي الحاج وأعضاء اللجنة المركزية كان السبب الرئيس للإسراع في تفجير الثورة التحريرية.(٣)

ويمكن القول؛ بأن الرصيد النضالي لهؤلاء النشطاء من قدماء المنظمة الخاصة ترك قناعة راسخة بعقم الكفاح السياسي وضرورة الانتقال إلى مرحلة التحضير للعمل المسلح، خصوصًا بعد فشل محاولات تسوية الخلاف بين مصالي والأمانة العامة،(٤) الأمر الذي دفع بالعناصر الثورية إلى التفكير في كيفية ديناميكية العملية الثورية في ظل التفاعل الإيجابي مع أطوار الأزمة التي دبت بين صفوف الحزب، وعلى هذا الأساس شرع المناضل محمد بوضياف ورفاقه بعد عودتهم من فرنسا يتحدثون عن المخرج البديل للقضية الوطنية ومفاده أن الثورة في الحالات العادية تمر بمحطات ضرورية، هي التوعية والتنظيم والتفعيل ثم الثورة. غير أن حالة الجزائر تستدعي قلب الأوليات والانطلاق في الثورة، أما تنظيم الصفوف فسيتم بعد اندلاع الكفاح المسلح.(٥)

واستقر الاتفاق على هذا النهج مع أواخر شهر جوان ١٩٥٤ خلال "اجتماع الـ ٢٢ التاريخي بحي المدنية بأعالي العاصمة حيث ناقش فيه الحاضرون، الأزمة التي أصابت الحزب والأوضاع التي آلت إليها الحركة الوطنية،(٦) من خلال التقرير الذي قدمه المناضل

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

محمد بوضياف عن تداعيات أزمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية ونشاط المنظمة الخاصة بين سنوات (١٩٥٠-١٩٥٤) أنهاه بعبارة جاء فيها "..... نحن قدماء المنظمة الخاصة يلزمنا اليوم أن نتشاور ونقرر المستقبل....".(٧)

وقد اغتنمت القيادة المنبثقة(٨) عن هذا الاجتماع، صائفة ١٩٥٤ للتفكير في العمل الثوري وأطواره وخرجت في الأخير بإقرار مبدأين اثنين واستراتيجية من ثلاثة مراحل:

- أولاً: اللامركزية في المبادرة والقرار بسبب اتساع الرقعة الجغرافية وضعف الإمكانات الأمر الذي يصعب من مهمة جهاز مركزي في عملية تسيير الكفاح بشكل فعال.
- ثانيًا: أولية الداخل عن الخارج أي أن القرارات الهامة يجب أن تصدر من الثوار المقاتلين في الداخل.

أما عن المراحل فهي:

- مرحلة بناء الهيكل السياسي (جبهة التحرير الوطني) والعسكري (جيش التحرير الوطني) لتحضير العمل المسلح وضمان اتساعه.
- مرحلة تعميم انعدام الأمن على نطاق واسع.
- مرحلة تكوين المناطق(توزيع المسؤوليات).

وفي الأخير تم الفصل في مسألة الخيار الثوري المسلح كوسيلة لمقارعة الاستعمار، كما أوصت اللجنة الثورية للوحدة والعمل بضم قدماء أعضاء المنظمة الخاصة إليها مع مواصلة التكوين والتدريب العسكري اعتمادًا على التنظيم الذي سارت عليه المنظمة الخاصة بين سنوات (١٩٤٧-١٩٥٠).(٩) ووضعت آخر اللمسات لانطلاق الثورة التحريرية في اجتماعي ١٠ و٢٥ أكتوبر ١٩٥٤ في الجزائر من طرف لجنة الستة(١٠) على القرارات التاريخية التالية:

- تسمية المنظمة الثورية الجديدة بجبهة التحرير الوطني، حلت محل اللجنة الثورية للوحدة والعمل وفتح باب العضوية فيها لكل مَنْ يرغب في المساهمة في تحرير الجزائر على أن يكون الالتحاق بصفة فردية (أي ليس في إطار جمعيات أو أحزاب).
- تسمية المنظمة العسكرية بجيش التحرير الوطني يدعم العمل السياسي وينفذ القرارات العسكرية.
- تحديد موعد انطلاق الثورة التحريرية (اختيار ليلة الأحد إلى الاثنين ١ نوفمبر ١٩٥٤) كتاريخ لانطلاق العمل المسلح لاعتبارات تكتيكية وعسكرية.
- تقسيم التراب الوطني إلى خمس مناطق وتعيين قادتها بشكل نهائي:

(١) المنطقة الأولى (الأوراس النمامشة)يقودها مصطفى بن بولعيد بمساعدة شيهاني بشير.

(٢) المنطقة الثانية (الشمالية القسنطيني) يقودها ديدوش مراد بمساعدة زيغود يوسف.

(٣) المنطقة الثالثة (القبائل) يقودها كريم بلقاسم بمساعدة أعمر أو عمران.

(٤) المنطقة الرابعة (الجزائر وضواحيها) بقيادة رابح بطاط بمساعدة سويداني بوجمعة.

(٥) المنطقة الخامسة (القطاع الوهراني) بقيادة: العربي بن مهيدي بمساعدة بن عبد الملك رمضان كما تم تكليف محمد بوضياف بمهمة التنسيق بين الداخل وقيادة الثورة في الخارج، مع التركيز على القيادة الجماعية.(١١)

أولاً: وضعية منطقة سور الغزلان عشية اندلاع الثورة التحريرية (١ نوفمبر ١٩٥٤):

في خضم هذه الظروف لم تكن منطقة سور الغزلان، موضوع هذه الدراسة بمعزل عن محاولات التحضير العام للعمل المسلح، الذي امتدت جذوره إلى سنة ١٩٤٨ حسب شهادات بعض من مناضلين الذين يعود لهم الفضل في تفعيل النشاط السياسي للحركة الوطنية في المنطقة.

وفي هذا السياق يجب الإشارة إلى مسألة هامة، لم تشر إليها الكتابات التاريخية باستثناء بعض الشهادات الحية المكتوب منها والشفوي، تتعلق بالوضع التنظيمي لمنطقة سور الغزلان، عشية الانطلاقة في أول نوفمبر ١٩٥٤ حيث يذكر المجاهد المؤرخ الجزائري محمد تقية في كتابه بعنوان L'armée de libération nationale en wilaya IV بأن منطقة سور الغزلان كانت تشكل جزءًا من المنطقة الرابعة (الجزائر وضواحيها) عند انطلاق العمل المسلح في نوفمبر ١٩٥٤.(١٢) غير أن المجاهد لعباسي أعمر المدعو الطالب(١٣) يذكر في شهادته بأن منطقة سور الغزلان عرفت عشية انطلاق الثورة وضعًا تنظيميًا خاصًا، حيث كانت مقسمة بين المنطقتين الثالثة (القبائل) والرابعة (الجزائر وضواحيها) والحد الفاصل بينهما هو الطريق المعبّد الذي يبدأ من البرواقية، ويمر وسط مدينة سور الغزلان باتجاه سيدي عيسى، وبذلك فإن الجهة الواقعة شرق الطريق المعبد الذي يخترق مدينة سور الغزلان، تابعة تنظيميًا للمنطقة الثالثة أما الجهة الواقعة غرب الطريق فهي للمنطقة الرابعة.(١٤)

ويؤكد هذا الطرح المجاهد خليفي عبد القادر المدعو المدرب(١٥) في شهادته، مشيرًا إلى أن الحد الفاصل بين المنطقة الثالثة والرابعة هو الطريق المعبد الذي ينطلق من البر واقية ثم بئر غبالو ويمر وسط مدينة سور الغزلان باتجاه الجنوب نحو سيدي عيسى ولاروكاد.(١٦)

ثانيًا: تطور النشاط الثوري في منطقة سور الغزلان (١٩٥٤-١٩٥٦)

إن الأوضاع العامة التي شهدتها أومال أو بالأحرى منطقة سور الغزلان، قبل اندلاع الثورة التحريرية في ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤، تميزت بارتباك شديد في عمليتي التحضير والاستعداد للعمل المسلح، حيث تركت نتائج وآثارًا سيئة على مستقبل النشاط الثوري في المنطقة، تمثلت بشكل خاص في تأخير الموعد المحدد لانطلاق

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

العمل المسلح، مقارنةً مع بقية المناطق الأخرى، وساهمت فيه أيضًا عوامل أخرى سببت الكثير من المتاعب لقيادة الثورة في إعداد السكان وتهيئتهم لتقبل فكرة الثورة، والأخطر من ذلك أنها أصبحت بعد الانطلاقة مجالاً خصبًا لنشاط أبرز الحركات المناوئة لجبهة التحرير الوطني، وهنا نشير إلى حركتي: بلونيس،[١٧] وشريف بن سعيدي،[١٨] ورغم الصعوبات والمشاكل التي واجهت قادة الثورة في المنطقة، إلا أن المحاولات المتكررة للانطلاق في العمل المسلح، انتهت بإيجاد تنظيم، وإن تميز ببساطته في البداية.

ويعود الفضل في ذلك إلى المجاهد عمر أوعمران، الذي قدم في زيارة إلى سور الغزلان في شهر ماي ١٩٥٥، رفقة مجموعة من المجاهدين لمعاينة المنطقة، وبعث النشاط الثوري فيها،[١٩] وهي المهمة الصعبة التي تكفل بها مباشرة بعد أن عين على رأس قيادة المنطقة الرابعة خلفًا للقائد رابح بيطاط، الذي ألقي عليه القبض من طرف الشرطة الفرنسية، بعد خمسة أشهر من اندلاع الثورة (١٦ مارس ١٩٥٥).[٢٠]

ويذهب المجاهد النقيب محمد صايكي[٢١] في مذكراته إلى نفس الطرح الذي ورد في الملف الذي أعدته المنظمة الوطنية للمجاهدين بسور الغزلان، مشيرًا إلى أن عملية التحضير للعمل المسلح بدأت خلال شهر ماي١٩٥٥ عندما قام رفقة مجموعة من شباب منطقة "سور الغزلان" وقد ضمنت هذه المجموعة كلاً من:

- علي صدادو: مسؤول الخلية.
- محمد صايكي: مسؤول الاتصالات.
- عبد القادر ميساوي: مسؤول المالية.
- إبراهيم دفوس: عضو منظم.
- بوجمعة مشتاوي: عضو منظم.
- مسعود زيتون ويحي السطن.

ويشير المجاهد محمد صايكي بأنه رغم المحاولات المتكررة من طرف أعضاء الفوج لربط الاتصال مع جبهة التحرير الوطني للانخراط في صفوفها ومباشرة العمل المسلح، إلا أنها باءت بالفشل بسبب التحركات المكثفة للمصاليين، في المنطقة الأمر الذي جعل مهمة الانطلاق في العمل المسلح مهمة صعبة ومستحيلة في نفس الوقت ويضيف في نفس السياق، أنه في خضم هذه الظروف الصعبة قدمت جماعة من المجاهدين إلى "المعمورة"،[٢٢] كان على رأسهم كمل من عمر أو عمران وسليمان دهيليس لمعاينة المنطقة، وربط الاتصالات، وفك العزلة والحصار المضروب من طرف الحركة المصالية وبعض الخونة المتحالفين مع الإدارة الفرنسية،[٢٣] بعد جولة ميدانية شملت منطقة سور الغزلان وضواحيها، قام عمر أوعمران بتكليف المجاهدين علي ملاح،[٢٤] والطيب الجغلالي،[٢٥] بمهمة مواصلة عمليات التنظيم والتعبئة السياسية والعسكرية، إلى غاية انطلاق أولى العمليات المسلحة في ربيع سنة ١٩٥٦.[٢٦]

وفي هذا السياق ينوه المجاهد بلقاسم المدني،[٢٧] في شهادته إلى الدور البارز الذي قام به علي ملاح، والطيب الجغلالي من خلال عمليات التعبئة الشعبية، والاتصال بالشباب وتوعيتهم كمرحلة أولى تحضيرًا للعمل المسلح، ولهذا الغرض عملا معًا على تلقين سكان المنطقة دروسًا نظرية خلال الاجتماعات الدورية التي شملت التدريب العسكري الميداني انطلاقًا من جبال الدشمية، وبوقعودن، والديرة، والكاف لخضر، وكاف أفول، وكاف الناقة، والصباح،[٢٨] ويشير المجاهد حمري العيد[٢٩] إلى مظاهر التجاوب مع عملية التعبئة للعمل الثوري، من خلال ذلك الإقبال الكبير من طرف السكان لانعدام نشاط الحركة المصالية في هذه المناطق،[٣٠] ويذهب كل من المجاهدين يحياوي لوصيف،[٣١] ودحماني لخضر،[٣٢] إلى أن جهود علي ملاح والطيب الجغلالي أثمرت في تكوين النواة الأولى للعمل المسلح في المنطقة بالإضافة إلى استقطاب عدد كبير من الشباب الذين التحقوا بصفوف جيش التحرير الوطني مع ربيع ١٩٥٦.[٣٣]

خاتمة

في ختام هذه الدراسة يمكن أن نخلص إلى جملة من النتائج والاستنتاجات توضح الملابسات والظروف الصعبة التي عرفتها منطقة سور الغزلان، منذ ما قبل الانطلاقة ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤ إلى غاية مرحلة مؤتمر الصومام ١٩٥٦، ويمكن أن نحددها فيما يلي:

- نجحت السياسة الفرنسية في تحويل أومال "Aumale" (سور الغزلان) إلى بلدية مختلطة بها أعلى نسبة من المستوطنين والكولون، ويشرف على إدارتها ستة عشر قائدًا عينتهم الإدارة الفرنسية لخدمتها، ومحمية بها أكبر ثكنة عسكرية لجعلها منطقة "هادئة"، ويمكن القول بأن هذه الظروف والأوضاع الصعبة، تركت نتائج وآثارًا سلبية على مستقبل المشروع الثوري في المنطقة، بحيث تأخر الموعد المحدد لانطلاق العمل المسلح إلى غاية ربيع ١٩٥٦.
- عرفت منطقة سور الغزلان عشية انطلاق الثورة في أول نوفمبر ١٩٥٤، وضعًا تنظيميًا خاصًا، لم تشر إليه الكتابات التاريخية التي تتعلق بالجانب التنظيمي للثورة الجزائرية (١٩٥٤–١٩٦٢)، بحيث كانت مقسمة جغرافيًا بين المنطقتين الثالثة (القبائل) والرابعة (الجزائر وضواحيها)، الأمر الذي يفسر حسب اعتقادي خلفية الدعم المادي والبشري (السلاح والجنود) المشترك لهيكلة وتأطير المنطقة وتكوين الأفواج لانطلاق العمل المسلح، بالإضافة إلى الاهتمام الذي أولته قيادة الثورة في الولايتين (الثالثة والرابعة) لهذه المنطقة التي أصبحت تمثل المنطقة الأولى من الولاية السادسة الحديثة النشأة طبقًا لمقررات مؤتمر الصومام (٢٠ أوت ١٩٥٦)، من خلال الدعم والمساعدة التي تلقاها العقيد علي ملاح لتنظيم وبعث النشاط الثوري في الولاية التي عين على رأس قيادتها، بإرسال وحدات من جيش التحرير الوطني من الولايتين بغرض هيكلتها وتأطيرها سياسيًا وعسكريًا لتجاوز مرحلة الضعف، الذي كانت تعاني منه من الناحية التنظيمية.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) لما كان أعضاء المنظمة الخاصة (O.S) حريصين على إنقاذ الحزب من التشتت ورأب الصدع الذي أصاب هياكله، فقد امتنعوا عن اتخاذ أي موقف اتجاه أي من الطرفين وعملوا على دعوة الجميع إلى الوحدة وإنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) في ٢٣ مارس ١٩٥٤ التي ضمت أربع أعضاء، اثنان من قدماء المنظمة الخاصة (مصطفى بن بولعيد ومحمد بوضياف) واثنان من أعضاء اللجنة المركزية محمد دخلي ورمضان بوشبوبة، للمزيد من التفاصيل حول تركيبه اللجنة ومساعيها؛ أنظر: شهادة، محمد بوضياف في **تاريخ الجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢)**، قرص مضغوط، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، وزارة المجاهدين ٢٠٠٢، وانظر أيضًا: شهادة المناضل رمضان بوشبوبة، في محمد عباس، **رواد الوطنية**، دار هومة، الجزائر ٢٠٠٤، ص ١٩٢– ١٩٨. وانظر أيضًا: سليمان الشيخ، **الجزائر تحمل السلاح، دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة**، ترجمة حافظ الجمالي، منشورات الذكرى الأربعون للاستقلال الجزائر ٢٠٠٢، ص ٦٩.

(٢) جمال قنان، **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، (م.و.م)، الجزائر، ١٩٩٤، ص ٢٢٢، وللتوضيح يذهب المناضل عبد الحميد مهري إلى أن نشأة اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) ونشاطها لم يكن بمعزل عن الصراع الذي كان يدور داخل الحزب وهذا ما يعني أن اللجنة الثورية لم تكن محايدة. انظر: تقديم عبد الحميد مهري في كتاب،

Aissa kéchidda, *les architectes de la révolutions*, CHIHAB édition, Batna, 2001, P 7-21.

(٣) **تصريح محمد بوضياف في حديث له مع جريدة الشعب**، ١٦ نوفمبر ١٩٨٨؛ أنظر كذلك:

Mohamed Boudiaf, *la Préparation du 1er Novembre*, El Djarida, N°15, Décembre , 1974, P 4 .

(4) Mafoud Keddache et Djilali Sari, *l'Algérie dans l'histoire*, ENAL, Alger, 1989, P 118-119.

وعند حدوث القطيعة بين جناحي الحزب (ح. إ.ح.د) لجأ مصالي إلى تأسيس الحركة الوطنية الجزائرية (MNA).

(٥) محمد عباس، **فكرة الثورة في التجربة الجزائرية**، حزب ثوري، طليعة مسلحة، شعب جاهز للثورة، مجلة الحدث العربي والدولي، (عدد خاص حول الثورة الجزائرية، مجلة سياسية، ثقافية، Groupe Corlet، باريس، عدد ٢٤، نوفمبر ٢٠٠٢ ص ٢٠؛ وحول هذه الإشكالية التي تتعلق بالمسألة التنظيمية عند الانطلاقة، يشير المجاهد لخضر بن طوبال بقوله كان هدفنا الوحيد هو الإسراع في تفجير الثورة دون انتظار بلورة كاملة لبرنامج عمل وتنسيق على كل المستويات وقد كان هناك حلان، أمام (مجموعة الـ ٢٢) وهما التنظيم ثم تفجير الثورة فيما بعد، أو تفجير الثورة ثم التنظيم، وقد دفعتنا الظروف إلى اختيار الحل الثاني؛ انظر: رياض الصيداوي، **صراعات النخب، دراسة في الصراع بين النخب السياسية والعسكرية في الجزائر**، (رسالة الأطلس)، أسبوعية تصدر عن دار الأطلس، العدد ٢٩٤، (٢٢-٢٨ ماي ٢٠٠٠)، ص ١٥.

(٦) للإلمام بجميع تفاصيل إجماع الـ ٢٢، انظر محمد حربي، **الثورة الجزائريات، سنوات المخاض** ترجمة، نجيب عياد صالح المثلوثي، موفم للنشر، الجزائر، ١٩٩٤، ص ٦١.

(٧) **محمد بوضياف في حديث له مع جريدة الشعب**، العدد ٧٧٨٦، ١٦ نوفمبر ١٩٨٨.

(٨) شرع محمد بوضياف في تشكيل لجنة مصغرة أو أمانة تنفيذية عرفت بلجنة الخمسة اختار لعضويتها كل من: العربي بن مهيدي، مصطفى بن بولعيد، وديدوش مراد،ورابح بيطاط مهمتها الاعتماد الميداني لانطلاق العمل المسلح بكل الوسائل والمتطلبات، انظر: شهادة محمد بوضياف في **تاريخ الجزائر** (١٨٣٠، ١٩٦٢) ، مرجع سابق.

(٩) أحمد مهساس، **الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية إلى الثورة المسلحة**، ترجمة الحاج مسعود، محمد عباس، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٣٦٩ – ٣٧٤ ؛ وأيضًا، محمد يوسفي، **الجزائر في ظل المسيرة النضالية**، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٢، ص ١٦٥- ١٧٠.

(١٠) بعد أن انضم إليها كريم بلقاسم.

(١١) أحمد مهساس، المصدر السابق، ص ٣٧٧ وأيضًا:

Mohamed Harbi, *la guerre commence en Algérie*, éd. Complexe, Bruxelles, 1984, PP, 20-23

(12) Mohamed Teguia, *L'armée de libération Nationale en wilaya IV*, ed.Casbah, Alger, 2002, P 57.

(١٣) **لعباس أعمر المدعو (الطالب):** من مواليد سنة ١٩٤١ بالعزازية، دائرة بن سليمان (المدية حاليًا) درس في المدرسة القرآنية على يد الشيخ القوضيلي علي بالخواثرية التحق بجيش التحرير الوطني سنة١٩٥٧ ببوقعودن إلى غاية الاستقلال سنة ١٩٦٢ (مازال على قيد الحياة).

(١٤) مقابلة شخصية معه بمقر مسكنه بالحراش يوم (٢٠٠١/٠٩/٢٢) الساعة ٩.٠٠ صباحًا.

(١٥) **خليفة عبد القادر** المدعو(المدرب): من مواليد ٢٧ سبتمبر١٩٣٢ ببئر غبالو،درس حتى سنة ١٩٤٨،حيث تحصل على الشهادة الابتدائية، ثم أجرى تربص تكوين مهني بالحراش، انخرط في حركة انتصار الحريات الديمقراطية ،أدى الخدمة العسكرية الإجبارية سنة ١٩٥٤بمستغانم ،حُول من مستغانم إلى سيدي موسى ،التحق بالثورة عن طريق اتصاله ببعض المناضلين منهم عبد القادر خيرات كلف بجمع الأموال ولما ألقي القبض على بعض عناصر خليته، التحق بالمنطقة الأولى في ١٦نوفمبر١٩٥٦ انطلاقًا من الحراش إلى منطقة الأخضرية ثم انظّم إلى فصيلة مصطاش حتى مارس ١٩٥٧، أرسل ضمن كتيبة مكونة من (١٢٠) جندي لجلب السلاح من المغرب في الشهر نفسه، وبعد عودته في جانفي١٩٥٨ أرسل ضمن الكتيبة البرواقية التي كانت بقيادة نهاي في سنة ١٩٥٨، ثم أصبح مدربًا للكتيبة وهنا أصبح يعرف عبد القادر بالمدرب وفي نوفمبر ١٩٥٩ انتقل إلى قيادة قسم سور الغزلان، ثم عضوًا في قيادة ناحية سور الغزلان كمسؤول عسكري وبعد إنشاء المنطقة الخامسة عُين قائدًا لناحية سيدي عيسى، ثم قائدًا لناحية سور الغزلان، وبعدها عضوًا في قيادة المنطقة مكلفًا بالأخبار والاتصال. انظر: نظيرة شتوان، **الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢) الولاية الرابعة نموذجًا**، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ص ١٣٢.

(١٦) **شهادة خليفي عبد القادر** المدعو (المدرب) لمؤسسة الولاية الرابعة التاريخية (بمقر المنظمة الوطنية للمجاهدين، ولاية البليدة، (شريط فيديو رقم ف ٠٢ – ٠٢٦) بتاريخ ٠٢ أوت ٢٠٠١، ونفس طرح يشير إليه المجاهد حمودي محمد في مقابلة شخصية أشرت إليها سابقًا.

(١٧) **بلونيس محمد (١٩١٢-١٩٥٨)**: مصالي التوجه تحالف مع فرنسا ولد في برج منايل سنة ١٩١٢ (القبائل الكبرى)، درس في المدرسة الابتدائية الفرنسية، لكنه تلقى تربية تقليدية في ١٩٣٨، انضم إلى حزب الشعب الجزائري، اعتقل مؤقتًا لعلاقته بأحداث ٠٨ مايو ١٩٤٥ وحسب مذكرات آيت أحمد يمثل بلونيس "نسخة للزباتية zapatisme . النموذج المكسيكي المضاد على أوسع نطاق ضد مؤسسات القهر السياسي والاستغلال الاجتماعي المفرط". اتصل في ناحية برج منايل بجماعات من "قطاع الطرق" لخوض الكفاح الوطني، واغتيال أناس من حزب الشعب الجزائري خلال الانتخابات البلدية في أكتوبر ١٩٤٧. وترشح

لانتخابات الجمعية الجزائرية، سجن في بربروس في ١٩٤٨. بقي مخلصًا لمصالي الحاج خلال الأزمة التي زعزعت حركة انتصار الحريات الديمقراطية بين عامي (١٩٥٣-١٩٥٤). وبعد ستة أشهر من قيام ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، كلف محمد بلونيس من قبل مصالي بقيادة المجموعات المسلحة التابعة للحركة الوطنية الجزائرية في بلاد القبائل. في مارس ١٩٥٧ جند جيش التحرير الوطني قوات معتبرة لمحاربته، فتقهقرت مقاومة بلونيس نحو الجنوب. دفعته المذبحة التي ارتكبها وحدات جيش التحرير الوطني في ٢٨ ماي ١٩٥٧ إلى اللجوء إلى الجيش الفرنسي وطلب مساعدته في صراعه مع جيش التحرير الوطني. صار جنرالاً للجيش الوطني الشعبي الجزائري، وجدد أي انتماء لحزب مصالي (الحركة الوطنية الجزائرية MNA) وفي حوار أجرته معه الإذاعة الفرنسية يوم (٠٣ ديسمبر ١٩٥٧) صرح أن على الجزائر أن تبقى في كل الأحوال مرتبطة بفرنسا". مقابل ذلك تركوه يستولي على الناحية الممتدة بين بوسعادة وسيدي عيسى والبيض وغرداية، وهي منطقة عملياته ضد جيش التحرير الوطني، كما تلقت قوات بلونيس من الجيش الفرنسي إعانات منتظمة ودعما في شكل عتاد. إلى غاية مايو ١٩٥٨، لم تصدر الحركة الوطنية الجزائرية أي بيان حول موقفها من خيانة بلونيس. وهذا الموقف عزز عزلة المنظمة المصالية في عيون الجماهير الجزائرية. ثم دخل الجنرال "بلونيس" في خلاف مع الجيش الفرنسي وفي ٠٤ مايو ١٩٥٨ حدثت اشتباكات دامية بين المعسكرين بقصر الحيران وبعد رفضه الاستجابة لإنذار من الجنرال سالان، تم قتله من طرف الجيش الفرنسي في ١٤ جويلية ١٩٥٨، أي في وقت بدأت تحدث في صفوف جيشه أولى عمليات الفرار نحو الجبال، التحق قسم كبير من جيشه بالفرنسيين، وقسم آخر التحق بجبهة التحرير الوطني، وقسم آخر بقي تحت قيادة خلفه محمد مفتاح. انظر: حول الترجمة الذاتية لمحمد بلونيس عند كل من: بنيامين سطورا، مصالي الحاج، المرجع سابق، ص٢٦٠ ؛ جمعة بن زروال، **الحركة الوطنية الجزائرية المصالية وموقفها من الثورة ١٩٥٤-١٩٦٢**، مذكرة ماجستير في تاريخ الثورة، جامعة باتنة، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص٧٥. وعاشور شرفي، **قاموس الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، تر: عالم مختار، دار القصبة الجزائر، ٢٠٠٧، ص٦٤،٦٥.

(١٨) **بن سعيدي الشريف**: (اسمه الحقيقي هو العمبري الشريف بن سعيد) ولد في سنة ١٩٢٥ في دشرة أولاد عقون من عرش أولاد سلطان بقرية السواقي الواقعة شمال شرق مدينة عين بوسيف والتابعة آنذاك لبلدية ماجينو (شلالة العذاورة)، انخرط في الجيش الفرنسي في كتيبة القناصة الأفارقة في سنة ١٩٤٦ عندما كان في سن الـ٢١ من العمر، وشهدت تجربته الطويلة في الجيش الفرنسي-حوالي ١٠ سنوات – عدة محطات منها ألمانيا ثم مدغشقر سنة ١٩٤٨، وبعدها أرسل إلى الهند الصينية أن قضى فترتين للخدمة العسكرية، كانت الأولى ما بين سنتي(١٩٥١-١٩٥٣)، والثانية خلال سنتي (١٩٥٤-١٩٥٥)، وأنهى خدمته في صفوف الجيش الفرنسي سنة ١٩٥٥ برتبة رقيب ثان بعدما تدرج في جميع الرتب الدنيا، وتحصل على أوسمة عسكرية منها وسام الاستحقاق العسكري. وما يمكن أن نستخلصه من مساره العسكري الاحترافي هو أن بن السعيدي لم يكن يمتلك أية مؤهلات ثقافية، ويؤكد هذا مصطفى بن عمر الذي يشير إلى أن اسمه الحقيقي هو العنبري شريف المعروف باسم شريف بن سعيدي، ويذكر أنه كان محدود الأفق والثقافة، ويرجع بن عمر أنه كان ورجاله ضحية لتلاعب ضباط "الصاص" (المصالح الإدارية المتخصصة-SAS-) بمنطقتهم، لذلك لم يرتق إلى صف الضباط رغم امتداد خدمته لأعوام عديدة، ولكن في المقابل تشير الكتابات الفرنسية، إلى أنه كان موضع تقدير من طرف قادته، وكثيرًا ما كانت تقاريرهم تشير إليه بالانضباط الشديد والروح العسكرية المحترفة التي كانت تسيطر على تصرفاته. كما عرف عنه أنه كان يبدي نزوعًا شديدًا للقيادة في منطقته، مستفيدًا من خبرته السابقة في الجيش الفرنسي، ومن امتلاكه لبنية جسدية قوية واعتداده بعصبيته القبلية حيث أحاط نفسه بالعشرات من أبناء منطقته من عشيرته وأصهاره من عرش أولاد سلطان والكاف لخضر. ويكاد يكون معقل بن السعيدي شبيه كُليّة بفرق الدفاع الذاتي التي شكّلها عملاء فرنسا في منطقة القبائل الصغرى (عائلة أورابح في نواحي الصومام) والباشاغا بوعلام في بني بودوان(الشلف) لولا ارتباطه بمؤامرة تصفية إطارات قيادة الولاية السادسة عن طريق الغدر والخيانة في الفترة القصيرة التي تولى فيها مهام في قيادة ناحية سور الغزلان، لأن بن سعيدي حرص وبقي كذلك على أن يتموقع رجاله في قرّاهم ومدا شرهم الأصلية في وسط بيئتهم وأهاليهم، وظهر ذلك في اختياره لمنزل عائلة من المعمرين في شلالة العذاورة اتخذ منه مقرًا لقيادته، وسار مساعدوه المقربون على خطّه، ومكث بذلك عن قرب من أفراد عائلته مثل أمه التي كانت تستغل قطعة أرض من عدة هكتارات في قرية السواقي - مسقط رأسه- وأخته وأبناؤها الأربعة وشقيقين له وثلاثة أعمام، كان منهم أثنين في الجيش الفرنسي في منطقة الأربعاء (بني سليمان) وأخر حارس حقول بعدما تقاعد من الجيش وكان جميع قادة الفرق الذين اعتمد عليهم بن سعيدي في معقله من رفاقه وأبناء منطقته مثل قرومي عمار، ومحمود محمد، ولوناس الطيب، ومحمد بن لخضر، وبوعملة عبد السلام، وقرودي حنية بن العربي المدعو حامة، وقد تولى هؤلاء منذ بداية الانشقاق عن جيش التحرير قيادة الفرق الثلاث التي كان يشرف عليها بن سعيدي في منتصف سنة ١٩٥٧. وحول ظروف التحاقه بجيش التحرير الوطني في أواخر سنة ١٩٥٥، روى الشريف بن سعيدي بعض تفاصيلها لضباط الجيش الفرنسي بعدما طلب حمايتهم مقابل تقديم خدماته كعميل في صيف سنة ١٩٥٧، وجاء في روايته أنه تم خطفه من طرف أفراد من جيش التحرير الوطني في حاجز على الطريق عندما كان متوجهًا من قرية السواقي إلى مدينة سور الغزلان، لكي يتجند مرة أخرى في الجيش الفرنسي، ولما عثر المجاهدون بحوزته على استدعاء وبطاقة عسكرية، قاموا بتحويله إلى قائدهم المعرف بالروجي" النقيب عمور" الذي أبقى عليه لاستغلال خبرته العسكرية. ويؤكد الباحث الفرنسي جو توسون في مجلة إستوريا ما ذهب إليه الشريف بن سعيدي، عندما أشار إلى أن بن سعيدي اتصل بالكتيبة الخامسة للصبايحية الخيالة الجزائريين في سور الغزلان في أواخر شهر رمضان من سنة ١٩٥٥ لتجنيده الذي كان مقررًا أن يتم بعد عيد الفطر، ولما كان في طريق عودته إلى سور الغزلان وقع في أيدي الثوار. وأضاف بن سعيدي في رسالة خطية له للمكتب الثاني الفرنسي 2 - ième Bureau - بأنه مكث طيلة (١٨) شهرًا في صفوف جيش التحرير، وكان طيلة الأشهر السبعة الأولى يقوم "بمهام نقل الأدوية والذخيرة"، قبل أن يتم ترقيته إلى قيادة فوج ثم فصيلة، وهذا ما يعني أن تجربته الفعلية في صفوف جيش التحرير الوطني بالمنطقة بدأت في منتصف سنة ١٩٥٦، ولما كانت هويته غير معلومة للجيش الفرنسي في هذه الفترة وغير معروفة فقد كانت تقارير المكتب الثاني الفرنسي تشير إليه بعبارة "قائد المتمردين - الثوار- الذي كان ينشط في نواحي البرواقية - الربعية". ومن خلال هذه الرواية يبدو أن بن سعيدي نجح في كسب ثقة علي ملاح وإطاراته في الفترة التي سبقت تأسيس الولاية السادسة، وهو ما يفسّر توليّة بن سعيدي لقيادة كتيبة فيما بعد وترقيته من طرف علي ملاح إل رتبة ملازم أول التي سمحت له بعضوية مجلس قيادة المنطقة الثانية للولاية السادسة إلى جانب النقيب عمور "الروجي" في أواخر سنة ١٩٥٦. للمزيد من التفاصيل، انظر: سعاد يمينة شبوط، **الحركات المناوئة للثورة التحريرية في الولاية الرابعة (١٩٥٤-١٩٦٢)**. أطروحة دكتوراه. قسم

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

التاريخ. جامعة الجزائر.٢٠١٢. وأيضًا: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، **تاريخ الجزائر (١٨٣٠ – ١٩٦٢)** قرص مضغوط، الجزائر، ٢٠٠٢.

(١٩) المنظمة الوطنية للمجاهدين، ملف تاريخ الثورة التحريرية مرحلة (١٩٥٦/٠٨/٢٠ إلى نهاية ١٩٥٨)، مكتب منظمة المجاهدين، سور الغزلان، (دون سنة نشر)، ص ٢.

(٢٠) أنظر مقال Histoire et Histoires، على موقع شبكة الإنترانيت خاص بالولاية الرابعة التاريخية:

http:/www.chez.com/wilaya 4/fev2004.

(٢١) **محمد بن علي صايكي الديري**- نسبة إلى جبل ديرة بسور الغزلان – ولد في ١١ ديسمبر ١٩٣٢ بسور الغزلان، تم تجنيده في الحرب العالمية الثانية ليعود سنة ١٩٤١ إلى مسقط رأسه حيث اشتغل بها كحارس بلدي إلى غاية سنة ١٩٤٢. ثم أصبح عاملاً بمستشفى المدينة (سور الغزلان)، أما عن حياته التعليمية، فقد زاول دراسته في المدرسة الفرنسية "مدرسة الانديجان" منذ سنة ١٩٣٩ إلى أن طرد منها في شهر جوان ١٩٤٥ لينخرط بعدها في فرع الكشافة الإسلامية بقيادة "د.ربان محمد" و"الدايري" اللذان كانا يقطنان بالمنطقة، كان محمد صايكي شاهدًا على خيانة شريف بن سعيدي، عايش اجتماع العقداء ١٩٥٨، شارك في عملية تفكيك شبكة الزرق (La bleuit)، عُين عضوًا في المجلس التأسيسي في سبتمبر ١٩٦٢. أنتخب سنة ١٩٦٤ في المجلس الوطني، وعُين أمينًا عامًا في المنظمة الوطنية للمجاهدين سنة ١٩٦٥ كممثل للولاية الرابعة، للمزيد من التفاصيل عن سيرة ومسيرة المجاهد، انظر: **مذكرات النقيب محمد صايكي**، المصدر السابق، ص ١٦-٢٣.

(٢٢) تقع في الجنوب الغربي من بلدية سور الغزلان وتبعد عنها حوالي ٣٥ كلم.

(٢٣) محمد صايكي، المصدر السابق، ٢٧.

(٢٤) **ملاح علي** (١٩٢٤-١٩٥٧): المدعو سي الشريف: قائد الولاية السادسة وعضو المجلس الوطني للثورة الجزائرية CNRA (١٩٥٧)/، ولد في ١٤ فيفري ١٩٢٤ بتاكا (مكيرة ذراع الميزان، تيزي وزو) في عائلة كان الوالد فيها إمامًا، ناضل علي ملاح في صفوف حزب الشعب الجزائري ابتداءً من ١٩٤٥، نظم ودعم الخلايا المقبلة للمقاومة في بلاد القبائل بوصفه مسئول المنظمة الخاصة L' OS لجأ إلى الجبال بعد تفكيك هذا التنظيم شبه العسكري، أيد وجهة نظر كريم في أزمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD) فيفري ١٩٥٤، عُين كأحد مسئولي القبائل السفلى وشارك في ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤٥ بالهجوم على ثكنة الدرك بعزازقة. قاد قوات جيش التحرير الوطني (ALN) في ربيع ١٩٥٥ في ناحية بوسعادة – الجلفة. مندوب عن المنطقة الجنوبية في مؤتمر الصومام، بينما لا يشير إليه محضر مؤتمر الصومام يوم (٢٠ أوت ١٩٥٦)، حول مسئولي القطاع ضمن المشاركين في هذا الاجتماع (نقلاً عن حربي) (أعتذر بعد أن أرسل تقريره إلى الاجتماع). ومع ذلك عين علي ملاح عضوًا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية (CNRA) مكلفًا بالولاية السادسة (الصحراء) تحت اسم "سي الشريف" في الجنوب الجزائري سنة ١٩٥٧، عين تحت إمرته النقيب عمار المدعو "الروجي" وشريف سعيدي، رقيب سابق في الجيش الفرنسي بالهند الصينية. اغتيل علي ملاح في (٣١ مارس ١٩٥٧) بواد بجة، دوار هيدورية بالقرب من مليانة بأمر من الشريف بن سعيدي الذي كان يرفض أي مسئول ليس من الجنوب، بالنسبة لمحمد تقية يعكس مقتل علي ملاح "بروز تصرفات جهوية أو قبلية سببها قلة الاتصال والتبادل بين الولايات الداخل". وأعلنت المجاهد في أوت ١٩٥٧ أنه استشهد على رأس جنوده في الجنوب الجزائري، أرسلت قيادة جيش التحرير الوطني (ALN) كلاً من سي محمد، سي لخضر، الطيب جغلالي، الرائد عز الدين لتصحيح الوضع في ولاية الجنوب. انظر: عاشور شرفي، **قاموس الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، تر: عالم مختار، دار القصبة الجزائر، ٢٠٠٧، ص٣٤٤. وانظر: النقيب محمد صايكي، مصدر سابق، ص ٢١٦ – ٢٢٠. وأيضًا:

Kamel Omar, Ali Mellah, *Le héros reconnu*, http://www.lematin-dz.net/Les gens/Ali Mellah.Htm, Fev 2004.

(٢٥) **بوقاسمي سي الطيب المدعو "الجغلالي"** (١٩١٦-١٩٥٩): ولد الشهيد البطل بوقاسمي الطيب المدعو خلال الثورة باسم سي الطيب الجغلالي ١٩١٦ بقرية أولاد تركي بلدية العمارية دائرة البرواقية، ولاية المدية، نشأ في أسرة محافظة على تقاليدها وعاداتها العربية الإسلامية. ولما بلغ الشهيد بما يسمح له بمزاولته الدراسة، حفظ أثناءها القرآن الكريم ومبادئ في علوم اللغة والدين وفي ١٩٣٦ توقف الشهيد عن الدراسة وعاد إلى مسقط رأسه لمباشرة مهامه إلى جانب والده وإخوته، انضم إلى صفوف الحركة الوطنية سنة ١٩٣٧، كان له دور في نشر الوعي الوطني لدى السكان من خلال المنشورات التي كان يوزعها على شباب الناحية يدعوهم للانضمام لصفوف الحركة الوطنية، وفي نهاية ١٩٤٧ اطلعت السلطات الفرنسية على نشاطاته فألقت عليه القبض بمدينة تابلاط وحكمت عليه بأربع سنوات سجن وبغرامة قدرها (٤٠٠) فرنك فرنسي وبالنفي من المدينة لمدة أربع سنوات أخرى قضاها متنقلاً بين نواحي تابلاط وعين بوسيف والبرواقية. وفي نهاية سنة ١٩٥١ وُشي بالشهيد من جديد فألقى عليه القبض وعُذب عذابًا شديدًا. وفي سنة ١٩٥٣ تنبّهت السلطات الاستعمارية لما يقوم به الشهيد فحاولت إلقاء القبض عليه من جديد لكن بدون جدوى لأنه كان يقوم ويرحل تحت حراسة شباب مخلصين، وعندما اندلعت ثورة نوفمبر في أول نوفمبر ١٩٥٤ اتصل الشهيد من جديد بالشهيد البطل سويداني بوجمعة الذي درس أوضاع المنطقة وإمكانياتها وكلفه بمسؤولية فعمل على بث الخلايا وتشكيل الأفواج والبحث عن العناصر الموثوق بها التي يعتمد عليها في مواجهة العدو وتحمل الصعاب وشرع في حفر المخابئ التي بلغ عددها (١٦) مخبأ موزعة عبر نواحي المدية، عين بوسيف، البرواقية، تابلاط، وقسم المنطقة إلى نواحي ووضع على رأس كل ناحية مسؤولاً كلفه بجمع الأموال والأسلحة المتواجدة لدى المواطنين كبنادق الصيد والمسدسات والذخيرة والحربية، وكل ما تحتاجه الثورة آنذاك في أقصى سرعة ممكنة. في مارس ١٩٥٥ دُعمت عناصر الثورة بعناصر مخلصة مؤمنة إذ أقبل الشباب على الانضمام لصفوف الثورة أفرادًا وجماعات شكل الشهيد منها أفواجًا بلغ عدد كل فوج (١٢) جنديًا (مسبلاً) بعد أن كان في بداية الأمر لا يتعدى عدد الفوج الواحد (٤) جنود (مسبلين) وضاعف من تصعيد عملياته الفدائية لضرب معنويات الأعداء. وفي منتصف ١٩٥٦ توجه إلى نواحي ربغة دائرة المدية للإشراف على العمليات الفدائية والتنظيمات السياسية هناك، فاتصل بالشهيد العلامة أمعمر بن أعمر الذي أفاده عن أماكن تواجد المصاليين وخططهم فكان الشهيد لهم بالمرصاد وعزم الشهيد على وضع حد لنشاط المصاليين بالمنطقة فنصب لهم كمينًا بالقويقة تراب بلدية أولاد هلال دائرة قصر البخاري وكان عدد جنود جيش التحرير الوطني (١١٤) جنديًا بقيادة الشهيد لكبير عبد العزيز زوفة والمسؤول العسكري للناحية المحجوب الذي أصيب بجروح في رأسه أثناء المعركة، وعدد جنود المصاليين (٧٢) جديًا وكان من نتائجه إلقاء القبض على (٣٥) مصاليًا نفذ فيهم حكم الإعدام وقتل ثلاثين جنديًا مصاليًا، عينته قيادة الولاية الرابعة سنة ١٩٥٧ رائدًا واستطاع الشهيد القيام بهذه المهمة الشاقة على أحسن وجه ولما استشهد سي الحواس يوم ٢٩ مارس ١٩٥٩ عينت القيادة العليا للثورة الشهيد سي الطيب الجغلالي قائدًا للولاية السادسة، انتقل إلى

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

تونس في مهمة حيث اتصل بالمسؤولين عن الثورة هناك وخلال ذلك تم تعيينه على رأس الولاية السادسة، وفي طريقه لتولي قيادة الولاية السادسة وقع في كمين ومات مقاتلاً يوم ٢٩ جويلية ١٩٥٩ برفقة ١٣ مجاهدًا بالقرب من جبل الصحاري في ناحية بوسعادة، بينما يؤكد محمد سايكي، نقيب جيش التحرير الوطني (ALN) في الولاية الرابعة (انظر جريدة الشعب ليوم ٠٨ جويلية ٢٠٠٢، ص٢٤)، أن العقيد بوقاسي قد اغتيل مع رفاقه بينما كان نائمًا على أيدي مسئولين في الولاية السادسة غير راضين عن تعيينه، أحدهم شخص يدعى علي بن مسعود (الذي نفذ فيه حكم الإعدام من قبل جيش التحرير الوطني ALN بتهمة الخيانة). انظر: عاشور شرفي، **قاموس الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، تر: عالم مختار، دار القصبة الجزائر، ٢٠٠٧، ص٩٥. وانظر أيضًا: المنظمة الوطنية للمجاهدين، المنظمة الوطنية للمجاهدين، **من شهداء الثورة**، منشورات أول نوفمبر، دار هومة، ٢٠٠١، ص٣٥٧-٣٦٦.

(٢٦) المنظمة الوطنية للمجاهدين المصدر السابق، ص ٢.

(٢٧) **بلقاسم مداني:** من مواليد ٠٢ أفريل ١٩٢٥ في دوار بوقعودن بالبلدية المختلطة للدشمية ابن بلقاسم جمعي بن دهيليس وأمه عائشة مصطفاوي، التحق بالمدرسة الابتدائية مع نهاية العشرينيات حتى أنهى المرحلة الابتدائية وشارك في امتحان نهاية الدراسة (الطور الأول) سنة ١٩٣٨ "بمدرسة الأهالي بأومال" غير أنه لم يسعفه الحظ في النجاح ومواصلة الدراسة لأن الإدارة الاستعمارية لم تكن تسمح لأبناء الجزائريين الوطنيين لمواصلة دراستهم كبقية أبناء القياد والموظفين في الإدارة الفرنسية. الأمر الذي دفع به إلى الانتقال بعد ذلك إلى زاوية بن تونس الموجودة بضواحي عين بسام (عثيبة) أين أتم حفظه للقرآن ودراسته للفقه المالكي، عاد مرة أخرى إلى مسقط رأسه للتكفل بمسؤولية عائلته التي كانت بحاجة إليه نظرًا للظروف والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها المنطقة بسبب إفرازات السياسة الاستعمارية. تأثر بلقاسم مداني بمبادئ وأفكار حزب الشعب الجزائري (PPA) الاستقلالية ودخل معترك الحياة السياسية رفقة أخيه **محمد بلقاسم** مع سنوات (١٩٤٣-١٩٤٤) التي عرفت حِراكًا سياسيًا بسبب الأفكار التحررية التي ارتبطت بنهاية الحرب العالمية الثانية ولقاءاته المتكررة مع المناضل حمودي محمد الذي كان على اتصال مباشر بمحمد خيضر المنفي آنذاك بمنطقة أومال (سور الغزلان) فتأثر به وبأفكاره، الأمر الذي زاد في نمو وعيه السياسي إيمانه بالقضية الوطنية وتمسكه بمبادئ وأفكار الحزب الاستقلالية، كان بلقاسم مداني شاهدًا على حادثة -عملية تزوير الانتخابات البلدية بالدشمية سنة ١٩٤٨- من طرف الإدارة الاستعمارية التي انتهت بسقوط ٠٧ شهداء من أبناء المنطقة واعتقال وسجن الكثير منهم بسجن بربروس بالعاصمة من طرف الشرطة والدرك الفرنسي، هذه الحادثة التي اعتبرها المناضل حسين أيت أحمد في مذكراته بداية للعمل الثوري المسلح الجاد باعتبارها منعطفًا تاريخيًا من خلال الخطوة التي أقدم عليها الوطنيون من أبناء المنطقة من جهة وردود الفعل الاستعمارية من جهة أخرى، ومن أبرز المعتقلين عقب هذه الحادثة وأشهرهم المجاهد أحمد سلام وهو من أبناء المنطقة، الذين ثاروا وهددوا بحرق مكاتب في حالة منعهم من الانتخاب. ويعتبر سلام رفيق المجاهد بلقاسم مداني في مرحلة الطفولة والشباب باعتباره من أبناء منطقته وقد تأثر به في إطار نشاطه السياسي في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية-حزب الشعب الجزائري-PPA-MTLD- ومع نهاية الأربعينيات انتقل إلى العاصمة للعمل وكسب متطلبات العيش لعائلته في الظاهر والنضال السياسي في صفوف الخلايا السرية لحركة الانتصار النشطة بالعاصمة سرًا. ومع بداية الخمسينيات وخروج المناضل أحمد سلام من سجن بربروس التقى مع بلقاسم مداني للتنسيق والعمل تشكيل خلية سرية في الدشمية على غرار الخلايا السرية التي قام بتأسيسها مناضلو حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في المناطق الأخرى. وعشية اندلاع الثورة التحريرية في أول نوفمبر ١٩٥٤ تعرّض أحمد سلامي للمتابعة ومحاولة القبض من طرف الشرطة الفرنسية الأمر الذي دفع به للالتحاق بصفوف الثورة بالجبال واتفق مع بلقاسم مداني مع البقاء في مدينة سور الغزلان للتكفل بمهام أكثر خطورة كالقيام بمهام تموين صفوف الثورة بالمال ومتطلبات العمل الثوري (اللباس والمواد الغذائية...) خصوصًا في هذه المرحلة وهي المرحلة الأولى من عمر الثورة (١٩٥٤-١٩٥٦) أصبح بلقاسم مداني سنة ١٩٥٥ يمتلك دكانًا للمواد الغذائية ثم أنشأ مع نهاية سنة ١٩٥٦ طاحونة للقمح والشعير بالدشمية كانت معظم مداخلها لصالح الثورة الجزائرية. ألقي عليه القبض ثلاث مرات خلال الثورة بتهمة مساندة ودعم جهة التحرير بالمال واحتضان المجاهدين وإخفائهم عنده، ففي سنة ١٩٥٧ ألقي عليه القبض لأول مرة من طرف مصالح المكتب الثاني بجواب ثم أطلق سراحه مرة أخرى وفي سنتي (١٩٥٨) و(١٩٥٩) ألقي عليه القبض مرتين وتعرض لكل أنواع التعذيب من طرف الدرك الفرنسي بثكنة سور الغزلان إلى أن تدخل رئيس البلدية المختلطة لأومال (سور الغزلان) وأطلق سراحه مرة أخرى. وبقي تحت المتابعة والمراقبة من طرف إدارة الجيش الفرنسي الرابضة بجواب وجبل بوقعودن، الأمر الذي دفع به إلى الفرار إلى العاصمة إلى غاية وقف إطلاق النار، كان بلقاسم مداني رفقة أخيه بلقاسم محمد مع جماعة الولاية الرابعة المعارضين لجيش الحدود في خضم أزمة صائفة ١٩٦٢ التي شكلت سور الغزلان أكبر مسرحًا لها ويمكن القول بأن عائلة بلقاسم بما فيها مداني وشقيقه محمد سخرت وقدمت للثورة التحريرية كل الإمكانيات المادية والمعنوية في سبيل استقلال الجزائر. وبعد الاستقلال كان عضوًا نشطًا في جهة التحرير وطني وواصل ممارسة مهنة التجارة، ثم التحق كمسئول إداري في مصلحة المياه بسور الغزلان حتى التقاعد. وهو على قيد الحياة. معلومات عن سيرته ومسيرته الثورية استقيتها منه شخصيًا بمقر سكنه ببلدية سور الغزلان شهر أوت ٢٠٠٠.

(٢٨) مقابلة شخصية في مقر سكنه بسور الغزلان، شهر أوت ٢٠٠٠.

(٢٩) **حمري العيد** من مواليد ٤ مارس ١٩٣٩ بسور الغزلان، كان في صفوف المصاليين دون أن يدرك، وعندما علم بذلك، فر والتحق بصفوف جيش التحرير الوطني في مايو ١٩٥٨.

(٣٠) مقابلة شخصية معه، بمنزل المجاهد النقيب محمد صايكي بسور الغزلان في شهر جويلية ١٩٩٩.

(٣١) **يحياوي لوصيف:** المدعو (بورقيبة) من مواليد ٠٦ مارس ١٩٣١، ليست له أي مشاركة في الحياة السياسية قبل انطلاق الثورة التحريرية التحق مباشرة بصفوف جيش التحرير الوطني سنة ١٩٥٦.

(٣٢) **دحماني لخضر**: من مواليد سنة ١٩٣٩ بسور الغزلان من عائلة ثورية، انخرط في تنظيم جهة وجيش التحرير الوطني، حسب شهادته في أكتوبر ١٩٥٥.

(٣٣) مقابلة شخصية معهما بمنزل المجاهد النقيب محمد صايكي بسور الغزلان في شهر جويلية ١٩٩٩.

صدمة الثورة العربية المصرية وتعصب الثقافات
على ضوء فلسفة المؤرخ المصري عاصم الدسوقي



جهيدة بوعزيز

أستاذة مشاركة التاريخ الحديث
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة المسيلة – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

جهيدة بوعزيز، صدمة الثورة العربية المصرية وتعصب الثقافات على ضوء فلسفة المؤرخ المصري عاصم الدسوقي.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٦٧ – ٧٤.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

يتناول موضوع هذا المقال الثورة العربية في مصر والصدمة التي تلقاها المجتمع المصري جراء هذا الفعل غير المسبوق في تاريخه، وذلك بقراءتها من خلال مصدر معايش للثورة وهو المؤرخ عاصم الدسوقي الذي نعتقد أنه تجاوز السرد التقليدي للأحداث السياسية اليومية إلى البحث في أسبابها ومُتغيراتها، والكشف عن آثارها في المؤسسات الاجتماعية والعسكرية، موضحًا ذلك من خلال بروز عناصر ثقافية جديدة متعصبة لأفكارها دون وعي سياسي؛ إذ سرعان ما ظهر على مسرح الأحداث عدد من القوى السياسية من مختلف الاتجاهات كل منها ينسب لنفسه تفجير الثورة ودخل المتنافسون في معارك أخذت عدة أشكال في الشارع المصري وفي وسائل الإعلام، واستطاعت أن تفعل فعلها في النكوص بالأهداف التي استهدفها الثوار في البداية. وبغض النظر عن سقوط حاكم وتولي آخر في مصر فقد خلفت الثورة العربية آثارًا عميقة على المجتمع المصري، تجاوزت الآثار الظاهرة من قتل ونهب وخراب إلى الآثار الاجتماعية الرهيبة التي نأمل أن يتجاوزها المجتمع المصري في أحسن حال.

مُقَدِّمَةُ

من الصعوبة بمكان أن يستطيع المرء الكتابة عن بلد لا ينتسب إليه، خاصةً في ظل ثورة غير مسبوقة في تاريخه كالتي حدثت في مصر، والتي تشعبت أفكارها وتشابكت ثقافاتها وتسارعت فيها القرارات لدرجة أنها أحدثت صدمة لمختلف الأطراف، سواء الفاعلة فيها أم الغريبة عنها. لكن تلك الصعوبة تتقلص إذا ما ارتكزنا في مقالنا هذا على قراءة في كتابات مصدر معايش لتلك الثورة، وهو المؤرخ المصري عاصم الدسوقي، والذي تبنى فكر الفلاسفة في استشراف المستقبل، وتنبأ بانتكاس الثورة قبل انتهائها لأن التغيير فيها حدث دون أن تتقدم الحكومة خطوة واحدة لقطع طريق الألف ميل، مما خلق حالة من الخلل والفوضى في البلاد وأعطى الفرصة لبروز عناصر ثقافية جديدة متعصبة لأفكارها دون وعي سياسي؛ إذ سرعان ما ظهر على مسرح الأحداث عدد من القوى السياسية من مختلف الاتجاهات كل منها ينسب لنفسه تفجير الثورة. ودخل المتنافسون في معارك أخذت عدة أشكال في الشارع المصري وفي وسائل الإعلام، واستطاعت أن تفعل فعلها في النكوص بالأهداف التي استهدفها الثوار في البداية.

هذا وقد حاول المؤرخ أن يساهم في توعية المجتمع المصري من خلال مجموعة من الكتابات والتي خاطب بها مختلف الفئات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ هذه الأخيرة التي لا يمكننا إحصاؤها في بلد كثرت فيه الطوائف، بل سنكتفي فقط بالتعرض لبعض النماذج الفاعلة في الساحة السياسية لنقل صورة واضحة عن الأوضاع المعاشة في مصر في هذه الفترة، وذلك من خلال ما جاد به المؤرخ المصري عاصم الدسوقي، فمَنْ هو هذا المؤرخ؟ ولم اخترنا أفكاره وآراؤه وتحليلاته دون غيره؟ وما هو مفهوم

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الصدمة في رأيه؟ وما هي مختلف الثقافات الجديدة التي ظهرت في الساحة؟ وهل هذا دليل على عدم وجودها قبل ثورة يناير؟ وماذا قال عن حكم الإسلاميين في مصر؟ وكيف عالج قضية فشلهم في الحكم؟ وكيف وضح علاقة المشروع الأمريكي بالثورة المصرية؟ وهل اقترح حلولاً للخروج من الأزمة التي تعيشها مصر حاليًا؟ وما هي مميزات الرئيس أو الزعيم الذي ينادي به؟ وأخيرًا ما هي الرؤية المستقبلية الاستراتيجية الفريدة التي يتبناها في مصر؟

(١) التعريف بالمؤرخ المصري عاصم الدسوقي[١]

اسمه الكامل عاصم أحمد السيد الدسوقي، مصري الأصل والمنشأ، تحصل على دكتوراه في التاريخ الحديث من جامعة عين شمس، مصر، أبريل ١٩٧٣م، وهو حاليًا يشغل منصب أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث بجامعة حلوان، شغل العديد من المناصب في مختلف جامعات مصر وترأس عمادة كل من كلية الآداب بجامعة أسيوط وكلية الآداب بجامعة حلوان، كما شارك في عضوية العديد من الجمعيات واللجان والهيئات والمراكز العلمية والثقافية على غرار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية واللجنة العليا للمعادلات الدراسية بالمجلس الأعلى للجامعات المصرية، كما كان عضو مؤسس وعضو هيئة التحرير لمجلة "أوزيريس"، وهي مجلة الدراسات الإيطالية المصرية، وترأس لجنة دراسة المستقبليات بجامعة أسيوط، والهيئة الاستشارية بالمركز القومي للترجمة وغيرها.

أما عن رصيده في التأليف فهو قيّم وكثير تنوع بين العربي والأجنبي والمترجم أيضًا، له حوالي (٧٣) مقالة منشورة في مجلات عربية وأجنبية و(١١) كتاب مؤلف و(٤) كتب مترجمة عن اللغة الانجليزية، كما كُلف من قبل وزارة التعليم بالمشاركة في إعداد مجموعة من الكتب المدرسية، فضلاً عن حضوره للكثير من المؤتمرات والندوات المصرية والعالمية، إضافة لكتابته حوالي (٦٠٠) مقال في مختلف الصحف المصرية اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية اعتبارًا من يناير ١٩٨٠ وبعض الصحف العربية وجميعها في الشأن العام وهموم المرحلة. وهذا ما جعلنا نختاره دون غيره لكتابة هذه الورقة البحثية. كيف لا وهو الذي يشهد له إنتاجه الفكري المتميز ومشواره الحافل بالدراسات القيمة مما أهله لنيل العديد من الشهادات التقديرية والأوسمة، وكذا الجوائز كوسام "المؤرخ العربي" من اتحاد المؤرخين العرب وكذا جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية، وهذا ما يكسب كتاباته قيمة علمية عالية.

(٢) مفهوم الصدمة في رأي المؤرخ عاصم الدسوقي

قبل التطرق لمفهوم صدمة الثورة المصرية لدى المؤرخ عاصم نتعرف لدلالة الكلمة لغة واصطلاحًا: **الصدمة لغة**: نازلة أو مصيبة تفاجئ الفرد والمجتمع وتُقلِقُه.[٢] **اصطلاحًا**: يعرفها علماء الاجتماع على أنها حالة من الارتباك والقلق تصيب الشخص أو المجتمع الذي يجد نفسه فجأة في بيئة أو ثقافة تختلف عن بيئته وثقافته.[٣]

وإذا نظرنا إلى مفهوم الصدمة في فكر المؤرخ عاصم الدسوقي فإننا نجده لا يختلف كثيرًا عن المفهوم السابق؛ إذ أنه يؤكد بأن صدمة الثورة المصرية حدثت فجأة لأن الثورة غير مسبوقة في تاريخ مصر إن لم يكن في العالم أجمع، فقد نتجت عنها تداعيات غير مسبوقة أيضًا في تاريخ الثورات؛ إذ أصبحت البلاد تعيش في حالة من الخلل تؤدي إلى حالة من الفوضى تزداد ملامحها ساعة بعد ساعة مثل كرة الثلج التي تكبر وتتضخم كلما تحركت حركة لا إرادية ودون بوصلة تحكم مسيرتها إلى نهاية محتومة. خاصةً وأن السلطة لم تقع في أيدي ثوار ٢٥ يناير كما هو واضح حتى الآن، الأمر الذي حال بينهم وبين تحقيق أهداف التغيير، وتلك أحد خصوصيات هذه الثورة، ولأن الذي يمسك بزمام السلطة لا ينتمي لهؤلاء فلن يكون على مستوى الأهداف، وهذا ما يفسر سرعة التغيير الوزاري منذ البداية، ففي أقل من شهر بعد هذه الثورة حدث أكثر من تغيير وزاري: مرتان برئاسة أحمد شفيق، والتغيير الثالث بتشكيل حكومة جديدة برئاسة عصام شرف (ليس من المعروف مدى استمرارها). وهذا التغيير حدث دون أن تتقدم الحكومة خطوة واحدة لقطع طريق الألف ميل. وقد نتج عن هذه الخصوصية حالة الخلل والفوضى التي تقع فيها البلاد الآن مما أعطى الفرصة لعناصر الثورة المضادة أن تفعل فعلها في النكوص بالأهداف التي استهدفها الثوار، وهو ما يخشاه المؤرخ عاصم قائلاً:" أخشى أن تنتهي ثورة يناير عند هذا الحد فتصبح مجرد انقلاب نجح في إزاحة رأس النظام وبقيت فلسفته وتوجهاته في الحكم والإدارة كما هي مع تعديل طفيف قد يحدث داخل الأطر نفسها مما يعرف في الفكر السياسي بالإصلاح وليس الثورة".[٤]

ومما يساعد على استمرار حالة الفوضى التي يعاني منها أغلب المصريين، أن حركة السلطة "الجديدة" نحو التغيير المنشود بطيئة بدرجة لا تتناغم مع فورة الشارع المطالب بسرعة التغيير، إذ سرعان ما يكتشف شباب الميدان أن التغيير الوزاري الذي يتم لا يشفي الغليل وذلك بناء على معلومات يحصلون عليها من عدة جهات في مقدمتها شبكة الانترنت تتناول تاريخ كل من يقع عليه الاختيار، وأن منهج الإصلاح هو الذي يحكم حركة السلطة الجديدة وليس منهج الثورة، فيرددون المقولة المصرية المشهورة "ما فيش فايدة".

(٣) بعض الثقافات الجديدة التي ظهرت في الساحة

بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ ظهرت ثقافات جديدة على الساحة السياسية، وباتت واضحة أكثر خاصةً بعد استحواذ الإسلاميين على السلطة التشريعية وتطلعهم للإمساك بالسلطة التنفيذية (الحكومة)، وتأييدهم لمرشح لرئاسة الدولة ذا "خلفية إسلامية". وهذا ما دفع بعض غلاة الأقباط إلى الاحتكام إلى الأصولية المسيحية واستعادة شعار "الأمة القبطية" الذي ساد خلال أربعينيات القرن الماضي في مواجهة اشتداد نشاط جماعة البنا. وأما الجديد في عالم الأصوليات فهو ما يعرف بالأصولية الفرعونية

ويدعو أصحابها إلى اتخاذ التقويم الفرعوني أساسًا، وإحياء اللغة المصرية القديمة، وإخراج مصر من الجامعة العربية، واستعادة كل قيم وثقافة المصريين القدماء بصرف النظر عن أية تحولات حدثت للمصريين على مدى الزمن. وفي هذا الخضم من بحيرة الأصوليات تسبح أصوليات أخرى عند الشيعة المصريين والبهائيين والله أعلم، يقول المؤرخ عاصم، بما تخبئه الأيام من مفاجآت أصولية أخرى.(٥) وبرى المصدر نفسه أن وجه الغرابة في هذه القضية أن الذين يدعون إلى تلك الأصوليات لا يعرفون أنهم بهذا ينسحبون من الزمن الذي يعيشون فيه ولا يعملون على مواجهة مشكلاتهم المعاصرة بحلول من واقع سياق وظروف كل مشكلة وليس من واقع التاريخ حيث لا تتماثل التجارب ولا تتشابه، ولو كانت تتماثل أو تتشابه لما وجدت البشرية أي معضلة عند مواجهة المشكلات. وتزداد حدة المشكلة حين نعلم أن كل أصولية عزيزة لدى أصحابها وهيهات أن تخرجها من نفوسهم أو تزعزع مكانتها.(٦)

والأكثر غرابة أن الذين لا يدعون إلى الاحتكام لأصوليات دينية-مذهبية لحل مشكلات المجتمع في السياسة والاقتصاد يبحثون عن أصوليات أخرى وضعية، فمثلاً هناك مَنْ يقول: لماذا لا نأخذ بتجربة "مهاتير محمد في ماليزيا"،(٧) أو بتجربة اليابان التي تم تدميرها في نهاية الحرب العالمية الثانية وأصبحت عملاقة وكذا الصين ..إلخ، بل ومن الشائع أن بعض الذين تعلموا في جامعات أوروبية وأمريكية وتولوا مناصب تنفيذية يواجهون مشكلات المكان المسئولين عنه بعبارة أثيرة يقولونها: عندما كنت في فرنسا أو إنجلترا وجدت الناس هناك يفعلون كذا وكذا .. فلماذا لا نأخذ بتجربتهم؟

هكذا ببساطة ودون وعي باختلاف الظروف وطبائع البشر، وكأنه قد كتب علينا، يقول المؤرخ عاصم،(٨) ألا نفكر تفكيرًا مستقلاً، وأن ننقل الحلول التي ثبت نجاحها في بلادها مع أن أصحاب هذه النماذج الجاهزة التي لم ينقلوها من مجتمعات أخرى، وهذا هو الفرق بين المنهج وبين النظرية. وهكذا نفعل نحن في مواجهة مشكلاتنا بالرجوع إلى أصوليات جاهزة نجحت في مواجهة مشكلات زمانها، لكن ليس بالضرورة أن تنجح في مجتمعات أخرى غير التي صيغت فيها، فضلاً عن أنها تمثل قيدًا حديديًا على حرية الإبداع والتصرف حسب مقتضى الحال. على أن هذه الحالة من النقل دون إعمال العقل أنشأت بدورها مقولة "الأصالة والمعاصرة" أي الأخذ عن الغير بما لا يتعارض مع الأصول فأصبحت "الأصالة" عنوانًا للإيمان، وأصبحت "المعاصرة" عنوانًا للمروق والعصيان.

هذا وقد تخوف كثيرًا المؤرخ عاصم من أن يفوز بالمنصب أحد المتشددين دينيًا أو مذهبيًا، خاصةً وأنهم مروا بهذه الحالة مرتين: الأولى عند الاستفتاء على تعديلات الدستور (١٩ مارس ٢٠١١)، والثانية عند انتخابات مجلسي الشعب والشورى حيث وقع المجلسان في يد نخبة من المتشددين الذين لا يخفون توجهاتهم، وبدت الأزمة واضحة عند اختيار لجنة وضع الدستور التي غلب على أعضائها روح التشدد والتعصب، وأصبح مصير الأمة والحال كذلك في أزمة. وعندما يعلن الإخوان المسلمون أنهم يبحثون عن "مرشح له خلفية إسلامية" يشدون من أزره ويقفون وراءه بكل قوة، فهذا يعني أن المصريين لن يكونوا أمام رئيس دولة لكل المواطنين على اختلاف أصولهم ومعتقداتهم، وإنما سيكونون في قبضة رئيس دولة متشدد دينيًا ينحاز بالطبيعة والنشأة والثقافة والمعتقد مع أو ضد، وفي النهاية يدفع الوطن ثمن تزييف إرادته وسوء اختياره.(٩)

ومشكلة المُتَعَصِّب أنه يعتقد بفضيلة ما يعتنقه من أفكار أنه دائمًا على صواب وأن غيره على خطأ. وعندما يتفشى هذا التعصب بين أفراد المجتمع تبدأ الحرب بينهم ويقتل بعضهم بعضا على الهوية مثلما حدث في لبنان ابتداء من الحرب الأهلية ١٩٧٥، ثم في العراق منذ الاحتلال الأمريكي ٢٠٠٣، وفي إقليم دارفور بالسودان منذ ٢٠٠٤ حتى تم انفصال الجنوب عن الشمال (فبراير ٢٠١١)، ثم أحداث الفتنة الطائفية في مصر التي تطفو من آن لآخر.

ولقد تنبهت الأمم المتحدة إلى خطورة التعصب على مصير البشرية فأصدرت في نوفمبر ١٩٨١ إعلانًا بشأن القضاء على جميع أشكال التعصب والتمييز القائمة على أساس اختلاف ثقافة الدين والمعتقد لأن من شأن ذلك تعطيل الاعتراف بحقوق الإنسان والحريات الأساسية أو التمتع بها أو ممارستها على أساس من المساواة. ومما يؤكد خطورة أن يعتلي متعصب أو متشدد كرسي رئاسة الدولة أن الرئيس الأمريكي بوش الابن (يناير ٢٠٠١ - يناير ٢٠٠٩) وكان متعصبًا أعلن أنه يشن حربًا صليبية على الشرق الإسلامي في أعقاب الهجوم على برجي نيويورك ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فسالت الدماء، ورئيس السودان عمر البشير قرر تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد فكانت النتيجة انفصال جنوب السودان عن شماله، ورئيس لبنان بشير الجميل المتشدد في ماورنيته مارس التمييز فانتهى أمره بالقتل. وهكذا؛ فإن السلطة لا تفسد الإنسان ولكنها تكشف عن معدنه.

(٤) رأي المؤرخ عاصم الدسوقي في حكم الإسلاميين في مصر

منذ أحداث ثورة يناير ومشاعر التخوف من الجماعات الإسلامية في ازدياد خاصةً وقد وضعوا أيديهم على منصة التحرير منذ جمعة ٢٨ يناير، وزادت ثقتهم في قوتهم بوجود أحدهم في لجنة تعديل الدستور، ثم بنتيجة الاستفتاء على التعديلات الدستورية حتى لقد قال أحدهم "البلد بلدنا واللي مش عاجبه يروح كندا أو استراليا"،(١٠) وهي إشارة لها مغزاها، وغير ذلك من أقوال وأحاديث زادت من مخاوف غالبية المصريين من وصول هؤلاء إلى الحكم عبر السلطة التشريعية في الانتخابات.

ورغم أن سيطرة حكومة دينية في بلد تعيش فيه أكثر من طائفة مذهبية سيؤدي بالضرورة إلى انتعاش مناخ التعصب ومن ثَمَّ الصراع دفاعًا عن الذات، إلا أن المؤرخ عاصم الدسوقي يرى أن فوز الإسلاميين بأغلبية برلمانية وبمقاعد في السلطة التنفيذية

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

سوف يكون بداية زوالهم من الحياة السياسية مهما تخفوا وراء لافتات غير دينية من نوع الحرية والعدالة والمدنية، وذلك لأسباب تتصل بطبيعة هذه الجماعة التي تعيش خارج الزمن:

- أولها، أنها امتداد لمدرسة ابن تيمية (المتوفى ١٣٢٧) المستمدة من ابن حنبل وبالتالي ففيها الكثير من السلفية والصوفية.
- ثانيها، أنها تعمل على "قيام الدولة الصالحة التي تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه وتحرسها في الداخل وتبلغها في الخارج (فقرة (و)- مادة ٢ من لائحة الجماعة الصادرة في ٦ مايو ١٩٤٨).
- ثالثها، أن للجماعة سبعة أهداف وردت في رسالة البنا "الإخوان المسلمون تحت راية القرآن".
- رابعها، أنها منشقة على نفسها منذ بدايتها التنظيمية ووقع أول انشقاق في يناير ١٩٣٩ (شباب محمد)، وتوالت الانشقاقات حتى يومنا هذا، وكل منشق يميز نفسه برداء مختلف لكن بقي جوهر الدعوة سائدًا بينهم.
- خامسها، إقامة "الحكومة المسلمة".
- سادسها، "عودة الوطن السليب: الأندلس، وصقلية، والبلقان، وجنوب إيطاليا، وبحر الروم".
- سابعها، أنهم لا يعرفون "الديمقراطية" ولا حرية الرأي وحق الاختلاف، فالشيخ حسن البنا هو القائل: "إن الدعوة ينهض بها فرد واحد له أن يأمر وعلى الجميع أن يطيع". ويلجئون للمناورة من باب التقية والستر، وفي هذا قال البنا نفسه "إن نجاح الدعوة مرهون بإرضاء الحكام والعمل تحت ألويتهم الحزبية"، وهذا ما يفعلونه هذه الأيام.[١١]

وعلى صعيد آخر يرى المصدر نفسه؛ أن قيادات الجماعة الإسلامية رجال أعمال وأصحاب مشروعات استثمارية هنا وهناك، وهذا النوع من الناس دينهم المال حيثما يوجد وحيثما يمكن جمعه واكتنازه.. المال الذي لا يعرف وطنًا أو ملة أو دينًا أو مذهبًا. وفي هذا الخصوص فإنهم لا يختلفون عن الحزب الوطني الديمقراطي البائد ورجال أعماله في الحكم من حيث التوجهات الاقتصادية والسياسية. وكل ما لديهم مجرد برنامج أخلاقي مستمد من الروح السلفية الصوفية يسعى كما قال أحدهم إلى ترتيب مواعيد العمل ومواعيد الدراسة بالمدارس والجامعات حسب مواقيت الصلاة، وفرض الحجاب، وبقاء المرأة في البيت، وعودة مبدأ أهل الذمة، وغير ذلك من أفكار يعملون على استردادها خارج السياق الذي نشأت فيه. ويحتفظون لأنفسهم بحق الهيمنة على شؤون العباد باسم الله وتعبيرًا عن الدين بعد توظيف نصوصه كيفما يريدون، والعمل على تطويع المجتمع للنصوص قسرًا بدلاً من أن يعملوا على تفسير نصوص الدين لصالح المجتمع (فقه المقاصد)، ويتحدثون عن الأخلاق بينما يعملون بكل حيل السياسة وانتهازيتها وخدعها.[١٢]

(٥) توضيح المؤرخ عاصم الدسوقي لعلاقة المشروع الأمريكي بالثورة المصرية

يبدو من ظاهر الأحداث أن الولايات المتحدة الأمريكية تؤيد الثورات العربية التي بدأت في الاندلاع منذ بدايتها باسم حقوق الإنسان في الحرية والديمقراطية. ومما يؤكد ذلك أن هذه الثورات لو كانت ضد المصالح الأمريكية لوقفت ضدها باسم الشرعية ولشنت على أصحابها حربًا عامة مثلما فعلت في أفغانستان (٧ أكتوبر ٢٠٠١) وفي العراق (٢٣ مارس ٢٠٠٣). فما مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية في تأييد ثورات تقوم ضد حلفائها أو أتباعها أو أصدقائها ..؟.

يرى المؤرخ عاصم أن مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية تكمن في أن هذه الثورات تصب في صالح مشروع "الشرق الأوسط الجديد" الذي بشر به شمعون بيريز وتبنته الولايات المتحدة وفقًا لما نشرته جريدة الحياة اللندنية (١٣ فبراير ٢٠٠٤). ثم ما كان من إعلان كوندوليزا رايس وزيرة خارجية أمريكا في منتصف سنة ٢٠٠٥ مبدأ "الفوضى الخلاقة" ومعناه إثارة الطوائف والأقليات في أنحاء البلاد العربية على الحكومات الوطنية القائمة لإعادة بناء الحكم فيها على أسس عرقية أو دينية - مذهبية مما يؤدي في النهاية إلى تفكيك رابطة العروبة التي جعلت من البلاد العربية قوة واحدة خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين.

وجذور هذا التفكيك تعود إلى عهد الرئيس بوش (الأب) في يناير ١٩٩١ عندما كان يستعد لتحرير الكويت من الغزو العراقي في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ حيث قال: "إن المسألة ليست الدفاع عن دولة صغيرة (الكويت) احتلتها دولة أكبر (العراق) وإنما المسألة هي الدفاع عن النظام العالمي الجديد". ومع توالي الأحداث بدأ العالم يكتشف أن "النظام العالمي الجديد" يعني تفكيك الكيانات القومية الكبرى إلى عدة أوطان، ثم تفكيك الوطن الواحد إلى عدة كيانات كل منها يمثل "دويلة صغيرة" يسهل السيطرة عليها بسهولة.

وللعمل على هذا التوجه الجديد صدر "إعلان الأمم المتحدة" في ١٠ ديسمبر ١٩٩٢ الذي يؤكد على حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقليات قومية أو عرقية أو دينية أو لغوية، لكي يكون سندًا للتدخل في شؤون بلد ما لنصرة أقلية فيه، فضلاً عن توظيف ترسانة من المفاهيم حددت معنى الأقلية بأنها: "جماعة من الأفراد يتميزون عن بقية أفراد المجتمع عرقيًا أو قوميًا أو دينيًا أو لغويًا، ويعانون من نقص نسبي في القوة، ويخضعون لبعض أنواع الاستعباد، مما يعني وجوب حمايتهم دوليًا".[١٣]

وكانت البداية في العراق حيث تمت صياغة دستور جديد يعترف بأن العراق دولة فيدرالية تضم قوميات مختلفة والعرب أحد القوميات فيها بجانب الأكراد، والتركمان، والشيعة، والسنة، والكلدان (المسيحيون). ثم كانت الخطوة التالية في السودان حيث تم فصل الجنوب بدعوى مسيحيته عن الشمال "المسلم". ثم وجدت الولايات المتحدة الأمريكية في الثورات التي اندلعت من يناير

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

فرصة لاستكمال ملف التفكيك وإقصاء القومية العربية. فمثلاً ثورة تونس أعادت الإسلاميين إلى دائرة الضوء وهذا كفيل بإخراجها من الإطار العربي، وثورة مصر انتهت إلى تعميد العلاقات مع إسرائيل والالتزام بالأجندة الإسرائيلية - الأمريكية، وثورة ليبيا انتهت بتفكيكها وزعزعة كيانها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والثورة في سوريا قد تنتهي إلى وضع صيغة طائفية للحكم (سبعة طوائف) على غرار لبنان بمقتضى ميثاق ١٩٤٣ أو على غرار العراق "الفيدرالي". واليمن تنتهي ثورته بإعادته إلى شمال وجنوب قبل توحيده في سنة ١٩٩٠ حتى لا يسقط في يد الشيعة (الزيدية) فيتدعم موقف إيران. وأما ثورة البحرين فليست في مصلحة المشروع الأمريكي لأن نجاحها سوف يقوي من الجناح الإيراني في المنطقة.[١٤]

والواقع أن كل هذا الكلام كان تخمينًا من قِبل المؤرخ المصري الذي تبنى فكر الفلاسفة في استشراف المستقبل، ولكن وللأسف هو ما حصل فعلاً مع مختلف الثورات العربية وأخشى بدوري أن تقع الجزائر في هذا الفخ المحكم خاصةً مع الفتن التي ظهرت قبيل انتخابات أبريل ٢٠١٤.

(٦) اقتراح المؤرخ عاصم الدسوقي حلولاً للخروج من الأزمة التي تعيشها مصر حاليًا

تبدأ نقطة الإصلاح فيما يرى المؤرخ عاصم من فك الطبيعة المركزية للحكم في مصر التي طبعت الحكم بهذا الطابع الشمولي، والاعتياد على اعتبار أن كرسي السلطة من أعلى مستوياته (رئيس الدولة) إلى أدناها (رئيس الأرشيف في مصلحة) مثل الكرسي الذي يجلس عليه الزبون في صالون الحلاقة أو المقهى.. كرسي دائر دوار.. لا يمتلكه الجالس عليه، ولكن يجلس عليه بعض الوقت يقضي من خلاله بعض المصالح التي تعبر عنها القوى التي رفعته إلى هذا المقعد، ثم يمضي لحال سبيله، ويأتي آخر ليشغل نفس المكان ويدفع العمل قدمًا إلى الأمام .. وهكذا.

وفي سبيل الوصول إلى هذه الحالة اللامركزية ثمة خطوات سطرها المؤرخ ينبغي الأخذ بها ولو على مراحل المهم أن يبدأها المصريون ومن ذلك:

- إطلاق الحرية كل الحرية لتكوين الأحزاب، إذ لا يوجد في العالم الديمقراطي قوانين تنظم قيام الأحزاب وتضع شروطا لإعلانها إلا في مصر. ولندع، يقول المؤرخ، الجماهير أبناء الشعب هم الذين يسقطون بأنفسهم الحزب الذي يرسب في امتحان خدمتهم عن طريق صندوق الانتخابات.
- أن تقوم القوى السياسية بتقديم مرشحيها للتنافس على مقاعد السلطتين التشريعية (البرلمان) والتنفيذية (الوزراء ورئيس الدولة)، ويكون الاحتكام أيضًا لصندوق الانتخابات.. وترك الجماهير التي تدفع الضريبة تقول كلمتها فيمن يحكمها بعيدًا عن الطريقة الأبوية القبلية التي ربما كانت صالحة في وقت ما ولأسباب تاريخية ولم تعد كذلك.
- بدء تجربة الاختيار الجماهيري على المحافظين ورؤساء مجالس المدن والأحياء والقرى بدلاً من أن يكون كل منهم مجرد موظف يعين في منصبه ويعزل أو ينقل أو يستغنى عنه بناء على أسس شخصية لا معيارية. ولا بد من الوثوق في أن الجماهير تستطيع أن تفرز الصالح من الطالح.. صحيح أنها قد تخطئ في الاختيار الصحيح والمناسب في البداية لأنها لم تتعلم هذا الاختيار من قبل. ولكن بالتدريج سوف ينصلح حال التجربة ويستقيم أمرها.
- إعمال القانون لضبط التوازن الاجتماعي بين الصالح الخاص والصالح العام بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ومَنْ يطغى تكون عقوبات القانون في انتظاره دون فكاك ولا استثناء بالطرق الملتوية التي يمارسها أصحاب النفوذ. وهذا يعني أنه إذا قدر لمصر أن يحكمها أصحاب المصالح الرأسمالية في السلطتين التشريعية والتنفيذية فيكون من حق المحكومين الذين لا يملكون وإنما يعملون لدى هؤلاء أن ينتظموا في نقابات وهيئات وجمعيات يدافعون عن حياتهم ومستقبلهم دون تجريم هذا النشاط قانونًا، أو تحريمه شرعًا بمبدأ "طاعة أولى الأمر".[١٥]

بمثل هذه الخطوات وغيرها كثير وكثير، يرى المؤرخ أن المصريين يستطيعون استلهام روح ثورة يناير وعبور الأزمة الخانقة وتفويت الفرصة على تحرش القوى العالمية الجديدة بوطنهم.

(٧) مميزات الرئيس أو الزعيم الذي ينادي به المؤرخ عاصم الدسوقي

أكد المؤرخ عاصم الدسوقي أن الانتخابات التي جرت في مصر في (٢٣-٢٤ مايو ٢٠١٢) هي أول انتخابات تجرى لاختيار رئيس لحكم مصر بالشكل الذي جرت عليه قائلاً: "صحيح أن انتخابات عام ٢٠٠٥ كانت بين أكثر من مرشح لكنها كانت انتخابات صورية لعب فيها المرشحون دور (الكومبارس)،[١٦] فانتهت النتيجة كما هو معروف بفوز مبارك الحزب الوطني"،[١٧] وعلى هذا فالمصريون أمام المرة الأولى التي جرت فيها انتخابات حقيقية لرئاسة الدولة. وهنا يقول المؤرخ أنهم وقعوا في حيرة ما بعدها حيرة لأنهم لم يعتدوا على انتخاب رئيس الدولة منذ حكم الفراعنة الأوائل. ولعل من مظاهر هذه الحيرة والتخبط أن الانتخابات جرت دون صدور دستور يحدد صلاحيات الرئيس إلا من الإعلان الدستوري الذي صدر في ٣٠ مارس ٢٠١١ والذي خلا من تحديد صلاحيات الرئيس ولكنه نص على صلاحيات المجلس الأعلى للقوات المسلحة (المادة ٥٦ من ذلك الإعلان) وكلها سلطات مطلقة لرئيس الدولة مأخوذة من دستور ١٩٧١.

والمثير للدهشة أن مجلس الشعب بأغلبيته من "الإسلاميين" يرفضون إصدار إعلان يكمل الإعلان السابق يتضمن صلاحيات الرئيس دستوريًا لحين وضع الدستور الدائم، فأصبحوا أمام حالة فريدة من نوعها في النظم الدستورية وهي أن يتولى الرئيس مهام

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وظائفه دون سند دستوري. وهذا يعني إذا استمر الوضع على ما هو عليه، أن الرئيس المنتخب سوف يكون له رأي في تحديد سلطاته في الدستور الجديد وخشيّ المؤرخ من أن الرئيس "المنتخب" يعتمد نفس الصلاحيات المطلقة في الدساتير السابقة والممتدة من عهد النظام الملكي بمقتضى المادة (٤٨) من دستور ١٩٢٣. وقال أن هذا الأمر ليس ببعيد على الإسلاميين إذ أنهم يفكرون هذا التفكير انتظارًا لفوز مرشحهم بالرئاسة حتى يعيدون الحكم المطلق تحت عباءة الدين، فقد قال أحدهم إنه في حالة فوزهم بالحكم فلن يتركوه أبدًا، ولا تدرى كيف يحدث هذا وبأي وسيلة من الوسائل..؟! لكنهم هكذا يفكرون مهما جاءت تصريحات لآخرين تنفي ذلك.[١٨]

ومن مظاهر هذا التخبط أيضًا، يذكر المؤرخ ما شاهده ليل نهار حتى من قبل أن يفتح باب الترشيح، اندفاع عدد هائل من المرشحين لتسجيل أسمائهم دون روية وتأمل وكل منهم يعتقد أنه الأصلح والأنسب لشغل المنصب، مع أن أبسط مبادئ "التوظف" تفرض على مَنْ يريد أن يرشح نفسه لوظيفة ما أن يكون مستوف لشروطها وأن يملك مؤهلاتها غير أن يكون من أبوين مصريين. ويبدو واضحًا أن عددًا كبيرًا من المرشحين لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال من حيث القدرة على تولي أمر جلل بهذا القدر. لكن الحرمان الذي ورثه المصريون منذ فجر التاريخ من حيث حقهم في اختيار رئيسهم أوقعهم في هذه الحيرة، وأصبحت الانتخابات فرصة للتلاسن بين المرشحين وأنصارهم وفضح العيوب والنواقص لدرجة التشابك بالأيدي وكل هذا من أمور "الجاهلية السياسية" التي تسربت إلى "جينات" المصريين.[١٩]

ورغم أن عملية الانتخاب تفترض من الناخب أن يختار رئيسا للوطن تقع عليه واجبات عامة تتصل بالوطن كله وليس من يمثل مصلحة فئوية أو عرقية أو دينية، فإننا وجدنا أنفسنا أمام مرشحين يضع بعضهم العقيدة الدينية أمامه والوطن خلفه، ويستخدم النصوص الدينية لإقناع الناخبين بصلاحيته. وقد ساعد على سيادة هذا النموذج كل من الأمية السياسية المتفشية والفقر الظاهر بين نسبة غالبة من الشعب المصري الذي فقد كرامته بسبب جوعه، ولم يعد مصير البلد يهمه في قليل أو كثير.

وهنا يقول المؤرخ أن على الرئيس الفائز أن يدرك تمامًا أنه نجح بأغلبية ما عادية وليس بأغلبية مطلقة، أي أن هناك جزء لا يستهان به من الشعب لم ينتخبوه، وبالتالي عليه أن يضع ذلك في الاعتبار وأن يعمل على اجتذاب هذا الجزء إلى صفه بالتدريج، وهذا لا يتأتى إلا بالعمل على تنفيذ برنامجه الانتخابي الذي بنى عليه اختاره الناخبون، بل إن عليه أن يجتهد في تنفيذ برامج المرشحين الآخرين التي تتصل بالصالح العام وليس بمصالح فئة معينة أو عقيدة معينة ومن شأن هذا أن يحدث التماسك الوطني بين أبناء الأمة، وعليه أن يختار نوابه من بين منافسيه ليضعهم أمام مسئوليتهم في حماية الوطن والدفاع عنه بدلاً من أن ينصرفوا لمحاربته.

ويرى المصدر نفسه أن الرئيس المصري الجديد لديه فرصة ذهبية لكي يدخل التاريخ من أوسع أبوابه ويحقق رقمًا قياسيًا بين حكام الشرق، وأن يضع البذرة الأساسية لمطلب ديمقراطية الحكم بحيث يكون من الصعوبة بمكان على من يأتي بعده أن يتراجع عن الخطوات التي اتخذها في هذا السبيل، بل إن على مَنْ يخلفه أن يضيف، وتدريجيًا تتراكم التجربة وتتحسن سمعة مصر بين الشعوب مع صدق النية وقوة الإرادة واستقلالها.

٨) تبني المؤرخ عاصم الدسوقي لاستراتيجية فريدة لمستقبل مصر

لقد تبنى المؤرخ استراتيجية يراها الأنسب لمستقبل فريد من نوعه في مصر وهذا عن طرق إتباع الرئيس لعدة خطوات تصبح في أولويات أجندته نذكر منها:[٢٠]

- انتخاب المحافظ لمدة أربع سنوات من بين أبناء المحافظة حتى يكون على دراية تامة بمشكلات الإقليم الذي يمثله. وحتى يتحقق الحكم المحلي عمليًا تحتفظ كل محافظة بـ (٧٠%) من كافة إيراداتها التي تشتمل على الضرائب والرسوم وحصيلة المبيعات والخدمات.. إلخ، وترسل الـ (٣٠%) الباقية إلى الحكومة المركزية في العاصمة لتنفق منها على مرتبات الوزراء وبعض المجالات الأخرى المركزية ولها أن تقوم بإعارة المحافظة الأقل إيرادات لمساعدتها في إدارة الإقليم. وتتولى كل محافظة الصرف من خزينتها على كافة مشروعات التنمية في الإقليم والتي من شأنها أن تفتح باب العمل أمام الشباب وتتوقف الهجرة إلى العاصمة (القاهرة) أو عاصمة الإقليم، وتختفي معها وبالتدريج تكوين المناطق العشوائية.
- إلغاء النصوص الواردة بقانون الجمعيات الأهلية التي تقيد عمل الجمعيات في مشروعات التنمية في كافة المجالات. كما يتعين عدم تتبيع كل الجمعيات لوزارة الشؤون الاجتماعية فمثلاً الجمعيات العلمية تتبع وزارة البحث العلمي، والجمعيات الأدبية تتبع وزارة الثقافة ..إلخ.
- إطلاق الحرية لتكوين الأحزاب، وترك المجال للجماهير كي يسقطون بأنفسهم الحزب الذي يرسب في امتحان خدمتهم عن طريق صندوق الانتخابات.
- إقامة "دولة القانون" انطلاقًا من مبدأ المساواة بين جميع المواطنين دون اعتبار لاختلاف الجنس، والعقيدة، أو التعليم، أو الحالة الاجتماعية، وحماية الحقوق الشخصية لكل مواطن، ومن ثَمَّ يحدث التماسك الوطني بين أبناء الأمة.
- تكوين جهاز علمي يتبع الرئيس مباشرة مهمته متابعة المقالات والدراسات وما يقال في الندوات وبرامج الإذاعة والتليفزيون وتصنيف موضوعاتها من سياسية واقتصادية واجتماعية ..إلخ، وتقديم تحليل مضمون لكل منها والخروج بتوصيات تكون موضوعًا لتشريعات قانونية لمواجهة هموم المواطنين الحقيقية.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وغيرها من المبادئ التي ينادي بها المؤرخ على أمل الخروج من هذا المأزق الذي تعيشه مصر حاليًا، وقد عبر عن ذلك من خلال تأييده للدستور الجديد رغم التناقضات التي بين طياته فهو يرى أن الدستور الجديد يحمل بذرة الشقاق والاختلاف حول مسيرة الوطن والتي من المحتمل أن تشهدها مصر في الأيام التالية حين يوضع الدستور موضوع التنفيذ وذلك بما يتضمنه من تناقضات. ولعل السبب في التناقضات التي تبدو في بعض مواد الدستور يرجع إلى أن لجنة الخمسين ضمت عدة تيارات فكرية وسياسية مختلفة متناقضة بطبيعتها وكل فريق يريد أن يمرر أفكاره على الغير، ومن هنا جاء الدستور توافقيًا على الحد الأدنى "بالصيغة اللبنانية". ومعنى أن يكون الدستور توافقيًا أنه يفتح الباب لإعادة النظر مرة أخرى ومن ثَمَّ حالة عدم الاستقرار مرة أخرى خصوصًا وأنه يصدر تحت عنوان "الدستور الدائم" وليس "المؤقت".

ومن تلك التناقضات التي ذكرها أن المادة (٧٤) "تحظر إنشاء الأحزاب على أساس ديني .. إلخ" ورغم عظمة هذه المادة من حيث أنها مطلب من الذين يحافظون على التماسك بين أبناء الوطن رغم اختلاف أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم، إلا أنها قد تشجع أصحاب التيارات الدينية (إسلاميًا) على المطالبة بتشكيل حزب إسلامي وذلك استنادًا إلى المادة الثانية من الدستور التي تنص على أن "الإسلام دين الدولة ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الأساسي للتشريع"، إذ سوف يقول قائل منهم كيف تمنعني من تشكيل حزب إسلامي والدستور ينص على أن الإسلام دين الدولة وأنه مصدر التشريع، أي التشريع القانوني بشكل عام وليس التشريع بشأن الأحوال الشخصية مثلما هو حال المادة الثالثة التي تنص على أن "مبادئ شرائع المصريين من المسيحيين واليهود المصدر الرئيس للتشريعات المنظمة لأحوالهم الشخصية".. لاحظ "لأحوالهم الشخصية" وليس التشريع العام كما هو حال المادة الثانية بشأن الشريعة الإسلامية. وفي هذه الحالة قد يطالب الأقباط والبهائيين والشيعة وكذا اليهود بتشكيل حزب يعبر عن مصالحهم.[٢١] وقد حذر المؤرخ المجتمع المصري من تلك التناقضات والمغالطات قائلاً: "إن مثل هذه التناقضات في مواد الدستور على نحو ما رأينا تؤكد أنه دستور توافقي لإرضاء كل الأطراف دون وعي بما تحمله بعض المواد من سوء نية الذين اقترحوها، فعلينا الانتباه لمطالب المتشددين حتى لا نعض إصبعنا ندمًا بعد أن تقع الواقعة".[٢٢]

خاتمة

إن هذه الأفكار والآراء التي يقدمها المؤرخ عاصم الدسوقي لجديرة بالاهتمام، لأنها تنطلق من قلب أحداث الشارع المصري من قِبل مصدر واع بما يكتب، كونه ليس شاهدًا ومتتبعًا فحسب، بل مؤرخًا ومهتمًا غاية الاهتمام، حيث عبر عن استيائه، وبكل صراحة، من "الثورة" التي يظن الكثيرون أنها نجحت وأن الأمور قد استقرت، إلا أن حالة الغليان التي لا تزال قائمة لحد الآن وتأخذ أبعادًا مختلفة يوما بعد يوم تحت شعار "الثورة مستمرة" تثبت انزلاقها تماما عن الطريق التي رُسمت لها منذ البداية، الأمر الذي جعل المؤرخ يخلص إلى أن ما حدث في يناير ٢٠١١ لا يعتبر ثورة بالمعنى الاصطلاحي، بل هو أقرب إلى "الانقلاب" حيث انتهى بإسقاط رأس النظام (مبارك) وبقي النظام كما هو بفلسفته في الحكم مع التغيير المفاجئ للاتجاهات والوجوه باستمرار.

ولعل هذا التغيير المفاجئ للاتجاهات الحاكمة في بلد كمصر هو ما شكل الصدمة الحقيقية للمجتمع المصري الذي وجد نفسه تارة تحت حكم الإسلاميين وتارة أخرى العسكريين، وهو ما جعله يصاب بالذهول لأفكار هذا وذاك المتناقضة تمامًا خاصةً وأن المجتمع المصري لم يألف بعد فكرة التغيير والديمقراطية الجديدة بعدما كان سجينًا لحكم الرئيس السابق مبارك لأكثر من ثلاثين سنة، فأصبح يتخبط هنا وهناك وتعدى الأمر لاستباحة دم أخيه لمجرد أن أفكاره تختلف. وأعتقد هنا أن الثورة المصرية ومثيلاتها من الثورات العربية لو استمرت على هذا النحو ستصل لا محالة إلى ما لا يحمد عقباه، لذا فهناك طريق واحد لتخطي هذه الأزمة الخانقة وهو محاولة تبني ثقافة السلم، والتسامح والحوار مع الأخر، واعتماد مبادئ الديمقراطية السِلمية، وسيادة القانون للخروج بمصر لبر الأمر.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) السيرة العلمية للدكتور عاصم الدسوقي.
(٢) **معجم المعاني الجامع**، مادة صدمة.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) عاصم الدسوقي: "**ثورة ٢٥ يناير بين الانقلاب والفوضى**"، مقال نشر بمجلة العربي الناصرية، ١٣ مارس ٢٠١١.
(٥) عاصم الدسوقي: **لمصلحة مَنْ الاحتكام للأصوليات**...!!، مقال نُشر جريدة اليوم السابع، ٢٢ مارس ٢٠١٢.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) **محمد مهاتير**: رئيس الوزراء الرابع لماليزيا في الفترة الممتدة بين (١٩٨١-٢٠٠٣)، وهي من أطول فترات الحكم في آسيا، كان لمهاتير محمد دور رئيسي في تقدم ماليزيا بشكل كبير؛ إذ تحولت من دولة زراعية تعتمد على إنتاج وتصدير المواد الأولية إلى دولة صناعية متقدمة يساهم قطاعي الصناعة والخدمات فيها بنحو (٩٠ %) من الناتج المحلي الإجمالي، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن انخفضت نسبة السكان وارتفع متوسط دخل المواطن الماليزي من (١٢٤٧) دولار سنة ١٩٧٠ إلى (٨٨٦٢) دولار سنة ٢٠٠٢، أي أن دخل المواطن زاد لأكثر من سبعة أمثال ما كان عليه منذ ثلاثين عامًا.
(٨) عاصم الدسوقي: **لمصلحة مَنْ الاحتكام للأصوليات**...، المصدر السابق.
(٩) عاصم الدسوقي: **الانتماء للوطن أم للعقيدة**..؟؟، مقال نشر بمجلة اليوم السابع، ١٩ مارس ٢٠١٢.
(١٠) **أتركوا الإسلاميين يحكموا حتى ينكشف أمرهم**!، مقال نُشر بمجلة اليوم السابع، ٢٣ يونيه ٢٠١١.
(١١) المصدر نفسه.
(١٢) المصدر نفسه.
(١٣) عاصم الدسوقي: **الربيع العربي والمشروع الأمريكي**، مقال نُشر بمجلة اليوم السابع، ٨ سبتمبر ٢٠١١.
(١٤) المصدر نفسه.
(١٥) عاصم الدسوقي: **نحو إصلاح يخدم الثورة لا أولي الأمر**، مقال نشر بمجلة اليوم السابع، ٩ يونيه ٢٠١١.
(١٦) **الكومبارس**: هو ممثل زائد يلعب دورًا ثانويًا في عرض فني، لا يظهر له أهمية كبيرة ملحوظة، إلا أنه غالبًا ما يساعد على خلق مناخ طبيعي للقصة.
(١٧) عاصم الدسوقي: **رئيس مصر المنتخب وكيفية الخروج من الأزمة**، مقال نشر بجريدة الأهرام، ٢٧ مايو ٢٠١٢.
(١٨) المصدر نفسه.
(١٩) المصدر نفسه.
(٢٠) المصدر نفسه.
(٢١) عاصم الدسوقي: **نعم للدستور .. رغم التناقضات**!!، مقال نشر في جريدة البديل، ١٥ جانفي ٢٠١٤.
(٢٢) **قبل أن نعض إصبعنا ندمًا**!! مقال نشر في جريدة البديل، ٥ فيفري ٢٠١٤.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



قضية فلسطين في العلاقات العربية التركية
(١٩٤٥ – ١٩٦٧)



عبد الرحمن قدوري

أستاذ مؤقت التاريخ الوسيط
قسم التاريخ والآثار
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الرحمن قدوري، قضية فلسطين في العلاقات العربية التركية (١٩٤٥ – ١٩٦٧).- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٧٥ – ٨١.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

نحاول في هذه الدراسة الإجابة عن إشكالية التغير والتحول المستمر في مواقف السياسة الخارجية التركية تجاه القضايا العربية وخاصة قضية الصراع مع إسرائيل، وماهية المحددات الداخلية والخارجية للسياسة التركية، باعتبار تركيا دولة إقليمية لها وزنها التاريخي والسياسي والاقتصادي، وبالتالي نجد لها ارتباطًا وثيقًا بالمنطقة وقضاياها، وسواء رغبت تركيا أم لم ترغب فموقعها الاستراتيجي الهام بين ثلاث مواقع ساخنة في العالم (البلقان، القوقاز، الشرق الأوسط) يجعلها محل ترصّد وترقّب من جميع الأطراف، ويجعلها في موقع قريب من القوى العالمية في كل الظروف. عرفت العلاقات العربية التركية في فترة الدراسة مرحلتين، برزت المرحلة الأولى مع ظهور صراع الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي بقيادة الاتحاد السوفييتي والغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أدى الضغط المتزايد على تركيا من طرف الاتحاد السوفييتي إلى توجهها نحو الغرب، بقبول الاستفادة من مشروع ترومان الاقتصادي، والانضمام إلى الأحلاف العسكرية الغربية مما أدى إلى توتر علاقاتها مع الدول العربية خاصة بعد اعترافها بإسرائيل. أما في المرحلة الثانية وهي فترة ما بعد الستينات فنجد أن تركيا اتجهت نحو تبني مواقف متوازنة تجاه قضية فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي، وذلك بسبب تخلي الغرب عنها في أزمة قبرص سنة ١٩٦٤م، ودعم العرب للقبارصة اليونان، وسعت تركيا في الفترة اللاحقة إلى تحسين علاقاتها مع العالم العربي والإسلامي باستغلال منظمة المؤتمر الإسلامي كفضاء للتعاون والتقارب.

مُقَدِّمَة

عرفت تركيا في النصف الأول من القرن العشرين، تغيرات سياسية عميقة، خاصةً في عهد مصطفى كمال أتاتورك حيث انتقلت من الإمبراطورية العثمانية ذات الامتداد الواسع في العالم العربي وشرق أوروبا إلى دويلة محتلة معظم أراضيها مع نهاية الحرب العالمية الأولى، مما فرض على الأتراك بقيادة أتاتورك ضرورة تحرير البلاد من هيمنة الحلفاء، وإعادة بناء الدولة. جاء أتاتورك بمجموعة إصلاحات سياسية واجتماعية أدت إلى فتور في علاقات تركيا بالعالم العربي والإسلامي، مما انعكس سلبًا على قضية فلسطين، خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م، وقيام إسرائيل بدعم من الغرب. وتمثل قضية الصراع العربي الإسرائيلي عاملاً أساسيًا ومحوريًا في مسار العلاقات العربية التركية، فقد تأرجح الموقف التركي منها بين التأييد والحياد على حسب الظروف الدولية والإقليمية، وعلى حسب المصالح القومية التركية في المنطقة والتي ترتبط بشكل كبير بالمصالح الأمريكية.

ومن هنا تبرز أهمية الموضوع، حيث نحاول إبراز مواقف تركيا من الصراع العربي الإسرائيلي، وتأثير العوامل الداخلية والخارجية في ذلك، خاصةً صراع الحرب الباردة وتداعياته على حوض البحر الأبيض المتوسط. ويرجع سبب اختيار هذا الموضوع إلى الرغبة في

ISSN: 2090 – 0449

البحث عن أسباب توجه تركيا إلى الغرب وتبنيها سياسة معادية للعرب وقضاياهم، خاصةً في الفترة ما بين (١٩٤٥) و(١٩٦٧)، حيث خاض العالم العربي صراعًا متعدد الأطراف ضد الاستعمار الفرنسي والبريطاني، ثم إسرائيل، وظهور حالة الاستقطاب في المنطقة في إطار صراع الحرب الباردة. وقد اعتمد الباحث على بعض من المصادر والمراجع منها كتاب "العلاقات العربية التركية من منظور عربي" الصادر عن معهد البحوث والدراسات العربية، وكتاب "تركيا والشرق الأوسط" لمؤلفه فيليب روبنس، ورسالة الدكتوراه لهدى محمود درويش، بعنوان: "علاقة تركيا باليهود وإسرائيل وأثرها على البلاد العربية (١٦٤٨ - ١٩٩٩)".

أولاً: تركيا وقيام إسرائيل ١٩٤٨

كانت المطالب الإقليمية السوفيتية سنة ١٩٤٦ من تركيا عاملاً أساسيًا في توجه السياسة التركية نحو الغرب، إذ بعد إعلان تركيا الحرب على دول المحور في ١٩ مارس ١٩٤٥ ، قرّر الاتحاد السوفيتي إنهاء معاهدة الصداقة والحياد مع تركيا الموقعة سنة ١٩٢٥، وذلك في مذكرة بعث بها إلى الحكومة التركية في (٧ أغسطس ١٩٤٦) اتّهم فيها الأتراك بخرق معاهدة مونترو الموقعة في (٢٠ يونيو ١٩٣٦)، والخاصة بتنظيم الملاحة في المضايق التركية الشهيرة (البوسفور والدردنيل)، والتي أعادت لتركيا إشرافها العسكري على هذا الممر الاستراتيجي الهام. وطلب الاتحاد السوفيتي في مذكرته لتركيا شروطًا جديدة بين الدولتين أهمها منح القواعد العسكرية للاتحاد السوفيتي في المضايق التركية وتعديل معاهدة مونترو، ويعتبر هذا الإجراء من جانب الاتحاد السوفيتي بداية نشوب الحرب الباردة بينه وبين تركيا.(١)

وتبعًا لذلك، فقد كان الدعم الذي قدمته الولايات المتحدة وإنجلترا لتركيا ضد هذه المطالب هي المعاملات الأساسية التي حكمت سياسة تركيا الخارجية منذ ١٩٤٦، وبالتبعية فقد اعتبرت تركيا سياستها الشرق أوسطية مجرد امتداد لسياستها المنحازة للغرب، الذي كان هدفه الرئيس خلق نظام دفاعي ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعية، كذلك فإن هذه السياسة أعطت دفعة جديدة للتوجه التركي نحو التأثر بالفكر والثقافة الغربية، وهذا في حد ذاته زاد من تورط السياسة الخارجية لتركيا في اتجاهها نحو الغرب مما انعكس على مواقفها من قضايا الصراع بالمنطقة وأهمها قضية فلسطين،(٢) أما في فلسطين فقد كان الوضع متأزمًا للغاية نتيجة تصاعد الهجمات الإرهابية الصهيونية على الإنجليز، وتزايد السخط العربي على الوضع، مما اضطر بريطانيا إلى رفع القضية إلى الأمم المتحدة لتتخلص من المشكلة، هذه الأخيرة التي أوفدت لجنة دولية إلى فلسطين لدراسة الوضع، تضم ممثلين عن إحدى عشر دولة، وبالرغم من أنه لم يكن بين هؤلاء ممثل عن الدول الكبرى، إلا أن تشكيلها كان في غير مصلحة العرب، بسبب ما عرف عن مواقف معظم حكومات الممثلين المتأثرة بسياسة الولايات المتحدة، وبالصهيونية العالمية.

وبالفعل فقد أوصت اللجنة بتقسيم فلسطين بين اليهود والعرب، ووافقت عليه الولايات المتحدة على الفور، وعقبها مندوب الاتحاد السوفيتي بتأييد قرار التقسيم بقوة وإصرار، الأمر الذي كان مخالفا لما عرف عن عداء الاتحاد السوفيتي للصهيونية.(٣) وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، التأمت الجمعية العامة للأمم المتحدة للتصويت على مشروع التقسيم، عارضت تركيا القرار، إلى جانب الدول العربية ومع عدد قليل من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، ضد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وبالتالي نالت نصيبها من الهزيمة التي مُني بها العرب حين تم الموافقة على القرار، بتصويت (٣٣) دولة مع القرار مقابل (١٣) دولة ضده وامتناع (١٠) دول عن التصويت.(٤)

منذ تأسيس الجمهورية التركية كانت سياستها دعم مبدأ تقرير المصير، وبالنظر إلى الأكثرية العربية البارزة التي تبلغ أكثر من (٦٠%) من السكان في فلسطين المنتدبة سنة ١٩٤٧، كان يجب لتقرير المصير أن يؤدي إلى تشكيل دولة موحدة خاضعة للأكثرية العربية، بدلاً من الدولة اليهودية التي نشأت. وتمسكت تركيا بهذه السياسة فور قرار الأمم المتحدة بالتقسيم رافضة في البداية الاعتراف بالدولة اليهودية.(٥) وقوبل موقف تركيا بالاستحسان في العالم العربي كله، حيث أرسل رئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي برقية شكر إلى رئيس الجمهورية التركية عصمت إينونو، مع أن العلاقات لم تكن جيدة، وأظهرت الصحافة العربية نفس العواطف. إلا أن شهر العسل التركي العربي في القضية الفلسطينية لم يعمّر طويلاً، إذ تم انتخاب تركيا عضوًا في لجنة التوفيق الفلسطينية إلى جانب أمريكا وفرنسا في نوفمبر ١٩٤٨، فكان ذلك بداية لافتراق الطرق بين تركيا والعرب، وقد صوت العرب ضد قرار إنشاء اللجنة فيما صوتت تركيا للقرار.(٦)

وهكذا؛ اتخذت كل من تركيا والأقطار العربية، ولأول مرة، خطين متعاكسين فقد أصبحت تركيا عضوًا في لجنة وقفت الدول العربية ضد إنشائها، وكانت عضوية اللجنة بحد ذاتها تقتضي اتخاذ موقف العدل والحياد لأن هدف اللجنة كان "التوفيق"، فأصبح بذلك من الممكن ابتعاد تركيا عن السياسة المتماشية مع العرب واتخاذها موقف الحياد. وبعضوية اللجنة التي تضم دولتين غربيتين هما الولايات المتحدة وفرنسا بدأت تركيا في إتباع سياسة موازية للغرب على المستويين الدولي والشرق أوسطي، مبتعدة عن العالم العربي.(٧) وفي هذه الفترة أقدمت تركيا على إجراء لم يكن ليرضي العرب، ألا وهو الاعتراف بإسرائيل،(٨) فقد أدلى وزير الخارجية التركي "نجم الدين صداق" بتصريح في (٨ فبراير ١٩٤٩) قال فيه :"دولة إسرائيل هي حقيقة واقعة، واعترف بها أكثر من (٣٠) دولة"، وبعد ذلك بفترة قصيرة، أي في (٢٨ مارس ١٩٤٩) أعلن في أنقرة عن اعتراف تركيا بإسرائيل، وبذلك أصبحت تركيا أول دولة إسلامية تقوم بالاعتراف بالدولة اليهودية.

وكما ذكرنا سابقا فقد صدر هذا القرار في مرحلة كانت تركيا تدور في فلك الغرب طلبا للدعم في مواجهة الاتحاد السوفيتي، وفي وقت كانت العلاقات الأمريكية– التركية تسير ضمن إطار "مبدأ ترومان"، ولهذا ليس من الغريب أن يكون القرار التركي صدر بعد أسبوع واحد من اعتراف أمريكا رسميًا بإسرائيل في (٣١ يناير ١٩٤٩)، مما يدل دلالة واضحة على أن الضغط الأمريكي على تركيا لعب دورًا كبيرًا في ذلك. ومن الواضح أن هذه التطورات في الموقف التركي لم تطمئن العالم العربي، ويبدو أن ذلك كان سببًا في امتناع تركيا عن التصويت في الجمعية العامة في (١١ مايو ١٩٤٩) على القرار رقم (٢٧٣) القاضي بقبول إسرائيل عضوًا في الأمم المتحدة، وتم ذلك بعد حرب عامي (١٩٤٨/١٩٤٩) واتفاقية الهدنة وبدعم من مجلس الأمن، وكانت تركيا ضمن الدول الإحدى عشر التي امتنعت عن التصويت في اللجنة الخاصة، أما في الجمعية العامة فكانت تركيا إحدى الدول التسع التي امتنعت عن التصويت على القرار الذي حظي بموافقة (٣٧) دولة واعتراض (١٢) دولة.[١٠]

ومنذ ذلك الحين عرفت العلاقات التركية الإسرائيلية نموًا متواصلاً وتطورًا ملحوظًا، ففي سنة ١٩٥٠، وقعت تركيا اتفاقية تجارية بينها وبين إسرائيل وكانت هذه المعاهدات والاتفاقيات تتم بشكل سري أحيانًا وعلني أحيانًا أخرى. كما حدث تعاون ثقافي بين جامعة الشرق الأوسط للتكنولوجيا في أنقرة وبين المعهد الزراعي التابع للجامعة العبرية في القدس، وكان الغرض من هذا التعاون هو تقديم الخبرات الإسرائيلية للأساتذة والطلاب الأتراك. وفي سنة ١٩٥٢، ازداد حجم التبادل التجاري بين تركيا وإسرائيل إلى (١٣) مليون ليرة تركية ثم قفز هذا الرقم إلى (٦٥) مليون ليرة سنة ١٩٥٣، كما تم تبادل السفراء بين تركيا وإسرائيل في نفس السنة.[١١]

وكان لهذه العلاقة النامية مع إسرائيل أثرها المباشر على علاقات تركيا مع العرب، وفي صيف سنة ١٩٥١، على سبيل المثال وقفت تركيا بجانب الغرب محتجة على قرار مصر منع مرور السفن الإسرائيلية عبر قناة السويس، وإذا كان الموقف التركي سليمًا من حيث القانون الدولي، فإنه جاء ضربة للعلاقات التركية المصرية، وأثار انتقادًا مريرًا في مصر، واستمرت هذه العلاقة الصعبة مع مصر بعد قيام الثورة الجمهورية بها. وفي حزيران ١٩٥٤، وجّه رئيس الوزارة التركية، عدنان مندريس، أثناء زيارة له إلى واشنطن، لومًا إلى العرب قال فيه أن الوقت قد حان للاعتراف بحق إسرائيل في الحياة. وفي خطاب للرئيس عبد الناصر بعد شهرين من ذلك، أعلن بكل وضوح وقوة: "أن تركيا بسبب سياستها الإسرائيلية ممقوتة في العالم العربي".[١٢] في تلك الأثناء هاجر أكثر من (٣٤) ألف يهودي تركي إلى إسرائيل.[١٣]

ثانيًا: تركيا والأحلاف الغربية

١/٢- حلف شمال الأطلسي (الناتو):

تعتبر الأعوام الممتدة ما بين (١٩٤٥) و (١٩٥٢) من أقسى وأصعب الفترات في تاريخ تركيا، إذ إن خروج روسيا السوفييتية من الحرب العالمية الثانية من بين الدول المنتصرة وبدء مرحلة "الحرب الباردة" عقب ذلك، قد أبرز بوضوح الأطماع الإمبريالية للسوفييت تجاه تركيا، وبات استقلالها ووحدة أراضيها تحت تهديد سوفييتي في منتهى الخطورة. وفي هذه الظروف، رأت تركيا أن إنجلترا التي كانت تعتبرها عنصر توازن تقليدي أمام روسيا، أخذت تفقد قدرتها على القيام بهذا الدور، وأن الولايات المتحدة الأمريكية أخذت تظهر كقوة عالمية وحيدة قادرة على وقف المد السوفييتي.

ولذلك، فقد سعت تركيا منذ سنة ١٩٤٥ إلى التحالف مع أمريكا، وقيام روسيا في تلك الأثناء بمحاولات الضغط على كل من إيران وتركيا واليونان سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٤٦ للنفوذ إلى خليج البصرة والشرق الأوسط وشرقي البحر الأبيض المتوسط قد دفع أمريكا للتحرك في وجهها، وذلك فإن إصدار" مبدأ ترومان" في ١٢ مارس ١٩٤٧م، قد خفف من التهديدات السوفييتية على هذه الدول الثلاث، وتعتبر هذه النظرية أولى خطوات الولايات المتحدة الدولية في الشرق الأوسط، ناهيك عن أخذها بالتدخل في مسألة فلسطين في تلك الأثناء. ومع أن نظرية ترومان أقامت روابط استراتيجية بين تركيا وأمريكا، إلا أن تركيا كانت تسعى إلى تعزيز أمنها عن طريق إقامة حلف مع أمريكا في مواجهة التحديات السوفيتية. وكان قيام الولايات المتحدة في ١٤ أبريل ١٩٤٩ بتأسيس "حلف شمال الأطلسي" (الناتو) الذي يعتبر نظامًا أمنيًا جماعيًا قد حذا بتركيا لتكثيف سياستها الخارجية في هذا الاتجاه، وسارعت إلى تقديم طلب الانضمام إليه واستمرت جهودها ثلاثة سنوات، تعثرت خلالها محاولات الانضمام بسبب المعارضة الشديدة لبريطانيا التي لم تكن ترغب في الانسحاب من مصر، وكانت ترغب في جر تركيا إلى جانبها في سياستها في الشرق الأوسط.[١٤]

ولكن الضغط الأمريكي على الحلفاء وخاصةً بريطانيا أدى إلى قبول تركيا عضوًا رسميًا في الحلف في شهر فبراير ١٩٥٢، بعد أن أعلنت التزامها بمبادئه وسياسته، وقد أولى الحلف اهتمامًا خاصًا بالدور الذي يمكن أن تلعبه كعضو فيه. فالموقع الاستراتيجي لهذه الدولة التي تشكل جسرًا يربط أوروبا بالشرق الأوسط إضافة لموقعها على حدود الاتحاد السوفيتي الجنوبية واتساع مساحتها وضخامة جيشها. وخلال الخمسينيات وقّعت تركيا على أكثر من (٥٠) معاهدة مع الولايات المتحدة تعطي للأخيرة بموجبها امتيازات واسعة عسكرية واقتصادية تشكل تهديدًا مباشرًا للدول المجاورة بما في ذلك البلدان العربية. وحتى بداية الستينات تم إقامة (١٥) قاعدة عسكرية ومستودعات أسلحة تابعة للولايات المتحدة وحلف الناتو، إضافة إلى أن المعاهدات التركية الأمريكية تسمح للولايات

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

المتحدة استخدام المطارات والموانئ التركية في أي عمل عسكري ضد دول المنطقة.[١٥]

٢/٢- حلف بغداد ١٩٥٥:

يعتبر من الحوادث المهمة التي شكلت نقطة تحول في العلاقات العربية التركية، فقد كانت عامل هدم وتخريب لهذه العلاقة نظرًا لتباين وجهات النظر واختلاف السياسات وبالتالي انعكست على مواقف الطرفين من قضايا الصراع في المنطقة. فقد كانت فكرة إقامة الحلف، أي مخطط إقامة نظام دفاعي يشمل منطقة الشرق الأوسط، أمريكية في الأصل إلا أن تركيا تبنتها وأخذتها على عاتقها، وكانت الخطة الأصلية تقوم على تركيز المنظمة حول مصر، لكن مصر التي كانت نذرت نفسها لإنهاء الحكم البريطاني بها، والكفاح لتحقيق هذا المطلب ولو بالوسائل العنيفة، رفضت المشاركة في هذا النظام.

وفي نفس الوقت كان جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة منشغلاً بفكرة تأمين الحزام الشمالي ضد الاتحاد السوفيتي للمناطق التي تجاوره، والتوفيق بين الحاجة إلى منظمة دفاعية في الشرق الأوسط، والربط بينها وبين حلف الأطلنطي في الغرب وحلف جنوب شرق آسيا في الشرق، مع الاهتمام العميق بالاستقلال القومي الذي كانت الكيانات السياسية الجديدة في المنطقة تحاول نيله. وتبعًا لذلك، فإن دالاس خلال زيارته للمنطقة في مايو ١٩٥٣ ناقش فكرة حلف يقام في المنطقة لتنضم إليه بلاده. وكانت تركيا عضو الحلف الأطلنطي هي حجر الأساس في هذا المشروع،[١٦] أيضًا في كراتشي (باكستان) كان نكسون نائب الرئيس الأمريكي يناقش الطلب الباكستاني بالمساعدة للحماية ضد الهند، وفي النهاية فإن اتفاقا أمريكيا- باكستانيا وقّع في ١٩٥٤، وفي نفس العام وقعت باكستان وتركيا اتفاقًا مؤسّسًا على معاهدة سابقة للصداقة في ١٩٥١، لتبادل المعلومات في حقل التكنولوجيا، ولمساعدة بعضهما البعض في إنتاج الأسلحة والذخيرة وكذلك في حالة الهجوم. وترك باب العضوية مفتوحًا للدول الأخرى الراغبة في الانضمام إليه.[١٧]

وفي نفس الوقت فإن نوري السعيد وقّع اتفاقية للمساعدة العسكرية مع الولايات المتحدة سنة ١٩٥٤، ثم وقعت العراق في ٢٤ فبراير١٩٥٥ حلفًا مع تركيا مشابها للاتفاق التركي الباكستاني، تضمن شرطًا يفتح الحلف للبلاد التي ليست من الشرق الأوسط والمهتمة بأمن المنطقة، أي المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية، وكان هذا جوهر حلف بغداد. كان لكل دولة هدفها الخاص من المشاركة في الحلف، الذي اختلف لدرجة كبيرة عن أهداف الدول الأخرى، و كان اهتمام تركيا لتأسيس هذا الحلف من أجل تحقيق الأغراض التالية:

- مضاعفة حجم القوات الغربية في المنطقة، وبالتالي تحقيق المزيد من الأمن لتركيا في مواجهة الاتحاد السوفيتي.
- إن هذا التحالف سيكون مصدرًا للمزيد من المساعدات الاقتصادية والعسكرية من الولايات المتحدة وباقي الدول الغربية.
- إن الحلف الجديد من شأنه أن يؤمن مواصلات تركيا في البحر المتوسط وفي البر عبر دولة مثل العراق، وذلك في حالة انضمام دول عربية إلى صفوفه.
- إن انضمام دول عربية إلى الحلف الجديد من شأنه أن يكسر حدة المواجهة العربية ضد الغرب، وقد يساعد بالتالي على قيام تركيا بدور قيادي في المنطقة.[١٨]

أما باكستان فقد أرادت أن تعزز دفاعها ضد الهند، وأن تتلقى مساعدة اقتصادية وتسليحًا، أما نوري السعيد في العراق فكان يشعر أن التحالف مع حلف الأطلنطي من خلال تركيا قد يعطي العراق مركزًا قياديًا في العالم العربي، ويضمن دعمها ضد الاضطرابات الكردية، ويقوي وضعها المساوم تجاه إسرائيل.[١٩] ولشد العراق إلى هذا التحالف، كانت تركيا مضطرة لتقديم عدد من التنازلات في السياسة الخارجية، كانت بصورة رئيسية على حساب إسرائيل، ومنها رفض إصدار بيان دعم للسيادة الإسرائيلية وأمنها الإقليمي، وإضافة ملحق للميثاق يقول بأن البنود التي تتناول المساعدة العسكرية أثناء الأزمات، نافذة في إطار القضية الفلسطينية، بل ومتصلة بها بصورة خاصة، فقد تضمن الحلف المعقود بين تركيا والعراق شرطًا مقتضاه أن الموقعين يعترفون وينفذون خطة الأمم المتحدة الخاصة بتقسيم فلسطين. وجاء رد إسرائيل واضحًا وسريعًا، إذ عبرت عن حقدها على هذه السياسة المناصرة للعرب، وعارضت الحلف منذ البداية.[٢٠]

قبل توقيع حلف بغداد، زار عدنان مندريس، رئيس الوزراء التركي، بغداد عدة مرات ودمشق وبيروت حيث عرض عليهما (سوريا و لبنان) الانضمام للحلف. وكان رد الفعل منذرًا بالسوء. فقد قوبل بالمظاهرات في شوارع بيروت، وبالنقد في البرلمان السوري، وعارضت مصر الحلف بشدة فقد أصدرت الحكومة المصرية بتاريخ ١٦ يناير تصريحًا جاء فيه: أن الحكومة المصرية تعتبر الحلف التركي العراقي "ضربة قوية لوحدة العالم العربي" وقال الصاغ صلاح سالم، وزير الإرشاد القومي، أن مصر قد تصورت العرب على أنهم قوة مستقلة في الشؤون الدولية، وتسعى إلى سياسة خارجية موحدة، وتأخذ على عاتقها مسؤولية الدفاع عن المنطقة من خلال الحل الأمني الجماعي للجامعة العربية، كما اعتقدت مصر أن الدول العربية قد وافقت على هذه السياسة.[٢١] وقد رفض جمال عبد الناصر قبل ذلك بعام دعوة تركية لمناقشة قضية الأحلاف، ورفض بعنف شرطًا في المعاهدة الأنجلو- مصرية (١٩ أكتوبر ١٩٥٤) يسمح للبريطانيين باحتلال قناة السويس في حالة الهجوم على البلاد العربية، وأيضًا على تركيا.

انضمت إنجلترا إلى حلف بغداد في ٤ أبريل ١٩٥٥، ووقعت اتفاقية جديدة مع العراق تحل محل اتفاقية ١٩٣٠ القديمة، لتجعل المساعدة العسكرية متيسرة لها في حالة الهجوم، وانضمت باكستان إلى الحلف رسميًا في ٢٣ سبتمبر ١٩٥٥، برغم وجود حلف مشابه تمامًا موقع مع تركيا سنة ١٩٥٤، وانضمت إيران إلى الحلف في ٣ نوفمبر ١٩٥٥. وهكذا؛ فإن منظمة دفاعية بدأت فعليًا من خلال مبادرات الولايات المتحدة، قد تجسدت بالكامل بإعطاء إنجلترا وضعًا متميزًا فيها وفي الشرق الأوسط ككل. ويحتمل أن الولايات المتحدة لم تكن سعيدة بهذا الناتج، ولم تتردد في استئصال المملكة المتحدة من الشرق الأوسط عندما قدمت الفرصة نفسها سنة ١٩٥٦.[٢٢] لقد خلق حلف بغداد صراعات عميقة ومطولة في العالم العربي، فقد شعر العرب أنهم مهددون بالانقسام والاختراق بواسطة القوى الموالية للغرب، وحاولوا القيام بإجراءات حامية مضادة.

وفي باندونغ سنة ١٩٥٥ لقي الرئيس جمال عبد الناصر ترحيبًا كبيرًا كزعيم من العالم الثالث، بينما أصبحت تركيا معزولة بسبب دفاعها القوي عن حلف الأطلنطي وهجماتها الساخرة على عدم الانحياز وحياد الاشتراكية والشيوعية. وزاد حلف بغداد من المشاعر الساخطة السورية تجاه تركيا، وكان هو العامل الأساسي الذي دفعها إلى توقيع معاهدة عسكرية للقيادة الموحدة مع مصر في ٢٠ أكتوبر ١٩٥٥، وفي نفس الوقت بدأ أعضاء هذا الحلف المشئوم يمارسون ضغطًا على الأردن للانضمام إلى حلف بغداد، و في زيارته للأردن أعطى رئيس الجمهورية التركية جلال بايار إيحاءً مبالغًا فيه بالوعد إذا تعرضت الأردن لهجوم إسرائيلي. كان واضحًا أن التأييد أو المعارضة لإسرائيل هما الأسباب الرئيسية التي تستطيع تركيا أن تؤثر بهما في علاقاتها بالبلاد العربية، ومع هذا فإن الضغط الذي مارسته تركيا على الأردن أعطى نتائج عكسية، فقد فصل الملك حسين جلوب باشا القائد البريطاني للجيش الأردني وانضم إلى الحركة القومية العربية.

زاد الحلف من خوف مصر من الهجوم عليها، وكان في الحقيقة أحد الأسباب التي أرغمتها على البحث عن السلاح والدعم عند الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٥٥، إضافة إلى عدوان إسرائيل على القوات المصرية في غزة سنة ١٩٥٤، فيما عرف بالصفقة التشيكية، والتي أضافت رصيدًا ضخمًا إلى الإمكانات العسكرية المصرية.[٢٣] في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ اجتمع أعضاء الحلف دون دعوة بريطانيا، وانتقدوها وطلبوا منها أن تعيد النظر في عملها العدواني، وكانت هذه الحرب سببًا في تقليص الوجود البريطاني في المنطقة، وتركت الشرق الأوسط في اضطراب متزايد. ومنذ ذلك الوقت بدأت الولايات المتحدة تمارس مسؤولياتها في المنطقة، هذه المسؤوليات التي تمثلت في منع امتداد النفوذ السوفييتي والشيوعية في المنطقة بصفة عامة وإيقاف تغلغل "الناصرية" إلى لبنان والأردن.[٢٤] وكانت النتيجة هي صدور مشروع إيزنهاور الصادر في ٥ يناير١٩٥٧ والمصدق عليه من الكونغرس الأمريكي في ٩ مارس ١٩٥٧. وبينما قبل أعضاء حلف بغداد هذا المشروع بما فيهم تركيا، بقيت بريطانيا غير متحمسة له باعتباره نوعًا من التطفل في منطقة تعتبرها منطقة نفوذ تقليدي لها هي الشرق الأوسط.

أفرزت هذه الأوضاع الناجمة عن حلف بغداد، انقسام بلدان المنطقة انقسامًا خطيرًا، وأصبحت سوريا على سبيل المثال في عيون الأتراك مركزًا مسلحًا للعدوان الهادف إلى قلب الأنظمة القائمة في المنطقة، واعتبر حزب البعث الحاكم فيها جبهة شيوعية، وشرعت تركيا في حشد قواتها على الحدود، وجرت بعض الغارات البرية والجوية وتبادل إطلاق النار داخل سوريا. وبدا الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت في شكل المدافع الوحيد عن سوريا، وأرسلت مذكرات تهديدية لتركيا، وتحركت قوات سوفييتية تجاهها وتأخّر الانفراج التركي السوفييتي المرتقب. وفي النهاية قدم الاتحاد السوفييتي الموضوع أمام الأمم المتحدة كتهديد تركي لأمن سوريا، في حين حركت سوريا مظاهرات ضخمة في مدنها الكبرى للمطالبة بالإسكندرونة، وأعلنت أن السلام في الشرق الأوسط لن يعود إلا بعد إعادة كل الأراضي العربية إلى أصحابها الأصليين.[٢٥]

وكان هذا التلميح موجهًا إلى تركيا وإسرائيل اللتين كانت علاقاتهما قد تحسنت، كما أن الضغط التركي ساعد على تزايد نفوذ الحزب الشيوعي في سوريا بصورة مؤذية لحزب البعث الحاكم الذي خشي من انقضاض يساري حقيقي، فلم يجد بدًا من الاتحاد مع مصر تحت مسمى الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨)، وفي الحال اعترفت تركيا بالاتحاد على أمل تقليل النفوذ السوفيتي ومنع انقضاض شيوعي على السلطة في سوريا.[٢٦] تركت ثورة العراق في ١٤ يوليو ١٩٥٨ حلف بغداد في فوضى كاملة، ومرة أخرى أرسلت تركيا حشودها العسكرية على الحدود مع العراق، بينما أنزلت الولايات المتحدة مشاة البحرية في لبنان بمساعدة تركية في ١٥ يوليو ١٩٥٨ لمنع انقضاض اليساريين أو الناصريين على السلطة بها، كما تدخلت بريطانيا في الأردن.[٢٧] وجاءت نهاية الحلف في مارس ١٩٥٩ عندما أعلنت العراق ترك عضويتها فيه، ثم تم نقل مقر الحلف إلى أنقرة، وتحول اسمه إلى منظمة الحلف المركزي في أغسطس ١٩٥٩، وأصبح اهتمامه منذ ذلك الوقت محصورًا في مشاكل بلاد الحزام الشمالي.

٣/٢- تركيا وحرب السويس:

كانت إسرائيل قد حسمت أمرها بالحرب على مصر باعتبارها العدو الأول لها، خاصةً بعد عقد صفقة السلاح التشيكية مع الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٥٤م، وكانت فرنسا قد أقامت جسور التعاون والتواصل بين تل أبيب و باريس، بحيث كانت الاجتماعات متصلة طول الوقت لتنسيق الهجوم على مصر، وتبنت فرنسا تمامًا أن الطريق إلى الجزائر يبدأ من القاهرة. كما كانت بريطانيا قد قررت أن جمال عبد الناصر هو الرمز الحي لتحديات تواجهها في

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

منطقة الشرق الأوسط التي كانت دائمًا منطقة نفوذ بريطانية، ووصل إيدن (وزير الخارجية البريطاني) إلى حد أن طلب من المخابرات البريطانية أن تبحث عن وسيلة لانقلاب في مصر يطيح بجمال عبد الناصر و يجيء بآخر.[٢٨] نشبت حرب السويس بهجوم إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر في أكتوبر ١٩٥٦ في مرحلة صعبة من تاريخ العلاقات العربية التركية من جراء حلف بغداد، لذا فإن موقف تركيا كان إلى حد بعيد خاضعًا لهذا الجو.[٢٩]

وقد صرحت تركيا بإدانتها للعدوان الإسرائيلي حيث ذكر وزير الخارجية التركي "فطين رشدي زولو"في مؤتمر البرلمانيين في بانكوك في أكتوبر ١٩٥٦ بقوله :" لقد تأثرنا من استخدام حلفائنا للسلاح ضد مصر، ومهما يكن فلا يمكن قبول هذه الحركة إلا على أنها إخلال بمبادئ القانون الدولي العام"، وفي الوقت نفسه قررت تركيا سحب سفيرها من إسرائيل، وتم خفض التمثيل الدبلوماسي إلى رتبة مندوبية، وبذلك كانت تركيا تسير على نهج الولايات المتحدة، روحًا إن لم يكن نصًا، بتوجيه النقد للغزو الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي لمصر، وبإجبار الدول الثلاث على التخلي عن مكاسبها، غير أن هذا التدبير التركي لم ينظر إليه أكثر من إيماءة لا تهدئ العرب.[٣٠] كما أن تركيا أعلنت بالمقابل عدم نيتها في الإضرار بعلاقتها الودية وتجارتها مع إسرائيل، ولم يرض هذا الموقف الحكومة المصرية، وقام الإعلام المصري بحملة عنيفة ضد تركيا، قابله رد فعل مماثل من طرف الإعلام التركي.

ثالثا: السياسة التركية في مرحلة الستينيات حتى سنة ١٩٦٧

بعد أزمة سوريا سنة (١٩٥٧)، وأزمة العراق سنة (١٩٥٨)، واجهت السياسة الخارجية التركية سلسلة من المشاكل في الفترة التي امتدت حتى سنة (١٩٦٥)، ومنذ سنة (١٩٥٩) عاشت السياسة الداخلية بعض التوترات، وكانت أكثر المشاكل جدية بعد ثورة (١٩٦٠) هي قضية قبرص وذلك منذ نهاية (١٩٦٣). وبالطبع أدت هذه التطورات إلى توجيه اهتمام تركيا نحو شؤونها الخاصة، لذا لم تهتم كثيرًا بقضية فلسطين وإسرائيل، وحافظت في نفس الوقت على السياسة التي اتبعتها قبل (١٩٦٠) بصورة شبه كاملة.[٣١]

أنتج النزاع القبرصي وفشل الغرب في مساندة تركيا رد فعل عميق ومتعدد الجوانب بين كل الأتراك، وقد أثار منظر آلاف الأتراك القبارصة اللاجئين المندفعين إلى الأماكن الآمنة للهروب من اليونانيين، وصورة المنازل التركية العديدة المدمرة، واغتصاب الأراضي المملوكة للأتراك القبارصة بواسطة يونانيين مسلحين جيدًا ومدربين، أثار هذا كله فهمًا جديدًا وخلق تعاطفًا عميقًا نحو اللاجئين الفلسطينيين، حيث استجابت تركيا لمختلف نداءات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين ضمن إمكاناتها الاقتصادية.

ومن جانب آخر فإن إسرائيل لم تساند تركيا في النزاع القبرصي مسببة نوعًا من الذعر في الدوائر الرسمية، نظرًا لأن أكثر مشاكل تركيا مع العرب نتجت عن اعترافها بإسرائيل وعلاقتها بها. ومع هذا فإن هذا الشعور الأولي من التعاطف تجاه العرب بين (١٩٦٣-١٩٦٤) لم يؤد إلى نتائج ملموسة نظرًا لانحياز العرب إلى الأسقف مكاريوس*، كما أن الرئيس عبد الناصر أرسل أسلحة إلى اليونانيين القبارصة، واستخدمت ضد الأتراك. هذا الموقف المرتبط بالنقص الكامل للدعم في مباحثات الأمم المتحدة سنة ١٩٦٥م أجبر تركيا إلى حد مؤلم على اكتشاف أن سياستها نحو الشرق الأوسط والبلاد المستقلة حديثاً بصفة عامة قد عزلها عن باقي العالم، برغم حقيقة امتلاكها لإمكانات استراتيجية وتاريخية وثقافية تحقق لها الزعامة بين دول العالم الثالث، وعلى ذلك فقد كان التوجه التركي نحو التخلص من العزلة.

وهكذا؛ فإن بعثات النيات الحسنة إلى دول العالم الثالث بدأت في التحرك، وخاصةً إلى دول الشرق الأوسط لشرح الموقف التركي من قبرص، واتجهت إلى العراق والكويت والأردن وسوريا ولبنان ودول جنوب شرق آسيا ودول شرق وغرب إفريقيا، وكذلك إلى أمريكا اللاتينية، كما أرسلت وفدًا إلى إسرائيل لتأكيد العلاقة الطيبة معها. صادق المؤتمر الدولي الإسلامي المعقود في الصومال من (٢٧ ديسمبر ١٩٦٤ - ٢ يناير ١٩٦٥م)، على قرار يدعو إلى اتحاد فدرالي في قبرص مؤسس على حقوق متساوية للأتراك واليونانيين، مما يعتبر دعمًا كبيرًا لتركيا وثمرة من ثمار بعثات النوايا الحسنة. ثم تلقت تركيا دعمًا جديدًا في القضية القبرصية في المؤتمر المنعقد بمكة والذي حضره ستون مندوبًا من بينهم (٣٦) يمثلون عددًا من الدول المشاركة في الأمم المتحدة.[٣٢] وشهدت سنة ١٩٦٦ تطورًا في العلاقات التركية المصرية بناء على رغبة تركيا في تطوير علاقاتها مع البلاد العربية دون الإشارة إلى علاقة تركيا بإسرائيل، وبناءً على هذا أعلن سفير مصر في تركيا على ضرورة تطوير التعايش بين النظامين التركي والمصري مع إزالة الخلافات التي يمكن أن تقف عثرة في طريق العلاقات التركية المصرية، وقد وقعت الاتفاقيات بين البلدين في مجال التبادل التجاري.[٣٣]

وكانت الحرب العربية الإسرائيلية سنة ١٩٦٧م أو حرب الأيام الستة فرصة عظيمة لتركيا لتطوير علاقاتها بالدول العربية، وأبدت تركيا دقة في حسن استغلال هذه الفرصة، وقوبل موقف تركيا هذا بالامتنان من جانب الدول العربية، فقد كان موقفها أكثر استقلالية، ومرونة، وديناميكية. في الفترة السابقة للحرب أبدت تركيا تفهما للوضع المصري ورفضت الانضمام إلى مجموعة "الدول البحرية" التي كانت تطالب بإعادة فتح خليج العقبة للسفن الإسرائيلية.[٣٤]

أما عن موقف تركيا من حرب ١٩٦٧، فقد تهربت تركيا من اتخاذ موقف واضح ضد إسرائيل ولم تحمل أحدًا المسؤولية، واكتفت باهتمامها بمسألة المحافظة على السلام في المنطقة وكانت تركيا تميل إلى الجانب العربي مع الحفاظ على موقفها المحايد مع إسرائيل، في ذلك الوقت أعربت الدول العربية عن مخاوفها لاتخاذ

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

إسرائيل قواعدها في تركيا في حربها ضد العرب لكن تركيا أعربت في هذا بقولها "إن اشتراك الطائرات الأمريكية الموجودة في هذه القاعدة، في العدوان على العرب سيتعارض مع السيادة التركية ومع الموقف الذي اتخذته تركيا نحو الأقطار العربية في أزمة الشرق الأوسط".(٣٥)

في ٢٩ يوليو ١٩٦٧، تم عقد لقاء في طهران ضم كل من إيران، و تركيا، وباكستان للتباحث حول أزمة الشرق الأوسط، وقد انتهى الرأي في هذا الاجتماع بالإجماع على ضرورة الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة. وأثناء الحرب طالبت تركيا بوقف إطلاق النار بناء على قرارات الأمم المتحدة، وعلى الرغم من هذا استمرت إسرائيل في عملياتها الحربية، في ذلك الوقت قدمت تركيا مساعدات غذائية إلى مصر وسوريا والأردن. وعلى الرغم من موقف تركيا هذا، إلا أنها كانت تحبذ حل المسائل عن طريق المفاوضات وقد لقي موقف تركيا هذا ترحيبًا من البلاد العربية.(٣٦)

خاتمة

من الواضح أنه برغم تغير الأحداث والوقائع، وتعاقب الحكومات التركية، وكذا أنماط الحكم من عهد الدولة العثمانية فمرحلة الاتحاديين ثم قيام الجمهورية بقيادة كمال أتاتورك وأتباعه، إلا أن السياسة التركية بقيت ثابتة ولو بشكل جزئي تدور حول محور واحد هو خدمة مصالح تركيا بالدرجة الأولى. ففي مرحلة الحكومة الاتحادية لقي الصهاينة مساعدة كبيرة وتشجيعًا من طرف الأتراك، لوجود نفوذ يهودي قوي داخل نظام الحكم، مما مكن اليهود من وضع يدهم على فلسطين مبكرًا، في حين لا نجد لقضية الفلسطينية أثرًا يذكر في السياسة الخارجية التركية في عهد كمال أتاتورك لانشغال تركيا بأوضاعها الداخلية، أما في المرحلة اللاحقة فيما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد لعبت الحرب الباردة دورًا كبيرًا في انحياز تركيا للغرب مما أثر سلبًا على مواقفها من الصراع العربي الإسرائيلي.

وقد لعب يهود تركيا دورًا كبيرًا في تحديد نمط السلوك التركي تجاه قضايا الصراع في المنطقة، بحيث يقدر عددهم بـ (٢٤) ألف في مرحلة الخمسينيات يتمركزون في إسطنبول ولهم نفوذ كبير بسبب ثرائهم وموقعهم البارز في الحياة التجارية، والمحتمل أن تكون تركيا شديدة الحفاظ على مجموعتها اليهودية لما لها من نفوذ على الأوساط النافذة في الولايات المتحدة. لهذا كانت تركيا حريصة على عدم إثارة حساسية اليهود، فكانت مواقفها تؤيد إسرائيل والغرب برغم عدم الاتفاق حول حلف بغداد. وذلك حتى فترة الستينيات، حين أدركت تركيا أنها بحاجة إلى دعم العرب في قضية قبرص من جهة، ومن جهة أخرى رغبة تركيا في تأمين مصالحها الاقتصادية في المنطقة، بضمان إمدادات النفط وتسويق البضائع والسلع التركية. ولكن من الضروري التنويه إلى أن الشعب التركي كان يختلف كثيرًا في مواقفه عن مواقف النظام التركي، فقد كانت سلوكياته وآرائه على غرار الشعوب الإسلامية مؤيدة للقضية الفلسطينية.

الهوامش:

(١) مجموعة من المؤلفين، **العلاقات العربية التركية من منظور عربي**، الجزء الأول، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٩١. ص ٣٠٧.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٨٦.
(٣) أحمد سعد الدين طربين، **فلسطين تاريخها وقضيتها**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٣، ص ١٠٥.
(٤) فيليب روبنس، **تركيا والشرق الأوسط**، الطبعة الأولى، ترجمة: ميخائيل نجم خوري؛ دار قرطبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٣. ص ٩٣.
(٥) المرجع نفسه، ص ٩٤.
(٦) إحسان أكمل الدين أوغلي، وآخرون، **العلاقات العربية التركية من منظور تركي**، الجزء الثاني، معهد البحوث والدراسات العربية ومركز الأبحاث للتاريخ والثقافة الإسلامية بإستانبول، ١٩٩٣. ص٢٥٥.
(٧) أحمد طربين، مرجع سابق، ص ١٠٧.
(٨) إفرايم عنبر، مقال :"**الشركاء الإستراتيجيون الجدد لإسرائيل: تركيا والهند** "ترجمة مصطفى الهواري، **مجلة مختارات إسرائيلية**، العدد ١٦٨، ديسمبر ٢٠٠٨، ص ٢٨-٣١.
(٩) هدى محمود درويش، **علاقة تركيا باليهود وإسرائيل وأثرها على البلاد العربية (١٦٤٨-١٩٩٩)**، الجزء الثاني، رسالة دكتوراه، معهد البحوث والدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٠. ص ٤٤٩.
(١٠) إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص ٢٥٧.
(١١) هدى درويش، مرجع سابق، ص ٤٧٠.
(١٢) فيليب روبنس، مرجع سابق، ص ٩٥.
(١٣) عايدة العلي سري الدين، **دول المثلث بين فكي الكماشة التركية الإسرائيلية**، ص ٣٢٩.
(١٤) إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص ١٩٩.
(١٥) رهوان، رهوان، **كتابات على هامش العلاقات العربية التركية**، دار الصداقة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٠. ص٧٣.
(١٦) انظر: العلاقات العربية التركية من منظور عربي، ص ٢٨٩.
(١٧) رهوان رهوان، مرجع سابق، ص٧٨.
(١٨) هدى درويش، مرجع سابق، ص ٥٥٤.
(١٩) انظر: العلاقات العربية التركية، ص ٢٨٩.
(٢٠) فيليب روبنس، مرجع سابق، ص ٩٦.
(٢١) إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص ٢١٧.
(٢٢) انظر: **العلاقات العربية التركية**، مرجع سابق، ص ١٨٩.
(٢٣) جميل مطر، علي الدين هلال، **النظام الإقليمي العربي**، الطبعة الخامسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩. ص٨٣.
(٢٤) انظر: **العلاقات العربية التركية**، مرجع سابق، ص ٢٩٠.
(٢٥) إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص ٢٢٣.
(٢٦) **العلاقات العربية التركية**، مرجع سابق، ص٢٩٢.
(٢٧) انظر: **النظام الإقليمي العربي**، مرجع سابق، ص ٩٠.
(٢٨) محمد حسنين هيكل، **قصة السويس آخر المعارك في عصر العمالقة**، الطبعة الثانية، شركة المطبوعات والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٩٨٢. ص ٩٠.
(٢٩) **العلاقات العربية التركية**، مرجع سابق، ص ٢٢٠.
(٣٠) فيليب روبنس، مرجع سابق، ص ٩٦.
(٣١) إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص ٢٦٢.- مكاريوس: زعيم القبارصة اليونان.
(٣٢) **العلاقات العربية التركية**، مرجع سابق، ص ٢٩٦.
(٣٣) هدى درويش، مرجع سابق، ص ٥٨٢.
(٣٤) فيليب روبنس، مرجع سابق، ص ٩٨.
(٣٥) **العلاقات العربية التركية**، مرجع سابق، ص ٢٧١.
(٣٦) هدى درويش، مرجع سابق، ص ٥٨٣.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



الزوايا والطرق الصوفية في المغرب
العلاقة مع المخزن والمستعمر



د. قاسم حادك

دكتوراه في تاريخ المغرب المعاصر
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

قاسم الحادك، الزوايا والطرق الصوفية في المغرب: العلاقة مع المخزن والمستعمر.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٨٢ – ٨٨.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَصْ

برزت الزوايا في المغرب منذ نشأتها كقوة مادية ومعنوية تأطيرية تمتعت بتأثير كبير في جميع المجالات الدينية والاجتماعية والسياسية. كما جمعت بين العبادة والتصوف ونشر العلم وتوفير الأمن والحماية للناس واستنفارهم وتعبئتهم لمواجهة التهديدات والاعتداءات الأجنبية.لكن هذه المؤسسات الصوفية تحولت بالتدريج إلى أجهزة إدارية تابعة للمخزن تخدم مصالحه وتدافع عنها وتبررها أمام الناس وتسهم في تحقيق أهدافه وسياساته، وتجعل من نفسها أداة ووسيلة للدفاع عنه وتكريس شرعيته. وقد تكرست هذه التبعية المطلقة بفعل مسلسل المخزنة الطويل الأمد الذي تعرضت له هذه الزوايا وغيرها في إطار علاقتها بالمؤسسة المخزنية. وكانت النتيجة النهائية التي آلت إليها هذه السياسات المخزنية تجاه الزوايا هي انبراؤها بتقديم خدمات وتسهيلات للمستعمر الفرنسي، بعدما كان دورها سابقا خدمة المخزن المغربي ومساندة قراراته ومواقفه وتزكيتها. إذ بمجيء الاستعمار الفرنسي تواطأت جل الزعامات الصوفية مع قوات الاحتلال وعملت بكل وسائلها على تشتيت كتلة المقاومة وتفكيك وحدتها واتسمت مواقفها بالسلبية والركون إلى مسالمة السلطات الاستعمارية ومهادنتها، فرحبت بالمشروع الاستعماري ودعمته وأقنعت أنصارها وأتباعها بايجابياته ومزاياه.

مُقَدِّمَة

شكل موضوع الزوايا والطرق الصوفية مجالاً خصبًا للمؤرخين والباحثين على اختلاف توجهاتهم ومنطلقاتهم الفكرية، إذ لا يخفى على أحد الأدوار الحاسمة التي قامت بها هذه المؤسسات الدينية والاجتماعية في تشكيل تاريخ المغرب، فقد كان رجالات التصوف دائما في قلب المجتمع والسياسة، فطبعوا تاريخ المغرب وكانوا فاعلين في تأسيس دوله وتوجيه سياسته وثقافته وتشكيل هويته. وبمجيء الاستعمار الفرنسي اتسم الموقف العام لجل الطرق والزوايا بالسلبية والركون إلى مسالمة السلطات الاستعمارية ومهادنتها، فتواطأت جل الزعامات الصوفية مع قوات الاحتلال وعملت بكل وسائلها على تشتيت كتلة المقاومة وتفكيك وحدتها. ويبقى فهم هذا الموقف التي اتخذته الزوايا والطرق الصوفية بالمغرب من الاحتلال الفرنسي، والإحاطة بالأسباب التي جعلتها ترتمي في أحضان المشروع الاستعماري الفرنسي وتدعمه بكل إمكانياتها ووسائلها، رهين بتتبع التطور الذي عرفته هذه المؤسسات الدينية من نشأتها إلى المرحلة الاستعمارية، وتحليل طبيعة العلاقة المنسوجة تاريخيًا بينها وبين المخزن.

أولاً: ظهور الزوايا في المغرب وتطورها

لم تظهر الزاوية في تاريخ المغرب كمركز ديني وعلمي إلا بعد الرباط. والرباط لغة من رابط يرابط بمعنى أقام ولازم المكان، ويطلق في اصطلاح الصوفية على شيئين: أولهما البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد ورد هجومات العدو عنها. والثاني هو

المكان الذي يلتقي فيه صالحو المؤمنين لعبادة الله وذكره والتفقه في أمور الدين.[١] وقد عرف المغرب الرباط منذ القرن الأول الهجري وذلك ارتباطًا مع الفتح الإسلامي، وتميز بغلبة الجانب الحربي على الجانب التربوي، في حين تُعَدّ الزاوية مكانًا خاصًا بالتعبد وتلاوة القرآن وذكر الله وتطهير النفس وتهذيبها، وإن كانت شكلاً من الرباط لكنها تتسم بطغيان الجانب التربوي، فالرباط إذن مرحلة متقدمة وتمهيد لظهور الزاوية في المغرب.

بعد القرن الحادي عشر ظهرت الزاوية في المغرب وعرفت في بادئ الأمر بـ "دار الكرامة" كتلك التي بناها يعقوب المنصور الموحدي في مدينة مراكش، ثم أطلق اسم "دار الضيافة" على ما بناه المرينيون من الزوايا. وقد كان السلطان أبو يوسف يعقوب المريني يهدف إلى جعلها دورًا لاستقبال الغرباء والوافدين من الخارج من كبار رجالات الدولة وأعيانها. كما خصص السلطان أبو عنان للمعوزين الوافدين على الزوايا طعامًا يوميًا، فهيأ بذلك الجو عن غير قصد لجعل هذه المؤسسات تستقبل المريدين فيما بعد.[٢] وهو الذي أسس الزاوية العظمى في مدينة فاس والتي ذكرها ابن بطوطة في رحلته.[٣]

مع حلول القرنيين الرابع عشر والخامس عشر انتشرت الزوايا في المغرب مما دفع المرينيين إلى تطويرها مساهمة منهم في إغناء الحركة العلمية إلى جانب جامعة القرويين بفاس. وقد ظهر في هذا العصر العديد من رجالات التصوف. كما انتعشت مؤسسة الزاوية بشكل كبير منذ القرن السادس عشر أي بعد هزيمة المسلمين في الأندلس وامتداد أطماع الإيبيريين إلى الثغور المغربية. وأمام عجز المخزن الوطاسي عن مواجهة الأطماع بالجدية والصرامة اللازمتين قامت هذه المؤسسات الدينية والاجتماعية بالدعوة إلى الجهاد والتعبئة العامة، إذ وجد نداء الصوفية استجابة واسعة لدى فئات كثيرة هبت للدفاع عن البلاد وحمل السلاح. وقد ساعدهم على القيام بهذا الدور ضعف السلطة المركزية ومساندة الفئات الشعبية التي كانت ترى في شيوخ الزوايا قوة روحية لها احترامها وتقديرها.[٤] وقد عمل هؤلاء الشيوخ على ترسيخ هذا الاعتقاد من خلال سعيهم إلى سن طرق لزواياهم، وبالفعل أثبتت هذه التجربة نجاحها وتمكن شيوخ الزوايا من تقوية نفوذهم داخل الأوساط الشعبية الشيء الذي أهلهم للوصول إلى القيادة السياسية، بل إن العديد من الطرق والزوايا كانت نواة لقيام دول في المغرب كالدولة السعدية مثلاً، حيث يرجع الفضل في مبايعة القائم بأمر الله أول السلاطين السعديين إلى شيوخ الزوايا. كما أن بعض الزوايا كانت قاب قوسين أو أدنى من الوصول إلى السلطة كالزاويتين الدلائية والسملالية.

وقد ساهم هذا التطور الذي عرفته الزوايا، والمتمثل في انتقالها إلى ممارسة العمل السياسي، بشكل فعال في انتشارها، فأصبحت الحاجة إلى الانخراط في زاوية معينة ضرورة اجتماعية وخيارًا ملحًا.[٥] وبهذا صار رجالات التصوف أشخاصًا يتجلى فيهم نظام العقيدة من غير تفريط في التقاليد المحلية. وترسخ بالتالي ارتباط وثيق بين المخزن وزعماء الزوايا والطرق الصوفية.

ثانيًا: تأثر الزوايا بفعل مسلسل المخزنة (الزاوية الوزانية والناصرية نموذجًا)

اختلفت المقاربات وتعددت التصورات النظرية التي تناولت العلاقة بين الزوايا والمخزن، وحددت القواعد المنسوجة تاريخيًا بين الطرفين، وانطلاقًا من الكم المهم من الأبحاث والدراسات المنوغرافية والتركيبية التي تم إنجازها حول أهم الزوايا في المغرب وعلاقتها بالمؤسسة المخزنية من قبل باحثين مغاربة وأجانب، يمكننا التمييز بين تصورين رئيسين:

- التصور الأول يعتبر الزوايا طرفًا فاعلاً في الصراع الاجتماعي والسياسي الذي يعرفه المجتمع، ويؤكد حضور البعد السياسي ضمن البنية المرجعية للزوايا سواء اتخذ هذا الحضور شكل مجموعات ضغط على المخزن كما تزعم (Morsy Magali)، أو مشروع حركة سياسية تريد الوصول إلى السلطة كما يدعي (Michaux Bellaire) "داخل كل زاوية توجد نواة للسلطة".[٦]
- أما التصور الثاني فيمثله عبد الله العروي[٧] الذي لا ينفي من خلاله حضور السياسة في بنية الزاوية المرجعية، لكنه يجعل حضورها في المجتمع المغربي رهينًا بإرادة السلطان السياسية، ويعتبرها عاملاً حاسمًا في إضفاء المشروعية على حضور الزوايا، بمعنى أن الزاوية لم يكن ممكنا لها أن تمارس مهامها أو أن تفرض ذاتها في المجتمع لولا إرادة السلطان، إنه -أي السلطان حسب عبد الله العروي- هو الذي يمنحها بل يفوضها جزءًا من مهامه وسلطاته.[٨]

إذا كان التصور الأول يجعل الزوايا طرفًا في الصراع السياسي والاجتماعي الدائر في المجتمع، فإن التصور الثاني يجعل منها أداة فقط في هذا الصراع يستخدمها المخزن لممارسة سلطته في كثير من المناطق.[٩] فأين تكمن محدودية هذين التصورين؟

إن ما يتم إغفاله بهذا الصدد هو أن التعميم في حقل الزوايا يعد مجازفة نظرية ومنهجية خطيرة جدًا تؤثر على نتائج البحث والتحليل،[١٠] إذ لا يمكننا القول إن جميع الزوايا عرفت نفس المسار والتطور ونسجت نفس العلاقات، كما أن اعتبار حضور الزاوية نتاجًا لإرادة السلطان وتفويضه هو اختزال لها في بعدها الديني سواء بشكل واع أو لا واع، لأن هذا الاختزال يجعل من السلطان أميرًا للمؤمنين[١١] أي مرجعية دينية وحيدة، وما يتم إغفاله هنا هو الأبعاد الأخرى للسلطان بوصفه شخصًا سياسيًا وقائدًا مخزنيًا ومالكًا اقتصاديًا، وهذه الأبعاد تحدد سياسته في الحقل الديني، كما أن الزوايا تحمل هي الأخرى في بنيتها أبعادًا سياسية واقتصادية، وهذه الأبعاد هي التي تحدد علاقتها مع المخزن ومع باقي مكونات المجتمع.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

فهل تمثل الزاوية سياسة مضادة لسلطة المخزن ورافضة أن يشاركها مجال نفوذها السياسي حسب ما تؤكده أطروحة الصراع بين الزاوية والدولة كما تدافع عنها الأطروحة الكولونيالية ؟ أم إن الزوايا ليست سوى مجرد أداة سياسية من صنع المخزن، أو على أقل تقدير هي موجهة من قبله لخدمة سياساته على مستوى القبيلة كما تدافع عن ذلك الأطروحة الوطنية في شخص عبد الله العروي؟[١٢] أم إن واقع العلاقة بين الزوايا والمخزن يظل أعقد مما يصوره هؤلاء، وأبعد من أن يختزل في إطار إحدى المقولتين: صراع أو إخضاع ؟[١٣]

إن وضع الزوايا في إطار علاقتها بالمؤسسة المخزنية يظل وضعًا معقدًا يتغير باستمرار وتحكمه مجموعة من التناقضات ولا يمكن استيعابه وتأطيره إلا وفق تصور جدلي يفترض الصراع كما يفترض الخضوع والتعاون.[١٤] لا يمكننا الحديث هنا عن علاقة المخزن بكل الزوايا والطرق الصوفية، لأن ذلك يحتاج إلى دراسة منفصلة ومفصلة، وإنما سنحاول إبراز نوعية وبعض مظاهر العلاقة التي كانت تربط المخزن بهذه المؤسسات الدينية والتي ظل تأثيرها مستمرًا ومتواصلاً حتى حدود الفترة الكولونيالية.

عمل المخزن طوال تاريخه على إخضاع الزوايا[١٥] وإدماجها ضمن سياسته قصد توظيفها كأدوات لترتيب سيطرته وتبريره. وقد خضعت هذه العملية لسيرورة طويلة الأمد يمكن القول معها إن المخزن في علاقته بهذه المؤسسات حاول جاهدا إضعافها بأشكال مختلفة تارة باللين وتارة أخرى بالعنف، وبلور من أجل ذلك عدة استراتيجيات أهمها المواجهة، الاحتواء، التدجين ووضع الزاوية خارج الشرع،[١٦] وهي استراتيجيات هدفت في مجملها الدفع التدريجي للزوايا نحو المجال الديني والاقتصادي وتقليص نفوذها السياسي.[١٧]

أدرك المولى إسماعيل قوة مؤسسة الزاوية وتأثيرها الروحي على المناطق التي توجد فيها، فشيوخها "يؤمنون الاستمرارية والهيكل القوي الذي يحتاج إليهما بإلحاح النظام السياسي للقبائل"،[١٨] كما أنهم "حجر الزاوية للنظام القانوني -نظام التحكيم- للقبائل"،[١٩] فانتهج أسلوبًا متطورًا حاول من خلاله خلق نوع من التوازن في سياسته بإقامة علاقة وفاق بينه وبين معظم الزوايا، فالسلطة المركزية محتاجة إليهم لضمان استمراريتها، ولم يحاول اقتلاع هذه المؤسسة من جذورها من خلال ضرب عوامل ارتكازها،[٢٠] بل حاول فقط انتهاج سياسة غايتها أن تؤدي على المدى البعيد إلى ضرب الشروط المادية لتواجد الزاوية دون المساس بشرعية هذا التواجد، أو بعبارة أخرى تؤدي إلى تدجين الزاوية،[٢١] لأن بقاءها ممتلكة لكافة مقوماتها البشرية والاقتصادية كان يخدم المخزن باعتبارها إحدى الضروريات السياسية لتوازنه العام.

وقد حاول المولى إسماعيل الاستفادة من التأثير الروحي للزوايا لخلق نوع من التوازن السياسي، فعمل على استقطاب الزوايا ذات النفوذ الواسع منها،[٢٢] خاصةً تلك التي لها نفوذ واسع في مناطق حساسة محاولاً إفراغها من قوتها وحركيتها. ولعل أبرز تجليات هذه السياسة هو قراره القاضي بأن تجعل كل الزوايا مقرها بفاس،[٢٣] إنه بكل تأكيد حرمان لها من عمقها الاستراتيجي والعسكري وتجريدها من مقومات تواجدها المادي (الجبل) بسجنها داخل الحاضرة فاس. ورغم ذلك فقد تميزت سياسة المولى إسماعيل بالمرونة، إذ لم يلجأ إلى السلاح لقمع الزوايا والطرق الدينية إلا مضطرًا، بينما عمل على توظيف هذه الزوايا بعد تدجينها لبسط نفوذه على القبائل. فلمواجهة خطر زاوية آل أمهاوش وأحنصالة المتحصنين بجبال الأطلس عمل المولى إسماعيل شخصيا على ترأس الحركات الموجهة لقمعهم، كما قام ببناء عدة قصبات حول مستقراتهم لاحتواء خطرهم،[٢٤] وبذلك استطاع السلطان الحد من عبث قبائل صنهاجة دون أن يستطيع القضاء على آل أمهاوش وأحنصالة.[٢٥]

وإذا كان المولى إسماعيل قد بدأ استراتيجيته الهادفة إلى ضرب المقومات المادية للزوايا بتدجينها بعدما فطن إلى أن عملية استقطاب زاوية ما يعني احتواء عدة قبائل سيتطلب إخضاعها جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلاً، وهي السياسة التي "أعطت أكلها بحيث لم تقم الزوايا والطرق الصوفية طيلة فترة الأزمة التي تلت وفاة المولى إسماعيل ودامت ثلاثين سنة بأية أدوار مهمة وكان حضورها محدودًا"،[٢٦] فإن السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي تولى الحكم سنة ١٧٥٧م تبنى بدوره نفس سياسة المواجهة في محاولة منه لاحتواء الزوايا والحد من خطورتها[٢٧] وجعل أنشطتها تقتصر على المجالات الدينية دون غيرها، خاصةً تلك التي توجد في مناطق نفوذه وتحت مراقبته، والعمل مقابل ذلك على حصر نشاط زعماء الزوايا البعيدين عن سلطته.[٢٨] وأبرز مثال على ذلك قيامه سنة ١٧٥٨م مباشرة بعد توليه الحكم بقتل أبي عبد الله محمد العربي الخمسي الذي كان يتمتع بشهرة دينية وصوفية كبيرة لدى قبائل غمارة والأخماس في منطقة شفشاون، وأمره أيضًا بقتل كل من الزعيم الصوفي محمود الشنقيطي الذي حاول إثارة البلبلة في صفوف القبائل الأمازيغية، والحاج العموري الذي زعم بأنه "صاحب الوقت".[٢٩] كما قام سنة (١٧٨٤ - ١٧٨٥م) بتخريب الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد، حيث "...أمر بهدمها وطرد الغرباء الملتفين على آل الشيخ بها، ثم نقل سيدي العربي وعشيرته إلى مراكش".[٣٠]

أما السلطان المولى سليمان فقد عمل على إكمال هذه السياسة وذلك بالتركيز على القضاء على أسس ومقومات شرعية الزوايا.[٣١] فقد تولى المولى سليمان الحكم سنة ١٧٩٢م، وكان معروفًا بورعه وتقواه وتعاطفه مع المذهب الوهابي،[٣٢] وقد استند على هذا الاتجاه السلفي لبلورة استراتيجية وضع من خلالها الزاوية خارج الشرع، فحاول في بداية حكمه القيام بنوع من التدجين للزاوية ليس على الطريقة الإسماعيلية،[٣٣] ولكن على طريقته الخاصة، حيث أكد على ضرورة ارتباط الزاوية بالشرع كشرط

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

للسماح بتواجدها، لكن وأمام فشل هذه السياسة لجأ المولى سليمان لأول مرة إلى بلورة استراتيجية تهدف إلى اقتلاع الزاوية من جذورها من خلال وضعها خارج الشرع،[٣٤] وذلك باتخاذ عدة إجراءات ترمي إلى إلغاء الحصانة التي كان يتمتع بها شيوخ الزوايا والطرق الدينية وحرمانهم من الامتيازات التي كانت تمنحهم السلطة المركزية حتى صارت حقوقًا شبه مكتسبة. كما حاول فك الارتباط بين الزاوية والقبيلة من خلال تنديده ورفضه لممارساتها باعتبارها بدعًا مخالفة للسنة، فمنع إقامة المواسم[٣٥] التي لم تكن لها دلالة اقتصادية فقط كمصدر هام من مصادر الدخل، بل لها دلالات سوسيولوجية ودينية أيضًا تتمثل في خلق شعور جماعي بالتماسك لدى أفراد الزاوية،[٣٦] والعمل على تجديد الروابط والصلات بين شيوخ الزوايا وأتباعهم ومريديهم بشكل يضمن استمرارية الزوايا والطرق الدينية.

وتعتبر الزاوية الوزانية والناصرية نموذجًا للزوايا التي تحولت بالتدريج إلى أجهزة إدارية تابعة للمخزن تخدم مصالحه وتدافع عنها وتبررها أمام الناس وتسهم في تحقيق أهدافه وسياساته، وتجعل من نفسها أداة ووسيلة للدفاع عنه وتكريس شرعيته. وقد تكرست هذه التبعية المطلقة بفعل مسلسل المخزنة الطويل الأمد الذي تعرضت له هذه الزوايا وغيرها في إطار علاقتها بالمؤسسة المخزنية، فقد عمد السلاطين العلويون إلى احتوائها وتدجينها مستعملين في ذلك العديد من الآليات، فمنحوا شيوخ الزوايا ظهائر التوقير والاحترام وأعفوهم من الضرائب وأنعموا عليهم بالإقطاعات والهبات والهدايا، فتحولوا من رجالات زهد وتصوف ودين وعلم إلى مستثمرين في الميدانين الفلاحي والتجاري، يكدون في تسيير إقطاعاتهم ويتصارعون من أجل المحافظة عليها. تمكنت الزاوية الوزانية بفضل تواجدها في موقع استراتيجي عند ملتقى الجبل والسهل من القيام بدور الحاجز الذي يفصل القبائل الجبلية وقبائل السهول، الشيء الذي دفع المخزن إلى محاولة التقرب منها والاستفادة من نفوذها الكبير ومن رأسمالها الرمزي والروحي وعمق ارتباطها وتلاحمها بكتلتها القبلية، وتسخيرها لخدمة مصالحه لضبط واحتواء الأوساط القبلية الجبلية[٣٧] التي يتطلب إخضاعها وتعزيز سلطة المخزن فيها اللجوء المستمر للقوة العسكرية.

وإذا كان شيوخ الزاوية الوزانية قد شكلوا أحد دواليب السلطة المخزنية[٣٨] التي لا يمكن الاستغناء عنها لتثبيت سلطتها في جهات نائية لا يمكن للمخزن أن يكون حاضرًا فيها بقوة، فإنهم مقابل ذلك استفادوا كثيرًا من هذا التحالف الضمني، فتمكنوا بفضل الامتيازات المادية والمعنوية التي كسبوها من نشر طريقتهم بسرعة داخل المغرب وخارجه وراكموا ثروات مادية كبيرة[٣٩] مما جعلهم يشكلون خاصةً المجتمع.[٤٠] أما الزاوية الناصرية فقد استغل شيوخها بعد المؤسسة المخزنية وعجزها عن القيام بوظائفها للتدخل في حل النزاعات بين قبائل درعة،[٤١] فأصبح شيخ الزاوية الناصرية يتمتع بدوره بنفوذ قوي وعدد هائل من الأتباع في كل درعة والمناطق المجاورة مستغلاً عجز المخزن،[٤٢] لكي يلعب دور الوساطة في الصراعات بين القبائل بحكم تواجده في مناطق نائية لم يستطع سكانها التوجه إلى السلطان الضعيف والبعيد، فتعودوا اللجوء إلى الزعيم الديني لتامكروت. الشيء الذي دفع المخزن إلى منح شيوخ الزاوية الناصرية العديد من الامتيازات جزاء على دعمهم وخدمتهم له واعترافًا بالدور الهام الذي يقومون به في تدعيم آليات ضبط قبائل درعة وإخماد صراعاتها، فأصبحت الزاوية الناصرية أهم زاوية في الجنوب قبل أن تتوسع فروعها في جل مناطق المغرب لتصل إلى ما يناهز ثلاثمائة فرع مما زاد من ممتلكاتها وضاعف من مداخيلها،[٤٣] وبذلك صارت من أهم الزوايا ذات النفوذ الواسع في المغرب.

لكن هذه الوضعية المادية المتميزة التي عرفتها الزاوية الناصرية[٤٤] أدت إلى احتدام الصراع والتنافس حول زعامة الزاوية، وهي الخاصية التي ميزت زاوية تامكروت على امتداد فترة طويلة. وقد ساهم تجدد النزاعات حول مشيخة الزاوية بشكل دوري غداة وفاة كل شيخ،[٤٥] وتدخل المخزن باستمرار في الشؤون الداخلية للزاوية الناصرية بسبب عجزها عن حل مشاكلها الخاصة والتماسها الوساطة المخزنية لحل تلك النزاعات -وهي التي كانت إحدى وظائفها الأساسية التوسط بين القبائل لحل نزاعاتها الداخلية- بالإضافة إلى حصول الشيخ الجديد على تعيين من لدن السلطان، في تكريس التبعية التدريجية للمخزن وبالتالي فقدان الزاوية لاستقلالها. شكلت هذه السياسة التي نهجتها المؤسسة المخزنية منعطفًا جديدًا في تاريخ العلاقة بين الزاوية الناصرية والمخزن الذي استغل مشكل المشيخة فقام بتوجيه ضربة للزاوية عبر إشغالها في نزاعات داخلية وتحويلها إلى مجرد أداة طيعة من أدوات حكمه.[٤٦]

ثالثًا: ركون جل الزوايا والطرق الصوفية إلى مسالمة ومهادنة المستعمر

شكلت نهاية القرن التاسع عشر المرحلة الأخيرة من مسلسل الإخضاع الكامل لجل الزوايا والطرق الدينية، وخصوصًا منها ذات النفوذ الواسع مثل الوزانية والناصرية والشرقاوية... وذلك بتبني المخزن لسلسلة من الإجراءات الهادفة إلى احتواء هذه الزوايا، عبر الحد من نفوذها الديني والسياسي وإدماجها ضمن النسق المخزني، فأصبحت عبارة عن مؤسسات مخزنية مهمتها تمثيل المخزن في مناطق نفوذها وحماية مصالحه والدفاع عنها مقابل تمتعها بامتيازات متنوعة (هبات، عقارات، إعفاءات ضريبية...)، فتحول زعماؤها من رجالات علم وتصوف إلى إقطاعيين همهم الأساسي هو الحفاظ على امتيازاتهم وجمع الأموال ومراكمة الثروات. لكن وبعد ضعف المخزن وعجزه كان من الطبيعي أن يبحث بعض شيوخ هذه الزوايا ورجالاتها عن سلطة داعمة أخرى تحافظ على مكتسباتهم وتدعم طموحاتهم، فكان انتقالهم من الوصاية المخزنية إلى وصاية وحماية سلطات الحماية الفرنسية. لقد أدرك هؤلاء مبكرًا ضرورة

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

البحث عن موطئ قدم لهم في العهد الجديد ضمانًا لاستمرارية امتيازاتهم وحفاظًا عليها فرحبوا بالمشروع الاستعماري ودعموه وأقنعوا أنصارهم وأتباعهم بايجابياته ومزاياه.(٤٧)

إن ما تعرضت له الزوايا من تدخلات من طرف المخزن وفقدانها لقاعدتها وأساسها الذي نشأت من أجله، وما تراكم لديها من معرفة بالأوضاع السياسية، جعلها -وبعد أن ارتمت في أحضان المخزن- تختار الطرف الأقوى في المعادلة، فكانت إلى جانب الفرنسيين، وشاركت بنفوذها في تكريس الأوضاع الجديدة وإقناع أتباعها بضرورة الخضوع للمخزن الفرنسي، والعمل بالتالي على تفكيك وحدة المقاومة. بل إن بعض الزوايا كانت سباقة إلى طلب الحماية القنصلية قبل توقيع عقد الحماية بكثير، ونخص بالذكر شريف وزان الذي أعلن عن حمايته الفرنسية منذ ١٨٨٤م،(٤٨) فقد كان نفوذ الشيخ الوزاني يشمل جل المناطق الشمالية للمغرب ويمتد حتى منطقة توات،(٤٩) لكنه فقد مكانته داخل البلاط المخزني بعد حرب (١٨٥٩- ١٨٦٠م) ضد إسبانيا، فتراجع نفوذ زاويته وتقلصت مداخيلها. وبما أنه لا يستطيع أن يستمر من دون دعم قوة سياسية، فقد حاول أن يجد في المناطق الجزائرية ما فقده في المغرب، ونجح في ذلك عندما التقت مصالحه مع مصالح الفرنسيين، فتحول من منفذ لسياسات المخزن إلى أداة لخدمة السياسة الفرنسية.

من هنا تبدو أهمية الوصاية السياسية كضرورة حيوية بالنسبة للزوايا، لذلك بادرت هذه الأخيرة بعد فقدان المخزن لهيبته للبحث عن تعويض لسلطته،(٥٠) ولم يتردد شيوخها في التعامل مع المستعمر وتبني مخططاته وسياساته سواء خلال فترة الاستكشاف أو طيلة مرحلة الغزو.(٥١) فمع انطلاق المخططات الاستعمارية الفرنسية في المغرب كانت الزوايا والطرق الصوفية تمثل أهم تنظيم سياسي وديني يتمتع بنفوذ كبير وقاعدة شعبية عريضة، وبالتالي كانت هي المؤسسات الوحيدة إلى جانب المؤسسة المخزنية والقوى القبلية القادرة على تأطير القوة البشرية الهامة التي كانت تتوفر عليها وتنظيمها لإعلان الجهاد والتصدي للقوات الاستعمارية. لكن وبعد نجاح الفرنسيين في استمالة المؤسسة المخزنية إلى جانبهم، لم يبق في المغرب من يرعى المقاومة وينظمها سوى القبائل المؤطرة من طرف شيوخ الزوايا والطرق الصوفية الذين كانوا لوحدهم في المجتمع القبلي إلى جانب عدد قليل من الزعماء القبليين، لأنهم كانوا يتمتعون بمكانة خاصة وقدرة على التأطير والإقناع والتعبئة مما جعلهم مؤهلين للتدخل في وقت التهديد الخارجي.

وقد وضع الغزو العسكري الفرنسي النخب المغربية وخاصةً زعماء الزوايا والطرق الصوفية أمام إشكالية معقدة ساهمت في ظهور جدل كبير بينهم أدى إلى بروز انقسام واضح بين هذه الزعامات الروحية والقبلية، بين من رأى أن ظروف وشروط الجهاد غير متوفرة معتبرًا دعاة الجهاد مجرد مثيرين للفتنة وخارجين عن الشرع والحكمة مادام أن الجهاد لا بد أن يكون تحت راية السلطان وبأمره، وهذا الأمر ينطبق على الزاوية الوزانية والناصرية والشرقاوية والزاوية الدرقاوية الأم، وبين الزعامات الصوفية الدرقاوية التي رأت في الغزو الاستعماري غزوًا نصرانيًا مسيحيًا وانتهاكا لأرض الإسلام من طرف "الكفار" الذين لا بد من إعلان الجهاد للتصدي لهم والوقوف في وجههم، فنظمت الجهاد وأعلنت التعبئة وأطرت المجاهدين للوقوف في وجه الغزو الفرنسي بإمكانات محدودة لم تكن كافية لعرقلة تقدمه، لأنها كانت مضطرة لتبني المقاومة وإعلان الجهاد في غياب مؤسسات مركزية فاعتمدت على وسائلها الخاصة وإمكانياتها الذاتية.

ويبدو من مواقف هذه الزعامات الصوفية أنها كانت مدفوعة بدافع الحرص على صيانة مصالحها المادية والروحية، والطمع في الامتيازات ونيل المكانة والحظوة تدعيما وتوسيعا لنفوذها المادي والمعنوي. كما أن التبريرات التي قدمتها هذه الزعامات لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تخفي الدوافع الحقيقية لمواقف هذه الزوايا والنابعة أصلا من رغبتها في حماية مصالحها من ضغوطات وإجراءات الوجود الفرنسي، خاصة وأن هذه الزوايا كانت عبارة عن مؤسسات "إقطاعية" تتوفر على أراضي وعقارات ومداخيل مالية مهمة،(٥٢) فهي زوايا حضرية جل مريديها من بورجوازية المدن الكبرى والمتوسطة التي كانت مصالحها مهددة مباشرة بإجراءات السلطات الفرنسية التي سعت إلى تجريدهم أو على الأقل مزاحمتهم في أدوارهم المختلفة التي كانوا يقومون بها ويؤدونها، مما جعلهم يذعنون تباعا وخصوصا الذين كانت لهم مصالح أكبر.(٥٣)

وأيًا كانت الأسباب الكامنة وراء هذا الموقف، فإن هذه الزعامات الدينية قد تحولت إلى أدوات سهلت عمليات التغلغل الاستعماري الفرنسي في المغرب وخففت من العداء الذي ووجهت به القوات الفرنسية من طرف القبائل المغربية، مما كان له كبير الأثر على وحدة وتماسك المقاومة، التي وإن كانت قد حققت بعض الانتصارات الجزئية فإنها لم تتمكن من الاستمرارية. لقد رأى شيوخ هذه الزوايا مثل شريف وزان وشيخ الناصريين والشرقاويين في الهجوم الاستعماري قدرًا محتومًا لا مفر منه، لذلك راحوا يعملون على إقناع مختلف القبائل بضرورة وحتمية الخضوع للمخزن الفرنسي، وبالتالي تفكيك وحدة المقاومة، وبمواقفهم المساندة للوجود الفرنسي بالمغرب يكون هؤلاء الشيوخ قد خدموا مصالح المحتل وقدموا له دعمًا معنويًا هامًا.(٥٤)

خاتمة

وخلاصة القول؛ أن المخزن عمل جاهدًا على إضعاف الزوايا والطرق الصوفية بأشكال مختلفة تارة باللين وتارة أخرى بالعنف، حيث تبنى السلاطين العلويون طيلة قرنين من الزمن سلسلة من الإجراءات والتدابير بهدف احتواء هذه المؤسسات عبر الحد من نفوذها الديني والسياسي والدفع التدريجي بها نحو المجال الديني والاقتصادي، وبالتالي إدماجها ضمن النسق المخزني، فأصبحت عبارة عن مؤسسات مخزنية مهمتها تمثيل المخزن في مناطق نفوذها

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وحماية مصالحه والدفاع عنها مقابل تمتعها بامتيازات متنوعة. وقد كانت لهذه السياسات المخزنية انعكاسات مباشرة على هذه الزوايا تمثلت في انتهائها بتقديم خدمات وتسهيلات للمحتل الفرنسي بعدما كان دورها سابقًا خدمة المخزن المغربي ومساندة قراراته ومواقفه وتزكيتها.

وقد استفادت السلطات العسكرية الفرنسية كثيرًا من مسلسل الاحتواء والإخضاع الذي تبناه المخزن المغربي تجاه الزوايا والطرق الصوفية، وهو المسلسل الذي نجح في جعل نشاطها يقتصر على الميادين الدينية دون المجالات السياسية. فبعد فقدان المخزن لهيبته بادرت هذه الأخيرة للبحث عن تعويض لسلطته، فارتمت في أحضان المشروع الاستعماري الفرنسي ودعمته بكل إمكانياتها ووسائلها، ولم يتردد شيوخها في التعامل مع المستعمر وتبني مخططاته وسياساته سواء خلال فترة الاستكشاف أو طيلة مرحلة الغزو.

الهوامش:

(١) حجي محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، الطبعة ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٠٨٨، ص٢١.

(٢) حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص١٠٣.

(٣) حجي محمد، م. س، ص٢٤.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) الصغير عبد المجيد، **"من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي في المغرب"**، مجلة البادية المغربية عبر التاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٧٧،١٩٩٩، ص٢٧٤.

(6) Michaux Bellaire, *Les confréries religieuses Au Maroc, Archives Marocaines*, Vol V XXVII, Librairie Ancienne Honoré, Paris 1927, p.25.- Drouin Jeannine, *un cycle hagiographique orale dans le moyen Atlas*, imprimerie nationale, Paris, 1975, p.19.

(7) Laroui A, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain*: 1830- 1912, Centre Culturel Arabe, Casablanca, 1993, p.143.

(8) Ibidem.

(٩) الزاهي نور الدين، **طبيعة الانتقال والتحول من ظاهرة الزاوية إلى ظاهرة الحزب في المجتمع المغربي**، رسالة (د.د.ع)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، السنة الجامعية١٩٩١-١٩٩٢، ص١٥٩.

(١٠) المرجع نفسه، ص١٦٠.

(١١) المرجع نفسه.

(١٢) المرجع نفسه، ص١٦٤.

(١٣) حجاج محمد، **"الزوايا: المجتمع والسلطة في المغرب" (مقاربة سوسيو-أنتروبولوجية)**، فكر ونقد، السنة العاشرة، عدد ٩٤، يناير ٢٠٠٨، ص٥٠.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) ظريف محمد، **مؤسسة الزوايا بالمغرب**، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٢، ص١١٩.

(١٦) المرجع نفسه، ص ١١٩ - ١٢٩.

(١٧) الزاهي نور الدين، **طبيعة الانتقال والتحول**...، م.س، ص١٦٤.

(١٨) أبو إدريس إدريس، **"علاقة الدولة المركزية بالزوايا"**، مجلة أمل، العدد ١٩-٢٠، السنة السابعة، ٢٠٠٠، مطبعة النجاح الجديدة، ص ٩٢.

(١٩) المرجع نفسه.

(٢٠) ظريف محمد، م.س، ص ١٣٣.

(٢١) المرجع نفسه.

(22) Drouin Jeannine, op.cit, p.20.

(٢٣) ظريف محمد، م.س، ص ١٣٣.

(٢٤) من أجل احتواء الزوايا المرتبطة بتكتلات قبلية متحصنة عمد المولى إسماعيل إلى إنشاء حزام دفاعي صلب لمراقبة ومحاصرة هذه القبائل الأمازيغية، أنظر:

-Drouin Jeannine, op.cit, p.21. -Drague G, op.cit, p.150.

(25) Marty Paul, *Les Zaouias Marocaines et Le Makhzen*, Paris, Genthner, 1929, p.586.

(26) Drague G, op.cit, p.84.

(٢٧) ظريف محمد، م.س، ص١٢٥.

(28)Drague George, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, peyronnet, Paris, 1951, p.84.

(29) Ibidem.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٣٠) الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء ٨، دار الكتاب، البيضاء، ١٩٥٦، ص٥٩.

(٣١) ظريف محمد، م.س، ص ١٣٤.

(32)Drague G, op.cit, p.255.

أجمع كل الذين عرفوا المولى سليمان عن قرب على صفات الزهد والتقشف التي طبعت سلوكه. ولم يفت الملاحظين الأجانب الذين زاروا البلاد أن يشيروا إلى بساطة نمط عيشه ونفوره من مظاهر الترف. فلباسه كان في غاية البساطة، كما أن بلاطه كان بعيدًا كل البعد عن مظاهر الأبهة، وانطلاقًا من ذلك أبدى السلطان المولى سليمان تعاطفًا مع الأفكار الوهابية، فكان بالتالي من الحكام المسلمين القلائل الذين امتنعوا عن مهاجمة المذهب الوهابي، انظر:

المنصور محمد، **المغرب قبل الاستعمار المجتمع والدولة والدين (١٧٩٢ - ١٨٢٢)**، ترجمة محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٦، ص٢٢٣ - ٢٢٨.

(٣٣) ظريف محمد، م.س، ص١٣٩.

(٣٤) المرجع نفسه.

(٣٥) قام السلطان المولى سليمان بكتابة رسالة تحرم زيارة الأضرحة وإقامة المواسم ألقيت في مختلف مساجد المغرب، وهو ما اعتبره زعماء الزوايا والطرق الدينية بمثابة إعلان حرب ضدهم. فهل كان ارتكاز المولى سليمان على الأفكار والمبادئ الوهابية استمرارًا لمسلسل الإخضاع والاحتواء الذي تبناه السلاطين العلويون ونهجوه طوال تاريخهم للحد من نفوذ الزوايا غير المندمجة بشكل كامل في النسق المخزني، أم كان نابعًا عن اقتناع وتشبع بهذه الإيديولوجية الوهابية؟

(٣٦) ظريف محمد، م.س، ص ١٤٠.

(37)Michaux Béllaire, *L'évolution politique de la Berbère sédentaire*, Archives Marocaines, Vol VX, 1912,p.24.

(٣٨) العمراني محمد، **"الزاوية الوزانية والمخزن العلوي من مرحلة التأسيس إلى أواخر القرن الثامن عشر"**، مجلة المناهل، السنة ٢٩، عدد (٨٠ -٨١)، مطبعة دار المناهل، فبراير ٢٠٠٧، ص١٤٥.

(39) Drague Georges, op.cit,p.52.- Odinot Paul, *Le Monde religieux, Revue France Maroc*, 9eme Année, №107, Octobre 1925, p.399.

(٤٠) العمراني محمد، م.س، ص١٤٥.

(41) Bodin Marcel, *La Zaouia de Tamegrout, Archives Marocaines*, Vol III, 1918, p290.

(42) Drague G,op.cit, p.149.

(43) Spilmann Lieutenant, Etude inédite sur Les Confréries religieuses au Maroc, C.H.E.A.M, p.5.

(44) Drouin Jeannine, op.cit, p.12.

(45) Ibidem.

(٤٦) تم تسجيل أول تدخل للمخزن المركزي في القضايا الداخلية للزاوية الناصرية بعد وفاة محمد بن بوبكر عندما قام السلطان المولى الحسن بوضع حد للصراع الذي اندلع بين شيوخ الزاوية حول زعامة الزاوية بتعيين الشيخ محمد الحنفي زعيما لزاوية تمكروت خلفًا لأبيه، انظر:

- Bodin Marcel, op.cit, p.277.

(٤٧) اعتمدت السياسة التي اتبعتها سلطات الحماية تجاه الزوايا والطرق الصوفية في المغرب بشكل كبير على الرصيد الذي راكمته من تجربتها في الجزائر، فقد جعل صمود بعض الزوايا وتأطير زعاماتها للعديد من الثورات بالجزائر السلطات الاستعمارية تخشى من أن تلقى من الزوايا والطرق في المغرب نفس ما لقيته من نظيرتها في الجزائر، لأن هذه الأخيرة وإن هادن البعض منها الاستعمار الفرنسي وكرس نفوذه الروحي لخدمة المستعمر كالطريقة التيجانية مثلاً، فإن البعض منها كان وراء العديد من الثورات التي عرفتها الجزائر طيلة الخمسين عامًا الأولى من استعمارها كالطريقة القادرية.

(48) Quelques *mots sur les Confréries religieuses Marocaines*, Renseignement coloniaux, №11, Novembre 1904, p.288.

- على غرار فرنسا لم تتردد بريطانيا في الاستفادة من حماية شخصيات مغربية ذات وزن ديني وسياسي من خلال منحها الحماية للشريف المصلوحي زعيم الزاوية المصلوحية.

(49) Michaux Bellaire, *Le Touat et Les Chorfas D'ouazzane*, Guenthner, Paris, 1928, p.147.

(٥٠) يعتبر جورج دراك أن السلطات العسكرية الفرنسية استفادت كثيرًا من مسلسل الاحتواء والإخضاع الذي تبناه السلاطين العلويون طيلة قرنين من الزمن تجاه الزوايا والطرق الدينية، وهو المسلسل الذي نجح في جعل نشاطها يقتصر على الميادين الدينية دون المجالات السياسية.

(51) Odinot Paul, op.cit, p.399.

(٥٢) بنطالب علي، **"الزاوية والحزب العلاقة الجبائية"**، المناهل، الجزء الأول، العدد (٨٠-٨١)، مطبعة دار المناهل، الرباط، ٢٠٠٧، ص ١٨٦.

(٥٣) يرجع جورج دراك المواقف المتباينة للزوايا المغربية من الغزو الاستعماري إلى اختلاف مصالح النخب السياسية والدينية المسيرة لهذه المؤسسات الضخمة حسب مناطق تواجدها، فقد "تبنت الزوايا التي تتواجد في المناطق المنبسطة سياسة إيجابية إزاءنا، في حين قاومتنا الزوايا التي تتواجد في المناطق الجبلية وأعلنت الجهاد ضدنا..."، انظر:

-Drague G, op.cit, p.84.

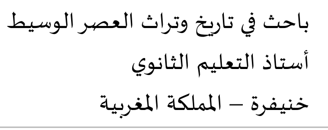
(٥٤) لم يكن زعيم الزاوية الناصرية على استعداد للتضحية بمصالحه وطموحاته القيادية خصوصًا أمام زعامات جهادية كان يحسب لها الشيخ الناصري ألف حساب، فاختار معسكره منذ البداية مساندا للكلاوي والفرنسيين، حيث بادر الشيخ الناصري أحمد بن أبي بكر في يونيو ١٩١٤ إلى توجيه رسالة إلى المقيم العام الفرنسي الجنرال ليوطي يهنئه فيها بمناسبة احتلال تازة. موقف الزاوية الناصرية الموالي للفرنسيين لا يمكننا فهمه إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه الزاوية كان أتباعها من السكان الرحل ونصف الرحل والسكان المستقرين الذين يعتمدون على موارد معيشية محدودة، وهي معطيات وظروف اقتصادية واجتماعية تحكمت في مواقفهم إلى حد بعيد.

ISSN: 2090 – 0449





بدايات الفكر الكرامي في المغرب
أبو يعزى يلنور نموذجًا



جواد التباعي

باحث في تاريخ وتراث العصر الوسيط
أستاذ التعليم الثانوي
خنيفرة – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

جواد التباعي، بدايات الفكر الكرامي في المغرب: أبو يعزى يلنور نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٨٩ – ٩٦.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

كثر الحديث عبر العالم عن تاريخ العقليات والذهنيات، وعن أهميته في حفظ الذاكرة الإنسانية، والتعبير عن هوية الشعوب والحضارات. ويُعَدّ موضوع الفكر الكرامي واحدًا من المواضيع التي لم تحظ باهتمام كاف في حقل الدراسات التاريخية المغربية، فالأضرحة أصبحت جزءًا من الثقافة المغربية في بلد الأولياء، لعبت ولا تزال أدوارًا مهمة في حياة السكان والزوار. من هذا المنطلق اخترنا شخصية صوفية وتحديدًا شخصية الشيخ ببلاد تاغيا (مولاي بوعزة وسط المغرب حاليًا) للتعريف اكثر بهذا الولي، وجرد الكرامات التي جعلت شهرته تخترق الآفاق انطلاقًا من كتب المناقب التي تعرضت لسيرته، مرفوقة ببعض الملاحظات والتعاليق الشخصية، تاركًا للقارئ مهمة الحكم على صحة هذه الكرامات من عدمه.

مُقَدِّمَةُ

تميز القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بتقعيد التصوف الشرقي في المغرب الأقصى، فبرز متصوفة كبار أمثال أبو شعيب أيوب السارية،[١] وأبو عبد الله أمغار، وأبو الحسن علي بن حرزهم،[٢] أبي يعزى،[٣] وأبو العباس السبتي،[٤] وأبو مدين شعيب.[٥] أبو يعزى يلنور واحد من أقطاب التصوف التي كان لها عميق الأثر في تاريخ المغرب الأقصى خلال العهد ين المرابطي والموحدي. وضمنت العوامل الثقافية والسياسية والجغرافية استمرار ضريحه في القيام بأدوار طلائعية منذ وفاته حتى اليوم.

أولاً: أبو يعزى يلنور (ورقة تعريفية)

لم تكن بدايات حياته معروفة، حيث اختلفت كتب المناقب في تحديد اسمه وأصله، فهو في "التشوف" أبو يعزى يلنور بن ميمون بن عبد الله،[٦] وفي "الدعامة" أبو يعزى يلنور بن عبد الرحمان بن أبي بكر الإيلاني.[٧] أما في "المعزى" نقلاً عن أحمد بن أبي الفضل التلمساني المعروف بابن صعد في "النجم الثاقب"، أنه أل النور بن عبد الله.[٨] وينفرد أحداد محمد السوسي بالإشارة إلى أن اسمه الشخصي مختلف فيه بين هدي أوعدي وميمون،[٩] ويستنكر القول بأنه عبد حبشي،[١٠] فيؤكد جازمًا أن نسبه نبوي شريف بقوله: "أبو يعزى بن عبد الرحمن بن أبي بكر الإيلاني بن موسى بن عيسى، بن صالح بن إبراهيم بن عبد العزيز، بن محمد بن ميمون، بن عمر بن محمد بن داود ،بن أبي زيد بن يعقوب، بن إدريس بن عبد الله، بن إدريس الأصغر، بن إدريس الأكبر، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، بنت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.[١١] قيل إنه من هزميرة إيروجان[١٢] وقيل من بني صبيح من هسكورة،[١٣] وسواد بشرته يرجح انتسابه إلى هسكورة الحالية.

ولد سنة (٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠م)،[١٤] من عائلة فقيرة كانت تهتم بتربية المواشي، وقع شبه اتفاق بين المؤرخين[١٥] على صورته، فقد كان أسود اللون، طويلاً سامقًا في السماء كالنخلة، نحيفًا ليس

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

بوجهه نبات أصلاً. كان لباسه في بداية مجاهدته لنفسه حصيرًا، وجبة من تليس مضلع، رقيق يشبه الأكيسة الغلاظ، وبعد استقراره في زاويته الحالية صار لباسه شاشية من عزف، وبرنسا من الصوف الأسود يرتديه صيفًا وشتاء، ولا تفارقه عصاه.

ذكرت كتب المناقب التي تناولت حياته أنه كان في ابتداء أمره راعيًا، ولما اشتد عوده قرر السياحة في الأرض سيرًا على سنة الأولياء والصالحين في السياحة والاعتزال، روى عنه أنه قال: "أقمت عشرين سنة في الجبال المشرفة على تمليل، التي بين الغيل المنسوبة لآيت مدوال ودمنات وليس لي فيها اسم إلا أبوجرتيل،[١٦] ثم انحدرت إلى السواحل فأقمت بها ثمان عشرة سنة لا اسم لي فيها سوى أبي ولنكوط"،[١٧] فكان مَنْ لا يشارك الآدميين في أكلهم حيث يأكل الدفلى،[١٨] والخبيز، والجمار، والبلوط.[١٩] كان أبو يعزى يعيش على ما يمكن أن نصطلح عليه اليوم "الغذاء الطبيعي" أو "طعام الكون" وهو جانب من رياضات زهاد الشرق النباتيين.

تزوج في أواسط حياته تقربيًا بزوجته الأولى أم العز التي رزق منها أولادًا، لكنها لم تعمر طويلاً لأنها توفيت وهي تحج مدينة النبي، تزوج بعدها بأختها التي لقيت المصير نفسه.[٢٠] كان أميًا لا يعرف من القراءة والكتابة، لا يحفظ من القرآن إلا الإخلاص والمعوذتين، ورغم ذلك كان يصحح لحن القرآن رغم أنه لم يتبحر في فكر الصوفية، ولم تكن له طريقة. كانت زاويته تبعًا لذلك مجرد مسجد للصلاة. وكان دائم الصوم والعبادة في خلواته ومسجده، كان غالبًا لا يتواصل مع زواره إلا بواسطة ترجمان لأن لسانه كان بربريًا.[٢١]

أخذ عن عدد كبير من الأشياخ قال صاحب التشوف: "كان الشيخ أبو يعزى يقول: خدمت نحوًا من أربعين وليًا لله عز وجل؛ منهم مَنْ ساح في الأرض ومنهم مَنْ أقام بين الناس إلى أن مات."[٢٢] وأهمهم شيخه أبو شعيب السارية،[٢٣] وأبو عبد الله أمغار،[٢٤] وأبو موسى عيسى أيغور وغيرهم. عاش نحو مائة وثلاثين سنة، شق عمره بين دولتي المرابطين والموحدين. وعاصر ابن رشد وابن طفيل. وتوفي بالطاعون[٢٥] يوم السبت فاتح شوال سنة ٥٧٢ هـ/ السبت ٠٢ أبريل ١١٧٧م،[٢٦] ووري التراب بتاغيا (مولاي بوعزة حاليًا) حيث مدفنه الآن.

ثانيًا: قراءة في كرامات أبو يعزى يلنور

الكرامة: "كل بُعدٍ خارق للعادة ظهر على يد عبد ظاهر الصلاح في دينه، متمسك بطاعة الله في أحواله، مستقيم في تصرفاته، والكرامة لا تظهر على يدي فاسق.[٢٧] فالعبد ظاهر الصلاح بناء على إجماع العلماء، فيه إشارة مباشرة إلى أنه ينتمي إلى دائرة العباد الصالحين. ليس من السهولة ولا من الإنصاف التسليم بأن كرامة الأولياء هي مجرد مشاهدات سحرية أو ظواهر خرافية، كما أنها ليست عطاء خاصًا بأنماط سحيقة من التنظيم الاجتماعي أو حالة خاصة بالمجتمعات غير المتطورة، بل هي حالة معاشة وحقيقية ممارسة يذكرها الولي مقتنعًا ويقدمها على أنها حصلت وتحصل فعلاً. أصلها رواية أو حكاية مقتضبة غير أنها في العمق ظاهرة كلية متعاضدة مع النظم والمعتقدات المجتمعية. وفيما يلي أمثلة لكرامات الولي أبي يعزى في كتب المناقب مرفوقة ببعض الملاحظات.

نوع الكرامة	أمثلتها عند أبي يعزى	المصادر المعتمدة	ملاحظات
تطويع الحيوانات واستئناسها	ضرب الأسد وإبعاده عن ضيوفه تارة بضربه، وتارة بأمره بالذهاب، وأخرى بمعاقبته.	المعزى، ١١٧. التشوف، ٢١٨.	وهو ما يفسر خوف الطريق الذي أجبر ابن قنفذ على العودة من على بعد نصف يوم من الوصول إلى أبي يعزى (أنس الفقير، ص ٢٦)
الأسد.		المعزى، ١٣٠ أنس الفقير،[٢٨] ١٥، ١٦.	
		التشوف، ٢١٧. المعزى، ١٣٥. الإعلام، ج١، ص ١٠٩، ١١٠.	وسيلة للحد من إنكارهم لكراماته حتى قبل الإفصاح عنها.
		الدعامة، ص ٥٣.	صراع رمزي بين السلطة الزمنية، والسلطة الصوفية.
الأفاعي.	جعله دابة لأحد تلاميذه لما وثب على حمار أحد المنكرين لكراماته القادمين من فاس.	التشوف، ص ٢١٦. المعزى، ص ١٢٨. الإعلام[٢٩]، ج١، ص ٤٠٩.	تأكيد ولايته لمنكريه قبل الإفصاح عنها. رواها أحدهم ينحدر من صفرو.
		الدعامة، ص ٥٣.	تحقيق للعدل الرمزي بين الإنسان والحيوان في ظل انتشار الظلم في المجتمع.
		الدعامة، ص٥٤.	ترمز الحية من خلال تراث الحضارات القديمة، وقصة موسى إلى الخلق

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

نوع الكرامة	أمثلتها عند أبي يعزى	المصادر المعتمدة	ملاحظات
			والحياة الجديدة للإنسان.
- الثعابين	دخل ثعبان معه في ثيابه حتى اخرج رأسه من جيبه، وأصحابه ينظرون، فأجابهم أنه رسول أخبره بقدوم أربعين فارسًا إليه في تلك الليلة.	الدعامة، ص ٥٤	الثعبان لعب دور البديل الصوفي للوحي.
. الخرفان	منح كبش أضحية لأبي العباس بن إبراهيم الأزدي السبتي وحك فم بعرقوب الحمار فتبعه الكبش من تاغيا إل سبتة.	التشوف، ٢١٦. الدعامة، ص ٤٠. المعزى، ص ١٢٨.	بين تاغيا وسبتة مسير ١٣ مرحلة.
. الذئاب		الإعلام، ج١، ص ٤١٠.	
القنافذ.	صعوده إلى كدية وتجمع الحيوانات حوله إلا أحد الذئاب الذي بقي بعيدًا، ولما سئل الولي أجاب أنه كفر بنعمة من رباه وسيموت جوعًا، فحدث ذلك.	الدعامة، ص ٥٧.	إشارة رمزية إلى عواقب الغدر.
- الديكة	عبث القنافذ بالتين والزبيب بالأكل والإتلاف، وتعاهده معها بعدم العودة، فلم تعد بعد ذلك أبدًا.	الدعامة، ص ٥٧.	رواية عن ابنه محمد
	دخول ديك إلى مسجده وهو جالس رفقة بعض ضيوفه.	الدعامة، ص ٥٨.	فهم الديك كلامه رغم أنه تكلم باللسان الأمازيغي دليل
	ومنهم منكر لولايته، فأمر الديك بتحديده، فدخل الديك ونقره.		على تجاوز الكرامة لحاجز اللغة.
المكاشفة والتنبؤ	كشف خيانة الزوج مع زوجة أخيه.	التشوف، ص ٢١٤.	يؤكد بأنه مأمور بذلك.
	تحديد تارك الصلاة، وإنكار الصلاة بغير وضوء.	الدعامة، ص٤٤. المعزى، ص ١١٧.	الأول بسواد وجهه والثاني برائحة كلاب تفوح منه.
	توقعه وفاة زوجتيه ميمونة وأم العز بمدينة النبي.	الدعامة، ص ٥٧.	الحج في الكرامات رحيل عن الذنوب وتخلص منها.
	توقع افتراس الأسد لحماره عند لقائه بالخليفة عبد المومن الموحدي رغم حراسته المشددة.	الدعامة، ص ٤٨. المعزى، ص ١١٥.	**صراع رمزي بين السلطتين السياسية والصوفية، انتصرت فيه الأخيرة.**
	تحديد أصحاب النوايا السيئة من زواره والجهر بأسرار نواياهم.	المعزى، ص١١٨.	وسيلة للحد من أي تشكيك في محتمل في كراماته.
	مسحه على صدر أبي مدين وتوقعه أن يكون له شأن عظيم.	المعزى، ص١٣٠. أنس الفقير، ص ١٥، ١٦.	تأكيد الانتقال إلى المشيخة، وبداية اختبار مريديه (منع أبا مدين من الطعام ثلاثة أيام).
الفراسة	القدرة على تحديد وقت طلوع الفجر رغم عدم وجوده داخل المسجد وغياب نوافذ وكوى تمكنه من النظر خارجه.	التشوف، ص ٢١٦. الدعامة، ص ٣٨. المعزى، ص ١١٦. الإعلام، ج١، ص ٤١٢.	تعليم إلهي لا يحصل إلا للصديقين حسب العزفي في الدعامة.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

نوع الكرامة	أمثلتها عند أبي يعزى	المصادر المعتمدة	ملاحظات
إطعام الطعام	قول أبا مدين "زرته رفقة رجلين، فاشتهى كل واحد منهما عليه شهوة عينها، فلما وصلنا أطعم كل واحد منهما ما اشتهاه.	الدعامة، ص٤٣ و٥١، و٦١. المعزى، ص ١٣١.	يؤكد الدكتور بولقطيب[٣٠] أن المغرب عرف مجاعات خطيرة سنوات ٥٣٤هـ، ٥٣٥هـ،٥٧١هـ
اختلاف المآكل عن باقي الناس	رواية أبو الحسن الصائغ أنه وجده يأكل قلوب الدفلى فناوله إياها فوجدها حلوة.	التشوف، ص ٢١٦، ٢١٨. المعزى، ص ١١٧. الإعلام، ج١، ص ٤٠٧. رسالة المراحل، ص٢٣.	مبدأ أساسي في التصوف خاصة عند بداية المشوار.
علاج الأمراض المستعصية بعدة طرق أ . العلاج باللمس	معالجة الرجال والنساء باللمس رغم إنكار فقهاء فاس عليه ذلك،وتخيير تلميذه أبو مدين شعيب لهم بين اللمس والشفاء المضمون أو الكشف عند طبيب يهودي أو نصراني والشفاء غير مضمون.	التشوف ص ٢١٥ المعزى، ص، ص ١٢٠،١٢١ الإستقصا[٣١]، ج٢ ص ١٨٩. الإعلام، ج١، ص ٤٠٧.	قبول الفقهاء بالأمر في ظل كون غالبية أطباء زمنهم نصارى ويهود.
ب . العلاج بالتفل		رسالة المراحل، ص ٢٣.	
ج . العلاج بالمسح	معالجته لحمار أبي الصبر أيوب الذي كان على وشك الموت بالتفل عليه ليقوم من ساعته.	التشوف، ص٢١٢. المعزى، ص١٢٣.	دليل على كون الفكر الكرامي يتعايش مع محيطه.
	علاجه لمقعد بعد التفل على يده	الدعامة، ص ٣٩.	علاج بالبركة لازال يمارس حتى
	وجرها على وركيه.		اليوم.
	إصابة عمى أبو مدين بالعمى بعد تمرغه في مكان جلوس الشيخ، ومسح أبي يعزى لعينيه فشفي.	المعزى، ص ١٣٠. أنس الفقير، ص ١٥، ١٦. سلوة الأنفاس، ج١، ١٨٥. رسالة المراحل، ص، ٥١، ٥٢.	يرجع صاحب السلوة العمى إلى شدة نور وجه أبي يعزى.
صرع الجن	يقصده المجانين من أعيان الوقت، ومن العامة رجالاً ونساء، فيصرعهم بمد يده، ويأمرهم بالنظر فيها فيشفون في الحين، ثم ينصحهم بتجنب بعض الأفعال التي تسبب جنونهم.	الدعامة، ص ٣٩، ٤٠، ٤٥، ٤٨، ٥٠.	يصبح الولي طبيبًا حقيقيًا يعالج، ويقدم أسباب الوقاية.
العقاب الرباني للمخالفين لأمره	خروج خديمه دون ترخيصه له، بينما هو يمسح على جسد فتاة مريضة، فضل الطريق رغم معرفته بها، وبل وكاد يقتل لولا دعاء شيخه وجماعة معه له.	التشوف، ص ٢٢٠. المعزى، ص ١٢٠. الإعلام، ج١، ص ٤١٢	

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

نوع الكرامة	أمثلتها عند أبي يعزى	المصادر المعتمدة	ملاحظات
	قول مؤذنه لأبي علي مالك بن تامجروت أنه جاهل يفضح الناس، فأنقطع كلامه حتى مد أبو يعزى يده إلى حلقه ومسح عليه، فطارت علقة دم من حلقه في الحين، فتاب إلى الله.	التشوف، ص ٢١٥. المعزى، ص ١٣٣. الإعلام، ج١، ص ٤٠٨. رسالة المراحل، ص، ٥٧، ٥٨.	تركه للخادم ليتوب بعد محنة
استجابة الطلب	بعد صلاة جمعة بفاس في عام جذب حضر إليه العديد من المصلين فطلبوا منه طلب الغيث لهم ففعل، وأمطرت السماء في حينه حتى أن بعضهم نزع حذائه للوصول إلى بيته.	المعزى، ص١٢٨. التشوف، ص٢١٧، ٢١٨.	يزداد دور الولي وقت الشدة، خاصةً في الأمور التي تعجز عنها السلطة الزمنية.
	عن أبو محمد صالح عن الحافظ التادلي أن ولده عجز عن القراءة فأخذه إلى أبي يعزى فدعا له، وقال" فتح الله لك المدونة كما فتحها لسحنون". فكان من التادلي ماكان.	المعيار المعرب،[٣٢] ج٢ ص ٢١٣.	أصبح التادلي وفق المعيار فقهًا كبيرًا من فقهاء المالكية.
تصحيح لحن القرآن	يقول أبو مدين شعيب أنه "يقدم رجلاً للصلاة فإن كان لحانا أخرجه" وذلك رغم كونه أميًا لا يعرف العربية.	المعزى، ص، ص١٣١، ١٣٣ رسالة المراحل ص ٥٦	يرد أنه يرى نورا يخرج من فم القارئ ، وينقطع عند الخطأ
الكلام في العلوم	يؤكد أبو العباس زروق أنه زاره	الدعامة، ص٤٢.	صراع رمزي بين الفقهاء والعلماء
	رفقة العديد من العلماء سنة سبعين من القرن التاسع، وكان يتكلم في التوحيد الخاص، والعلوم الدقيقة،وأنهم عادوا من بركاته بأنوار شارقة.	المعزى، ص ١٣٢.	بعلمهم، والأولياء بكراماتهم.
عدم أكل الحرام	بعد إغارة إحدى القبائل المجاورة على غنمه، أجبر أصحابه تلك القبيلة على تعويض الماشية التي نقصت منها، لكنه رفض إدخال الحرام في كسبه، وأمرهم بإرجاع الماشية التي ليست له إلى أصحابها.	الدعامة، ص ٦١. الإعلام، ج١، ص ٤١٣. رسالة المراحل، ص ٥٥ نقلاً عن: النجم الثاقب.	أعتبر تلك المواشي المعوضة حرامًا بدليل هجوم الأسد عليها.
رفض اللهو والغناء	تحديد "الزفان"[٣٣] في جماعة قدمت إليه، وأمره بنزع كسائه، وبيعه، ودفع ثمنه للمساكين بعد استشارة الفقيه أبي الصبر أيوب.	الدعامة، ص ٤٦.	وسيلة لإجباره على التوبة أمام الملأ ليكون عبرة لغيره.
إسماع ندائه لمناطق بعيدة	كان محمد بن يوسف أحد تلامذته يسمع ندائه بتاغزوت،[٣٤] فيقول: أبو يعزى يناديني.	المعزى، ص ١٣٤.	قوة الصوت دلالة على قوة التأثير في المجتمع.
الطيران في الهواء	تروي زوجته ميمونة أنه اقترح عليها أن تسير معه فتأخرت لإحضار ركبها،[٣٥] فطار في الهواء	الدعامة، ص ٤٩.	برر الأمر بعد رجوعه بأنه خرج إلى الله ولايجب أن يتأخر (اتصال بالغيب وتلقي تعاليم إلهية).

ISSN: 2090 – 0449

نوع الكرامة	أمثلتها عند أبي يعزى	المصادر المعتمدة	ملاحظات
	وتركها تنظر إليه حتى غاب عنها.		
قضاء الحاجات وتفريج الكربات	ما قصده أحد قط بصدق وعزيمة إلا قضيت حاجته بسهولة وحسن وتيسير.	المعزى، ص٢٢٥.	يقدم المصدر هذا ككلام عام دون أن يقدم أمثلة عن ذلك.
انتقال ولايته	يؤكد التاودي أن الشيخ بصق في فم ابنه أبو علي يعزى قبيل وفاته، فانتقلت ولايته إليه وظهرت بركته عليه.	التشوف ص ٢٣١، ٢٣٢. المعزى، ص ١٢٤.	تضمن كتب المناقب استمرار الفكر الكرامي.

من خلال التمعن في هذه الكرامات يمكن الخروج بالاستنتاجات التالية

- انتشار المتصوفة في مجمل مناطق المغرب الأقصى وداخل مختلف مكونات المجتمع المغربي فمنهم الأشراف، الأمازيغ، والبيض والسود، والعلماء والأميون.
- ظهور هذه الكرامات على يد أبي يعزى (الراعي) يؤكد ارتباطها أكثر بالفئات الاجتماعية المحرومة، ومحتواها يعبر عن حاجات هذه الفئات كالمطر وقت الشدة، الطعام وقت الفاقة....
- إبراز دور الولي كـ "مُخَلّص" من المحن.
- تركز معظم كراماته على تطويع الحيوان واستئناسه في منطقة موحشة كان شغل سكانها وزوارها هو خطر الحيوانات.
- اتخاذه الكرامة وسيلة دفاعية عن الذات من السخرية، ومَنْ اتهم بارتكاب المعاصي.
- جعلها وسيلة لتمجيد الذات من خلال التحلي بالأخلاق الرفيعة.
- يقدم تصورًا لـ "مدينة الأولياء" التي يتعايش فيها الإنسان والحيوان والجمادات.
- استعمل رواتها أسلوب بسيط قريب إلى الأدب الشعبي استخدمت فيه ألفاظ عامية وأخرى أمازيغية.(٣٦) وعليه نرجح أن يكون أبو يعزى أول متصوف أما زيغي في المغرب.
- الحضور القوى لكرامات أبي يعزى في المجتمع البوعزاوي اليوم كمعطى تاريخي يستغلونه في تبرير طقوسهم.

نشير إلى أن القائمين على الضريح وملحقاته من أحفاد الولي يموهون على العامة بكرامات مصطنعة لم نجد لها سندًا في كتب المناقب كحديث البغلة التي كانت تركل كل منكر لكراماته، وكل عاق لوالديه. ونؤكد أن أخباره لم تكن محل تصديق العديد من المؤرخين المحدثين. وفي هذا الصدد ذهب عبد الوهاب بن منصور إلى حد القول أن أخباره يرفضها الشرع، وينكرها العقل، وهي وإن دلت على شيء فإنما تدل على شطارة مخترعيها،(٣٧) وبلادة مصدقيها.

خاتمة

أبو يعزى بغض النظر عن صحة كراماته من عدمها لعب أدوارًا طلائعية في تاريخ المنطقة بالخصوص، وتاريخ المغرب بصفة عامة خلال العصر الموحدي على عدة مستويات. فعلى المستوى الاجتماعي كان داعية وقاضيًا، ومكاشفًا، وطبيبًا يقصده الناس من سبتة وباقي مناطق البلاد. وعلى المستوى الثقافي كان عالمًا مناظرًا رغم أميته. حتى أن شهرته شكلت مصدر قلق دائم للسلطة السياسية. لكن ما يهمنا في مثل هاته الدراسات هو استثمار "الكرامة" كمادة توثيقية تمكننا من فهم الأسباب التي جعلت الفكر الكرامي جزء من الحياة الثقافية لمعظم المغاربة إلى حدود اليوم، ومن خلاله تفسير الواقع الاقتصادي. والبنية الثقافية والتراثية للمدن والقرى التي شيدت حول الأضرحة. لكن هذا لا يعني تشجيعنا للممارسات والطقوس الخرافية التي تجري في محيط الاضرحة اليوم.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الملاحق:



صورة رقم (١)

الدحرجة على الحصير جزء من الخرافات المرتبطة بالضريح حتى اليوم



صورة رقم (٢)

مدفن أبي يعزى الحالي في قرية مولاي بوعزة وسط المغرب



صورة رقم (٣)

منظر عام لقرية موولاي بوعزة ومدفنه

مصدر الصور: صاحب المقال

الهوامش:

(١) أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي من أهل بلد أزمور ومن أشياخ أبي يعزى، قدم مراكش بعد عام أحد وأربعين وخمسمائة ومات بأزمور يوم الثلاثاء العاشر من ربيع الثاني عام أحد وستين وخمسمائة حسب الترجمة (٦٢) من كتاب التشوف. عاصر فترة عرفت انهيار حكم دولة المرابطين، بداية حكم الموحدين تسميه العامة بوشعيب الرداد.

(٢) هو سيدي علي بن حرزهم من علماء فاس الكبار وصوفيته المشاهير، أدرك أواخر دولة المرابطين وشارك في الموافقة على حادث إحراق "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي. عاش مع الموحدين وفي دولتهم نحوًا من اثنين وعشرين سنة.

(٣) أبو يعزى كلمة أمازيغية أصلها "إبا إعزا" ، أي أبي العزيز، لاتزال متداولة في المنطقة من طرف الآباء لتدليل أبنائهم الصغار. أما يلنور فمعناها ذو النور أو المحظوظ وهو لقب فقط وليس اسمه الحقيقي ،كني بها قبله شيخ شيخه عبد الله بن وكريس دفين دكالة المعروف بأبي النور وتنطقه العامة فيها سيدي بنور، والظاهر أن هذه التسمية متأخرة عن لقبه "بو كرتيل "أو صاحب الحصير لما كان مغمورًا. شق على أتباعه من غير الأمازيغ نطقها فحرفوها تدريجيا لتصبح مولاي بوعزة.

(٤) أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي، لد أبو العباس السبتي بحاضرة سبتة سنة ٥٢٤هـ خرج سنة ٥٤٠ هـ قاصدًا مدينة مراكش بعد إذن من شيخه أبي عبد الله الفخار، وبقي بها إلى أن توفي سنة ٦٠١هـ.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٣٣،٣٢.

(٦) التادلي أبو يعقوب يوسف بن يحيى (ابن الزيات)، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، ط ٢، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٧م. ص ٢١٤.

(٧) العزفي أبو العباس (٥٥٧- ٦٣٣هـ)، **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٩م، ص ١.

(٨) الصومعي أحمد التادلي، **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، سلسلة الأطروحات والرسائل رقم ٦، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٦م، ص ٦٤.

(٩) أحداد محمد السوسي، **رسالة المراحل في مناقب أبي يعزى الراحل**، طبعه سنة ٢٠٠٤م على نفقة اللبنانية مهى محمود أبو عزة في لبنان سنة ٢٠٠٤ د .ت، على اعتبار أنه هدية لزوار الضريح.

(١٠) ألف الكتاني عبد الحي كتابا سماه الإستهزا بمن زعم الشرف للشيخ أبي يعزى ينفي فيه عنه شرف النسب. وأكد إبراهيم حركات في الجزء الأول من كتابه **المغرب عبر التاريخ**، ج١، ص ١٨١، ١٨٢ بأن أبا يعزى لم يكن شريف النسب، لكن العامة أضافوا له مولاي فيما بعد.

(١١) أحداد محمد السوسي، المرجع نفسه، ص ٤٠، ٤١ ،١١.

(١٢) قبيلة مصمودية استوطنت المنطقة بين مراكش وركراكة، ولا نستبعد أنه هو من أطلق على الجبل الذي دفن به جبل أيروجان.

(١٣) بجبال تيغنيست في الأطلس الكبير بين آيت مكون وإيمغرن.

(١٤) يبقى هذا التاريخ اجتهادًا من صاحب رسالة المراحل اعتمادًا على وثائق أحفاذ الولي، واستنادًا إلى أنه عاش أزيد من ١٣٠ سنة.

(١٥) التادلي في التشوف ص ٢١٤، والصومعي في المعزى ص١٣٦_ ابن قنفذ في أنس الفقير وعز الحقير ص٢٦، السملالي العباس بن إبراهيم، **الإعلام بمَنْ حل بمراكش من الأعلام**، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٩٣م/ ١٤١٣هـ ج١، ص ٤٠٦.

(١٦) وهي حصير الدوم.

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(١٧) وهو النبات المعروف بـ فول أماز ير؛ لأنه لا ينبت إلا في الأزبال ولا يأكله الناس ولا الدواب.

(١٨) نبات سام بإجماع العلماء، ويستعمل فقط للعلاج بجرعات جد قليلة ويستعمل خارجيًا ضد أمراض الجلد والشعر، أما الخبيز والجمار فلا إشكال في تناولها.

(١٩) المقصود به هنا قلب الدوم، ويُعرف محليًا اليوم في بلاد زيان بالجماخ، يباع في الأسواق خاص خلال فصل الخريف كفاكهة للفقراء. أما البلوط فمن أكثر فواكه الغابة انتشارًا لكون أزيد من(٨٠%) من غابات المنطقة يغطيها البلوط بنوعيه الأخضر والفليني.

(٢٠) أحداد محمد السوسي، م س، ص ٢١،٢٢.

(٢١) اللسان البربري، وسمي أيضًا اللسان الغربي، لأنه قابل خلال هذه المرحلة اللسان المشرقي العربي، والمقصود به اليوم اللسان الأمازيغي.

(٢٢) التادلي، م س، ص ٢١٥.

(٢٣) وهو أبو شعيب بن سعيد الصنهاجي المتوفى بأزمور سنة٥٦١هـ لقب بالسارية "لأنه كان يطيل القيام في الصلاة، حتى يظن الداخل إلى المسجد أنه سارية".

(٢٤) محمد بن إسحاق بن إسماعيل الصنهاجي، لقب بأمغار، ومعناها شيخ القبيلة، من أقران أبي شعيب السارية.

(٢٥) الكتاني محمد بن جعفر بن إدريس، **سلوة الأنفاس بمَنْ أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، تحقيق حمزة بن علي الكتاني، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس، ٤ أجزاء، د.ت، ج١، ص ١٨٦.

(٢٦) ابن القاضي أحمد المكناسي (٩٦٠- ١٠٢٥هـ)، **جذوة الاقتباس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص ٥٦٤ .

(٢٧) العزفي، م. س، ص ٢٣ – ٢٧.

(٢٨) أبو العباس أحمد الخطيب (ابن قنفذ القسنطيني)، **أنس الفقير وعز الحقير**، تصحيح ونشر محمد الفاسي، أدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط، ١٩٦٥م.

(٢٩) السملالي العباس بن إبراهيم، **الإعلام**، م. س.

(٣٠) بولقطيب الحسين، **جوائح مغرب عهد الموحدين**، ضمن سلسلة قضايا تاريخية، ع٤، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ٢٠٠٢م. ص ٤٥.

(٣١) الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب الدار البيضاء، ١٩٥٤ م،ج ٢.

(٣٢) الونشريسي أحمد بن يحي (أبو العباس)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب**، تخريج جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نُشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٩٨١م، ج٢.

(٣٣) الزفان: كلمة أمازيغية تعني الرقاص، أو المغني المتجول.

(٣٤) كلمة أمازيغية معناها الأرض الخصبة، اليوم قرية بين بني ملال والقصيبة.

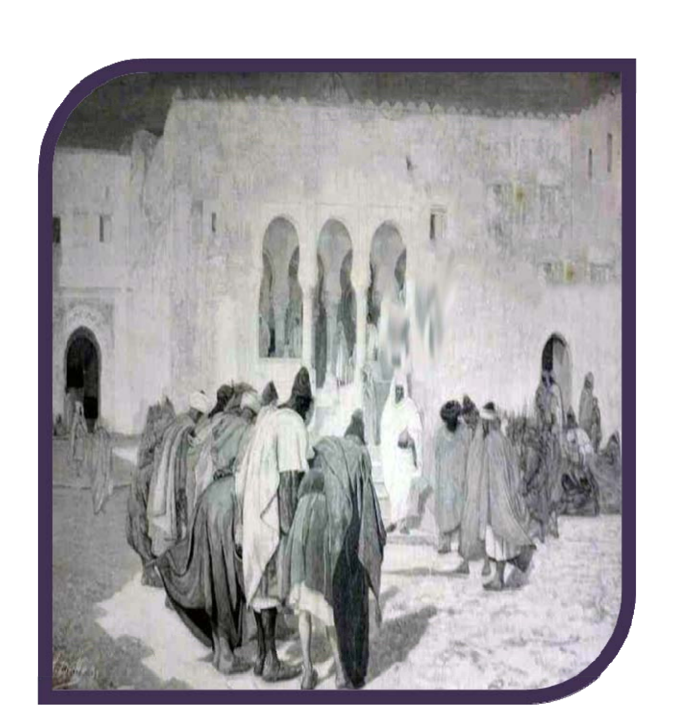
(٣٥) المقصود بها المغزل أو العود الخشبي الذي تغزل عليه الصوف.

(٣٦) استعنا بـ زيعور علي، **الكرامة الصوفية الأسطورة والحلم القطاع اللاواعي في الذات العربية**، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص ١١٥ . ١٧١ . حجازي مصطفى: **التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور**، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط ٩، ٢٠٠٥، ص ١٤٢. ١٤٦. . بوتشيش القادري إبراهيم، **الخطاب الاجتماعي في الكرامة الصوفية بالمغرب خلال عصري المرابطين والموحدين مساهمة في دراسة الفكر الاجتماعي للبلدان المتوسطية**، ضمن أعمال ندوة جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، سلسلة الندوات ٢ دون تفاصيل أخرى، ص ٩٧. ١١٣.

(٣٧) بن منصور عبد الوهاب، **أعلام المغرب العربي**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٩، ج٢، ص ٢١١.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





الأنبياء في مغرب العصر الوسيط
غمارة نموذجًا



حميد هيمة

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
باحث في التاريخ المقارن – جامعة ابن طفيل
القنيطرة – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حميد هيمة، الأنبياء في مغرب العصر الوسيط: غمارة نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٩٧ – ١٠١.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

يحضر "الوعي الديني" في كل الصراعات الاجتماعية، وتحديدًا في المجتمعات التي فشلت في التوفيق الحضاري بين المجال الديني/ الروحي والفضاء الزمني/ السياسي، بطابع مزدوج: فالأديان إما أنها كانت آلية للتعبئة والتحريض ضد الظلم والاستغلال، أو أنها شكلت متنفسًا لامتصاص الألم والعذاب الفعلي في الحياة "الفانية" وتقديم وعود للتعويض في الحياة "الأبدية"، بيد أن في تلك الصيغتين معًا نمطًا من أنماط الاحتجاج الأولى منضوية، بحسب الطيب تيزيني، في إطار احتجاج إيجابي منطو على أفق من التقدم التاريخي، والثانية مندرجة تحت احتجاج سلبي نكوصي.(١) ولا ينفلت تاريخ المغرب، خلال العصر الوسيط، عن هذا المنحى العام؛ ذلك أن كل الحركات الاجتماعية الناشئة انطلقت من أرضية دينية أو مذهبية وفقًا للحالة السياسية العامة في صيغتين أساسيتين: أولاً، ظهور دعاة النبوة في محاولة لإعادة إنتاج رمزية نبوية محلية تنشد آفاق الاستقلال الذاتي قبل التوحيد المذهبي للمغرب في ظل الإمبراطوريات الكبرى. وثانيًا، اعتناق رموز المعارضة للمرجعية المهدوية للتبشير بمشروعهم السياسي والاجتماعي. وفي الحالتين معًا، يظهر، بشكل واضح، اندفاع رموز المعارضة، في منطقة غمارة في المغرب الأقصى مثلاً، إلى إضفاء نوع من القداسة الدينية لترسيخ مشروعية طلب الحكم والسلطة.

مُقَدِّمَةٌ

يُشاع على أن المشرق ينفرد كمجال للأنبياء، فيما ينحدر المغرب، فقط، كموطن للأولياء، غير أن الذاكرة التاريخية تختزن عدة تجارب ومحاولات لقيام الأنبياء في مغرب العصر الوسيط؛ كفعل سياسي واجتماعي عبّر عن تطلع المجتمع القبلي إلى إعادة إنتاج رمزية نبوية محلية، وخاصةً في لحظات الأزمة، بما تشكله هذه الشخصيات/ الفاعلين الاجتماعيين من رمزية دينية تمتلك قدرات خارقة على تجاوز الوضع القائم الغارق في الأزمة. وبالمقابل، فإن الكثير من حركات المعارضة للسلطة القائمة، في مغرب العصر الوسيط، تعرضت لحملة منظمة من أجل تشويهها والإساءة إليها بغرض محو أي أثر للمعارضة من التاريخ. وهو ما يطرح تحديات منهجية ومعرفية في قراءة الأسطوغرافية التاريخية، التي جنحت، في الغالب، إلى تدوين تاريخ السلطة وأغفلت تاريخ المعارضة، من خلال قراءة المتن التاريخي وفق مستويين:

- أولاً: دراسة وتحليل الروايات الإخبارية في سياقها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي، الذي تفاعلت في صلبه الأحداث والوقائع موضوع الدراسة والتحليل.
- ثانيًا: استنطاق الوثائق ومساءلتها، كما يُنبّه إلى ذلك ميشيل فوكو، "لا عمّا تريد أن تقوله فحسب، بل وعمّا إذا كانت تقول الحقيقة فعلاً، وبأي حق تدعّي ذلك، وما إذا كانت تقول الصدق أم تُزيّفه".(٢)

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

أولاً: غمارة: (الجذور والموطن)

تُشير المصادر التاريخية على أن غمارة بطن من مصمودة، غير أن هناك اختلاف في صلة نسبهم، كما يستعرض ذلك ابن خلدون، بين "ولد غمار بن مصمود، وقيل غمار بن مسطاف بن مليل بن مصمود، وقيل غمار بن أصاد بن مصمود."[٣] وأضاف صاحب المُقدمة، بتحفُظ شديد، عن ما وصفه بـ"مذهب العامّة" أنهم عرب غَمَروا في تلك الجبال فتسمّوا غمارة،[٤] بشكل يعاكس إشارة دالّة وردت في الاستبصار، وهو مصدر جغرافي أقدم من سابقه، عن وجود "مُدن.. وأثار كثيرة للأوائل، تُنبئ أن عمارته قديمة أزلية"،[٥] بما يُؤكد تعمير المنطقة من طرف المجموعات القبلية الأمازيغية قبل الزحف العربي على المنطقة. وتمتد بلاد غمارة، حسب الإدريسي، في "جبال متصلة بعضها ببعض.. طولها نحو ثلاثة أيام ويتصل بها من ناحية الجنوب جبال الكواكب.. وفي البرية مسيرة أربعة أيام حتى تنتهي قرب مدينة فاس."[٦] أما ابن خلدون، فإنه يحصرها شمالاً من "جبال الريف بساحل البحر الرومي عن يمين بسائط المغرب، من لدن غساسة فنكور فبادس فتيكياس فتيطاوين فسبتة فالقصر إلى طنجة."[٧] وتُحد من الجنوب "بموطن برغواطة من شعوب المصامدة بريف البحر الغربي وهو المحيط."[٨] ومن الواضح؛ أن بلاد غمارة، تنتمي إداريًا إلى أعمال سبتة؛ التي تُغطي مناطق شاسعة تمتد من وادي نكور شرقًا إلى طنجة غربًا، إلى سبو جنوبًا.

ثانيًا: النبوة في سياق الظواهر الغيبية في غمارة

انبثقت في المنطقة عدة ظواهر دينية مُستمدة من الموروث الثقافي الشعبي السائد أو الواردة في ثنايا الإسلام المتسرب ببطء إلى غمارة، ومن بين هذه الممارسات والأفعال "ادعاء النُبُوّة" والكهانة و"الرقادة"، وهي كلها ظواهر تتقاطع في الترويج لقدرة أصحابها على معرفة الغيب/ المستقبل المجهول، وامتلاك الخوارق لاستجلاب البركة والرزق قصد الإشباع الروحي لجموع الفقراء تعويضًا لهم عن الخصاص الآني، أو لقدرة هؤلاء- المدركين للغيب- على تأمين الحاضر والمستقبل المهددين بأخطار الكوارث والحروب...الخ. فبالنسبة لابن خلدون، المشبع بثقافة نخبوية، يُوفّر- مع ذلك- نموذجًا للذهنية السائدة، يعتبر "حقيقة النُبُوّة.. أن توجد وهم في حال الوحي غِيبةٌ عن الحاضرين معهم مع غَطيط كأنها غشي أو إغماء.. استغراق في لقاء المَلَك الروحاني". ويُميز فيهم بين الأنبياء غير المرسلين الذين تلقوا دوّيا كأنه رمز الكلام، وبين نموذج ثاني أرقى رُتبة لانفراد صاحبه بتبليغ الرسالة الواصلة عبر المَلَك.[٩] وهو ما يدفع إلى الاحتمال أن "مفهوم (النبيّ) كان مهموزًا.. مأخوذ من (النبأ) الذي هو (الخبر)، وعليه فالنبي فعيل من نبأ أي أخبر."[١٠] أمّا ما ينحدر دُون مستوى النُبُوّة، فهي باقي أصناف المدركين للغيب، وهم: أصحاب الخوارق الذين يظهر على ألسنتهم من الخوارق والأخبار الكائنات المغيبة عن البصر، فيما تقع الرؤيا في لمحة بسبب النوم.. فتقتبس علم ما تشوف إليه من الأمور المستقبلية، على خلاف الكهانة، التي هي انسلاخ النفس الإنسانية من البشرية إلى الروحانية.[١١]

ما يجب التنبيه إليه؛ هو أن هذه الظواهر الغيبية، التي تتخذ صبغة إخبارية تنبؤية، حسب وصف جمال علي الحلاق، كانت راسخة في البنية الذهنية والثقافة الجماعية للسكان، كما هو الشأن بالنسبة لـ"الرقادة"، واستمرار سكان المنطقة، إلى زمن قريب، في الاعتقاد بنبوية بن مشيش بقولهم أن "مولاي عبد السلام هو اللي خلق الدنيا والدين والنبي الله يرحمه مسكين"،[١٢] بيد أن المصادر تفاعلت مع الظواهر الغيبية السائدة في غمارة بمواقف وخلفيات مسبقة رغم تشابهها الكبير مع خصائص "المدركين للغيب"، لنتأمل وصف البكري، رغم تحامله على غمارة، لظاهرة "الرقادة" ونقارنها بمحددات ابن خلدون لأصناف المدركين للغيب، يقول: "ومن أعاجيب ..غمارة.. يُغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرق ولا يستيقظ ولو بلغ به أقصى مبلغ من الأذى.. فإذا أصح.. أتى بعجاجيب مما يكون في العام من خصب أو جدب.. وهذا أمر مستفيض ولا يُخشى".[١٣]

وفي كل الأحوال؛ فإن حركية هؤلاء (الأنبياء، وأصحاب الخوارق، والكهانة) تنشط بكثافة في وضعيات الأزمة كما يظهر من تركيز "الرقادة" على الخصب والجدب، بما يفيد أن هؤلاء يحملون مشروعًا بديلاً ومُغايرًا للمجتمع القائم، والغارق في القهر والحرمان. إن هذه الأفعال والممارسات، التي يتوسل بها الإنسان المقهور للسيطرة على حاضره وإدخال شيء من الطمأنينة، تتطابق خريطة انتشارها في الأوساط التي تعاني القهر والحرمان وتضخُّم الإحساس بالعجز وقلة الحيلة وانعدام الوسيلة.[١٤] ورغم أن هذه الظواهر كانت مستحكمة في المجتمع، فإن الأسطغرافية التاريخية لا تخلو من عبارات الإساءة والتجريح لأهل غمارة؛ فالإدريسي[١٥] مُنشرح لأن "الله طَهّر مِنْهم الأرض وأفْنى جمعهم وخرّب ديارهم"، وأظهر ابن خلدون موقفًا مُتعصبًا بوصفهم "غريقين في الجهالة"،[١٦] كما أن ابن عذاري اعتبرهم "جهال من البربر مفسدين ناعقين بالفتنة".[١٧]

ثالثًا: الأنبياء في غمارة

شكلت غمارة مجالاً لنشاط حركة الأنبياء في المغرب الأقصى، فيما احتضنت كتامة الدعوة الشيعية، وهو ما جعل هذه المنطقة، في القسم الغربي من المغرب الأقصى، تتميز بفاعلية سياسية واجتماعية قادها أنبياء ودعاة المهدوية.

١/٣- حاميم.. أول المرسلين:

بدايةً، ظهرت حركة حاميم، في بداية العشرية الثانية من القرن الرابع الهجري، في مُناخ سياسي تناحرت فيه الكيانات السياسة المحلية على مجال النفوذ بعد تلاشي السلطة المركزية، مما جعل المغرب مجال استقطاب إقليمي بين بني أمية في الأندلس والدولة الفاطمية في المغارب. وتزامنت هشاشة الاستقرار السياسي مع الأزمة الاقتصادية[١٨] الخانقة وتعاقُب الكوارث الطبيعية، مما خلف اندلاع عدة انتفاضات وثورات اجتماعية مختلفة اتخذت

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

طابعًا مذهبيًا نتيجة نشاط الكثير من التيارات المذهبية والدينية في المغرب: الشيعة، والخوارج، والسنة بمختلف أشياعهم، وبرغواطة...إلخ.

في ظل هذه الظرفية التاريخية، وتحديدًا سنة ٣١٣هـ، ظهرت حركة حاميم بن منّ الله بن جرير بن عمرو بن زروال[١٩] بن مجكسة ويُكنّى أبا محمد، الذي استعاضت عنه المصادر التاريخية للإساءة بلقب "المفتري". ويبدو أن صاحب الدعوة ينحدر من فئة اجتماعية ذات نفوذ وجاه اجتماعيين، كما يظهر من نص البكري عن مكانة ابن حاميم بوصفه: "ولعيسى..في بلادهم قدر"،[٢٠] بشكل يتماثل مع علامة هرقل في تعليقه على الانتماء الاجتماعي لصاحب دعوة الإسلام، بأن (الأنبياء) يكونوا "من ذوي حسب في قومهم".[٢١] وتُلمح الدراسات التاريخية إلى أن اسم حاميم مُقتبس من القرآن (السور التي تبدأ بالحاء والميم) في إشارة إلى تأثر "نبيّ" غمارة بالإسلام، كما تضمنت رسالته كتابًا باللغة المحلية، مثلما سيفعل ابن تومرت لاحقًا، يحوي سورًا مُتفاعلة مع إمكانات وإكراهات الوسط البيئي والاكراهات الاقتصادية: رفع التحريم عن أكل أنثى الخنزير لحل مشكلة التغذية، وأسقط الحج بعد ثقل المغارم على الحجاج بالمهدية (افريقية). كما أقرت شريعة حاميم، كإشارة مهمة، نظامًا ضريبيًا مُوحدًا يُقر فقط الأعشار والزكاة، مما يعني رفع باقي الضرائب الثقيلة والمرهقة لكاهل المؤمنين بدعوته.

وتعترف المصادر التاريخية إلى أن حاميم "أجابه بشر كثير من غمارة، وأقروا بنبوته. ووضع لهم قرآنًا بل شريعة استهواهم برخصها، فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها، يسجدون على ظهور أكفهم".[٢٢] ورغم الحقد والتعصب الواضحين في مواقف المؤرخين الرسميين عن الحركة، فإنهم يعترفون- مع ذلك- بتصديق أهل غمارة لنبوة حاميم وبالتجاوب الكبير مع دعوته. ويظهر أن تأثر حاميم بالمعتقدات الإسلامية وانفتاحه على عقيدة برغواطة يشكل نوعًا من إعادة إنتاج رمزية نبوية محلية، صاغ معتقدات رسالتها وفق "مُثاقفة دفاعية"[٢٣] تغترف من ترسانة العدو وأسلحته في مشروع زاوج بين الرهانات القبلية والمُتطلبات الاجتماعية للمقهورين.

إن انغراس الحركة في البنية القبلية ليس لأن أهلها، كما زعم ابن خلدون من موقع استعلاء طبقي وعرقي، "غريقين في الجهالة"، وإنما لأن حاميم تفوّق في بلورة مشروع يُعبّر عن تطلعات غمارة في التخفيف من العبء الضريبي، وصياغة عقيدة مُنسجمة مع المحيط البيئي، ومُستوعبة للثقافة والرموز والمعالم المحلية. كما أنه أذكى التطلعات الجماعية في حماية الموارد المالية والاقتصادية للكيان القبلي، وغذّى لدى المؤمنين بعقيدته المقاومة والنزعة الاستقلالية. غير أن ارتفاع الوزن الديمغرافي (أمم لا تُحصى) حفّزه للبحث عن موارد خارج مجال نفوذه، من خلال القيام بغارات، للحصول على المغانم التي تضمن لهم العيش.. وعن طريق تراكم هذه المغارم تصل القبيلة الغازية إلى السُّلطة.[٢٤]

لم يُكتب لحاميم استكمال تنفيذ مشروعه لمقتله في ظروف غامضة، يُرجح سنة ٣٢٥هـ على يد جيش الخليفة الأندلسي عبد الرحمان الناصر أو قُتل في إحدى الحروب مع مصمودة، لكن يبدو أن دعوته انغرست عميقًا في حياة وثقافة المجتمع الغماري؛ الذي سيسعى إلى إحيائها واستعادتها مجددًا مع "أنبياء" جُدد.

٢/٣- عاصم بن جميل.. استئناف الرسالة:

في نفس الفقرة التي تحدث فيها ابن خلدون عن حركة حاميم، أردف خبرًا مقتضبًا وغامضًا مفاده أن غمارة "تنبأ فيها عاصم بن جميل الورذجومي، وله أخبار مأثورة"،[٢٥] لكنه، للأسف، لم يُورد أي نبأ عن هذا "النبيّ". بيد أن صاحب مفاخر البربر، الذي لم يقدم بدوره إلا إشارات مقتضبة حول الموضوع، يذكره باسم عاصم بن جهل[٢٦] وليس بن جميل كما تقدمت الإشارة إليه في رواية ابن خلدون. ومن المرجح، من خلال ترتيب الخبر مباشرة بعد حادث مقتل حاميم، أن عاصما بن جميل تقلّد مسؤولية قيادة انتزاء قبيلة غمارة لاستئناف العمل على تحقيق الأهداف المسطرة، كما يؤشر ذلك على تشبث غمارة، الكتلة القبلية الممتدة في مجال جغرافي شاسع، بأهداف ومشروع حاميم. فهل ستتبلور تجارب أخرى مماثلة لحاميم وعاصم بن جميل في مرحلة ظهور الدولة المركزية؟

٣/٣- الكتامي، ابن أبي الطواجين.. آخر المرسلين:

أورد صاحب كتاب العبر أن محمد بن محمد الكتامي، في سنة ٦٢٥هـ، ادعى النبوة وشرع الشرائع، غير أن تحليل الرواية التاريخية لابن خلدون، بشكل نقدي، يوضح الخلفيات السياسية والأيديولوجية لهذا الاتهام في سياق نهوض حركة بني مرين، التي عاش في حضنها ابن خلدون! ومقابل ذلك، فإن انبثاق الحركة التي حملت اسم الكتامي، بالتحديد سنة ٦٢٥هـ، في سياق إلغاء السلطة للمهدوية وانطلاق الحركات الانفصالية على امتداد الامبراطورية الموحّدية، يضع الكتامي، في هذه الظرفية التاريخية، كحلقة ضمن سلسلة من الدعوات المهدوية بدءًا بثورة علي الجزيري، في عهد المنصور، احتجاجًا على انحراف الموحّدين عن تعاليم المهدي، وثورة عبد الرحيم ابن الفرس حوالي سنة ٦٠٠هـ، الذي اتخذ لقب الهداية وادعى أنه القحطاني الذي يملأ الدنيا عدلاً كما مُلئت جورًا.[٢٧] وللتدليل على عمق انغراس فكرة المهدوية في الفضاء السياسي- الديني، على امتداد تاريخ المغرب الطويل، نلفت النظر، اعتمادًا على ملاحظة أرينال،[٢٨] إلى دعوة كل من ادريس الأول في القرن الثامن الميلادي، ودعوة الشيخ ماء العينين، في مطلع القرن العشرين، على نفس الأرضية المهدوية.

ولا ينفلت تاريخ غمارة، التي عُرفت باحتضان الدعوات الدينية والمذهبية كمرجعية مهيكلة لثوراتها، في ظهور الدعوات المهدوية كحالة الثائر المعروف بولد العبيدي،[٢٩] الذي قاد ثورة غمارة سنة ٦١٠هـ مباشرة بعد الهزيمة في العقاب، وادعى أنه الفاطمي، الذي سينصر الإسلام ويملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جورًا. من جانب آخر؛

ISSN: 2090 – 0449

فإذا كان ابن خلدون قد أسهب، إلى جانب باقي المصادر التاريخية، في استعراض الطقوس التعبدية التي جاء بها نبيّ غمارة حاميم استنادًا إلى مقتطفات مترجمة من نصوص كتابه، كما أن نفس الأمر انسحب على دعوة برغواطة من حيث الدعوة إلى طقوس تعبدية ووجود نصوص دينية (كتاب)، يعني ذلك أن كل دعوة دينية تقتضي، انطلاقًا من الحالتين السابقتين، وجود كتاب ديني وطقوس تعبّدية، غير أن صاحب كتاب العبر لم يذكر، في حالة الكتامي، مثل هذه الطقوس، بل اكتفى بإشارة شاحبة وعامّة منفتحة على تأويلات مختلفة بقوله: "ادعّى النبوة وشرع الشرائع". فلماذا لم يُشرّع الكتامي طقوس تعبدية، كما فعل باقي الأنبياء في غمارة وبرغواطة، تأكيدًا على نُبوّته؟ وهل يستقيم قيام صاحب دعوة دينية (نبيّ) لم يأت بأركان دينه؟ للأسف، فإن طبيعة تركيب النص الخلدوني واختزاله، في غياب معطيات من مصادر أخرى، لا يسعف في الحسم في هذه القضايا، غير أنه يصعب، بالمقابل، مُجاراة ابن خلدون في معطياته المرتبطة بالموضوع.

في نفس المنحى؛ فإن مُتطلبات النُبوّة تقتضي وجود كتاب يتضمن وصايا الدعوة الدينية، لكن ذلك غير متوفر في حركة الكتامي باستثناء ذكر ابن خلدون للشرائع دون أن يحدد ماهيتها أو طبيعتها، علماً أنه أسهب في ذكر ترجمات النصوص الدينية المنحدرة من دعوة كل من برغواطة وحاميم. ما يسترعي الانتباه، في الفترات اللاحقة، تأليف ابن تومرت لأتباعه "عقيدة بلسانهم"[٣٠]، و"مَنْ لا يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن، وإنما هو كافر... فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز".[٣١]

وإذا كانت المصادر التاريخية تناولت بوضوح تأليف كل من حاميم وابن تومرت لكتاب ديني، بصرف النظر عن الاختلافات بينهما، فإن ابن خلدون اكتفى بعبارة غامضة في شأن تشريع الكتامي للشرائع دون أن يقدم إيضاحات حول طبيعة هذا التشريع أومضمونه.

خاتمة

انطلاقًا من المعطيات السابقة، نستخلص ما يلي:

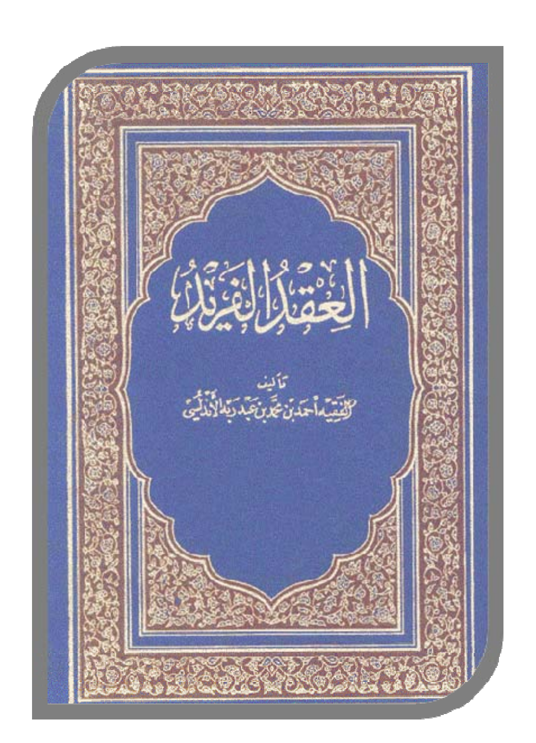
- استمرار غمارة في ثوراتها وانتفاضاتها ضد كل الدول المتعاقبة على حكم المغرب، في العصر الوسيط، على أرضية مشروع زاوج بين الرهانات القبلية والمُتطلبات الاجتماعية للمقهورين؛ الذين تضرروا من الاستغلال الجبائي.
- الارتباط الخطي/ السببي بين اندلاع كل أشكال "الثورات" بازدياد التكاليف الضريبية المرافقة لمراحل الاستعداد للجواز إلى الأندلس، وما يتطلبه ذلك من تعبئة مالية وبشرية أرهقت القبائل المستوطنة لمجال العبور إلى الأندلس.
- هيأت البيئة المحلية الشروط المناسبة لترسيخ نزعة غمارة إلى الاستقلال عن السّلطة، غير أن هذه الأخيرة أولت أهمية خاصة للموارد الاقتصادية للمنطقة لاحتكارها وتعبئتها لفائدة المجهود الحربي في الأندلس.
- لم تكتف غمارة بفرز قيادة سياسية أو عسكرية لثوراتها، بل إنها حاولت، في إطار ترسيخ نزعة الاستقلال، إضفاء القداسة الدينية على زعمائها؛ من خلال محاولة إنتاج رمزية نبوية محلية (حاميم، وعاصم بن جميل) أومن خلال احتضان رموز دينية ثائرة عن السّلطة المركزية.
- استغلت غمارة ظرفية أواخر الحكم الموحّدي، وما رافقها من أزمة عامة، لإحياء مشروعها الاجتماعي والسياسي في زمن نشطت فيه الانتفاضات والهبات الشعبية العفوية والمنظمة بقيادة رموز دينية أشيع عنها الصلاح والزهد والهداية والإتيان بالخوارق والمعجزات.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) تيزيني (الطيب)، **فصول في الفكر السياسي العربي**، منسورات أنيب ANEP، دار الفارابي، الطبعة ٢، بيروت، ٢٠٠٤، ص. ١٢٣
(٢) فوكو (ميشال)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط٣، الدار البيضاء، ٢٠٠٥ ... **م.س**، ص٨.
(٣) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، الجزء السادس، أعد الفهارس محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٦. ص ٢٤٩.
(٤) ابن خلدون (عبد الرحمان)،**كتاب العبر ....م.س، ن.ص.**
(٥) مؤرخ مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، البيضاء، ١٩٨٥، ص ١٩٠.
(٦) الإدريسي (الشريف)، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، المجلد الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، د.ط، القاهرة، ٢٠٠٢، ص. ٥٣٢
(٧) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **كتاب العبر .... م.س**، ص٢٤٩.
(٨) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **كتاب العبر .... ن.م**، ص ٢٥٠.
(٩) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: خالد شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠٠٧. ص. ١٠٧-١٠٨
(١٠) الحلاق (جمال علي)، **مسلمة الحنفي: قراءة في تاريخ محرّم**، منشورات الجمل، ط ١، كولونيا (ألمانيا)، ٢٠٠٨، ص. ٥٨-٨٦
(١١) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **مقدمة .... م.س**، ص. ١١٧
(١٢) بورقية (رحمة)، **الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب**، دار الطليعة، ط ١، بيروت، ١٩٩١، ص. ٤١
(١٣) البكري (أبو عبيد الله)، **المسالك والممالك**، دراسة وتحقيق زينب الهكاري، مطبعة ربانيت، ط١، الرباط، ٢٠١٢، ص ٢٠٣.
(١٤) حجازي (مصطفى)، **التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور**، المركز الثقافي العربي، ط١١، اليضاء،٢٠١٠، ص١٣٩.
(١٥) الإدريسي (الشريف)، **نزهة المشتاق .... م.س** ص ٥٣٢.
(١٦) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **كتاب العبر .... م.س**، ص ٢٥٤.
(١٧) ابن عذاري (المراكشي)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: قسم الموحدين**، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني- محمد بن تاويت- محمد زنيبر- عبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، ١٩٨٥م.، ص ٢٦٦.
(١٨) بوتشيش (ابراهيم القادري)، **الحركات السرية في المغرب العربي**، سينا للنشر، الطبعة ١، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢١-٢٢-٢٣.
(١٩) البكري (أبو عبيد الله)، **المسالك .... م.س** ص ٢٠٠-٢٠١.
(٢٠) البكري (أبو عبيد الله)، **المسالك .... ن.م**، ص ٢٠٠-٢٠١.
(٢١) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **مقدمة ....م.س**، ص ١٠٨.
(٢٢) مؤرخ مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، البيضاء، ١٩٨٥، ص ١٩١.
(٢٣) الطالبي (محمد) بالاشتراك مع (ابراهيم العبيدي)، **البرغواطيون في المغرب**، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، البيضاء، ١٩٩٩، ص ٢٧.
(٢٤) بوتشيش، (ابراهيم القادري)، **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٦.
(٢٥) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **كتاب العبر .... م.س**، ص ٢٥٥.
(٢٦) مؤرخ مجهول، **مفاخر البربر**، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة، مطبعة فيديبرانت، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠٠٥، ص ١٧٤.
(٢٧) عزاوي (أحمد)، **رسائل موحدية: مجموعة جديدة**، الجزء الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة- سلسلة نصوص ووثائق رقم٢، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، البيضاء، ٢٠٠١، ص ١٣٧.
(٢٨) أربنال (كارسيا)، "المهدوية وتبيان المقال فيما بين التصوف والشرف في المغرب من اتصال: المهدي المنقذ"، ترجمة محمد الغرايب وعبد العزيز بل الفايدة، أعمال تكريمية مهداة ذ.أحمد عزاوي، **السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب: الائتلاف والاختلاف**، مطابع الرباط نت، ط١، ٢٠١٣، ص ٤٢٢.
(٢٩) العمراني (محمد)، **الثورات والتمردات بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحّدي**، دار نشر المعرفة، د.ط، الرباط، ٢٠٠٥، ص١١٩.
(٣٠) المُراكشي (عبد الواحد)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠٠٥، ص١٣٢.
(٣١) ابن ابي زرع (الفاسي)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، راجعه عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، ١٩٩٩، ص ٢٢٦- ٢٢٧.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



لآلئ السيرة النبوية في عقد ابن عبد ربه الأندلسي

أ.م.د. خزعل ياسين مصطفى



أستاذ مساعد التاريخ الأندلسي
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الموصل – جمهورية العراق

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خزعل ياسين مصطفى، لآلئ السيرة النبوية في عقد ابن عبد ربه الأندلسي.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ١٠٢ – ١٠٨.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

يهتم هذا البحث بدراسة السيرة النبوية في الأندلس ولاسيما علم الحديث، وتم تقسيم البحث إلى مقدمة تشمل على خط سير علم الحديث في الأندلس ودور علمائهم في جعل السيرة النبوية جزءًا مهمًا في حياتهم اليومية ومن ثَمَّ التعرف على تاريخ انتشار علوم الحديث في الأندلس وجهود علمائهم في الرحلة نحو المشرق في طلب العلوم وأدخلوا علوم الحديث إلى البلاد وجعلوها جزءًا من الساحة العربية في نشر كل العلوم. ومن ثَمَّ دراسة حياة الفقيه أبو عمر ابن عبد ربه الذي تم اختياره نموذجًا في التعامل والاعتماد على الأحاديث النبوية الشريفة في أدبيات أهل الأندلس وتوضيح أبرز أبواب المؤلف العقد الفريد ومكانة الأحاديث النبوية الشريفة في محاوره حول الحكم والمثل العليا من خلال خوضه مبادئ العلم والمعرفة، وثم التركيز على الأحاديث التي تتناول القيم الإنسانية والمثل في الأخلاق مما يدل على أهمية ومكانة السيرة النبوية في حياة المسلمين وجعلها في أولويات مؤلفاتهم ومصدرًا مهمًا في الاعتماد عليها أسلوبًا ومنهجًا في دراساتهم ونظم حياتهم بما لها من أهمية كمصدر ثان في التشريع الإسلامي.

مُقَدِّمَةٌ

تحتل السيرة النبوية الشريفة مكانة خاصة في نفوس الأندلسيين أسوة ببقية المسلمين منهاجًا وتطبيقًا لأنها المصدر الثاني في التشريع الإسلامي ودراسة العلوم الدينية وفي مقدمتها علوم الحديث حيث تُعَدّ من الأسس العلمية عندهم لمعالجة حاجاتهم الفقهي ومسائلهم الحياتية في العبادات والمعاملات، ويعود اهتمامهم إلى دراسة السيرة النبوية إلى المدد الأولى من الفتح الإسلامي للأندلس، ولاسيما عند دخول عدد من الصحابة والتابعين إليها برفقة الجيش الإسلامي أمثال الصحابي معاوية بن صالح وآخرين، وبعد الاستقرار هناك بدأت دراسة العلوم الدينية تصبح في مقدمة اهتماماتهم العلمية، والرحلة نحو المشرق لطلب العلم والسماع من العلماء الذين اهتموا بعلوم الحديث وعلله.

لقد كان لجهود علماء الأندلس من أهل الحديث الدور الواضح في نشر علومه، وجعلوا من البلاد دار حديث، رغم تحفظ نسبة كبيرة منهم على تلقي هذه العلوم بسبب التزامهم بالفقه المالكي وعدم السماح لغيره دخول الأندلس والإفتاء به. إلا أن سعي طلبة العلم الذين عادوا من المشرق بدا واضحًا في نشر علومهم ودفع بهم إلى الدخول في حوارات ومناظرات مع الأمراء والعلماء للدفاع عن علومهم واهتماماتهم في العلوم المختلفة، وكان علم الحديث أبرز محاورها لذلك أصبح أمام الأندلسيين تقبل العلوم الفقهية للمدارس المختلفة إلا أنهم ظلوا يقدمون المذهب المالكي في الفتيا ومذهبًا رسميًا ومدعومًا من قبل أمراء الأندلس وعلمائهم.

ونظرًا لكثرة المهتمين بعلوم الحديث عند أهل الأندلس تم اختيار نموذجًا من بين علماء الأندلس وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الذي اهتم بدراسة الحديث على أيدي أمهر علماء

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الأندلس في هذا المجال، ويُعَدّ مصنفه العقد الفريد أحد أبرز مؤلفاته، وللسيرة النبوية الدور الواضح في أسس وقواعد المؤلف، فقد قسم العقد إلى أبواب وعلى مسميات من الجواهر والأحجار الكريمة، وجمع فيه مجموعة من الأخبار حول الخلفاء والأمراء والولاة والقضاة والحكماء والعقلاء والفضلاء ومقسمًا الكتاب إلى خمس وعشرين مؤلفًا وأبواب مفعمة بالحكمة والمعرفة والتاريخ والأمثال والمعاني العالية والرصينة، معتمدًا على الأحاديث النبوية الشريفة في مطلع مباحثها مدعومًا بروايات تاريخية، ومن ثَمَّ أقوال الحكماء والعقلاء حول كل مبحث وسائرًا على منهج واضح في طريقة عرضه للأحاديث النبوية وسيرته الطاهرة.

(١) السيرة النبوية في الأندلس

يعود اهتمام الأندلسيين بعلم الحديث واقتفاء أثر النبي (ﷺ) إلى المرحلة الأولى من استقرار المسلمين في الأندلس بعد فتحها، وتصدر بعض الصحابة والتابعين مهمة نشر وتدريس السيرة النبوية وحمل الروايات عن أحوال النبي (ﷺ) من أعماله وأقواله وكل أثر يتعلق بسيرته الشريفة، وعلى رأسهم معاوية بن صالح بن حدير بن عثمان (ت. ١٦٨هـ وقيل ١٨٥هـ/ ٧٨٤م وقيل ٨٠١م) وهو من أهل الشام ومن الذين اشتهروا برواية الأحاديث النبوية الشريفة وشارك الإمام مالك بن أنس شيوخه وإليه كانت الرحلة في الأندلس للسماع منه كل ما يحمله من آثار النبي(ﷺ).[١]

ونظرًا لأهمية علم الحديث في التشريع الإسلامي ولحاجة المسلمين في الأندلس إلى المزيد من علوم الحديث وعلله ومواكبة الحركة العلمية النشطة التي ظهرت على الساحة الأندلسية في المنتصف الثاني من القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، حيث أصبح طلب العلم والرحلة من أجل لقاء العلماء سمة المرحلة في كل المراكز والحلقات الدراسية سواء كانت الرحلات العلمية داخلية ضمن حدود الأندلس أو خارجية باتجاه المشرق الإسلامي،[٢] وفي دراسة حول الحركة العلمية في الأندلس ومحاولة إحصاء الاتجاه العلمي لدى الأندلسيين، تبين أن العلوم الدينية كانت في مقدمة اهتماماتهم ورحلاتهم العلمية والفكرية، وجاء علم الفقه في المرتبة الأولى، وعلم الحديث في المرتبة الثانية، ومدينة قرطبة على رأس المدن التي اهتمت بالدراسات الدينية وسعة الحلقات الدراسية فيها.[٣]

رغم الاهتمام الواسع لدى الأندلسيين في طلب العلم والرحلة من أجله وعلوم الحديث وتوثيقه، إلا أنهم لم يرتقوا مستوى أهل المشرق، إلا أن في المدد اللاحقة ولاسيما بعد ظهور عدد كبير من العلماء المهتمين بالعلوم والرحلة في طلب الحديث وعلومه أمثال بقي بن مخلد،[*] ومحمد بن وضاح،[**] الذين ملئوا الأندلس علمًا، وكما قال ابن حيان[٤] "فاستوسع أهل الأندلس في الحديث وصارت دار حديث" مستغلين بذلك رحلاتهم إلى المشرق قاصدين مكة المكرمة لأداء فريضة الحج واللقاء بالعلماء المسلمين من شتى بقاع العالم الإسلامي،[٥] وكان ثمرة جهود الأندلسيين أنهم أدخلوا المزيد من المصنفات والمساند في الحديث عن العلماء الذين التقوا بهم أو سمعوا منهم، وأصبحوا مقصد طلاب العلم في حلقات الدرس، وكان من بين الذين اهتموا بعلم الحديث طبقة كبيرة من العلماء من الأندلسيين وصلوا إلى تسعة وخمسون عالمًا في الرواية والتأليف من المدة ما بين (٢٣٨هـ/٨٥٢م) إلى (٣٠٠هـ/٩١٢م)،[٦] وهي المدة التي وصفت بأنها مدة ملأت الأندلس بالفوضى السياسية وأوضاع غير مستقرة سميت بعصر الفتنة الأولى أو دويلات الطوائف الأولى.[٧]

ورغم أن الفقه المالكي كان سائدًا على الساحة الأندلسية إلا أن الجهود التي بذلت من قبل العلماء في القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) كان له الدور الكبير في إدخال المصنفات والمساند وعلوم الحديث من علله ورجاله، فقد سمع بقي بن مخلد من المحدثين في العراق أمثال أحمد بن محمد بن حنبل ومحمد بن بشار بن بندار وأعداد كبيرة من خيرة علماء المشرق حتى وصل عدد شيوخه إلى مائتان وأربعة وثمانين شيخًا،[٨] بينما بلغ عدد شيوخ محمد بن وضاح مائة وخمسة وسبعين شيخًا، ولكثرة علمه في الحديث أصبح عند عودته إلى الأندلس أحد أقطاب علم الحديث ولمعرفته بطرق الحديث وعلله ومعرفته بالزهاد والعباد وبه انتشر وتوسع أهل الأندلس في علوم الحديث.[٩]

وتضافرت تلك الجهود وتكللت في القرن الثالث الهجري إلى ظهور عدد من المصنفات الأندلسية في علوم الحديث ولعل من أبرزها:

١- كتاب غريب الحديث لعبد الملك بن حبيب السلمي.[١٠]
٢- مسند بقي بن مخلد.[١١]
٣- كتاب في شرح الحديث لمحمد بن عبد السلام الخشني.[١٢]
٤- كتاب القطعان في الحديث لمحمد بن وضاح.[١٣]
٥- كتاب الدلائل في شرح الحديث لقاسم بن ثابت.[١٤]

وأصبحت هذه المجموعة إضافة إلى المصنفات الأخرى القاعدة الأساسية في الحركة العلمية ودراسة السيرة النبوية وعلوم الحديث وقاعدة رصينة في مدد لاحقة ولاسيما (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي).

(٢) ابن عبد ربه نموذجًا

كان الاهتمام واسعًا من قبل العلماء الأندلسيين في علوم الحديث واقتفاء أثر السير النبوية وانعكس هذا الاهتمام بشكل جلي في مصنفاتهم ومنهم ابن عبد ربه وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب بن حدير بن سالم من أهل قرطبة، ونال شهرة واسعة في العلم والأدب والشعر،[١٥] وقال عنه الحميدي بأنه "كان عالمًا ثبتًا وكان لأبي عمر بالعلم جلالة وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانته وصيانته"،[١٦] والذي يميز هذا الفقيه بأنه لم يخرج من الأندلس في طلب العلم بل اعتمد على ما تلقاه من الحلقات

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الدراسية رغم فقره، فقد واظب على الأخذ من أبرز علماء الأندلس وهم كل من بقي من مخلد ومحمد بن وضاح ومحمد بن عبدالسلام الخشني، إلا أن شهرته شاعرًا قد غلب على بقية اهتماماته،[١٧] رغم أنه عاش في أيامه الأولى فقيرًا إلا أن نبوغه وشهرته العلمية قد جعله يتقرب إلى الأمراء في الأندلس وأن يكون أحد مَنْ عاصر الأمراء محمد (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م)، والأمير منذر (٢٧٣-٢٧٥هـ/٨٨٦-٨٨٨م)، والأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م)، وشطرًا من عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م)، ونال الحظوة لديهم من مكانة ورياسة بسبب مؤهلاته العلمية وسعة اطلاعه،[١٨] لم يكن مشهورًا في الأندلس فحسب بل ساد ذكره في المشرق أيضًا.[١٩]

(٣) العقد الفريد والسيرة النبوية

إن الحصيلة العلمية لأبن عبد ربه التي نبعت من المؤهلات -التي ذكرت آنفًا- كانت مجموعة كبيرة من القصائد منثورة في المصنفات الأندلسية، وتم جمع قسم من هذه الأشعار في ديوان ضمن مجموعة من أشهر قصائده.[٢٠] ومصنفه الآخر هو (العقد) الذي حماه من الثغرات وعثرات الناقدين وضم مختلف الأبواب في الأدب والحكمة والمثل العليا،[٢١] ولشهرته الواسعة ومكانته لدى الأمراء لم يدفع عنه انتقاد بعض حساده أمثال الشاعر الأندلسي محمد بن يحيى القلفاط، الذي وصف العقد بحبل الثوم لا عقد الدر،[٢٢] بينما وصف الحميدي[٢٣] العقد بأنه مكون من الأخبار ومقسم على أبواب لها معان وسمى كل قسم باسم من أسماء نظم العقد كالواسطة وغيرها.

وكانت السيرة النبوية الشريفة ركنًا أساسيًا في مواد العقد وموزعًا بين جميع أبوابه، فقد تم ذكر النبي ﴿ﷺ﴾ من خلال نصوص الأحاديث أو الروايات التي ورد ذكر النبي ﴿ﷺ﴾ وصل إلى (٥٧٩) مرة بينما أورد في أبواب مختلفة من الحكم والأمثال (٥١٧) حديثًا ما بين نص الحديث أو نصوص مذكورة من خلال الرواية التاريخية وفق الأبواب التي نظمها في عقده من أبواب مختلفة[٢٤] ومسميًا الأبواب بحسب الأحجار الكريمة المعروفة حيث ذكر بابه الأول بكتاب اللؤلؤة في السلطان،[٢٥] والباب الثاني كتاب الجمانة في الوفود،[٢٦] والباب الثالث كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك،[٢٧] والباب الرابع كتاب الياقوتة في العلم والأدب[٢٨]، والباب الخامس كتاب الجوهرة في الأمثال[٢٩]، والباب السادس كتاب الدرة في النوادب والتعازي والمراثي[٣٠]، والباب السابع كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب[٣١]، والباب الثامن كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم[٣٢]، والباب التاسع كتاب اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة[٣٣]، والباب العاشر كتاب الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم[٣٤]، والباب الحادي عشر كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومخارجه[٣٥]، والباب الثاني عشر كتاب الجوهرة الثانية في الشعر[٣٦]، والباب الثالث عشر كتاب الياقوتة الثانية في الغناء واختلاف الناس فيه[٣٧]، والباب الرابع عشر كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهم[٣٨]، والباب الخامس عشر كتاب الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين[٣٩]، والباب السادس عشر كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان[٤٠]، والباب السابع عشر كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب[٤١]، والباب الثامن عشر كتاب اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح[٤٢]، في حين جاءت الأبواب الأخرى من دون تسميتها بالأحجار الكريمة.

واتبع في استخدام الأحاديث النبوية الشريفة منهجًا ثابتًا في أبوابه حيث يذكر بعض الآيات القرآنية ومن ثم يأتي بالأحاديث التي تؤكد على معنى الأبواب التي في صددها وغالبًا كان يسقط عن الحديث الرواة والسند معللاً عمله بقوله "وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلبًا للاستخفاف والإيجاز، وهربًا من التثقيل والتطويل."[٤٣] ويذهب إلى أن كثيرًا من العلماء أمثال الأصمعي والحسن البصري كانوا يتبعون هذا المنهج في التخفيف في سرد الرواة والأسانيد.[٤٤] لكنه لم يثبت على هذا المنهج فقد عاد وذكر بعض الأحاديث مع الإسناد وأبرز رواته أمثال ابن أبي شيبة هو من سمعه بقي ابن مخلد شيخ ابن عبد ربه[٤٥] أو يذكر السند الأول الذي سمعه من النبي ﴿ﷺ﴾ من دون سرد سلسلة الرواة معتمدًا على (١١٩) راوي من رواة الحديث،[٤٦] ومستخدمًا العبارات التالية عند تناوله للحديث (قال النبي صلى الله عليه وسلم)[٤٧] أو (وقال النبي عليه السلام)،[٤٨] أو (في الحديث المأثور)،[٤٩] أو (قال عليه الصلاة والسلام)،[٥٠] أو (قال صلى الله عليه وسلم)،[٥١] أو (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم).[٥٢]

أما السيرة النبوية الشريفة والأحاديث المشهورة التي اعتمد عليها في أبواب تتعلق بالآداب العامة وآثارها في الحياة الإسلامية فهي مبادئ عامة وآداب وهي ما أدب به أمته وحضها عليه من مكارم الأخلاق وجميل المعاشر وإصلاح ذات البين وصلة الأرحام، ويقول النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿أوصاني ربي بتسع وأنا أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عبرًا﴾.[٥٣]

وفيما يلي أبرز الأبواب الخاصة في الآداب العامة:

١- في باب شرف النبي ﴿ﷺ﴾ قال: ﴿أنا سيد البشر ولا فخر وأنا أفصح العرب وأنا أول من يقرع باب الجنة، وأنا أول من ينشق عنه التراب، دعا لي إبراهيم وبشر بي عيسى ورأت أمي حين وضعتني نورًا أضاء لها ما بين المشرق والمغرب﴾.[٥٤]

٢- باب السلطان، قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته﴾.[٥٥]

٣- باب بسط العدل، قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿الظلم ظلمات يوم القيامة﴾.[٥٦]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

٤- في باب حسن السيرة، قال النبي(ﷺ): ﴿مَنْ أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير كله أو من حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير كله﴾.[٥٧]

٥- في المشورة، قال النبي (ﷺ): ﴿ما ندم مَنْ استشار، وما خاب مَنْ استخار﴾.[٥٨]

٦- في الولاية والعزل، قال النبي (ﷺ): ﴿ستحرصون على الإمارة، ثم تكون حسرة وندامة، فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة﴾.[٥٩]

٧- في الحرب، قال النبي (ﷺ): ﴿الحرب خدعة﴾.[٦٠]

٨- في فضائل الخيل، قال النبي(ﷺ): ﴿عليكم بإناث الخيل، فإن بطونها كنز وظهورها حرز وأصحابها معانون عليها﴾.[٦١]

٩- في الأجواد، قال النبي (ﷺ): ﴿إذا أتاكم كريم قومٍ فأكرموه﴾.[٦٢]

١٠- في حسن الثناء، قال النبي(ﷺ): ﴿إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربه فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء﴾.[٦٣]

١١- في استنجاح الحوائج، قال النبي (ﷺ): ﴿استعينوا على حوائجكم بالكتمان لها فإن كل ذي نعمة محسود﴾.[٦٤]

١٢- التفضيل في العطاء، قال النبي (ﷺ) عندما وفد عليه من العرب فأعطاهم وفضل رجل منهم فقال: ﴿كل القوم عيال عليه﴾.[٦٥]

١٣- في شكر النعمة، قال النبي (ﷺ): ﴿من نشر معروفاً فقد شكره، ومن ستره فقد كفره﴾.[٦٦]

١٤- في قلة الكرام في كثرة اللئام، قال النبي (ﷺ): ﴿الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة﴾.[٦٧]

١٥- في الاعتذار، قال النبي (ﷺ): ﴿المعترف بالذنب كمن لا ذنب له﴾.[٦٨]

١٦- العفو والترغيب فيه، قال النبي (ﷺ): ﴿أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب﴾.[٦٩]

١٧- الحض في طلب العلم وفضله، قال النبي (ﷺ): ﴿لا يزال الرجل عالمًا ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل﴾.[٧٠] وقال (ﷺ) أيضًا: ﴿فضل العلم خير من فضل العبادة﴾.[٧١]

١٨- في العقل، قال النبي (ﷺ): ﴿العقل نور في القلب نفرق به بين الحق والباطل وبالعقل عرف الحلال والحرام وعرفت شرائع الإسلام ومواقع الأحكام، وجعله الله نورًا في قلوب عباده يهديهم إلى هوى ويصدهم عن ردي﴾.[٧٢]

١٩- وفي الحكمة، قال النبي (ﷺ): ﴿ما أخلص عبدٌ العمل لله أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه﴾.[٧٣]

٢٠- الحلم ودفع السيئة بالحسنة، قال النبي(ﷺ): ﴿ما تجرع عبد في الدنيا جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم أو جرعة مصيبة ردها بصبر﴾.[٧٤]

٢١- وفي المروءة قال النبي (ﷺ): ﴿لا دين إلا بمروءة﴾.[٧٥]

٢٢- في إنصاف الإخوان، قال النبي (ﷺ): ﴿الصاحب رقعة في قميصك فانظر بم ترقعه﴾.[٧٦]

٢٣- التحبب في الناس، قال النبي (ﷺ): ﴿أحب الناس إلى الله أكثرهم تحببًا إلى الناس﴾. وفيه أيضًا قال (ﷺ): ﴿إذا أحب الله عبدًا حببه إلى الناس﴾[٧٧].

٢٤- في الحسد، قال النبي (ﷺ): ﴿كاد الحسد يغلب القدر﴾[٧٨].

٢٥- في الغيبة، قال النبي (ﷺ): ﴿إذا قلت في الرجل ما فيه فقد اغتبته وإذا قلت ما ليس فيه فقد بهته﴾[٧٩].

٢٦- مداراة أهل الشر، يقول النبي (ﷺ): ﴿شر الناس من اتقاه الناس لشره﴾[٨٠].

٢٧- في الكبر، قال النبي (ﷺ): ﴿العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحد منهما قصمته وأهنته﴾[٨١].

٢٨- في ذم الحمق والجهل، قال النبي (ﷺ): ﴿الجاهل يظلم من خالطه ويعتدي على من هو دونه ويتطاول على من هو فوقه ويتكلم بغير تميز وإن رأى كريمة أعرض عنها وإن عرضت فتنة أردته وتهور فيها﴾[٨٢].

٢٩- وفي التواضع قال النبي (ﷺ): ﴿من تواضع لله رفعه الله﴾[٨٣].

٣٠- والرفق والأناة، قال النبي (ﷺ): ﴿مَنْ أوتي حظه من الرفق فقد أوتي حظه من خير الدنيا والآخرة﴾[٨٤].

٣١- في الكذب، قال النبي (ﷺ): ﴿الكذب مجانب الإيمان﴾. و قال أيضًا (ﷺ): ﴿لا يجوز الكذب في جدٍ ولا هزل﴾[٨٥].

٣٢- الغلو في الدين، قال النبي (ﷺ): ﴿إن الله بعثني بالحنيفية السمحة ولم يبعثني بالرهبانية المبتدعة، سنتي الصلاة والنوم، والإفطار والصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني﴾[٨٦].

٣٣- في الآداب العامة أورد ابن عبد ربه سبعة وعشرين حديثًا في مختلف القيم الأخلاقية التي على المسلم الالتزام بها ومنها: قال النبي (ﷺ): ﴿اليد العليا خير من اليد السفلى﴾. قال النبي (ﷺ): ﴿لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان﴾. قال النبي (ﷺ): ﴿من لا أدب له لا عقل له﴾[٨٧].

٣٤- وفي أدب المجالس قال النبي (ﷺ): ﴿لا يقم الرجل للرجل عن مجلسه ولكن ليوسع له﴾[٨٨].

٣٥- وفي باب السلام والإذن قال النبي (ﷺ): ﴿يسلم الماشي على القاعد والراكب على الراجل والصغير على الكبير﴾ وقال (ﷺ): ﴿الاستئذان ثلاثة، فإن أذِنَ لك وإلا فارجع﴾[٨٩].

٣٦- باب الأدب في تشميت العاطس قال النبي (ﷺ): ﴿لا تشمت العاطس حتى يحمد الله، فإن لم يحمده فلا تشمته﴾[٩٠].

٣٧- باب الأدب في المؤاكلة قال الرسول (ﷺ): ﴿إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله﴾[٩١].

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

٣٨- في باب الصمت قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿ما أعطى العبد شرًا من طلاقة اللسان﴾[٩٢].

٣٩- في باب التماس الرزق قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿العائد إلى أهله وولده كالمجاهد المرابط في سبيل الله﴾، وقال ﴿ﷺ﴾: ﴿اليد العليا خير من اليد السفلى﴾[٩٣].

٤٠- في باب فضل المال قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿إن كان لك مال فلك حسب، وإن كان لك خلق فلك مروءة، وإن كان لك دين فلك كرم﴾[٩٤].

٤١- في صنوف المال قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿أفضل أموالكم فرس في بطنها فرس يتبعها فرس وعين ساهرة لعين نائمة﴾[٩٥].

٤٢- وفي باب السؤال، قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿لئن يأخذ أحدكم فيحتطب بها على ظهره أهون عليه من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه﴾[٩٦].

٤٣- في باب الشيب، قيل للنبي ﴿ﷺ﴾ عجل عليك الشيب يا رسول الله، فقال: ﴿شيبتني هود وأخواتها﴾[٩٧].

٤٤- وفي الخضاب قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿مَنْ شاب شيبه في الإسلام كانت له نورًا يوم القيامة﴾[٩٨].

٤٥- ومن مواعظ النبي ﴿ﷺ﴾ يورد أبن عبد ربه العشرات من الأمثال ومن بينها قوله ﴿ﷺ﴾: ﴿إن من البيان لسحرا﴾، وذكره أيضًا في فضل الشعر[٩٩].

٤٦- ومن مواعظ النبي ﴿ﷺ﴾ قوله: ﴿إبن آدم إغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل مماتك﴾[١٠٠].

٤٧- وفي الزهد قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿أما إنه ما هو بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أغنى منك عما في يدك﴾[١٠١].

٤٨- وعن الموت، قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿إن المرء مع ماله، إن قدّمه أحب أن يلحقه، وإن أخره أحب أن يتخلف معه﴾[١٠٢].

٤٩- في البكاء من خشية الله عز وجل قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿حرم الله على النار كل عين تبكي من خشية الله، وكل عين غضت عن محارم الله﴾[١٠٣].

٥٠- وفي باب النهي عن كثرة الضحك قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿كثرة الضحك تميت القلب وتذهب بهاء المؤمن﴾[١٠٤].

٥١- وفي كتمان البلاء إذا نزل، قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿من ابتلي ببلاء فكتمه ثلاثة أيام صبرًا واحتسابًا كان له أجر شهيد﴾[١٠٥].

٥٢- وفي القناعة قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿مَنْ أصبح وأمسى آمنًا في سربه ومعافى في بدنه، عنده قوت يومه كان كمن حيزت له الدنيا بحذافيرها﴾[١٠٦].

٥٣- وفي باب العزلة عن الناس، قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿استأنسوا بالوحدة عن جلساء السوء﴾[١٠٧].

٥٤- وفي الرياء، قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿إياكم والشرك الأصغر، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله، قال: الرياء﴾[١٠٨].

٥٥- وفي الدعاء، قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿الدعاء سلاح المؤمن، والدعاء يرد القدر، والبر يزيد من العمر﴾. وكان يقول ﴿ﷺ﴾: ﴿اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾، وقال أيضًا ﴿ﷺ﴾: ﴿لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى﴾[١٠٩].

٥٦- ودعاء المسافر، كان النبي ﴿ﷺ﴾ إذا أراد سفرًا قال: ﴿اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الحضر، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحور بعد الكور، ومن سوء المنظر في الأهل والمال﴾[١١٠].

٥٧- وفي التعويذ كان النبي ﴿ﷺ﴾ يقول: ﴿أللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع﴾[١١١].

٥٨- والقول عند المقابر، يقول النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون﴾[١١٢].

٥٩- في باب التزين والتطيب، قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿إياكم والشعث حتى لو لم يجد أحدكم إلا زيتونة فليعصرها وليدهن بها﴾[١١٣].

٦٠- وفي آداب الطعام، قال النبي ﴿ﷺ﴾: ﴿الأكل في السوق دناءة﴾[١١٤]. وقال ﴿ﷺ﴾ أيضاً: ﴿كل مسكر حرام وكل مسكر خمر﴾[١١٥]، وقال ﴿ﷺ﴾: ﴿روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا أكلت عميت﴾[١١٦]، وقال ﴿ﷺ﴾: ﴿أكرموا الخبز فإن الله سخر له السموات والأرض وكلوا سقط المائدة﴾[١١٧]، وقال ﴿ﷺ﴾: ﴿كلموا فنعم الطعام الزبيب ، يذهب النصب ويشد العصب ويطفئ الغضب ويصفي اللون ويطيب النكهة ويرضي الرب﴾[١١٨]، وقال: ﴿أربع من النشر: شرب العسل نشرة، والنظر إلى الماء نشرة: والنظر إلى الخضرة نشرة، والنظر إلى الوجه الحسن نشرة﴾[١١٩].

خاتمة

من خلال عرض الأحاديث النبوية وعبر الأبواب التي فصلها أبن عبد ربه وجدنا أن المصنف قد حاول التركيز على الأحاديث التي تتحدث عن الآداب العامة والقيم الإنسانية والنصح والمثل العليا من مفردات شخصية المسلم، وبحكم طبيعة أخلاق ومعارف ابن عبد ربه الذي عرف به، وكان العقد قائم على تلك الأسس والتي حث عليها الإسلام لصياغة آداب المسلم وأخلاقه والنابعة من أخلاق الرسول الأعظم ﴿ﷺ﴾ كفكر وعقيدة، وكان لهذا الأثر في سلوك الأندلسيين واضحًا منهجًا ودراسة وتأليفًا في مختلف المدد من بقائهم في الأندلس.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) أبو الوليد عبدالله بن محمد ابن الفرضي، **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٨، ج٢، ص١٣٧؛ أبو الحسن بن عبدالله النباهي، **تاريخ قضاة الأندلس**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣، ص٤٣.

(٢) جعفر حسن صادق، **الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق عصر الإمارة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٥، ص٦٤-٦٩.

(٣) خزعل ياسين مصطفى، **الحياة العلمية في الأندلس (٢٣٨هـ-٣٠٠هـ)**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٢، ص٣٣٦.

★ بقي بن مخلد من أهل قرطبة اشتهر برحلته نحو المشرق أدخل الأندلس علومًا مختلفة وتوفي بقرطبة سنة (٢٧٦هـ/٨٨٩م)، ينظر أبن الفرضي، تاريخ العلماء، ج٢، ص١٠٧-١٠٩.

★★ محمد بن وضاح بن بزيع من أهل قرطبة ومن علماء الأندلس وله رحلتان نحو المشرق لسماع علمائهم فنال شهرة واسعة في الدراسة علوم الحديث توفي سنة (٢٧٨هـ/٨٩١م). ينظر ابن الفرضي، **تاريخ العلماء**، ج٢، ص١٧.

(٤) أبن حيان، أبو مروان بن حيان بن خلف، **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تحقيق محمود علي مكي، بيروت، درا الكتاب العربي، ١٩٧٣، ص٢٦٤.

(٥) شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي، **معجم الأدباء**، القاهرة، دار المأمون (د.ت)، ج٧، ص٨١.

(٦) مصطفى، **الحياة العلمية**، ص٢٠٨-ص٢١١.

(٧) محمد عبدالله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس الخلافة الأموية**، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٨، مج١ ص٢٨٨؛ سيد عبدالعزيز سالم، **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٨، ص٢٤٣.

(٨) أبن الفرضي، **تاريخ العلماء**، ج١ ص١٠٧–١٠٩؛ أبن حيان، مكي، ص٢٦٢.

(٩) أبن الفرضي، **تاريخ العلماء**، ج٢ ص١٧-١٩؛ محمد بن أبي النصر الحميدي، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، القاهرة، دار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص٩٧.

(١٠) أبن الفرضي، **تاريخ العلماء**، ج١ ص٢١٣.

(١١) أبي القاسم خلف بن عبد الملك أبن بشكوال، **كتاب الصلة**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨، ق١ ص١١٧؛ الحافظ شمس الدين محمد بن علي الداودي، **طبقات المفسرين**، دار الباز، مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت، ج١ ص١١٨.

(١٢) أبن خير، محمد بن خير، **فهرسة ما رواه عن شيوخه**، تحقيق فرنشكة قدارة زيدين وخليان بربارة طرغوه، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩، ص١٩٥.

(١٣) أبن خير، **فهرسة**، ص١٥٠.

(١٤) أبن الفرضي، **تاريخ العلماء**، ج١ ص٤٠٣.

(١٥) الحميدي، **جذوة المقتبس**، ص١٠١.

(١٦) الحميدي، **جذوة المقتبس**، ص١٠١.

(١٧) أبن الفرضي، **تاريخ العلماء**، ج١ ص٥٠.

(١٨) الحميدي، **جذوة المقتبس**، ص١٠٤؛ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، **ديوان ابن عبد ربه**، تحقيق وجمع محمد رضوان الداية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩، ص٧.

(١٩) أبي النصر الفتح بن محمد بن خاقان، **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، تحقيق محمد علي شوابكة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣، ص٢٧٠.

(٢٠) أبن عبد ربه، **ديوان محقق من قبل محمد رضوان الداية**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩.

(٢١) أبن خاقان، **مطمح الأنفس**، ص٢٠٧.

(٢٢) أبن حيان، حيان بن خلف، **المقتبس في رجال الأندلس**، تحقيق ملشور أنطونية، باريس، ١٩٣٧، ص٤٢.

(٢٣) **جذوة المقتبس**، ص١٠١.

(٢٤) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، **العقد الفريد**، تحقيق أحمد أمين وآخرون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥، وتم إجراء إحصائية اعتماداً على هذه الطبعة.

(٢٥) العقد، مج١ ص٧.

(٢٦) العقد، مج١ ص٤.

(٢٧) مج١ ص١٢٣.

(٢٨) مج١ ص٢٠٧.

(٢٩) العقد، مج٣ ص٦٣.

(٣٠) مج٥ ص١٣٢.

(٣١) مج٥ ص٣.

(٣٢) مج٤ ص٢٤٩.

(٣٣) مج٣ ص٣١٢.

(٣٤) مج٣ ص٢٢٨.

(٣٥) مج٥ ص٢٦٩.

(٣٦) مج٥ ص٤٢٤.

(٣٧) مج٦ ص٤.

(٣٨) مج٦ ص٨٣.

(٣٩) مج٦ ص١٤٨.

(٤٠) مج٦ ص٢١٩.

(٤١) مج٦ ص٢٩٠.

(٤٢) مج٦ ص٣٨٢.

(٤٣) مج١ ص٤.

(٤٤) مج١ ص٤.

(٤٥) مج٣ ص٥٢.

(٤٦) مج٢، ص٤٩٧ – ص ٥٠٢.

(٤٧) مج١ ص٩.

(٤٨) مج١ ص٧٠.

(٤٩) مج١ ص٢٢٥.

(٥٠) مج٢ ص٣٣٧.

(٥١) مج٢ ص٢٤٥.

(٥٢) مج٣ ص٣٢٤.

(٥٣) مج٢ ص٤١٧.

(٥٤) مج٤ ص٢٥١.

(٥٥) مج١ ص٨؛ أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، تحقيق مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠٧، ص ٨٩٣.

(٥٦) مج١ ص٣١؛ **صحيح البخاري**، ص ٢٤٤٧؛ صحيح مسلم بشرح النووي، محي الدين أبي زكريا بن شرف النووي، **صحيح مسلم**، خرج أحاديثه صلاح عويضة ومحمد شحاته، القاهرة، دار المنار، ٢٠٠٣، ج١٦ ص١٠٣.

(٥٧) مج١ ص٤٠.

(٥٨) مج١ ص٦١.

(٥٩) مج١ ص٨٢.

(٦٠) مج١ ص١٢٢؛ **صحيح البخاري**، ص٣٠٣، ص٧٧٦.

(٦١) مج١ ص١٥٢.

(٦٢) مج١ ص٢٢٥، ص٢٣٥، مج٢ ص١٢٤.

(٦٣) مج١ ص٢٣٢.

(٦٤) مج١ ص٢٤٠.

(٦٥) مج١ ص٢٧٦، ص٢٧٧.

(٦٦) مج١ ص٢٧٧.

(٦٧) مج١ ص٢٨٠: **صحيح مسلم**، ج١٦، ص٧٨.
(٦٨) مج٢ ص١٤١.
(٦٩) مج٢ ص١٨٩.
(٧٠) مج٢ ص٢٠٩.
(٧١) مج٢ الصفحات ٢١٤، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨.
(٧٢) مج٢ ص٢٤٨.
(٧٣) مج٢ ص٢٥٣.
(٧٤) مج٢ ص٢٧٦.
(٧٥) مج٢ ص١٩٢.
(٧٦) مج٢ ص٣٠٦، ص٣٢٩.
(٧٧) مج٢ ص٣١٥.
(٧٨) مج٢ ص٣١٩.
(٧٩) مج٢ ص٣٣٤.
(٨٠) مج٢ ص٣٣٧.
(٨١) مج٢ ص٣٥١.
(٨٢) مج٢ ص٣٥٧.
(٨٣) مج٢ ص٣٥٨.
(٨٤) مج٢ ص٣٦٠.
(٨٥) مج٢ ص٣٦٨.
(٨٦) مج٢ ص٣٧٠.
(٨٧) مج٢ الصفحات ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٤: **صحيح مسلم**، ج١٢، ص٣٧٤.
(٨٨) مج٢ ص٤٢٨: **صحيح البخاري**، ص١٥٥١، مع الاختلاف في المتن.
(٨٩) مج٢ ص٤٣٣، ص٤٣٥: **صحيح البخاري**، ص١٥٤٢، ص١٥٤٥.
(٩٠) مج٢ ص٤٤٥: **صحيح البخاري**، ص١٥٣٩، مع بعض الاختلاف في المتن.
(٩١) مج٢ ص٤٥٦: **صحيح البخاري**، ص١٣٧٨.
(٩٢) مج٢ ص٤٧٣.
(٩٣) مج٣ ص٢٦.
(٩٤) مج٣ ص٢٨.
(٩٥) مج٣ ص٣٢.
(٩٦) مج٣ ص٣٨.
(٩٧) مج٣ ص٤١.
(٩٨) مج٣ ص٥٢.
(٩٩) مج٣ ص٦٣، ٦٤، مج٥ ص٢٧٣: **صحيح البخاري**، ص٥٧٦٧.
(١٠٠) مج٣ ص١٤٢.
(١٠١) مج٣ ص١٧١.
(١٠٢) مج٣ ص١٩٧.
(١٠٣) مج٣ ص١٩٨.
(١٠٤) مج٣ ١٩٩.
(١٠٥) مج٣ ص٢٠٣.
(١٠٦) مج٣ ص٢٠٤.
(١٠٧) مج٣ ص٢١٣.
(١٠٨) مج٣ ص٢١٥.
(١٠٩) مج٣، ٢١٨، ٢٢٣.
(١١٠) مج٣، ص٢٢٤.
(١١١) مج٣، ٢٢٦.
(١١٢) مج٣ ص٢٣٧.
(١١٣) مج٦ ص٢٢٦.
(١١٤) مج٦ ص٢٩٧.
(١١٥) مج٦ ص٣٥٧: **صحيح مسلم**، ج١٣، ص١٣٥.
(١١٦) مج٦ ص٣٧٩.
(١١٧) مج٦ ص٢٩٣.
(١١٨) مج٦ ص٢٧٢.
(١١٩) مج٦ ص٢٧٢.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



الحركات المعارضة للحكم الأموي في الأندلس أواخر عصر الإمارة (٢٣٨ – ٣٠٠هـ/ ٨٥٢ – ٩١٢م) دراسة للأسباب والنتائج

مريم سكاكو

محافظ التراث الثقافي
المتحف العمومي الوطني للفن والتاريخ
تلمسان – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مريم سكاكو، الحركات المعارضة للحكم الأموي في الأندلس أواخر عصر الإمارة (٢٣٨ – ٣٠٠هـ/ ٨٥٢ – ٩١٢م): دراسة للأسباب والنتائج.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ١٠٩ – ١١٣.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

من بين أخطر الأزمات السياسية التي تعرضت لها الأندلس، تلك الثورات التي عصفت بمختلف جنباتها وبصفة خاصة أواخر عصر الإمارة الأموية، وهي المرحلة التي شاع وصفها بمرحلة الفتنة والاضمحلال أو مرحلة ملوك الطوائف الأولى والتي امتدت من (٢٣٨هـ- ٨٥٢م) إلى (٣٠٠هـ - ٩١٢م)، فالواقع التاريخي للأندلس خلال هذه الفترة يثبت أنها لم تعرف معنى للاستقرار السياسي أو الإداري على حد سواء؛ إذ تمزقت وحدة الأندلس، وقام الثوار في سائر أنحائها بشق عصا الطاعة عن الحكومة المركزية، وبهذا شهدت البلاد مرحلة تشرذم قادتها الأسر المتنفذة ضد سيادة قرطبة. وكان من أبرز المظاهر التي تعكس هذا الأمر اشتداد تلك الثورات التي رفعت لواء العصيان في وجه حكام بني أمية، لدرجة أجبر معها بعضهم على التنازل عن حكم بعض الأقاليم؛ ما جعل البلاد عرضة للتجزئة، فالسياسة الحازمة التي سار عليها أمراء بني أمية الأوائل كان لها واضح الأثر في الحفاظ على أملاك المسلمين في الأندلس ودولتهم فيها، وذلك رغم ما عصف بها من ثورات وفتن داخلية وحركات تمرد وعصيان وروح انفصالية، إلى جانب عداء الممالك المسيحية لدولة الإسلام في الأندلس، وتحينها الفرص لاقتطاع أجزاء منها وإثارة الاضطرابات فيها في إطار مساعيها الحثيثة لحسر مد الفتح الإسلامي في المنطقة.

مُقَدِّمَةٌ

عرفت الأندلس منذ المراحل الأولى للفتح الإسلامي اضطرابًا بين عناصر الجيش الفاتح، سرعان ما انتقل ذلك الاضطراب إلى باقي العناصر المكونة للمجتمع الأندلسي في الفترات اللاحقة، ليتفجر في شكل ثورات برزت ملامحها بوضوح خلال فترة الحكم الأموي لاسيما أواخر عصر الإمارة، وهي المرحلة التي شاع وصفها بمرحلة الفتنة والاضمحلال أو مرحلة ملوك الطوائف الأولى والتي امتدت من (٢٣٨هـ - ٨٥٢م) إلى (٣٠٠هـ-٩١٢م)، فالواقع التاريخي للأندلس خلال هذه الفترة يثبت أنها لم تعرف معنى للاستقرار السياسي أو الإداري على حد سواء. وكان من أبرز المظاهر التي تعكس هذا الأمر اشتداد تلك الثورات- والتي تناولها معظم الدراسات باسم الحركات- التي رفعت لواء العصيان في وجه حكام بني أمية، لدرجة أجبر معها بعضهم على التنازل عن حكم بعض الأقاليم؛ ما جعل البلاد عرضة للتجزئة.

إن السياسة الحازمة التي سار عليها أمراء بني أمية الأوائل بعد عبد الرحمن الداخل كان لها واضح الأثر في الحفاظ على أملاك المسلمين في الأندلس ودولتهم فيها، وذلك رغم ما عصف بها من ثورات وفتن داخلية وحركات تمرد وعصيان وروح انفصالية، إلى جانب عداء الممالك المسيحية لدولة الإسلام في الأندلس،[1] وتحينها الفرص لاقتطاع أجزاء منها وإثارة الاضطرابات فيها في إطار مساعيها الحثيثة لحسر مد الفتح الإسلامي في المنطقة. لكن، وبعد وفاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم تولى السلطة أمراء ضعاف وامتد حكمهم ما

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

يقرب من ثلثي قرن من الزمن (٢٣٨هـ-٨٥٢م /٣٠٠هـ-٩١٢م)؛ تمزقت إثره وحدة الأندلس، وقام الثوار في سائر أنحائها بشق عصا الطاعة عن الحكومة المركزية،[2] وبهذا شهدت البلاد مرحلة تشرذم قادتها الأسر المتنفذة ضد سيادة قرطبة.

من المؤكد أن الاضطرابات والثورات ليست بالأمر الجديد على الساحة السياسية للدولة الأموية في الأندلس لكن ما يميزها في هذه المرحلة الشدة التي ضربت بها والآثار العميقة التي خلفتها عمق الدوافع التي كانت ورائها. فبمحاولة البحث في أسباب تلك الثورات نجد أنها تنوعت بين سياسية وعنصرية واقتصادية وفي ما يلي أبرز تلك الأسباب بوجه عام لنصل في الأخير إلى ترجيح أي منها كان الأقوى والأكثر فعالية في تحريك تلك الثورات.

أولاً: أسباب الحركات المعارضة للحكم الأموي في الأندلس

١/١ - سياسة الدولة الأموية نحو عناصر المجتمع الأندلسي:

يعتبر الفتح الإسلامي للأندلس بداية لعصر جديد حيث طرأ تحول عظيم في حياتها العامة وفي نظمها الاجتماعية،[3] فقد جمع الإسلام شمل عناصر المجتمع المختلفة ومزج بينها رغم ما كانت تجيش به من الأهواء والنزعات وفوارق الجنس والعصبية، ذلك أنه بعد أن استقر الحكم للمسلمين ظهرت في الأندلس حركة أسلمة واسعة النطاق بفضل سياسة التسامح المنتهجة من قبلهم؛ الأمر الذي دفع سكان البلاد إلى اعتناق دين الفاتحين الجدد، إما عن إيمان وقناعة أو طمعًا منهم في الاستفادة من ظروف مادية أفضل والتخلص من الجزية.[٤]

لقد عرفت جماعة الإسبان النصارى الذين أسلموا في مراحل الفتح الأولى بـ "المسالمة" أو "أسالمة أهل الذمة"، والذين اندمجوا في المجتمع الإسلامي وشكل الجيل الثاني منهم فئة المولدين التي كان لها الريادة في حوادث الأندلس في عصر الإمارة الأموية لاسيما في مراحله الأخيرة،[٥] إذ كانت أهم عناصر المجتمع الأندلسي من حيث الكثرة والمستوى الاجتماعي، وبرزت منهم بعض الأسر القوية ذات السلطان والبأس مثل: بني قسي وبني حفصون...[٦] وعن هذا الموضوع يقول المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال: "... إن الصلات بين المسلمين القدامى والمسلمين الجدد ازدادت على مر الزمن توثقًا وتماسكًا بفضل الزواج، لذلك فإن عرب اسبانيا الذين كانوا في العصور التي أعقبت الفتح يفخرون أعظم الفخر بتحدرهم من أجدادهم في بلاد العرب أو سوريا كان يجري في عروقهم جميعًا جزء وفير من الدم الإسباني، إذ ما من شك أنه كان قد حصل في ظل الخلافة في قرطبة تمازج عرقي هام في المدن على الأقل بين العرب الخلص والبربر والمولدين".[٧]

وإلى جانب العرب والبربر والمولدين، نجد عنصرين آخرين ضمن المجتمع الأندلسي هما المستعربون أو النصارى المعاهدون الذين بالرغم مما كانت تصبغه عليهم الحكومة الإسلامية من أسباب الرعاية وتبوأ الوظائف الهامة فإنهم ما ترددوا في إثارة الفتن ودعم الحركات المناوئة للسلطة، واليهود الذين كانوا أقليات تتمتع بحماية الحكومات الإسلامية المتعاقبة.[٨] لكن المرحلة التي عرفت تعددًا في عناصر المجتمع بشكل ملفت للانتباه هي مرحلة عصر الإمارة، حيث إنضاف إلى العناصر السابقة الذكر أفواج من الصقالبة،[٩] فضلاً عن بيوتات أموية وردت على الأندلس بعد أن تمت الغلبة لبني جلدتهم.[١٠]

هذه بصفة عامة أهم العناصر المركبة للمجتمع الأندلسي ومن خلالها يمكن أن نفهم منشأ ذلك التعصب الذي تولد بينها، فمثلاً نجد جماعات كبيرة من المولدين قد احتفظت بشخصيتها المحلية وبروابطها بأصولها الاسبانية،[١١] الأمر الذي غذى النزعة القومية والتي كانت تهدأ وتختفي في الفترات التي تنتهج فيها الدولة سياسة حكيمة متسامحة وعادلة اتجاه مختلف عناصر السكان، ومتى ضعفت الدولة وظهرت الغطرسة العربية من أبناء الارستقراطية الحاكمة استفاقت النزعة القومية عند المولدين أو غيرهم، وتفجرت في حركات ثورية منها ثورات أهل طليطلة، وحركة عمر بن حفصون، وثورات بني قسي، وغيرها.[١٢] وبعبارة أخرى شعور بعض مسلمي الأندلس المنتسبين في الأصل إلى طبقة المولدين الاجتماعية من امتياز العرق من جانب مواطنيهم الأندلسيين المنحدرين من أصول عربية صرفة،[١٣] فتعصبوا بدورهم لأصولهم الاسبانية وقادوا حركاتهم الانفصالية ضد أمراء بني أمية الذين كانوا يمثلون السيادة العربية، لكن لم يكن باستطاعتهم تنفيذ مخططاتهم في عهود الأمراء الأقوياء وبمجرد أن لاحت ملامح الضعف في الأفق حتى بدأت تحركاتهم في الظهور.[١٤]

إن تنامي تلك المشاعر الإقليمية والنزعات الانفصالية لم يكن بمعزل عن المؤثرات الخارجية، وأهمها على الإطلاق ذلك العداء الذي تكنه الإمارات المسيحية في الشمال لحكومة قرطبة، والتي كانت على استعداد دائم لمساعدة كل ثائر ومتمرد لإضعاف دولة الإسلام من جهة واستغلال اختلال الحكم المركزي لأغراض توسعية من جهة أخرى.[١٥] كما لا يمكن إغفال تلك الفاعلية الفكرية التي استثيرت بفعل المؤثرات العباسية غير المباشرة إذ أن الأمراء الأمويين واجهوا مؤامرات خفية ألبت عليهم أكثر رعاياهم لاسيما المولدين والمسيحيين،[١٦] الذين كانوا مصدر تهديد للحكم الأموي في الأندلس، إلى جانب استعار النعرات القبلية بين أحفاد العرب والبربر.[١٧]

فصفوة القول؛ أن المجتمع الأندلسي كان ذا بنية مفككة وما أدى إلى بروز عوامل الفرقة والنزوع نحو الانفصال سوء المعاملة من قبل بعض الولاة نحو فئات معينة من جهة، ومن جهة ثانية كثرة المطالب والمغارم لاسيما الضرائب التي أثقلت كواهل السكان الأمر الذي حطم مبدأ العدالة الاجتماعية فكان العمل على الخروج عن السلطة الأموية، لكن هل هذا الجانب وحده كفيل بالدفع نحو الثورة وحمل السلاح؟ وبعبارة أخرى ما هي الظروف السياسية التي هيأت المناخ الملائم للثورة وإعلان العصيان؟

٢/١- ضعف الحكام وفساد الإدارة أواخر عصر الإمارة الأموية:

لما صارت أمور الحكم إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن[١٨] بدأت على عهده- مع ابنيه المنذر وعبد الله- مرحلة شاعت فيها الفتنة وعمت الاضطرابات وصار الانفصال ورفع لواء الفرقة والعصيان هو القاعدة والعادة عند حكام وأمراء ومقدمي الأقاليم والمدن الكبرى،[١٩] فتقلص نفوذ أمراء بني أمية حتى أتى زمن أيام الأمير عبد الله ما كان سلطان الجالس على عرش الإمارة يتجاوز أسوار العاصمة قرطبة وبعض أربافها والقرى القريبة منها.[٢٠]

وبهذا بدأت مرحلة من أدق مراحل التاريخ السياسي لدولة بني أمية في الأندلس، بدا للكثيرين ممَنْ تناولوها بالدراسة تسميتها بمرحلة الفتنة والتمزق والاضمحلال وكل ما قد يعبر عن فقدان الوحدة السياسية وهيبة الدولة والتي قدر للأمير محمد أن يكون عهده بداية لها،[٢١] إذ نهض الطامحون إلى السلطة بحركاتهم الاستقلالية فصرف كل جهوده لمعالجة أخطر أزمة سياسية تعرضت لها الأندلس، وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى سياسة الأمير محمد في اختيار وزرائه والتي كان لها بالغ الأثر في فساد أمور الدولة، إذ أن العديد من المؤرخين يذهبون إلى أن الوزير هاشم بن عبد العزيز[٢٢] استأثر عند الأمير محمد بحظوة كبيرة (فلم يلبث أن أفسد عليه أمره... وحمله على غير المنهج من محمود طرقه، وعدل عن اختيار ثقات العمال من الشيوخ والكهول وأولي السوابق والأصول إلى الأحداث واللاحقين من أولي الشره والخيانة ودناءة الأصول... فلم يلبث أن فسد بذلك حالاً بعد حال... فنجمت الفتنة بأكثر البلاد...)،[٢٣] فالوزير هاشم تحسب عليه عدة مواقف تشهد أنه (كان سببًا في قيام عدة ثورات في الأندلس).[٢٤]

كما نجد من جهة أخرى؛ أن كور الأندلس ومدنها[٢٥] كانت تتمتع باستقلال إداري وعسكري عن العاصمة قرطبة، فقد كان لولاة الكور وقواد المدن قسط كبير من النفوذ المحلي ومن حرية التصرف دون الرجوع إلى الخليفة في قرطبة، وقد ساعدت هذه اللامركزية في الحكم على قيام حركات استقلالية في فترات ضعف الحكومة المركزية،[٢٦] وهذا التقسيم يرجع بصورة أساسية لطبيعة البلاد الجبلية، أين وجدت تلك الحركات بين الجبال القلاع والحصون المنيعة فمعظم كور الأندلس بحكم موقعها الاستراتيجي كانت وكرًا للمتمردين والخارجين عن الدولة ومركزًا من مراكز الثورات في الأندلس.[٢٧] وعلى العموم؛ فإن أهم ما ميز أواخر عصر الإمارة الأموية في الأندلس بداية من عهد الأمير محمد ظاهرة تعدد الثوار وحركات الاستقلال المحلي، وعن مدى خطورتها يقول لسان الدين ابن الخطيب: "... والثوار في دول بني أمية متعددون شقيت بهم الملوك وتنغَّصت بهم الخلفاء واضطروا إلى مسالمتهم تارة ومحاربتهم أخرى وجعلوا رسم الوفاء لمَنْ عاهدوه منهم سياسة لولاها لجلّ الخطب ولم يخلص الملك...".[٢٨]

ولعل أبرز الثورات المعارضة للحكم الأموي ثورة أهل طليطلة التي ظلت منذ قيام الدولة الأموية مركزًا للثورات المتعاقبة، وملجأ لكل خارج عن الدولة نظرًا لكثرة عدد المولدين والنصارى المعاهدين بها،[٢٩] والذين يعتزون بكثرتهم وحصانة مدينتهم، وأنها دار ملك القوط مما يدعوهم للتمرد والخروج على حكومة قرطبة كلما تهيأت لهم ظروف الثورة،[٣٠] إلى جانب ثورات بني قسي التي شغلت الحكومة المركزية أعوامًا طويلة، وثورة مولد متعصب رفع لواء العصيان بماردة،[٣١] هو عبد الرحمن بن مروان الجليقي.[٣٢] أما المرتفعات الجنوبية للأندلس فقد عرفت ثورة استمرت عدة عقود من الزمن هددت سلام البلاد عمومًا وعرش بني أمية بشكل خاص وهي ثورة عمر بن حفصون، وقد خلفت حركات التمرد السياسي هذه وغيرها كثير عدة نتائج وآثار في مختلف الجوانب.

ثانيًا: نتائج الحركات المعارضة للحكم الأموي في الأندلس

١/٢- النتائج السياسية والعسكرية:

أهم نتيجة سياسية لتلك الحركات عرقلة وحدة البلاد، وتجزئتها إلى كيانات مستقلة، والتاريخ السياسي للأندلس حافل بمثل هذه النماذج، كما أدت إلى استنفاذ موارد الدولة المادية والبشرية وأقلقت الحكام وزادت في متاعبهم ونفقاتهم،[٣٣] بل وأقعدت الدولة عن الكفاح ضد عدوها الحقيقي المتربص بها والمقصود إسبانيا النصرانية،[٣٤] التي وجدت في تلك الثورات فرصة سانحة للعبث والفساد والعدوان على المسلمين والتجرؤ على أراضيهم،[٣٥] من ذلك مثلاً حملات ملك النصارى أرذون بن أذفونش على عهد الناصر شملت مدنًا إسلامية مختلفة صحبها إفساد لزروعها وقهر لأهاليها وإحراق لمساجدها،[٣٦] ومع هذا حالت الثورات المستعرة في مختلف جنبات الأندلس دون التصدي لرد تلك الاعتداءات إلا بعد أن تم القضاء على زعمائها على يد الناصر لدين الله،[٣٧] واجتياز أصعب المراحل في طريق الوحدة السياسية.

٢/٢- النتائج الاقتصادية:

إن ذلك التطاحن الداخلي أدى إلى أزمة اقتصادية حادة، تضررت منها مختلف الأطراف،[٣٨] إذ أنه (لما كثر الثوار قل الخراج لامتناع أهل النواحي عن الأداء)،[٣٩] وبما أن الضرائب كانت مصدر الدخل الرئيس للخزينة الملكية فقد كان لذلك الأمر أكبر الأثر في إضعاف الجيش الملكي حيث عمدت الدولة إلى توفير المال من خلال عدم صرف أعطيات الجند.[٤٠] كما أدت تلك الحركات في عمومها إلى عرقلة حركة البناء والتعمير، ومعاناة السكان من الفقر والبؤس، وانتشار الفوضى، ونهب المحاصيل، وبالتالي هجر الأراضي الزراعية؛[٤١] فكان من نتائج هذا كله ظهور المجاعات منها مثلاً المجاعة التي عمت أرجاء الأندلس في عهد الناصر لدين الله سنة (٣٠٣هـ/٩١٥م)، حيث اشتد الغلاء وبلغت الحاجة والفاقة بالناس حدًا كبيرًا.[٤٢] فيبرز من كل هذا أن استنزاف أموال الدولة في مقارعة الثوار وفي نفس الوقت عزوف أهالي الأقاليم عن دفع الضرائب أدى إلى أزمة اقتصادية كانت مصحوبة بأزمة اجتماعية

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

كنتيجة مباشرة لهجر الأراضي الزراعية إثر نهب محاصيلها وتخريب منشآتها.

٣/٢- النتائج الاجتماعية والثقافية:

لقد عملت تلك الحروب والاحتكاكات بين مختلف عناصر المجتمع الأندلسي من عرب وبربر ومولدين ومستعربين على خلط ومزج هذه العناصر بثقافاتها المختلفة وصهرها في البوتقة الأندلسية حيث لم تعد الارستقراطية العربية متسلطة على العناصر السكانية الأخرى في الأندلس.[٤٣] وكان من نتائج ذلك أيضًا انتشار اللغة المزدوجة العربية الاسبانية القديمة (Romance)،[٤٤] التي أصبح كبار رجال الدولة العرب يتكلمون بها مع الإسبان، وهو ما أدى على المدى البعيد إلى ظهور طبقة اجتماعية جديدة في المجتمع الأندلسي تتكلم اللغتين تأثرت بالعادات والتقاليد والثقافة والحياة العربية بل واتخذوا أسماء عربية.[٤٥]

كما قام أولئك المستعربون بدور هام في نقل الحضارة الإسلامية إلى الممالك المسيحية في شمال الأندلس ونشرها في تلك الأصقاع، ويظهر ذلك جليًا في اللغة الاسبانية التي بها آلاف الألفاظ العربية.[٤٦] أما الإسلام فقد قل شأنه في نواحي بعض الثورات مثل ثورة ابن حفصون حيث هُجرت المساجد وأقيمت الكنائس والبيع،[٤٧] هذا دون إغفال دور النصارى في إذكاء حقد الثوار على بني أمية ليس كحكام العرب فقط بل كممثلين لدين الإسلام في المنطقة.

وما نخلص إليه في الأخير هو؛ أن دوافع الثورة تعددت وتداخلت وتفاعلت جميعا لتهيئ المناخ الملائم للوقوف في وجه السلطة العربية، وتجسيد التطلعات السياسية ومحاولات الاستقلال على أرض الواقع وعليه يمكن القول أن العامل السياسي كان المحرك الفعال والرئيس لتلك الثورات،[٤٨] دون إغفال التعصب الذي أبدته بعض طبقات المجتمع الأندلسي خاصةً طبقة المولدين الذين كانوا يرون أنهم أحق من غيرهم بقيادة وحكم البلاد التي يرتبطون بالنسب إليها،[٤٩] فقادوا عدة ثورات طيلة مدة الحكم الأموي في الأندلس، لكن مرحلة أواخر عصر الإمارة شهدت أخطر وأعتى تلك الحركات مع ما خلفته من نتائج في مختلف الجوانب.

خاتمة

بمحاولة البحث في أسباب الثورات التي عصفت بوحدة الأندلس، نجد أنها تنوعت بين سياسية وعنصرية واقتصادية هذا من جهة، ومن جهة ثانية تركت عدة نتائج شملت مختلف الجوانب، ففي الجانب السياسي أدت تلك الحركات إلى عرقلة وحدة البلاد وتجزئتها إلى كيانات مستقلة، بل وأقعدت الدولة عن الكفاح ضد عدوها الحقيقي المتربص بها والمقصود إسبانيا النصرانية، كما أدت إلى استنفاذ موارد الدولة المادية والبشرية التي وجدت في تلك الثورات فرصة سانحة للعبث والفساد والعدوان على المسلمين والتجرؤ على أراضيهم، وما صحبها من إفساد لزروعها وقهر لأهاليها وإحراق لمساجدها، ومع هذا حالت الثورات المستعرة في مختلف جهات الأندلس دون التصدي لرد تلك الاعتداءات إلا بعد أن تم القضاء على زعمائها، واجتياز أصعب المراحل في طريق الوحدة السياسية. وقد أدى ذلك التطاحن الداخلي أيضًا إلى أزمة اقتصادية حادة، وعرقلة حركة البناء والتعمير ومعاناة السكان من الفقر، أما في الجانب الثقافي فقد انتشرت اللغة المزدوجة العربية الاسبانية وهو ما أدى على المدى البعيد إلى ظهور طبقة اجتماعية جديدة في المجتمع الأندلسي تتكلم اللغتين تأثرت بالعادات والتقاليد والثقافة والحياة العربية.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



الهوامشُ:

(١) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤،١٩٩٧،ع١،ق١، ص٢٨٩.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، ب.ت، ص٢٤٣.

(٣) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**،ع١، ق١ ،ص٦٢.

(٤) ليفي بروفنسال، **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، ب.ت، ص١٧؛عبد المجيد نعنعي، **تاريخ الدولة الأموية في الأندلس التاريخ السياسي**، دار النهضة العربية، بيروت، ب.ت، ص٢٦٢.

(٥) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، ع١، ق١، ص٢٠٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٣٨.

(٧) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص١٧.

(٨) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**،ع١، ق١، ص٢٠٦.

(٩) **الصقالبة**: لفظة مشتقة من الأصل الفرنسي (esclave) ومعناها الرقيق أو العبد، وقد أطلقها العرب على الأرقاء الذين كانوا يشترونهم من أوربا، وأصل ذلك أن الجيوش الجرمانية عندما كانت تغزوا بلاد سلاف كانت تكثر من السبي منهم، وبعد عودتها تبيعهم للعرب في اسبانيا فسماهم العرب صقالبة، ينظر: (أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٣٨، ص١١٠؛ شكيب أرسلان، **الحلل السندسية في الأخبار** والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ب.ت، ج١، ص٤٦).

(١٠) محمد المنوني وآخرون، **التاريخ الأندلسي من خلال النصوص**، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٩١، ص١٠.

(١١) حسين مؤنس، **موسوعة تاريخ الأندلس تاريخ وفكر وحضارة وتراث**، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ب.ت، ج١، ص١٠٦.

(١٢) عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(١٣) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص ٢٠؛ وأيضًا:

pablo fernandzez , rebennions y fragmentacion, politica de al-andalus estudio de la insurreccion de Umar ibn Hafsun, en el periodo del emir Abd Allah(888/912), majister en traduccon (ingles-espanol)k 2004 p3.

(١٤) شريفة دحماني، **العلاقات السياسية بين الطائفتين الأندلسية والبربرية في جنوب الأندلس في عصر ملوك الطوائف**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٦م، ص٦٢.

(١٥) إبراهيم بيضون، **الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، ص٢٧٤؛ عبادة كحيلة، **المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب**، دار السعادة، القاهرة، ١٩٩٧، ص٢٠٤.

(١٦) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص٢٠.

(١٧) محمد المنوني وآخرون، المرجع السابق، ص٨.

(١٨) كنيته أبو عبد الله، ولد سنة (٢٠٧هـ/٨٢٣م) تولى الحكم عقب وفاة أبيه سنة (٢٣٨هـ/٨٥٢م)، بدأت على عهده أخطر حركة هددت كيان الدولة الأموية في الأندلس هي حركة عمر بن حفصون والتي استنفذت منه مدة حكمه دون القضاء عليها وتوفي سنة (٢٧٣هـ/٨٨٦م). يُنظر: (ابن حيان القرطبي، **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تحقيق: محمد علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م، السفر الثاني، ص١٣١،١٠٢؛ مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم**، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ص١٢٦-١٣٢).

(١٩) عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص٢٥٣.

(٢٠) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص١٣٣.

(٢١) إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص٢٧٦.

(٢٢) كنيته أبو خالد، من وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن حظي بمكانة رفيعة عنده وكان الناهض بأعباء الدولة والمتصرف فيها، نكبه المنذر بن محمد لأحقاد عليه في عهد أبيه: ابن حيان القرطبي، المصدر السابق، السفر الثاني، ص١٥٩؛ ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ج.س.كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط٢،١٩٨٠م،ج٢،١٠٨؛ وأيضًا:

CLAUDIO SANCHEZ ALBORNOZ , L Espagne MUSULMANE,TRADUCTION.CLAUDE FARAGGI,OPU,1985 ,P177.

(٢٣) ابن حيان القرطبي، المصدر السابق، السفر الثاني، ص١٣١-١٣٢.

(٢٤) ابن سعيد الأندلسي، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، د.ت، ص٥٣.

(٢٥) كانت الأندلس في مجموعها مقسمة إلى كور ومدن، فالكور هي الولايات الداخلية التي شمل نظامها جنوب الأندلس وشرقها وغربها، ويحكم كل كورة وال بمرسوم خلافي: شكيب أرسلان، المرجع السابق، ج١، ص٤٠.

(٢٦) أحمد مختار العبادي، **صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس**، دار المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص١٦.

(٢٧) أبو مصطفى كمال السيد، **بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي**، مؤسسة شباب الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص١٦.

(٢٨) لسان الدين بن الخطيب، **أعمال الأعلام في مَنْ بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق: ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦، ج٢، ص٣٥ - ٣٦.

(٢٩) محمد شرقي "**طليطلة.. في الذكرى الألفية لسقوط أعظم حاضرة أندلسية**" في مجلة: التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، العدد٢١،١٩٨٦، الجزائر، ص٣٥.

(٣٠) علي حسين الشطشاط، **تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة**، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١، ص١١٧.

(٣١) ماردة (Merida): مدينة بجوفي قرطبة منحرفة إلى المغرب قليلاً. يُنظر: الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت،١٩٧٥، ص٥١٨- ٥١٩.

(٣٢) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، ع١، ق١، ص ٣٠٢، ٣٠٤.

(٣٣) مصطفى شاكر، **الأندلس في التاريخ**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠، ص٣٧.

(٣٤) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، ع١، ق٢، ص٣٧٨.

(٣٥) أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٠، ١٩٩٥، ص١٠٠.

(٣٦) ابن حيان القرطبي، المصدر السابق، ج٥، ص١٢٠؛ ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج٢، ص١٧٢.

(٣٧) مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة**، ص١٣٥.

(٣٨) إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص٣٠٣.

(٣٩) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ب.ت، ج٤، ص١٣٨.

(40) Pablo Fernandez, op. cit, p5.

(٤١) كمال السيد أبو مصطفى، **مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص١٤.

(٤٢) ابن حيان القرطبي، المصدر السابق، ج٥، ص١٠٩.

(٤٣) أحمد مختار العبادي، **في التاريخ العباسي والأندلسي**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢، ص١٦٠.

(44) Claudio Sanchez Albornoz, op.cit, p.269.

(٤٥) عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٠٨.

(٤٦) عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، المرجع نفسه، ص١٠٩.

(٤٧) محمد عبد الله عنان، **الآثار الإسلامية الباقية في إسبانيا والبرتغال: دراسة تاريخية أثرية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧، ص٢٥٢.

(48) Pablo Fernandez, Op.cit,p.7.

(٤٩) محمد شرقي، المرجع السابق، ص٣٥.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





نهر النيل والمجاعات في مصر
خلال العصرين اليوناني والروماني



د. السيد جابر محمد عطا الله

أستاذ مساعد تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية
قسم الآثار – كلية الآداب
جامعة المنيا – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

السيد جابر محمد عطا الله، نهر النيل والمجاعات في مصر خلال العصرين اليوناني والروماني.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ١١٤ – ١٢٢.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

يحاول البحث من خلال الاستعانة بالمصادر القديمة والنصوص اليونانية واللاتينية تبرئة فيضان نهر النيل من كونه المسئول الوحيد عن حدوث المجاعات التي ألمت بمصر خلال العصرين اليوناني والروماني. ومحاولة إثبات أن هناك أسبابًا أخرى قد تكون الأكثر تأثيرًا في حدوث هذه المجاعات منها إهمال الحكومة لمشاريع الري، وسوء توزيع المياه وعدم توزيعها للمناطق التي لا تصلها المياه. بدليل رصد لحالات قحط لم تتبعها قياسات منخفضة لفيضان النيل، وكذلك رصد لقياسات منخفضة للنهر لم تتبعها مجاعات.

مُقَدِّمَة*

لنهر النيل مآثر عظيمة على المصريين لكني لا أتصور أن المجال يتسع لذكرها وذكر الدور الذي لعبه نهر النيل في حياتهم، فقد سبقني لذلك المئات بل الآلاف من الكتاب والعلماء، ولكني سأكتفي بالإشارة إلى أن هذا النهر كان ولا زال بمثابة المعلم الأول للمصريين فهو الذي علمهم الزراعة والاستقرار وعلمهم التجارة والصناعة، علمهم أولي معاني السلطة المركزية والطاعة، وهو الذي دفع الكهنة إلى رصد النجوم لحساب وقت الفيضان، وهو الذي أوحي إليهم بفكرة قياس العلو لمعرفة ارتفاع الفيضان ومسح الأراضي للاهتداء إلى حدود الحقول التي يمحوها الماء في كل عام، لحماية نظام التملك والفصل في خصومات الحدود، وهو الذي أوجد علم الفلك والرياضيات والحق والقانون والشرطة، مع عدم وجود هذه الأمور لدي أية جماعات بشرية خلال العصور القديمة.(١)

والسؤال الذي يحاول هذا البحث طرحه والإجابة عنه هو - هل كان منسوب فيضان هذا النهر هو المسئول الوحيد عن حدوث المجاعات في مصر خلال العصرين اليوناني والروماني ؟ أم أن هناك عوامل أخري تدخلت في مثل هذا الأمر – مثل الإجراءات التي كانت تتخذها الحكومة في أمور الري وإصلاح الأراضي وتطهير الترع والقنوات، وتوزيع المياه بالعدل بين الأقاليم ؟ وعلى الرغم من أن الإجابة قد تبدو واضحة ومنطقية وهي الاختيار الثاني، لكن ربما يحتاج الأمر لإثبات وهو ما سأحاول أن أقدمه. كما أود أن أشير إلى أن المقصود من هذا البحث ليس مجرد مسح لحالات المجاعات التي حلت بمصر خلال العصرين اليوناني والروماني بقدر ما هو محاولة لرصد أهم العوامل التي تدخلت في حدوث المجاعات، وخاصةً تلك التي لا تتعلق بنهر النيل وفيضانه.

(١) مقاييس النيل

يقول جمال حمدان "لو كان علينا أن نصدق عبارة هيرودوت الشهيرة بأن مصر هبة النيل، فإننا يمكن أن نضيف أن مصر هبة الفيضان. وإذا صح أنه لولا النيل لكانت مصر صحراء جرداء إلا من حفنة من الواحات الصحراوية وربما القرى الساحلية، فإنه من الصحيح أيضًا أنه لولا الفيضان لكانت مصر مجرد نهر هزيل يولد ويموت كل سنة دون أن يضمن الوصول إلى البحر دائمًا. ولا شك

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

أن الفيضان هو أبرز وأهم ظاهرة في مائية النهر، فبينما لا يكاد سكان المنابع الاستوائية يلحظون صعود النهر وهبوطه على مدار السنة، تصل هذه الظاهرة إلى القمة في النيل المصري، حيث يمكن ملاحظة مدى اختلاف منسوب النهر وحده إلى ارتفاع منزل من طابقين أو ثلاثة، بحيث لا يمكن أن تخطئه حتى العين الغافلة.[٢]

تعلم المصريون من تجاربهم وخبراتهم عبر العصور أن ما يحصلون عليه من غذاء مرتبط بشكل وثيق بمنسوب فيضان نهر النيل، لذلك كان من الضروري أن يعرفوا مسبقًا ما يجب عليهم فعله تجاه الفيضان، ومن هنا كان اختراع مقياس النيل. وهو في شكله البدائي عبارة عن صخرة تقع في مكان مناسب على النيل عليها علامات تبين معدل ارتفاع النهر. المهم في كل مقياس أن يكون مثبتًا إلى جانب النهر تثبيتًا متينًا بحيث لا يكون عرضة لأن يزحزحه عن موضعه أي طارئ.[٣] وقد جاء وصف سترابون (مؤرخ وجغرافي يوناني عاش من ٦٣ ق.م حتى ٢٠م) لمقياس النيل على أنه "عبارة عن بئر على شاطئ النهر مبني من حجارة متراصة عليها درجات تبين منسوب ارتفاع وانخفاض النهر".[٤]

وأهمية تحديد منسوب الفيضان تكمن في أنه على أساسه تتم التفرقة بين الأراضي الزراعية التي تصلها مياه الفيضان وتلك التي لا تصلها المياه.[٥] وفي هذا الشأن يقول سترابون: "لا شيء أفيد من مقياس النيل للحكومة وللفلاح، حيث تعتمد عليه الحكومة في فرض الضرائب فتزيدها بزيادة الفيضان وتنقصها بنقصه، أما الفلاح فيعلم بها مقدار ما يعتمد عليه من ماء وما يجب أن يدخره للقنوات".[٦]

وقد تعددت مقاييس النيل في مصر خلال العصور القديمة، فكانت هناك مقاييس رسمية إلى جانب المقاييس الخاصة، من أهمها من الجنوب إلى الشمال ما يلي: مقياس للنيل عند الشلال الأول، ومقياسان في جزيرة فيلة، ومقياسان إحداهما في جزيرة الفنتين، والآخر في أسوان (هما اللذان أشار لهما سترابون في نص سيأتي ذكره)، ثم مقياسان في كوم أمبو، وآخر عند جبل السلسلة، وهناك مقياس عند ادفو ويقع بالقرب من معبد حورس غرب النيل، ومقياس عند اسنا (لاتوبوليس)، وآخر عند قفط ثم هرموبوليس، والأشمونيين وفي انتينوبوليس (الشيخ عبادة)، وفي اوكسيرينخوس (البهنسا)، بالإضافة لعدد من المقاييس على بحر يوسف، ثم مقياس منف (المقياس الرسمي للبلاد)، ثم عدد من المقاييس في الدلتا مثل مقياس مندس (شرق المنصورة)، وآخر في تانيس (صا الحجر)، وبلوزيون (تل الفرما قرب بور سعيد).[٧] وكذلك كان هناك مقياس في الإسكندرية يقع في معبد السيرابيوم كان يستخدم في العصر البطلمي لقياس الفيضان، حيث كانت توجد قناة تغذي المنطقة هي قناة سخيديا، ربما تماثل الآن قناة المحمودية.[٨]

وعن منسوب الفيضان ومعدلاته يقول سترابون: "أن أفضل ارتفاع للنهر بالنسبة للمحاصيل هو (١٤ ذراع) وعندما يرتفع لنحو ثمانية اذرع فقط تحدث المجاعة.[٩] أما بلينيوس (٢٣م- ٧٩م) فقد قال ما يلي: "عندما يكون (الارتفاع) ١٢ ذراع تحدث المجاعة، وإذا كان ١٣ ذراع تجوع البلاد نسبيًا، وإذا كان ١٤ ذراع (فإنه يجلب البشر والسرور، وإذا كان ١٥ ذراع (فإنه يأتي) بالأمان، وإذا كان ١٦ ذراع (فإنه يحدث) الرفاهية".[١٠]

"In XII cubitis famem sentit, in XIII etiamnum esurit, XIIII cubita hilaritatem adferunt, XV securitatem, XVI delicias".

ربما يكون من المفيد الإشارة إلى أن رقم (١٦) بدلالته على الفرح والسرور لم يكن جديدًا على الفكر المصري القديم، فقد عبد المصريون القدماء نهر النيل في صورة الإله حابي، وكانوا يصورونه على هيئة إله له لحية وعلى رأسه مجموعة من النباتات المائية، وله ثديان مكتنزان دليل على الإدرار وحوله ستة عشر طفلاً يمثلون الارتفاع الأمثل لفيضان النيل.[١١] كما أنه خلال احتفالات الإله سوكاريس[١٢] كان يطلق على الألهه حتحور "حتحور سيدة الستة عشر"، ويظن بأنه من خلال تمثل حتحور بايزيس – سوثيس فإنها ارتبطت بمياه الفيضان وبخاصةً الارتفاع الأمثل الذي يجلب البشر والسرور، ولذلك فإن المصري القديم كان يكتب الرقم (١٦) إذا أراد أن يعبر عن السرور والفرحة.[١٣]

وفي عصر البطالمة أوجد بطلميوس الأول عبادة جديدة جعل على رأسها الإله سيرابيس الذي يمثل الإله المصري اوزوريس، لذلك فقد ارتبطت عبادة سيرابيس بعبادة النيل، وخلال العصر الروماني بدأ النيل يظهر على العملة مع الربط بينه وبين الخير، كما بدأت في الظهور رفيقة له هي ايوثنيا وهي في الأصل الربة ايزيس وكانت تحمل على رأسها تاجًا من سنابل القمح دليلاً على الخير والنماء، وقد استمر ظهور إله النيل ورفيقته على العملة الرومانية خلال عصر الأسرة اليليوكلاودية (١٤- ٦٩م)، وكانت بداية ظهور إله نيلوس ومعه الستة عشر طفلاً خلال عهد الإمبراطور فسبسيان (٦٩-٧٩م) وهو يمسك في يده اليمني سنابل القمح، أما يده اليسرى فإنه يستند بها على تمثال لأبي الهول، ويمسك بها قرن الخيرات، والتمثال موجود في الفاتيكان وتوجد نسخه منه في المتحف اليوناني والروماني.[١٤]

وهناك تمثال لايوثنيا رفيقة نيلوس موجود في المتحف اليوناني والروماني تظهر فيه الألهه مضجعة وماسكة بيدها كأس ومتكئه على تمثال لأبي الهول، ويحيط بها ثمانية أطفال بعضهم يتسلق على ردائها، ويشير الكاتب[١٥] أن الثمانية أطفال يمثلون أدني ارتفاع مطلوب للفيضان من أجل إحسان ايوثنيا حتى تنقذ البلاد من الفيضان المنخفض. لكني أتصور أن الثمانية أطفال ربما يمثلون الارتفاع الأمثل لفيضان النيل كذلك لكن ربما بمقياس آخر غير الذراع.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وفي العصر الحديث، يشير جمال حمدان إلى أن النهر يبدأ في الارتفاع عند أسوان في الأسبوع الأخير من شهر يونيو ثم يتعالى بسرعة وبشدة من منتصف يوليو حتى يصل لذروته في منتصف سبتمبر، ومن نهاية سبتمبر تبدأ المياه في الهبوط حتى يعود إلى مجراه العادي في نصف نوفمبر، ويقطع الفيضان المسافة من أسوان إلى القناطر الخيرية في أسبوع أو أسبوعين حسب حجمه وسرعته.[١٦]

وأرى أنه من المفيد الإشارة إلى؛ أن مدى ارتفاع الفيضان يتوقف على موقع المقياس جنوبًا أو شمالاً، فكلما كان المقياس يقترب من المنبع ويبتعد عن المصب في البحر المتوسط كلما زاد الرقم، فلدينا وثيقة بردية عبارة عن تسجيلات لمستوى المياه في بعض السنوات نقشت على أحد مقاييس النيل في الفنتين، منها: في العام الخامس والعشرين للإمبراطور أوغسطس قيصر، ٢٤ ذراعًا (٤) يد و(١) أصبع (٥ ق.م)، وفي العام ١٣ للإمبراطور نيرون قيصر، ٢٤ ذراعًا و(٦) يد و(١) أصبع (٦٧م)، وفي العام العاشر للإمبراطور دوميتيان قيصر(٩١م) ٢٤ ذراعًا و(٤) يد، وفي العام ١٤ للإمبراطور تراجان قيصر(١١١م) ٢٤ ذراعًا،[١٧] أما إذا اتجهنا ناحية الشمال في اوكسيرنخوس فإنه كانت تقدم القرابين خلال الاحتفالات على شرف النيل المقدس في ٣٠ بؤونة (٢٤ يونيو) ١٦ من كل شيء حلو على سبيل المثال (١٦) فطيرة، و(١٦) كعكة، و(١٦) من سعف النخيل، و(١٦) من ثمار الصنوبر.... إلخ.[١٨]

والبردية السابقة تشير إلى أن العدد (١٦) هو العدد المرجو، أو ربما الأفضل في منطقة مصر الوسطي أو شمال الصعيد. وإذا اتجهنا شمالاً حيث منف، نجد أن متوسط ارتفاع الفيضان يتراوح من ١٢ إلى ١٤ ذراع.[١٩]* أما ارتفاع الفيضان فيبلغ متوسطه في الدلتا نحو ثمانية أذرع.[٢٠] ومما سبق يتضح؛ أن منسوب الفيضان يختلف وفقًا لمكان المقياس قربًا أو بعدًا عن المنبع، فكلما اقتربنا من المنبع وابتعدنا عن المصب يزيد مستوى الارتفاع، وكلما اقتربنا من المصب وابتعدنا عن المنبع كلما قل المستوى.

وقبل أن استعرض حالات المجاعات والجدب التي حلت بمصر خلال العصرين اليوناني والروماني، **لنتعرف عما إذا كان منسوب فيضان نهر النيل هو المسئول الوحيد عن هذه المجاعات أم أن هناك أمورًا أخرى تتدخل في هذه المسألة**. يبدو من المفيد الإشارة إلى؛ أن الفترة الأولي من الحكم البطلمي التي بدأت منذ دخول بطلميوس الأول مصر في (٣٢١ ق.م) وحتى منتصف القرن الثاني ق.م، تميزت بالاهتمام بكافة النواحي الاقتصادية وبخاصة الزراعية، وقد تمثلت بالاهتمام بمشاريع الري وتجفيف المستنقعات والبرك وشق القنوات وإقامة الجسور، وتوصيل المياه التي لا تصلها مياه الفيضان، كما وضعوا نظامًا دقيقًا للدورة الزراعية، ونجحوا في اجتذاب عدد كبير من اليونانيين إلى مصر وربطهم بالأرض رباطًا اقتصاديًا، كما طوروا العديد من الأدوات الزراعية التي كانت موجودة من قبل واستحدثوا أدوات أخرى، كما استحدثوا زراعات لم تكن موجودة من قبل وطوروا زراعات كانت موجودة بالفعل، وقد كان نتيجة ذلك أنه لم توجد في مصر أرض يمكن زراعتها ولم تزرع، وكان إقليم الفيوم خير مثال على هذه النهضة.[٢١]

أما أولى المجاعات التي حلت بمصر خلال العصر البطلمي، فكانت خلال فترة حكم بطلميوس الثالث (٢٤٦-٢٢١ ق.م)، وكانت خلال السنة الثانية من حكم الملك وأثناء خروجه لمحاربة السوريين، وهو ما اضطر الملك أن يعود للبلاد لمواجهه هذه المجاعة التي تركزت في الدلتا نتيجة لانخفاض منسوب الفيضان، وقد قام الملك نتيجة لذلك بشراء القمح من سوريا وفينيقيا وقبرص. كما قام الملك بإعلان تنازل الدولة عن حقها في الضرائب المتأخرة على الفلاحين وعن نصيبها من المحاصيل نتيجة لانخفاض منسوب الفيضان، وعدم قدرة المصريين على الوفاء بالتزاماتهم تجاه الحكومة، وهو ما أثمر ما يسمي بمرسوم كانوب (تقع مدينة كانوب القديمة على بعد نحو ٢٥ كم شرق مدينة الإسكندرية في مكان ضاحية أبو قير حاليًا) في (٢٣٧- ٢٣٨ ق.م) وهو عبارة عن مرسوم أصدره كهنة منف تعبيرًا عن شكرهم وامتنانهم للملك وأخته لما قاما به من أعمال جليلة.[٢٢] وقد كتب المرسوم بثلاث لغات هي الهيروغليفية واليونانية والديموطيقية، وكان عبارة عن مقدمة وأربع عشرة فقرة اقتبس منها ما يخص المجاعة ما يلي:- "وعندما حدث فيضان منخفض للنهر في زمنهما حزنت كل القلوب، واسترجعا (الملك واخته برينيكي) بذاكرتهما الكوارث التي حلت بالبلاد في زمن ملوك حكموا من قبل - وقتها كان سكان البلاد في أشد الحاجة للمياه- ومن أجل إنقاذ حياة الشعب فقد أرسلا لجلب الغلال من سوريا وفينيقيا وقبرص ومن مناطق أخري، وذلك بأن دفعا مبالغ ضخمة أنقذا بها حياة الشعب المصري الذي اعترف بأعمالهما الخيرة إلى الأبد".[٢٣]*

وفي تقديري؛ أن سبب المجاعة لا يقتصر فقط على حدوث انخفاض لمنسوب الفيضان بل يعود لأسباب أخرى تمثلت في اهتمام بطلميوس الثالث بالسياسة الخارجية وانصرافه للحرب في أسيا منذ السنة الأولى لحكمه، وهو ما انعكس سلبًا على الأحوال الداخلية وبخاصة الاقتصادية، وهم ما يمثل أولي ملامح تقاعس الحكومة في القيام بواجباتها في شئون الزراعة والري.

أما خلال ما قبل منتصف القرن الثاني ق.م فقد بدأ الضعف يدب في كيان الأسرة البطلمية وبدأ التصارع على العرش يزداد، وتعاقب على الحكم ملوك ضعاف، وهو ما انعكس سلبًا على كافة النواحي الاقتصادية للبلاد فقد أهملت مشاريع الري وتقاعست الحكومة في القيام بواجباتها نحو صيانة الترع والجسور والقنوات، وخلال هذه الفترة وأثناء حكم بطلميوس الخامس (٢٠٥ - ١٨٠ ق.م) وفي سنة ١٨٧ ق.م ربما ألمت بالبلاد مجاعة نتيجة لانخفاض متواصل لمنسوب الفيضان لأكثر من سنة، وهو ما دعي بطلميوس الخامس أن يصدر مرسومًا من أجل تهدئة الأمور في البلاد، وهو ما

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

عُرف بـ "مرسوم القحط" أو "لوحة القحط"، وهو عبارة عن متن يتألف من اثني وثلاثين سطرًا نُقشت على الوجه الشرقي لصخره من صخور جزيرة سهيلة في منطقة الشلال الأول.(٢٤)

وقد جاء في المتن أن النيل لم يأت في ميقاته خلال سبع سنوات، فكانت الغلة قليلة، وقد يبست الحبوب، وكل ما كان يؤكل كانت كميته قليلة، وكل إنسان كان مصابًا في داخله، وأصبح الفرد غير قادر على المشي، وكان الطفل يبكي، والشاب أصابه الوهن، وقلوب المسنين في حزن، وكانت المعابد موصدة والمحاريب يخيم عليها التراب، وكان جميع ما هو كائن في حزن.(٢٥)

وفي اعتقادي؛ أن الأمر لم يكن سوى مجرد دعاية سياسية اتخذها الملك من أجل أن يتستر على حالة البلاد السيئة من الناحية الاقتصادية، وعلى إهمال الحكومة في القيام بواجباتها، وإهمالها للشكاوي المتكررة من الأهالي بسبب إهمال الري وتعسف الموظفين والإدارة المركزية في تحصيل الضرائب، كما جاء المرسوم شبيهًا بما جاء في التوراة عن سبع سنوات عجاف مرت بمصر خلال عصر الدولة الوسطي، حتى أن بطلميوس نفسه تخفي في المرسوم تحت اسم الفرعون المصري القديم زوسر من عصر الأسرة الثالثة، وهو ما جعل الكثير من العلماء ينسبون المرسوم لهذا الفرعون. لكن البحوث اللغوية دللت على أن متن اللوحة قد أُلف في العهد البطلمي وخاصةً خلال عهد بطلميوس الخامس، وما يزيل الدهشة في أن الملك تخفي وراء اسم زوسر هو أن تقليد تشبه الملوك البطالمة بفراعنة مصر القديمة أمر مألوف ومعروف ربما كان من بعض أسبابه التقرب إلى المصريين ولإثبات شرعيتهم في الحكم، وتزول دهشتنا أكثر عندما نعلم أن بطلميوس الخامس هو أول ملك بطلمي يتوج في منف، وأن زوسر هو أول مَنْ جعل من منف عاصمة للبلاد في الأزمنة القديمة، لذا فقد كان طبيعيًا أن يتشبه بطلميوس الخامس بخيرة فراعنة الدولة القديمة.(٢٦)

وحتى لو سُجلت مناسيب منخفضة للفيضان، أو اضطربت مواعيده فإني أظن أن السبب الحقيقي لحدوث القحط يكمن في إهمال الحكومة في القيام بواجباتها، خاصةً وأن الاضطرابات التي وقعت على عهدي بطلميوس الرابع والخامس معلومة للجميع وترجع في معظمها لأسباب سياسية، وربما زاد من حدتها إصابة البلاد بالقحط الذي يرجع سببه جزئيًا إلى سوء الإدارة في البلاد، والدليل على ذلك تكرار الشكاوي لكل من بطلميوس الرابع والخامس بخصوص الإهمال في شئون الري التي تتوقف عليها حياة الشعب، ولم تجد هذه الشكاوي ردًا من الحكومة، ومن هذه الشكاوي واحدة تقدم بها مالك أطيان من الجنود المرتزقة اسمه فيلوتاس من أهالي قرية ابوللينوبوليس في الفيوم، وقد شكا كما يقول: "من الجفاف والقحط، وذلك لأنه في خلال ثلاث سنوات لم يرو النيل حقله بصورة كافية"(٢٧) لاحظ أن الشكوى مقدمه من جندي يوناني من المرتزقة ومن أصحاب الأراضي، فما بالك بوضع الفلاح المصري المغلوب على أمره.

ومن دلائل انهيار النظام الاقتصادي بداية من القرن الثاني قبل الميلادي ظهور ظواهر جديدة في حياة الريف المصري لم يألفها من قبل، منها ظاهرة وأد الأطفال نتيجة للفاقة وعجز المزارع المصري عن الوفاء بالتزاماته تجاه الحكومة وبالتالي تجاه أسرته، أما الظاهرة الثانية هي ظاهرة ترك المزارعين لأراضيهم والهروب منها فيما عُرف باسم اناخوريسيس (αναχορασισ) نظرًا لعجزهم عن الوفاء بشروط العقود المبرمة بينهم وبين الحكومة، أما نتيجة لضيقهم بإرهاق عمال الملك لهم واستنزاف مواردهم وقواهم، أو بسبب إهمال الإدارة لشئون الري، أو لأن إيجار الأرض لا يتناسب مع غلتها، بالإضافة لإهمال الموظفين المنوط بهم مراقبة الأعمال المتصلة بصيانة قنوات الري والصرف، ومما زاد في الأزمة تعنت موظفي الإدارة المالية وممارستهم ضغطًا شديدًا عليهم لحملهم على المضي في الزراعة بكل طاقاتهم والحصول على أكبر قدر ممكن من الدخل، وترتب على ذلك كله هروب المزارعين لعدم استطاعتهم دفع الإيجار بقيمته المرتفعة.(٢٨)

ولدينا بردية من أواخر القرن الثاني الميلادي تعطينا صورة واضحة عن الحالة المتردية التي وصلت إليها القرية المصرية، والوثيقة عبارة عن التماس تقدم به مزارعو قرية اوكسيرينخوس إلى أحد موظفي الإدارة المالية في القرية يقولون فيها "أن عددهم أصبح أربعين رجلاً بعد أن كانوا مائة وأربعين، وذلك بسبب المظالم التي يتعرضون لها، وأن المزارعين قد هجروا أراضيهم".(٢٩)

وخلال هذه الفترة ونتيجة لسوء الأحوال، فقد تعددت ثورات المصريين سواء في الدلتا أو في الصعيد، وقد وصل الأمر لاستقلال طيبة عن الحكم البطلمي وقيام الأسرة الأمونية لمدة نحو عشرين سنة (٢١٠ - ١٨٠ ق.م)،(٣٠) كما زادت الأمور سوء بغزو انتيخوس الرابع لمصر في ١٦٩ ق.م منتهزًا النزاعات الملكية بين بطلميوس السادس وأخيه السابع، وكادت الإسكندرية تقع في يده لولا تدخل روما السريع التي كانت لا تريد أن يشاركها أحد في مصر، وقد نتج عن ذلك تدمير الأرض وتخريبها وهجرت قري بأكملها، وربما يشير ذلك لحدوث حالات أشبه بالمجاعة والقحط دون حدوث انخفاض لمنسوب الفيضان.(٣١)

أما فترة القرن الأخير قبل الميلاد فكانت أصدق مثال على انهيار الأوضاع الاقتصادية في شتي جوانبها، وفشلت الحكومة في احتواء الأزمة والسيطرة على الأمور، وزاد من الأمر سوء انخفاض منسوب الفيضان لعدة مرات خلال فترات بسيطة. ونستدل على انخفاض منسوب الفيضان من كلام بلينيوس الأكبر حيث قال: "كان أدنى (منسوب للفيضان) خمسة (أذرع) خلال حرب فارسالوس (٤٩ ق.م) كما لو كان النهر يعبر عن حزنه لموت قائد عظيم".(٣٢)

'Minimum V Pharsalico bello, veluti necem Magni prodigio quodam flumine adversante'.

ISSN: 2090 – 0449
علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية



وخلال هذه الفترة اضطرت الحكومة نظرًا لتدني منسوب الفيضان وتأثر محصول القمح وقلته بشكل واضح في مدينة الإسكندرية العاصمة، أن تصدر قرارًا ملكيًا بفرض عقوبة الإعدام على مَنْ يقوم بتصدير القمح من مصر الوسطي إلى العليا بدلاً من تصديره إلى الإسكندرية، التي لا تزرع القمح في أراضيها. ونص البردية كالأتي:- "بواسطة قرار الملك والملكة (بطلميوس الثالث عشر– كليوباترا السابعة) غير مسموح لأي فرد أن يشتري القمح أو الفول من مقاطعات أعلى منف (مصر الوسطى) ليحملها لمقاطعات مصر الوسطى أو إلى طيبة بأي حال، ويجب أن ينقل كله إلى الإسكندرية، وسوف يتعرض للموت كل مَنْ يخالف ذلك، وسوف يحصل أي شخص يخبر الأستراتيجوس عن الشخص المخالف في مقاطعته على ثلث ممتلكات الشخص المذنب، وإن كان عبدًا فسوف يصبح حرًا بالإضافة لحصوله على سدس الممتلكات".(٣٣)

والبردية السابقة تدلل على حجم المأساة التي ألمت بالبلاد وهو ما أدى لنقص القمح والفول بشدة من الإسكندرية نتيجة لتدني منسوب الفيضان، ولإهمال الحكومة في القيام بدورها في مسائل الري، ونتيجة لاشتعال الصراعات على عرش البلاد بين الأسرة الحاكمة، وقد زاد من الأمر سوء قدوم قيصر واندلاع حرب الإسكندرية مما انعكس سلبًا على الناحية الاقتصادية.(٣٤) وفي سنة ٤٠ ق.م حدث فيضان منخفض آخر للنيل وعُرف هذا العام بعام القحط، وقد ورد ذلك في إشارة لأبيانوس قائلاً: "إنهم (بروبوس وكاسيوس) لم يتمكنوا من الحصول على شيء من تجار مصر لأن هذه البلد قد أصابها القحط".(٣٥)

“Ουτε γαρ τι δι εμπορων απ Αιγυπτου λαβει ν ειχον , υπο λι–μου τησ χωρασ δεδαπανημ ηενησ”

ونتيجة لذلك فقد اضطرت كليوباترا أن توزع الغلال الموجودة لديها في المخازن الملكية على مواطني الإسكندرية، أما بخصوص قرى ومدن مصر العليا فقد ألقت مسئوليتها على إدارتها الخاصة لحل هذه الأزمة.(٣٦)

(٢) المجاعات في مصر خلال الفترة الأولي من الحكم الروماني

تسلمت الإدارة الرومانية البلاد وهي في حالة سيئة خاصةً بالنسبة للحالة الزراعية، فقد سدت قنوات الري وأهملت حالة الأرض وحل بكثير منها البوار، كان ذلك نتيجة طبيعية لانشغال ملوك البطالمة بصراعاتهم على العرش وإهمالهم لشئون البلاد الداخلية. فكان لابد للإدارة الرومانية كي تضمن أحسن استغلال لثروات مصر وكي تحقق أقصي استفادة من الإنتاج المصري خاصةً القمح أن توجه عنايتها لشئون الري، وتعمل على تطهير الترع والقنوات التي سدت في نهاية العصر البطلمي. لذلك فقد حرصت الحكومة الرومانية خلال عهد الإمبراطور أوغسطس(٣٠ ق.م- ١٤م) أن تولي عناية خاصة بمشاريع الري، وأن توجه اهتمامها للأرض حتى تؤمن وصول القمح المصري إلى روما بعد أن قام أوغسطس بتنظيم الجزية النوعية من القمح (annona) في حوالي ٢٧ ق.م.(٣٧)

ونظرًا لهذه الأهمية، فقد وضع أوغسطس نظامًا صارمًا ودقيقًا يضمن له السيطرة على مصر وخضوعها التام للسلطة المركزية، وكان أهم عناصر هذا النظام أن يحكم مصر أفراد من طبقة الفرسان (ordo equester) [كان يحمل لقبًا من ألقاب طبقة الفرسان بمعني حاكم أو وال praefectus] حتى لا يستقل أحد من طبقة السناتو بحكم مصر ويهدد حياة الشعب الروماني،* أما القاعدة الثانية فكانت عدم السماح لأي عضو من أعضاء السناتو بزيارة مصر إلا بإذن رسمي منه لنفس السبب السابق.(٣٨)

أولت الحكومة الرومانية خلال الفترة الأولي من حكمها اهتمامًا بالغًا بمشروعات الري وبتنظيف وتطهير الترع والقنوات بشكل متواصل ودوري، وقد تم تنفيذ ذلك بواسطة السخرة لمدة تتراوح من خمسة إلى عشرة أيام، ولم يكن مسموحًا لأي شخص أن يتهرب من هذه المهمة أو أن يدفع مالاً عوضًا عن العمل والمجهود البدني (تشير العبارتان الأخيرتان إلى مشكلة مزمنة عانى منها نظام السخرة، وهي المحاولات المختلفة والمستمرة للتستر والرشوة والمحاباة) وكان يتم محاكمة مَنْ يتجاسر على ذلك وتتعرض ممتلكاته وحياته للخطر.(٣٩) كان يعطي لكل شخص أدي هذه الخدمة الإجبارية شهادة تثبت ذلك، وكانت تكتب على قصاصة بردي أو على شقافة فخار، وتحفظ لنا الوثائق البردية مئات من هذه الشهادات منها وثيقة تعود للقرن الميلادي الأول ٤٩م (خلال حكم الإمبراطور تيبيروس كلاوديوس) لشخص يدعي بيتيميروس بيوس أدى هذه الخدمة الإجبارية من قرية سوكنوبايونيسوس.(٤٠)

كما خصصت الإدارة موظفين للإشراف على أعمال الري وبذر البذور في الأرض، وكان من بين مهامهم تنظيم تدفق المياه في القنوات والأشراف على زراعة الأرض. وكذلك كان من بين هؤلاء حراس مهمتهم حماية القنوات ومجاري المياه، وكان بعضهم موظفين مأجورين لدي الدولة وبعضهم يقوم بهذه المهمة بمثابة خدمة إجبارية. وكان حراس المياه يقومون بعملهم لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر خلال موسم الفيضان، وكانت هناك نقابة للعمال الذين يقومون بهذا العمل في النهر، والذين كانوا يشقون القنوات ويوصلون المياه لبعض المناطق والحقول في القرى.(٤١)

ولدينا بردية عبارة عن أمر من كاتب قرية مشرف على القائمين في الحفر الذين وظفتهم الحكومة لمسح القنوات للعمل (١٥) يوم في نهر تالو. ونص البردية كما يلي: "اوريليوس تيثوتيون، كاتب عمال نهر من قرية كوري (قرية تقع على نهر talu الذي يتفرع من الفرع الغربي الرئيس عند هرموبوليس بارفا (دمنهور) ويصب في الفرع البلوبيتيني) من خلال ميلاس صديقة لشريكة وعمال النهر تحياتي من خلال استمرار العمل في الحفر في نهر talu مدفوع الأجر لمدة ١٥ يوم السنة الثالثة باوني ٢٦".(٤٢)

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

"Αυριλιοσ Τιθοητιων γραμματευσ ποτ αμιτων Κορη δι Εμου Μελανοσ φηλου συνγραμματευοντι και ποταμι ταισ χαι ρειν. Συνεχω ναυβιων μαλιστα το κεφ αλαιον εργασασθαι εν υδασι Ταλυ τ ου συνηθουσ φορου ημερων δεκαπεντ ε, ετουσ γ παυνι κσ."

خلال فترة أوغسطس وولاية البريفكتوس بترونيوس (٢٦-٢٤ ق.م) نفذت بعض مشاريع الري وأشرف الوالي بنفسه على شق الترع وتطهير قنوات الري التي كانت تسد كل عام بالطمي الذي كان يجعل الأراضي أكثر خصوبة، وقد أشرك بترونيوس الجيش في هذا العمل الحكيم والمفيد، ويبدو أنه خلال هذه الفترة أُقيم مقياس النيل عند جزيرة الفانتين من أجل ضبط ارتفاع منسوب الفيضان في الجنوب، حتى تتحدد الضريبة بشكل دقيق.[٤٣] ويبدو أن ذلك أدى لشعور الأهالي بالرضا على الإدارة الرومانية لأن الفيضان الذي كان يصل ارتفاعه اثني عشر ذراعًا خلال العهد الروماني -والذي كان بمثابة الكارثة والتهديد بالمجاعة خلال العهد البطلمي- أصبح يثمر خيرات زراعية ربما تفوق تلك التي كانت تأتي عن فيضان ارتفاعه (١٤) ذراعًا أواخر الحكم البطلمي.[٤٤] ونستدل على ذلك بما ذكره سترابون:- "ولكن في وقت حكمه (الوالي بترونيوس ٢٦ -٢٤ ق. م) في كل البلاد عندما بلغ مقياس النهر (١٢) قدمًا فقط، كانت المحاصيل في أفضل حالاتها، وعندما بلغ المقياس ثمانية أقدام فقط لم يشعر أحد بالمجاعة".[٤٥]

"Επεκινου δε αρξαντοσ τησ χωρασ καιβ δω δεκα μονον πληρωσαντ– οσ πηχεισ του Νι λου μετρου μεγιστη ην η φορα και οκτω πο τε μοϖοϖ πληρωσαντοσ, λιμου ουδεισ ησθ ετο".

والنص يشير لحدوث فيضان منخفض للنهر بلغ نحو ثمانية أقدام فقط وهو منسوب منخفض جدًا لدرجة أن أعلى من هذا المنسوب كان يسبب المجاعة في البلاد، ومع ذلك لم تحدث المجاعة في البلاد، وهو ما أكده سترابون المعاصر للأحداث الذي زار مصر خلال هذه الفترة تقريبًا (٢٥-٢٤ ق. م) ويرجع ذلك للإجراءات التي كانت قد اتخذتها الحكومة من قبل واستمرت عليها، وربما كانت هذه أول مرة نسمع فيها عن حدوث انخفاض منسوب للفيضان ومع ذلك لم تحدث المجاعة للأسباب السابق ذكرها.

أما المرة الثانية التي نسمع فيها عن انخفاض للنهر ربما قد سبب مجاعة فكان خلال زيارة جرمانيكوس لمصر (١٩م) ووصوله إلى الإسكندرية دون أذن من الإمبراطور بحجة حدوث مجاعة هائلة حدثت فجأة، ونظرًا لاهتمامه الشديد بالولاية ورغبته في تخليصها من الأزمة الاقتصادية التي ألمت بها، لذلك فقد قام بفتح مخازن الغلال العامة وسمح ببيع الحبوب بأسعار رمزية للشعب، وهو ما أدى بأن قام الإمبراطور بتوبيخه لأنه كسر قاعدة هامة من قواعد الحكم - التي سبق الإشارة لها- التي أرساها أوغسطس من قبل.[٤٦] وقد تحدث تاكيتوس عن الزيارة قائلاً:- "وفي أثناء قنصلية ماركوس سيلانوس نوربانوس ذهب جيرمانيكوس إلى مصر للتعرف على تاريخها القديم، غير أنه تذرع بحجة الاهتمام بالولاية، وقد خفض الأسعار بأن فتح صوامع الغلال واصطنع أشياء كثيرة مقربة إلى قلب الجمهور".[٤٧]

'M. Silano L. Norbano consulibus Germanicus Aegyptum proficiscitur cognoscendae antiquitatis. Sed cura provinciae praetendebatur, levavitque apertis horreis pretia frugum multaque in vulgus grata usurpavit'.

كما تحدث سيوتينيوس عن زيارة جرمانيكوس قائلاً:- "بل إن (الإمبراطور) شكا إلى السناتو من أن جرمانيكوس ذهب إلى الإسكندرية دون استشارته متعلل بمجاعة هائلة حدثت فجأة.[٤٨]

'Quad vero Alexandream propter immensam et repentiam famem inconsulto se adisset questus est in senatu.'

ومع ذلك فأنا لا أتصور أنه قد عصفت بالبلاد مجاعة خلال هذه الفترة، وأن المسألة لم تكن سوى مجرد دعاية سياسية تبناها جيرمانيكوس ليجد لنفسه ذريعة يدخل بها مصر، ولو سلمنا بأنه ألمت بالبلاد مجاعة بالفعل، فمن الواضح أن الحكومة كانت قد اتخذت حيطتها لمواجهة مثل هذه الظروف، بدليل أن جيرمانيكوس قام بفتح مخازن الغلال وسمح ببيع القمح بأسعار زهيدة للشعب لمواجهة الأزمة.

وخلال هذه الفترة تقريبًا وعلى عهد تبيريوس (١٤- ٣٧ م) أرسل البريفكتوس ايميليوس ريكتوس الجزية النوعية إلى روما زائدة عن المعدل المطلوب، فما كان من الإمبراطور إلا أن قال له مقولته الشهيرة "لقد أمرتك بجز صوف الماشية لا بسلخها".[٤٩] وبالطبع لم يكن غرض الإمبراطور صالح مصر وشعب مصر، وإنما صالح روما ومن أجل تنظيم الاستفادة من خيرات مصر، واستنزاف مواردها بشكل منظم، لكن ما يهمنا في هذا الموقف هو الثراء الذي وصلت إليه مصر ووفرة إنتاجها بشكل سمح بإرسال جزية زائدة لروما دون أن يتبع ذلك شعور البلاد بالجوع.

وخلال هذه الفترة كانت الإدارة المركزية مهتمة بإجراء مسح سنوي للأرض بعد كل فيضان (كان ذلك متبعًا خلال العصور القديمة) لأن الفيضان كان يزيل كافة العلامات الفاصلة بين حدود الأراضي الزراعية (trabo .XVII.1.3) وكانت السجلات الخاصة بمسح الأراضي تودع في مكتب كاتب القرية والكاتب الملكي والأستراتيجوس، وربما كذلك في المكاتب الرئيسية للإدارة المركزية في الإسكندرية.[٥٠]

اهتمت الإدارة المركزية كذلك بالتفتيش على الأرض، وكانت هناك لجان تعين سنويًا لملاحظة الأرض بعد الفيضان وتقدير معدل الضرائب حسب حالة الأرض. وكانت حريصة كذلك أن تُحصل الضرائب وفقًا للحالة الفعلية للأرض بعد الفيضان وليس على

أساس متوسط الفيضانات السابقة، وهو ما دعي البريفكتوس تبيريوس يوليوس الإسكندر أن يصدر مرسومًا في سنة ٦٨م يتضمن أحد بنوده هذا المعني، وقد جاء نص بند المرسوم كالآتي:- "الإيجارات والضرائب العينية من الحبوب يجب حسابها وفقًا للفيضان الفعلي السنوي للنيل وليس على أساس متوسط الفيضان خلال عدة سنوات".[٥١]

أما الإشارة التالية لمجاعة حدثت في مصر كانت خلال عصر تراجانوس (٩٨- ١١٧) وبالتحديد في سنة ٩٩م، فقد أخبرنا بلينيوس الأصغر أنه قد انخفض منسوب الفيضان، وهو ما أدي لحدوث مجاعة في مصر اضطرت الإمبراطور أن يرجع شاحنة قمح كانت ذاهبة إلى روما.[٥٢] ومع ذلك فاناْ لا أميل لرأي بلينيوس الأصغر لأنه لو سلمنا أصلاً بحدوث مجاعة في مصر خلال هذه الفترة -وهو ما لم تذكره المصادر القديمة- فأنا لا أصدق أن الإمبراطور تراجانوس قد أرجع شاحنة قمح كانت ذاهبة لإطعام شعب روما، لأنه في هذه الفترة كان يستعد للقيام بمشاريع حربية ضد قبائل الداكيين وهي الحرب التي اندلعت بعد نحو عام أو أكثر، مما يجعله في حاجة لكل حبة قمح لشعبه أو لجيشه، أما السبب الثاني الذي يجعلني لا أصدق كلام بلينيوس الأصغر هو أنه كان من رجال بلاط تراجانوس المقربين، ومؤلفه يُعَدّ خطبة مديح لتراجانوس عدد فيها محاسنه، وقارنها بمساوئ سلفه الإمبراطور دوميتيانوس. وخلال هذه الفترة وفي ١١٥م اندلعت ثورة الهود في مصر وبرقة وهو ما اضطر الحكومة أن تقوم بتسليح الأهالي لمواجهه هذا الخطر، وهو ما أدي لإهمال شئون الزراعة وبوار الأرض وخراب الزراعة، وهُجرت القرى وزادت الشكوى من تعسف الموظفين في تقدير الضريبة المقررة على الأراضي.[٥٣]

(٣) تدهور الأحوال الاقتصادية في مصر منذ نهاية القرن الثاني الميلادي

أما خلال فترة حكم الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠م)، فقد بدأت بوادر الانهيار تدب في الإمبراطورية، وانعكس ذلك سلبًا على مصر، نظرًا للحروب المستمرة وتهديد القبائل البربرية في الشمال والغرب، وكذلك زيادة الخطر الفارسي في الشرق، كما اندلعت ثورة الرعاة في مصر في ١٧١م والتي وصفت على أنها ثورة على الحكم الروماني الفاشل، وضد الأوضاع الاقتصادية السيئة.[٥٤] وخلال هذه الفترة يبدو أن الإنتاج المصري من القمح قد قل أو اضطرب على الأقل، وهو ما نستدل عليه من اضطرار الإمبراطور كومودوس (١٨٠- ١٩٢م) أن يعتمد على استيراد القمح من شمال إفريقيا (Clasis Africana) بدلاً من الاعتماد على مصر كما كان سائدًا.[٥٥]

أما خلال القرن الثالث الميلادي، فقد شهدت مصر شأنها شأن معظم الولايات الرومانية فترة من أسوأ فتراتها خاصة بالنسبة للظروف الاقتصادية، وهو ما أدي لهجرة قرى بأكملها كما في إقليم منديس في الدلتا، وكذلك في عدد من مدن وقري الفيوم،[٥٦] وقد اضطرت الحكومة المركزية أن تعالج مثل هذه الأمور بعدد من الوسائل الترهيبية والترغيبية،* لكن هذه الإجراءات لم تثمر شيء لأن الأمور كانت قد وصلت لدرجة يصعب معها أنصاف الحلول.[٥٧] وقد شهد القرن الثالث ق.م نفس السيناريو السابق فقد بدأت دولة البطالمة عهدها بفترة من النجاح على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية لكن سرعان ما انهارت في القرن الأول ق.م، وكانت النهاية على يد الرومان في ٣١ ق.م الذين تسلموا التركة وهي مثقلة بالأعباء ومن أجل تحقيق مصالحهم ومصالح بلادهم وتحقيق أقصى استفادة من خيرات مصر، فقد كانت البداية قوية وتحسنت الأمور شيئًا فشيء وازدهرت الأحوال الاقتصادية كما كانت في بداية العصر البطلمي. أما بعد ذلك تكون النهاية المحتومة باختلاف الظروف والأسباب وتكون النتيجة واحدة هي انهيار في كافة مناحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وكان من ملامح هذا الانهيار بوار الأرض، وارتفاع أسعار السلع، وهجرة الأرض، وانتشار الطاعون، إنها حالة أشبه بالمجاعة ولكن بدون انخفاض لفيضان النيل.

خاتمة

توصل البحث إلى النتائج الآتية:-

- يختلف منسوب الفيضان قربًا وبعدًا عن منبعه، فكلما كان المقياس موضوع بالقرب من المنبع في الجنوب كلما زاد مستوي ارتفاع الفيضان، وكلما اقترب وجود المقياس من المصب في البحر المتوسط كلما انخفض مستوي ارتفاع النهر، ففي حين يزيد مستوي الفيضان عند أسوان عن (١٦ ذراع) فإنه عند منف يصل متوسطة إلى (١٢ ذراع)، في حين لا يزيد متوسطة عند مدن الدلتا عن نحو ثمان أذرع.
- يُعَدّ انخفاض فيضان النيل عنصرًا مهمًا من عناصر حدوث المجاعات ولكنه ليس العامل الوحيد في حدوث هذه المجاعات التي ألمت بمصر خلال العصرين اليوناني والروماني، وأن فيضانه السنوي ليس دائمًا هو المسئول الوحيد عن حدوث مثل هذه المجاعات، وإنما يتدخل في الأمر عوامل أخرى منها إهمال الحكومة لمشاريع الري المتمثلة في تطهير الترع والقنوات وإصلاح الجسور وإقامة الخزانات والسدود، وكذلك سوء تصريف المياه وعدم توزيعها بالعدل بين الأقاليم وعدم توصيل المياه إلى المناطق التي لا تصلها مياه النهر، وسوء التصرف في فائض المياه في العام الذي يأتي فيه الفيضان زائد عن الحد. والدليل على هذه النتيجة رصد حالات مجاعات في مصر خلال العصرين خلال الفترات التي كانت فيها الحكومة تتقاعس عن القيام بواجباتها في هذا الشأن، وكذلك تسجيل معدلات فيضان منخفضة للنهر خلال بداية العصر الروماني دون حدوث أية مجاعات، وذلك لأن الحكومة كانت تقوم بواجبها بالشكل الصحيح (بغض النظر عن أغراض الحكومة الرومانية آنذاك).
- أن مسألة فرار الأهالي والفلاحين من الأرض، وهجر القرى، وبوار الأرض، وارتفاع أسعار السلع كلها أمور توحي بشكل من أشكال القحط والجدب والمجاعة، والتي قد تصيب البلاد دون انخفاض لمنسوب فيضان النيل، وإنما تعود في معظم الأحوال لفساد الإدارة المركزية والتقصير في واجباتها والمبالغة في تقدير وجمع الضرائب المفروضة على الفلاحين، وقد حدث ذلك خلال فترات ضعف الحكومتين البطلمية والرومانية وهو ما يدعم النتيجة التي تم التوصل إليها.

ISSN: 2090 – 0449 | علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية

الهوامش:

* تم إلقاء هذا البحث في مؤتمر "نهر النيل ومصادر المياه في مصر عبر العصور" في كلية الآثار – جامعة القاهرة - فرع الفيوم خلال الفترة (٢ – ٤) أبريل ٢٠٠٥.

(١) إميل لودفيج (٢٠٠٤)، **النيل: حياة نهر**، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ص ٤٤٧.

(٢) جمال حمدان (١٩٨٠)، **شخصية مصر**: دراسة في عبقرية المكان، القاهرة، ص ٦٦٦.

(٣) محمد عوض محمد (٢٠٠١)، **نهر النيل**: الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ص٢٥٣.

(4) Strabo, XVII .1.48.

(5) Manning J.G.(2003),Land and Power in Ptolemaic Egypt . London. Pp. 29,30.

(6) Strabo, XVII .1 .48.

(7) Bonneau D.(1971), Le Fisc et Le Nile. Paris. PP. 25-39.

(9) Strabo, XVII ,1,3.

(10) Pliny, V,X, 58.

(١١) جيمز. ت. ج (١٩٩٥)، **كنوز الفراعنة**، ترجمة: أحمد زهير أمين، القاهرة، ص ١٣.

(١٢) كانت هذه الاحتفالات تتم في منف خلال الانقلاب الشتوي في ٢٢ ديسمبر حيث يخرج الشعب ليحتفل بهذه المناسبة، ويأكل البصل الذي كان يحوط أعناقهم.

Darby W.J.; Ghalioungai P.S.& Grivetti L.(1971),Food the Gift of Osiris , London. P. 662.

(13) Kakosy L.(1982), The Nile , Euthenia and the Nymphs 'JEA. (68) P.293.

(١٤) أبو اليسر فرح (٢٠٠٤)، **النيل في المصادر الإغريقية**، القاهرة، ص ٦٠ - ٦٢.

(15) Kakosy L.,op.cit., p., 292.

(١٦) جمال حمدان: المرجع السابق، ص ٦٦٧ – ٦٦٨.

(17) SB. 6. 8392. apud Naftali Lewis (1985), Life in Egypt under Roman Rule. Oxford. p. 111; Pliny,V , X,58, p., 263.

(18) P., OX., 1211.

ترجمة نفتالي لويس: المرجع السابق، ص ١٣٢.

(19) Dorothy J., Thomsson (1985). Memphis under Ptolemaic Egypt. London, p.12.

* وفقًا لترجمة نفتالي لويس، وكذلك الترجمة الانجليزية لنص بلينيوس لطبعة (Loeb) فإن الذراع الانجليزي يساوي نحو ٢÷٣ من الذراع المصري خلال العصر الروماني وهو ما يعني أن متوسط هذه الفيضانات يزيد عن ١٦ ذراع انجليزي.

(٢٠) لودفيغ أميل: المرجع السابق، ص ٤٥٥.

(21) Manning J.G., op.,cit., p., 38.

* يمكن الرجوع للمواد التالية لمزيد من المعلومات عن النهضة الزراعية خلال العصر البطلمي:

Grabam S.(2000), The Greek after Alexander 323-30 B.c., London . pp. 226-7; Bowman A., Egypt after Pharaohs (1986). London. P.20; Dorothy J.C.(1979), Food Tradition and Change in Hellenistic Egypt, World Archaeology.(2) pp. 140- 9; Rostovetzeff M. (1927), A Large Estate in Egypt in 3rd century B.c. London.

وكذلك: إبراهيم نصحي (١٩٦٦)، **تاريخ مصر في عصر البطالمة**، الجزء الثالث، القاهرة: لطفي عبد الوهاب يحي (١٩٩٩)، **دراسات في العصر الهلينستي**، الإسكندرية، ص ١٥٦- ١٦١.

(22) Roger S. Bagnal & Peter Derew.(2004),The Hellenistic Period: Historical Sources in Translation, Second ed. New York.

(23) OGIS., 56,13-18.

"Του τε ποταμου ποτε ελλεστεπον αναβαντος και παντων των εν τη χωρα καταπεπληγμενων επι τω συμβεβηκοτι και ενθυμουμενων την γεγενμενην καταφθοραν επι τινων των προτερον βεβασιλευκοτων, εφων συνεβη αβροξιαισ περιπτωκεναι τους την ξωραν κατοικουντας, νικως ιδοντες ενεκα της των ανθρωπων σωτηριας, εκ τε Συριας και Φοινικης και Κυπρου και εξ αλλων πλλων πλειονων τοπων σιτον μεταπεμφαμενοι εις την ξωραν τιμων μειζονων διεσωσαν τους την Αιγυπτον κατοικουντας,αθανατον ευεργεσιαν και της αυτων αρετη"

* رغم أن النص ورد ذكره في العديد من المصادر القديمة وتناقلته المراجع الحديثة لكني أتحفظ على كيفية أن يحارب بطلميوس سوريا ثم يضطر لشراء القمح منها. (الباحث)

(24) Holbal G.(2001), A History of the Ptolemaic Empire. London.168

(25) Pascal V. Jean Y.& Dvid L.(2003),The Book of the Pharaohs , New York. p., 65.

(26) Lichtheim M. (1980), Ancient Egyptian Literature: Late Period, London. p.5; Gnuse R.k. (1996), Dreams and Dream Report in the Writings of Josephus, koln, New York. p.66.

(27) Fouilles FP. (1950),Tell Edfu. 111.p, 333-4.

نقلاً عن: سليم حسن: **مصر القديمة**، الجزء السادس عشر، الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة، ص ٢٠٠- ١.

(٢٨) مصطفي كمال عبد العليم (١٩٧٤)، **الأرض والفلاح في مصر في عهد البطالمة**، الجمعية للمصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ص ١٠١- ١٠٣. للحصول على معلومات مفصلة عن مسألة الهروب الجماعي خلال العصر البطلمي يمكن الرجوع إلى: أبو اليسر فرح (١٩٩٤)، **الدولة والفرد في مصر وظاهرة هروب الفلاحين في عصر الرومان**، القاهرة، ص ٥٣ – ٧٧.

(29) P.,Tebtunis , V. 803.

(30) Chmoux F.(2003), Hellenistic Civilization. Oxford, p.120.

(٣١) جون مارلو (٢٠٠٤)، **العصر الذهبي للإسكندرية**، ترجمة نسيم مجلي، القاهرة، ص ١٤٦- ٧.

(32) Pliny, V. 58.

(33) Select Papyri. II. 209.

(34) Julian, M.(2003), Cleopatra Ruling in The Shadow of Rome. New York. p. 31.

(35) App. Civ. IV.16,108.

(36) Holbal, G. op.cit, pp.239-40.

(٣٧) قدر بعض العلماء كمية القمح التي كانت تصل لروما من مصر سنويًا بنحو ٢ مليون أردب مصري (حوالي ١٣٥ ألف طن) وهو ما كان يزيد عن ثلث ما كانت تستورده روما سنويًا من غلال، وأكثر من نصف ما تحتاجه روما من غلال، بالإضافة لكميات أخرى كانت تترك في شون الحكومة في مصر للطوارئ ولإطعام جيش الاحتلال. راجع:

Garnsay, p. Saller r.(2001),The Roman Impair , Economy, Society and Culture, fifth edition , London. pp. 84, 85.

* "وعزل مصر (أوغسطس) خوفًا من أي شخص يحتل هذه الولاية ويصيب إيطاليا بالمجاعة"

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449



"Seposuit Aegyptum ne fame urgeret I taliam quisquis eam proviniciam insedisset" *(Suetonius – Ann., II,59)*

(38) Pat Southern (1999), Augustus. New York. pp. 107 – 109.

هناك مَنْ يرى بأن من الأسباب التي دعت أوغسطس أن يمنع أعضاء السناتو من دخول مصر إلا بإذن رسمي منه، هو رغبته بألا يتعرض والي مصر للإحراج وإضعاف مكانته بين مرؤوسيه من السناتو، لذا أراد أوغسطس أن يمنع هذا الحرج. راجع: أبو اليسر فرح (٢٠٠٢)، **تاريخ مصر في عصر البطالمة والرومان**، القاهرة، ص ١٦٧.

*هذه الجملة تشير لمشكلة خطيرة عاني منها نظام السخرة، وهي المحاولات التي كانت تتم للتستر والرشوة والمحاباة، وفي قضية حدثت خلال القرن الميلادي الأول اتهم اثنان من موظفي القرية ملاحظًا كان تقاضي أربع دراخمات من كل واحد من تسعة وخمسين رجلاً مقابل عدم عملهم في السدود العمومية. انظر:

Select Papyri III. 3264

(٣٩) نفتالي لويس (١٩٩٤)، **مصر الرومانية**، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ص ١٣٤,١٣٣.

(40) P. London, II, 165.

*هناك العديد من مثل هذه الشهادات تم حصرها بواسطة:

P.J.,Sijpeiteijn(1964), Penthemeros Certificates in Graeco- roman Egypt, pap.Lugd-Bat.xii.

(٤١) محمد السيد عبد الغني (١٩٩٩)، **لمحات من تاريخ مصر تحت حكم الرومان**، الإسكندرية، ص ١٩٩ – ٢٠٠.

(42) P., Ox., 1427.

(43) Rappoport,(2003), History of Egypt from 330 B.C to the Present Time, vol.2, New York.p.357.

(44) Miline, G.E.(1924), A History of Egypt under the Roman Rule third edition, London. P. 11

(45) Strabo, XVII, 1,3.

(٤٦) عبد اللطيف أحمد علي (١٩٦٦)، **مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الوثائق البردية**، القاهرة، ص ٧٢. لمزيد من المعلومات عن زيارة جرمانيكوس لمصر يمكن الرجوع للمرجع السابق، ص ٧٠-٨١.

(47) Tac. Ann. II. 59.

(48)Suetonis, Tib. III.2.

(49) Barbra, L.(2000),The Government of Roman Empire. second edition. London. p.187.

*ونص العبارة موجود لدى:

(50) Cockle, WH. (1984), State Archives in Graeco-Roman Egypt 30B.C.to The Reign of Septimus Severus' JEA. (70) P.106.

(51) BGU. 1563, col., 22-25.

(52) Pliny younger, Panegyricus, I,30,31.

(٥٣) محمد السيد عبد الغني (٢٠٠١)، **تعسف الإدارة الرومانية مع المزارعين، في جوانب من الحياة في مصر في العصرين البطلمي والروماني في ضوء الوثائق البردية**، الإسكندرية، ص ٢١٥- ٢٢٨.

(٥٤) آمال الروبي (١٩٨٠)، **مصر في عصر الرومان**، القاهرة، ص ١٣٠ - ١٣٢.

(55) Historia Augusta, XXVII,7; Michael grant (2001), The Roman Emperors, third edition, London. p. 97.

وكذلك مصطفي العبادي (١٩٧٥)، **مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح الإسلامي**، القاهرة، ص ١٩٠.

(٥٦) مصطفي العبادي (١٩٧٤)، **الأرض والفلاح في مصر على مر العصور**، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ص ١٣٥- ٦.

* من وسائل الترهيب فرض عقوبات على مَنْ يؤوون الهاربين من الأرض وإلزام الأهالي بتقديم إقرارات تتضمن قائمة بأسماء أعضاء النقابة، ومن وسائل الترغيب قرارات عفو عن الهاربين، وتخفيف الضرائب، وبيع الأراضي البور بأسعار زهيدة. راجع: أبو اليسر فرح، **الدولة والفرد في مصر خلال العصر الروماني**، ص ١٦٠- ١٨٢.

(٥٧) المرجع نفسه، ص ١٨٣.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449





انخراط الكنيسة الكاثوليكية في حقل الدراسات الإفريقية
التجربة التاريخية للأب جوزيف كيوك

أحمد الشكري

أستاذ التعليم العالي
معهد الدراسات الإفريقية – الرباط
جامعة محمد الخامس – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد الشكري، انخراط الكنيسة الكاثوليكية في حقل الدراسات الإفريقية: التجربة التاريخية للأب جوزيف كيوك.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ١٢٣– ١٣٠.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

عند منتصف القرن الماضي، أخذت الكثير من الدول الإفريقية تتحسس طريقها نحو الحرية والاستقلال، وواكب هذه التحولات السياسية، انتفاضة ثقافية سواء لدى الأفارقة أو الأوروبيين (المستعمَر والمستعمِر)، وبناءً على هذه المستجدات، تغيرت نظرة أوروبا تجاه إفريقيا، وبات الاهتمام العلمي المتحرر من الكثير من سمات المدرسة الاستعمارية أو ترسبات الحروب الصليبية، يفرض نفسه بشكل تدريجي في حقل الدراسات الإفريقية. في سياق هذه التطورات الإيجابية، لم تجد الكنيسة بدًا من الانخراط في هذه الدينامية الجديدة، فأخذت هي الأخرى تهتم بالحالة الدينية للمجتمعات الإفريقية بشكل أكاديمي، بعيدًا عن النزعات الشوفينية التي تعودنا عليها في إطار الصراع المسيحي الإسلامي، الذي استعر خلال الحروب الصليبية منذ القرن الحادي عشر الميلادي، وترك آثارًا عميقة في نفسية الطرفين على امتداد القرون اللاحقة. ولعل من أهم الأسماء التي تصدرت التّوجه الجديد، ووهبت حياتها لخدمة مسألة التقارب والتسامح الديني، خاصةً بين المسيحية والإسلام في الأرض الإفريقية: الأب والمستشرق لويس غارديه (Gardet Louis) والأب المستعرب والمؤرخ جوريف كيوك (Joseph Cuoq)، والأب المستعرب موريس بورمان (Maurice Borrmans) وغيرهم. وبحكم الاختصاص، تروم هذه الدراسة، التركيز على أعمال الأب جوزيف كيوك، باعتباره من أهم رجال الكنيسة المسيحية، الذين تابعوا بعُدّة الباحث المؤرخ، صيرورة تجربة المسيحية والإسلام في القارة الإفريقية، مخلفًا مجموعة من الدراسات الرائدة في حقل الدراسات الإفريقية.

مُقَدِّمَة[١]

عند منتصف القرن الماضي، أخذت الكثير من الدول الإفريقية تتحسس طريقها نحو الحرية والاستقلال، وواكب هذه التحولات السياسية، انتفاضة ثقافية سواء لدى الأفارقة أو الأوروبيين (المستعمَر والمستعمِر). وبناءً على هذه المستجدات، تغيرت نظرة أوروبا تجاه إفريقيا، وبات الاهتمام العلمي المتحرر من الكثير من سمات المدرسة الاستعمارية أو ترسبات الحروب الصليبية، يفرض نفسه بشكل تدريجي في حقل الدراسات الإفريقية؛ ولعل أولى بواكير هذا التحول، تجلى في العمل الضخم الذي أنتجه المؤرخ الفرنسي ريموند موني: "لوحة جغرافية عن الغرب الإفريقي خلال العصر الوسيط" سنة ١٩٦١.[٢]

وفي اعتقادي، يمثل عمل موني قطيعة حاسمة مع توجهات المدرسة الاستعمارية، حيث تفاعل مع موضوعه بمقومات الباحث الأكاديمي وباحترافية وحنكة عزّ نظيرهما، مما أكسب مؤلفه مصداقية معتبرة، حتى إنه أضحى إلى يوم الناس هذا، من الدراسات الأساسية التي لا يمكن لأي مختص القفز عليها أو تجاهلها؛ علما أن الطبعة الأولى للتأليف صدرت سنة ١٩٦١، أي سنة تحرّر جلّ دول إفريقيا من الاستعمار الأوروبي.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

في سياق هذه التطورات الإيجابية، لم تجد الكنيسة بدًا من الانخراط في هذه الدينامية الجديدة، فأخذت هي الأخرى تهتم بالحالة الدينية للمجتمعات الإفريقية بشكل أكاديمي، بعيدًا عن النزعات الشوفينية التي تعودنا عليها في إطار الصراع المسيحي الإسلامي، الذي استعر خلال الحروب الصليبية منذ القرن الحادي عشر الميلادي، وترك آثارًا عميقة في نفسية الطرفين على امتداد القرون اللاحقة، وهي آثار ما نزال نجتر تبعاتها، خاصة لدى مجتمعات حوض البحر الأبيض المتوسط؛ ثم جاءت المرحلة الاستعمارية، وانتقل معها الصراع فيما بين المسيحية والإسلام لجوف القارة الإفريقية، حيث تم توظيف الدين في تثبيت أو مقارعة الاستعمار الأوروبي. وعلى الرغم من الإمكانيات التي توفرت للغرب المسيحي وقتئذ، فإنه لم يسلم من الانتقادات اللاذعة حتى في المعاقل التي تطورت بها المسيحية منذ قرون خلت.[٣]

وتبعًا للتحولات أو المخاض الذي كانت تعرفه الكنيسة، خاصةً بعد عشرة الستين من القرن الماضي، ظهر توجه بارز لدى مجموعة من الأساقفة، حاول استلهام - أو بالأحرى اصطناع - المنهج الأكاديمي في الأعمال التي يقدمها. وبموازاة مع ذلك، اجتهد ذات التوجه في التكفير عن آثام الكنيسة المسيحية تجاه الأديان والنّحل الأخرى. ولعل من أهم الأسماء التي تصدرت التّوجه الجديد، ووهبت حياتها لخدمة مسألة التقارب والتسامح الديني، خاصةً بين المسيحية والإسلام في الأرض الإفريقية: الأب والمستشرق لويس غارديه (Louis Gardet) والأب المستعرب والمؤرخ جوزيف كيوك (Joseph Cuoq)، والأب المستعرب موريس بورمان (Maurice Borrmans) وغيرهم. وبحكم الاختصاص والاهتمام، سنحاول التركيز في هذه الدراسة، على أعمال الأب جوزيف كيوك، باعتباره من أهم رجال الكنيسة المسيحية، الذين تابعوا بعُدّة الباحث المؤرخ، صيرورة تجربة المسيحية والإسلام في القارة الإفريقية، مخلفًا مجموعة من الدراسات الرائدة في حقل الدراسات الإفريقية.

أولاً: سيرة الراهب الباحث جوزيف كيوك (١٩١٧ - ١٩٨٦)

على الرغم من أهمية الأعمال التي قدمها الأب جوزيف كيوك (Joseph CUOQ) -الفرنسي الجنسية- في حقل الدراسات الإفريقية، فإن المختصين في الميدان تجاهلوا سيرة الرجل وإنجازاته، ولولا مبادرة أحد أصدقائه المقربين جان فونتين(Jean Fontaine)،[٤] ما كانت الظروف تسمح بالوقوف على بعض جوانب حياته المهنية وسفرياته المتعددة في إفريقيا. مباشرةً بعد وفاة جوزيف كيوك سنة ١٩٨٦، نعاه جان فونتين في كلمة تأبينية نشرها في مجلة معهد الفنون الجميلة في تونس العاصمة (IBLA)، حيث قدّم ترجمة مختزلة للرجل، ضمّنها لائحة بجلّ الدراسات والمقالات التي أنجزها ونشرها جوزيف كيوك منذ سنة ١٩٤٤ إلى غاية ١٩٨٦.[٥]

بدأ كيوك حياته الرهبانية في أحد كنائس الجزائر العاصمة سنة ١٩٣٦، ثم سرعان ما تدرج في سلم الرهبانية إلى أن رقّي أبا (Prêtre) في تونس العاصمة بعد سنة ١٩٤٠ بقليل. وبغاية تعميق معرفته باللغة والثقافة العربية الإسلامية، انتسب لمعهد الفنون الجميلة الذي يصدر مجلة إيبلا (IBLA)، وظل يتابع أبحاثه بها إلى حدود سنة ١٩٤٦، ونفس السبب حمله للسفر إلى لبنان حيث قضّى به ثلاث سنوات. وقبل أن يعود للإقامة في حي القصبة في الجزائر العاصمة سنة ١٩٥٤، أقام في باريس لمدة خمس سنوات، ساهم أثناءها في تأسيس إحدى المجلات التي اهتمت بشؤون المغاربيين في فرنسا (Cahier Nord Africains). وأثناء عمله في الجزائر تمكن من نسج علاقات وطيدة مع العديد من رموز الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار الفرنسي؛ وبموازاة مع ذلك، تابع اهتماماته العلمية، فساهم في العديد من الأنشطة، منها إصداره للنّشرة المتعلقة بالعالم العربي.[٦] وقد أبان كيوك من خلال كتاباته في هذه النشرة عن رغبة عميقة في تحقيق التفاهم ما بين الشعوب والديانات.

وحينما عاد إلى روما سنة ١٩٦٥، كلّفته الكنيسة الأم بشعبة خاصة بشؤون غير المسيحيين؛ وقد كان طبيعيًا، بحكم تجربته الحياتية بعدد من البلدان العربية الإسلامية، أن يتفرّغ في مهمته الجديدة لقضايا الإسلام والمسلمين، مما حفّزه على المزيد من الاحتكاك بواقع المجتمعات الإسلامية، فقام بزيارات متعددة للكثير من الدول الإفريقية ذات الغالبية الإسلامية أو تلك التي بها جالية إسلامية ضعيفة. وغني عن البيان، أن سياحته هذه، أخصبت رصيده المعرفي بواقع الإسلام والمسلمين، مما حمل الكنيسة على مطالبته صحبة زميله الأب [و] المستشرق لويس غارديه (Louis Gardet) بإخراج الوثيقة المشهورة: "من أجل الحوار ما بين المسيحيين والمسلمين" سنة ١٩٧٠.[٧]

وما كاد ينتصف عقد السبعينيات من القرن الماضي، حتى عاد مرة أخرى لتونس، ثم قدّم طلبًا للانتماء لمعهد الفنون الجميلة سنة ١٩٧٧. ويظهر أن هذه المرحلة من حياته شهدت نشاطًا علميًا متوقدًا، حيث أخرج الكثير من أعماله، كما ساهم بنشاط وافر في تنظيم مكتبة مجلة المعهد (التي كان يشرف عليها وقتئذ زميله جان فونتين)، غير أن ظروفًا صحية ألمت به، فاضطر للعودة إلى باريس سنة ١٩٨٢. ويظهر جليًا من خلال سيرة وأعمال جوزيف كيوك أنه كان من الرجال المؤمنين بواجب الاعتراف المتبادل فيما بين المسلمين والمسيحيين، كما أنه آمن بضرورة خلق أجواء الاحترام والتقدير فيما بين المجتمعين والديانتين، ناهيك عن اجتهاده في توطيد عرى الصداقة بينهما. وإذا جاز لأحد أن يختزل سيرة الرجل في كلمة واحدة جامعة، يمكننا القول - مع جان فونتين - إنه كان: "من الرجال العظماء".

ولعل أهم ما يستوقفنا في ترجمة كيوك، سياحته الطويلة التي ناهزت أربعة عقود في جلّ البلدان العربية الإسلامية والبلدان الإفريقية ذات الغالبية الإسلامية أو تلك التي نجد بها جالية إسلامية إلى جانب الجالية المسيحية. من ثمة، يمكننا القول؛ بأن

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

احتكاكه بالمسلمين ومعرفته بنفسيتهم كانت عميقة وراسخة. وبموازاة مع ذلك، فإن تمكّنه من اللغة العربية واطلاعه الواسع على عيون مصادر التراث العربي الإسلامي، جعله على دراية تامة بقيمة وأبعاد الثقافة العربية الإسلامية، مما مكّنه . بفضل ما توفر لديه من أدوات معرفية أكاديمية . من فهم ماضي وحاضر المسلمين بشكل دقيق وعميق. في ضوء ما تقدم، توجهت عنايته للاشتغال حول قضيتين أساسيتين:

- تاريخ الإسلام والمسلمين خاصةً في دول إفريقيا جنوبي الصحراء.
- إنعاش الحوار فيما بين الإسلام والمسيحية، وترسيخ مبادئ التفاهم بين الديانتين.

ويتأكد لنا مدى انخراط واهتمام كيوك بالموضوعين من خلال استعراضنا لعناوين الدراسات التي أنجزها:

- Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du 8ème au 16ème siècle (Bilad al Sudan), Paris, CNRS, 1975.
- Les musulmans en Afrique, Paris, G. P. Maisonneuve et Larose, 1975.
- La famille Aqît de Tombouctou, Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes, 1978, n°41, premier semestre, p. p. 85-102.
- Journal *d'un notable du Caire pendant l'expédition française d'Egypte* (1788-1800) de Jabarti, Paris, Albin Michel, 1979.
- L'Islam en Ethiopie: des origines au XVI siècle, Paris, nouvelles éditions latines, 1981.
- Tunis et Alger au XVIIIe siècle, Paris, Sindbad, 1983.
- Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin du 16ème siècle, Paris, Geuthner, 1984.
- L'Eglise d'Afrique du Nord du IIe au XII siècle, Paris, centurion, 1984.
- Islamisation de *la Nubie chrétienne: VIIe-XVIe siècle*, Paris, Geuthner, 1986.

والمتتبع لأعماله، لن يجد صعوبة في الوقوف عند التداخل والتشابك العضوي والمنهجي ما بين القضيتين عند كيوك، غير أن اهتمامنا سينصب حاليًا على استقراء كتاباته ذات الصلة بالقضية الأولى (تاريخ الإسلام والمسلمين في دول إفريقيا جنوبي الصحراء)، على أن نعود للقضية الثانية في فرصة قادمة.

ثانيًا: كيوك المؤرخ لتاريخ الإسلام والمسلمين في إفريقيا جنوبي الصحراء

إن أول ما يمكن أن يلفت نظر المتتبع لأعمال كيوك، إنما يتمثل في قدرة صاحبنا على افتكاك القارئ وتحريره من الأفكار المسبقة والأحكام الجاهزة الموروثة عن زمن الحروب الصليبية إلى درجة أن القارئ المتديّن أو غيره، لا يمكنه أن يفكر بتاتًا في العلاقة ما بين المؤرخ والراهب؛ بل إن ما يستقر في ذهننا، بعد سياحتنا معه في أعماله، هو الإنسان الباحث والأكاديمي المتمرّس لا غير. علاوة على ذلك؛ فإن أسلوبه العلمي الدقيق، لا يقدم للقارئ إنتاجًا معلبًا قابلاً للاستهلاك السهل، بل يدفعه دفعًا لممارسة قراءة نقدية لما يقدمه، ويحفزه على النظر والتأمل وإعمال الفكر أكثر مما يقدم له إجابات عن إشكاليات تاريخية مطروحة. ومن السمات البارزة في أعماله أيضًا، أن مؤرخنا تجاوز مسألة الفهم إلى التّفهم بتعبير عبد الله العروي، دون أن ينغمس في لعبة التأويل المغرض أو تقلد منصب الإفتاء بغاية إصدار أحكام القيمة؛ وبذلك حقّق تميزًا قلما نصادفه حتى في الدراسات التي تدعي انتماءها للمجال الأكاديمي البحث.

وغير خاف، أنه بحكم حداثة حقل الدراسات الإفريقية، فضلاً عن أسباب أخرى، فإن الكثير من المختصين يجدون أنفسهم مندفعين لإصدار أحكام القيمة، خاصةً منهم المهتمين بالشأن الديني في إفريقيا جنوبي الصحراء. وفي هذا الإطار، نلاحظ نوعًا من الاستعلاء في تعاطيهم مع المعتقدات الإفريقية (الأرواحية) السابقة عن المسيحية والإسلام.[٨] صحيح قد نلاحظ أو نشتم رائحة مثل هذا الاستعلاء لدى عدد غير قليل من المؤلفين المسلمين ممَنْ تناولوا جغرافية أو تاريخ منطقتنا خلال العصر الوسيط،[٩] بيد أنه استعلاء يمكن أن نتفهمه بحكم السياقات التاريخية للفترة؛ كما قد تتسع أريحيتنا أيضًا لنتفهم ذات الاستعلاء مع كتابات المدرسة الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر الميلادي. على أن استمرار هذا النهج في الكتابات الأكاديمية خلال النصف الثاني من القرن العشرين ومطلع القرن الحالي، يطرح أمامنا أكثر من علامة استفهام. ومن آخر هذه الشطحات، ما ورد في خطاب الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي الذي ألقاه في جامعة الشيخ أنتا ديوب/ دكار سنة ٢٠٠٧، ومما جاء في كلامه: "إن الإنسان الإفريقي لم يلج التاريخ بعد"؛ وقد أثارت هذه المقولة جدلاً واسعًا في جلّ المحافل الأكاديمية والصحافية الإفريقية والفرنسية على امتداد السنوات الأربع الموالية.[١٠]

وحينما ينتقل ذات المختصين (المهووسين بأحكام القيمة) للحديث عن تجربة الإسلام في بلاد السودان[١١] وإفريقيا جنوبي الصحراء عمومًا، تجدهم يؤكدون على انتشاره في المدن السودانية دون البوادي، أو بين النخبة الحاكمة دون باقي فئات الشعب، مما يعني أن الإسلام خلال العصر الوسيط، فشل في احتواء الذهنية السودانية؛ ولتبرير موقفهم، يستندون على نظرية الصراع الأبدي بين الرُحل (أهل الصحراء) والمستقرين (أهل السودان). وههنا، لا يكلف أحد نفسه الجواب عن السؤال التالي: كيف أمكن ازدهار التجارة الصحراوية خلال العصر الوسيط في ظل هذا الصراع المستحكم ؟!

وفي ذات المنحى، يلاحظ المتتبع أن تطور النظريات المتعلقة بمفهوم الدولة خلال القرن العشرين، شكل سندًا أو بالأحرى معولاً في تشريح البنية السياسية للمجتمع السوداني، فانتهى بعضهم إلى

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية | ISSN: 2090 – 0449

القول بغياب مؤسسة الدولة في منطقتنا؛ ومنهم مَنْ فنّد هذا الادعاء، فأقر بوجود الدولة، لكن إقراره جاء مشروطًا بنظرية أفدح من الأولى: مثل نظرية الأصل العسكري للدولة السودانية.[١٢] كل هذه الشطحات وغيرها مما يضيق به المقام، تؤكد على مدى التساهل المعرفي الذي سيطر على أعمال الكثير من المختصين والمهتمين في تعاطيهم مع تاريخ إفريقيا.

وبالمقارنة مع هذه التوجهات التي كثيرًا ما أساءت لتاريخ إفريقيا، وحاولت أن تجرد الأفارقة من أصالتهم، تأتي أعمال الأب جوزيف كيوك، لتمنحنا أفقًا أكاديميًا جديرًا بكل الاعتبار والتقدير؛ وكل مَنْ تابع أعماله يحس أنه أمام مؤرخ محترف، يملك حنكة قلمًا نصادفها في أعمال الأعاجم، خاصةً في دراساته المتعددة حول قضية الإسلام في إفريقيا جنوبي الصحراء. وقد لا نجانب الصواب إذا أكدنا على أن كيوك يُعَدّ بحق قطبًا في هذا المجال؛ وما من شك أن أهم العوامل التي سمحت له بهذا التميز، إتقانه للغة العربية،[١٣] وإطلاعه الواسع على أهم مصادر الثقافة العربية الإسلامية. وهاتين الميزتين لم تتوفر إلا للقليل من الإفريقانيين المشتغلين في حقل الدراسات الإفريقية كما ألمعنا إلى ذلك قبل قليل.[١٤] وتأتي مدونته (Recueil des sources arabes) التي ترجم فيها للفرنسية أهم النصوص العربية ذات الصلة بتاريخ إفريقيا الغربية فيما بين القرنين الثامن والسادس عشر للميلاد،[١٥] لتؤكد على ما نذهب إليه.

وتعتبر هذه المدونة من أدوات العمل الأساسية لدى المختصين في حقل الدراسات الإفريقية خلال العصر الوسيط. وقد يتهيأ للبعض أن دائرة الانتفاع والاستفادة منها قاصرة على الأعاجم غير المستعربين، لأنها تريحهم من عناء متابعة الترجمات الفرنسية أو الإنجليزية للمواد المصدرية العربية ذات الصلة بتاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء؛ بيد أن فضل المدونة . في اعتقادي . يشمل جميع المختصين، سواء كانوا عربًا أو أعاجم.

فهي أولاً تضع بين أيدينا جلّ النصوص العربية المتعلقة في إفريقيا خلال العصر الوسيط، وبذلك توفر علينا وقتًا ثمينًا ومجهودًا لا يستهان به في سبيل الوقوف عليها في مظانها. زد على ذلك؛ أن طريقة اشتغال كيوك على تلك النصوص العربية، وكيفية تقديمها وشرحها، تُيسّر على الباحث كل السّبل الممكنة في استغلالها، فمؤرخنا يطرح النص مترجمًا للفرنسية بدقة متناهية، وقبل ذلك يعرفنا بصاحبه بشكل مختزل جدًا مع الإشارة لمجمل المعطيات المتعلقة بالتأليف المعني بالترجمة (هل هو مخطوط أم محقق، وفي أية سنة صدر التحقيق ومَنْ حققه). وعلى هامش الترجمة، يقدم كيوك مجموعة من التعليقات والتوضيحات المفيدة في القراءة السليمة للنص سواء على المستوى اللغوي أو الاصطلاحي.

وتبعًا لهذه المنهجية، كان يتوقف عند كل كلمة أو اصطلاح غامض أو ملتبس، فيأخذ في شرحه، مثلما فعل مع كلمة "تبر"،[١٦] أو مفهوم "النيل السوداني"؛[١٧] وحينما يحس أن حقل الدراسات الإفريقية يعاني من مشاكل عويصة في قضية ما، وأن بإمكانه تقديم مستجدات مفيدة بناء على ما تحت يده معلومات مصدرية، فإنه لا يتورع عن الاستفاضة في التوضيح، حتى إن ما كتبه مثلاً عن قبيل "زغاوة" في مجمل تعليقاته الكثيرة، يمثل دراسة أصيلة عنهم.[١٨]

ونعتقد أن أهم إضافة تقدمها المدونة للمختصين، إنما تمثلت في اجتهاد كيوك وعمله الحثيث على تنبيه القارئ وتوجيهه نحو الروابط والعلائق المختلفة بين النصوص المترجمة خلال الفترة المعنية (القرن الثامن- السادس عشر الميلادي)، وذلك بناءً على مُقوّم السّند، الذي غذى الثقافة العربية الإسلامية في الكثير من الحقول المعرفية وقتئذ، ومنها علم الحديث النبوي وصنعة التاريخ. وفي هذا السياق، كان مؤرخنا عند ترجمته لأي نص، يعرض للمستجدات التي يطرحها مقارنة مع نصوص السابقين أو اللاحقين من المؤلفين العرب؛ وبذلك توفّق إلى حد بعيد في متابعة جلّ وأهم القضايا التي تطرحها المصادر العربية المتعلقة بإفريقيا جنوبي الصحراء خلال العصر الوسيط.

وإذا كان لأحد أن يؤاخذ كيوك على عدم إثباته للنصوص العربية في متن المدونة بموازاة مع الترجمة الفرنسية، فإن المدقق في الأمر، سيلاحظ أن صاحبنا كان قمة في النزاهة والأمانة العلمية، ودليلنا على ذلك أنه حين ترجمته لأي نص كان يعتمد على التحقيقات المتوفرة، بيد أنه إذا شك في عبارة أو كلمة أو طريقة رسم علم بشري أو جغرافي، فإنه لا يتورع عن الرجوع إلى أصل المخطوط للتأكد. ونصادف في عمله الكثير من النماذج الدالة بهذا الشأن، نكتفي منها بحالة تعامله مع كتاب الجغرافي ابن سعيد المغربي: "بسط الأرض في الطول والعرض"، حيث وجد أمامه العبارة التالية: "الموحدين يسيطرون على جبل لمتونة" (ص٤٦ من طبعة تطوان)، فغشيه نوع من الشك والارتياب بخصوص كلمة الموحدين، مما حفزه على مراجعة المخطوط الأصلي، وفعلاً صدق ظنه، حيث وجد كلمة الملثمين، فأثبتها عوض كلمة الموحدين الواردة في تحقيق طبعة تطوان.[١٩]

بعد حوالي عقد من الزمان على الإصدار الأول لمدونة النصوص العربية، أخرج كيوك كتابه الرائع الذي يحمل عنوان: تاريخ الإسلام [أو الأسلمة] في إفريقيا الغربية: من الأصول إلى غاية نهاية القرن السادس عشر الميلادي.[٢٠]

وقد قسم دراسته إلى قسمين أساسيين، الأول منهما تتبع فيه بتفصيل دقيق تجربة انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية منذ بداياته الجنينية إلى غاية القرن الثالث عشر الميلادي، وذلك ضمن الحدود الجغرافية لبلاد السودان (التي وقفنا عليها سابقًا: هامش رقم ١١)، وتمكن بفضل معاشرته للنصوص العربية أن يرسم صورة واضحة عن كيفية تغلغل الإسلام بشكل تدريجي بين مختلف شرائح المجتمع السوداني قمة وقاعدة، ثم كيف ظهرت بعض الإمارات المسلمة في

ISSN: 2090 – 0449

المنطقة عند ملتقى القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي، مثل إمارة كَوْكَوْ المعروفة أيضًا تحت اسم (كاغ = GAO) والتي ستصبح عاصمة إمبراطورية سنغاي خلال القرن الخامس عشر الميلادي، وإمارة ملل: مركز إمبراطورية مالي لاحقًا، وإمارة تكرور. ولم تفته الفرصة هنا للحديث عن تعايش الإسلام والأرواحية في ظل حكم مملكة غانة خلال القرن الحادي عشر الميلادي، ونفس الشيء فعله حينما تناول تاريخ مملكة كانم - برنو بحوض بحيرة التشاد.

أما القسم الثاني فتحدث فيه عن الإسلام كمرجعية للدولة السودانية، وفي هذا السياق تناول تاريخ الدول التالية: مملكة مالي، ومملكة سنغاي، ومملكة كانم-برنو. ويمكن القول إن أهم المحاور التي شغلته في القسم الثاني، تمثلت في كيفية تدبير حكام السودان للشأن الديني، وعلاقاتهم المتميزة بالعلماء والفقهاء؛ وفي هذا الإطار، كانت الفرصة مواتية للحديث عن عدل الملوك والأمراء السودان، وكذا إلحاحهم على قضاء فريضة الحج فيما بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر الميلادي. بموازاة مع ذلك، حاول كيوك على امتداد صفحات القسم الثاني تتبع تطور الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة، وكيف تبلورت نخبة سودانية عالمة، وما هي أهم مساهماتها العلمية إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادي.

ثالثًا: السمات المنهجية المميزة لأعمال جوزيف كيوك

- إن صنعة التاريخ بالنسبة لمؤرخنا، تتمثل أساسًا في توثيق الخبر قبل كل شيء مع ما يستلزم ذلك من ذكاء في التعامل مع المادة المصدرية سواء من حيث المعالجة أو استنطاق المعطيات، ظاهرها وباطنها.
- شديد الحذر في خلاصاته واستنتاجاته، ولا يطلق الكلام على عواهنه. ونلمس منه رغبة قوية في إقناع القارئ بالدليل المقنع البعيد عن التّكلف أو الشطحات السكولاتية، غير أنه . وهذا ما يميزه أيضًا . لا يذهب بعيدًا عند تناول القضايا الشائكة والملتبسة، بل يحاول ملامستها ومقاربتها دون الجرأة على الحسم فيها؛ فهو لا يغامر كثيرًا في بناء تصوراته مثلما فعل ريموند موني أو غيره من المختصين. وغالبًا ما كان يقف عند أولى العتبات التأويلية تاركًا الباب مفتوحًا أمام القارئ لاستخلاص التصورات الكبرى؛ يشهد على ذلك، طريقة تناوله لقضية "الغزو المرابطي لمملكة غانة"، حيث لا نتبيّن رأيه الصريح في المسألة، فلم يؤكد لنا غزوًا ولا عكس ذلك، بل ظل عالقًا بين الموقفين.[٢١]
- بالنظر لقلة وفقر المواد المصدرية المتعلقة بتاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء خاصةً بالنسبة للعصر الوسيط والحديث، أخذت الرواية الشفوية المحلية تأخذ مكانها تدريجيًا ضمن اللوائح البيبليوغرافية؛ ولم يعد أحد اليوم يجادل في أهمية الرواية الشفوية السودانية كمادة أساسية ضمن لائحة مصادر تاريخ إفريقيا؛ وقد كان على جوزيف كيوك مثل غيره ممن يقتحمون الميدان، أن يواجه هذه الإشكالية العويصة. قلنا قبل قليل إن كيوك كان شديد الحذر في استنتاجاته، ورصين غير مندفع في بناء تصوراته، غير أنه حينما وجد نفسه أمام الرواية الشفوية، بدا أكثر جرأة في التعامل معها، حيث تجاهلها بشكل تام، وأظهر بشكل عملي من خلال تناوله لتاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء خلال العصر الوسيط، أنها لا تمثل بالنسبة لأعماله سوى مادة يمكن الاستئناس بها لا غير. بيد أن هذا الموقف الصريح من الرواية الشفوية، لم يمنعه من الاتكاء عليها في بعض القضايا الثانوية، مثلما وقع له حينما أراد تحقيق تاريخ إسلام أهل كوكو.[٢٢]
- على المستوى اللغوي: يعتمد أسلوبه لغة اختزالية قوية الحمولة وشديدة الثقل، فضلاً عن تمتعها بإيحائية وجمالية فريدين (تذكرنا أو بالأحرى تدفعنا لاستحضار كتابات فيرناند بروديل بكل ما يحمل هذا الاسم من أبعاد في مدرسة الحوليات). على أن هذه السمات التي تتمتع بها كتابات كيوك وإن كانت ممتعة علميًا وأدبيًا، فإنها لا تسمح لغير المختص باختراق أبعادها ودلالاتها. وبعبارة أكثر دقة، فإن القارئ العادي قد يستمتع بها بسبب وضوح الرؤية لدى كيوك، غير أنه لن يستطيع استكناه المقاصد المرجوة، والسبب في ذلك يعود إلى كون مؤرخنا يفترض مسبقًا أن القارئ له بعض الإلمام أو معرفة لا يستهان بها بطبيعة المشاكل المنهجية والموضوعية التي تطرحها مسألة كتابة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء.

ونستخلص مما تقدم؛ أن كيوك يكتب للمختصين أو لذوي الاهتمام الأكاديمي الدقيق، وما لم يتوفر القارئ على رصيد متين في هذا المجال، فقد يصعب عليه مسايرته أو مجاراته؛ فأعماله وإن اصطبغت بالوضوح إن على مستوى طرح القضايا أو تركيبها، فهي تنتمي لحقل الدراسات الأكاديمية بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى ودلالة. وككل عمل أكاديمي، فإن دراسات جوزيف كيوك المتعلقة بتاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء خلال العصر الوسيط، لم تسلم من بعض الهنات، غير أنها تبقى بسيطة، بحيث لا يمكنها بأي حال أن تنال من كفاءته العلمية، نذكر منها:

- أخذه بالقول المأثور: "العامة على دين ملوكها"، واجتهاده في تطبيق هذه القاعدة على المجتمع السوداني، دون وعي منه بخصوصيات المجتمع المحلي في علاقته بالدين والمقدس، ثم في علاقته بالسلطة الحاكمة.
- مطالبة ابن بطوطة (وهو من رجالات القرن الرابع عشر الميلادي) بضرورة التمييز ما بين الثقافة والدين!
- اعتقاده الراسخ بكون المؤلفين العرب خلال العصر الوسيط، خاصةً منهم الجغرافيين، مستهلكين غير مبدعين في تعاملهم مع التقسيم البطليموسي للأرض. ونحسب أن مثل هذا الاعتقاد يعتريه نوع من الإجحاف، ذلك أن الجغرافية العربية وإن اعتمدت التقسيم البطليموسي في أعمالها الوصفية أو الفلكية،

فإنها تعاملت معه بحس نقدي متوقّد، كان له جميل الأثر على تطور علم الجغرافية خلال العصر الوسيط.(٢٣)

كما أوضحنا، قد نختلف مع كيوك في بعض القضايا الثانوية مثل التي وقفنا عليها أعلاه، بيد أن ذلك لا ينال من كفاءته؛ ونعتقد أن أهم انتقاد يمكن أن نوجهه لمجموع أعماله المتعلقة بتاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء، يكمن في ضعف معرفته بالتطورات التاريخية التي شهدتها الصحراء، إن على مستوى المناخي أو البشري، وتأثير هذه التطورات على ضفتي الصحراء شمالاً وجنوبًا (بلاد المغرب وبلاد السودان). والغالب على الظن، أن جوزيف كيوك كان ضحية التمايزات البشرية والجغرافية الحاصلة فيما بين النطاقات الثلاث: بلاد المغرب وبلاد الصحراء وبلاد السودان؛ فكان ينظر لكل فضاء على حدة، ويتعامل مع الفضاء السوداني دون وعي عميق بامتداداته الصحراوية.

إن التجربة التاريخية للصحراء خلال الألف سنة الأخيرة قبل المرحلة الاستعمارية، تدلنا على أن المنطقة وإن ظلت محافظة على ديناميتها الاجتماعية المتميزة، فإنها في المقابل، كانت سريعة التأثر بالمتغيرات السياسية سواء على ضفتها الشمالية أو الجنوبية. ومما يشد الانتباه بهذا الصدد، أن القبائل الصحراوية، كانت سريعة الاستجابة لتلك المتغيرات، خاصةً إذا كانت تساهم في تدعيم الأمن والاستقرار، إذ من شأن ذلك أن يجعل منها فاعلاً حيويًا في التجارة الصحراوية، مما يسمح برفع سقف الاستفادة بالنسبة لجميع الأطراف سواء أقاموا في الصحراء أو على هوامشها.

ولعل أهم النتائج المستخلصة من هذه الصيرورة التاريخية، أن الفضاء الصحراوي غالبًا ما كان يشكل امتدادًا ترابيًا للوحدات السياسية القائمة على ضفتيه، وهذا ما تعكسه الخرائط التاريخية فيما بين القرنين الحادي عشر- السابع عشر للميلاد. والأمر سيان سواء بالنسبة لمملكة غانة، أو مملكة ومالي، أو مملكة كانم-برنو، أومملكة سنغاي من جهة الجنوب، وأما من جهة الشمال، فيمكننا أن نقف على نفس الظاهرة مع المرابطين، أو المرينيين، أو السعديين. إن توغل هذه الوحدات السياسية في أعماق الصحراء، شكل قاعدة جارية في الصيرورة التاريخية للفضاء الصحراوي قبل المرحلة الاستعمارية، ويظهر أن الاستعمار الفرنسي . سواء عن وعي منه أو بغير وعي . قد أخذ بعين الاعتبار هذا الجانب في رسم حدود الكثير من الدول الإفريقية.(٢٤)

ونرى أن مؤرخنا جوزيف كيوك، لم يتمكن من استكناه هذه الصيرورة التاريخية، من ثمة شقّ عليه متابعة تاريخ الصحراء الأطلنطية أو تاريخ مملكة كانم-برنو الممتدة على الصحاري المحيطة ببحيرة التشاد. فجاءت تحليلاته ومعالجته التاريخية لأحوال مملكة كانم-برنو دون المستوى الذي عوّدنا عليه مقارنة مع كفاءته العالية حين تناوله لتاريخ مملكة مالي أو تاريخ مملكة سنغاي (الثالث عشر- السادس عشر الميلادي).(٢٥) لقد شكل ضعف معرفته بتاريخ الصحراء أهم ثغرة رصّعت مجمل دراساته المتعلقة ببلاد السودان. ولو أردنا أن نتفهم الأسباب العميقة لهذه الهفوة، نستطيع القول، إنه كان ضحية التوجهات التي ترسمها أو بالأحرى تفرضها علينا المواد المصدرية العربية خلال العصر الوسيط، ثم المواد المصدرية العربية السودانية خلال القرنين (السادس عشر- السابع عشر الميلادي): مثل تاريخ الفتاش لأسرة كعتي، وتاريخ السودان لعبد الرحمن السعيدي، ناهيك عن كتابات أحمد باب التنبكتي.

وما من شك؛ أن كل من أغرق نفسه في قراءة واستقراء هذه المواد المصدرية بالطريقة المجهرية التي سار عليها جوزيف كيوك، سيحيّد الصحراء بالمعنى السلبي للكلمة. وتبعًا لذلك، يصبح الفضاء الصحراوي عبارة عن قنطرة لمرور السلع والأفكار، وليس مكانًا للإبداع في قهر المعطيات المناخية في سبيل الربط الاقتصادي والثقافي وحتى السياسي فيما بين بلاد المغرب وبلاد السودان.(٢٦)

وهناك مسألة أخرى غاية في الأهمية، بيد أن مؤرخنا لم يولها العناية اللازمة في مجمل دراساته المتعلقة بتاريخ انتشار المسيحية أو الإسلام في إفريقيا جنوبي الصحراء خلال العصر الوسيط، وتتمثل في تجاهله التام للمقومات أو المعتقدات الروحية المحلية (الأرواحية)،(٢٧) السابقة عن الديانات السماوية (اليهودية، والمسيحية، والإسلام).

صحيح أن عناية مؤرخنا توجهت لدراسة صيرورة انتشار المسيحية ثم الإسلام في منطقتنا، وصحيح أيضًا أن معلوماتنا عن الأرواحية، تكاد تكون منعدمة، خاصةً إذا بحثنا عنها في المصادر المدونة المحلية منها أو الأجنبية، على أن هذه التبريرات لا تعفينا من تجاهل الموضوع برمته. ولو حاولنا أن نلتمس نوعًا من العذر لهذا الموقف الملتبس من جانب مؤرخنا، لأمكننا القول إنه مرتبط أو نابع أساسًا من موقفه المنهجي من الرواية الشفوية، والذي وقفنا عليه سابقًا، علمًا أن الرواية الشفوية تحوي، بل إنها تمثل المصدر الأساس لجل معلوماتنا عن الأرواحية.

خاتمة

ختامًا يمكننا القول: إن أعمال جوزيف كيوك المتعلقة بتاريخ بلاد السودان خلال العصر الوسيط، تمثل صناعة متطورة بالمقارنة مع كل من سبقه في هذا الحقل المعرفي؛ غير أن تجربته الغنية هذه، لم تجد الاعتبار اللازم في المشروع الضخم الذي أطلقته اليونسكو مطلع عشرة السبعين من القرن الماضي برسم كتابة تاريخ إفريقيا العام (HISTOIRE GENERALE DE L'AFRIQUE)، والذي صدر في ثمانية أجزاء بلغات مختلفة منها العربية والفرنسية والإنجليزية الخ. وعلى فرض أن جوزيف كيوك كان منعزلاً بنفسه في أحد أديرة جبال الألب، ما كان لأكبر مؤسسة ثقافية عالمية (اليونسكو) أن تتجاهل اسمه في كتابة تاريخ إفريقيا، خاصةً بالنسبة للفترة المتعلقة بالعصر الوسيط السوداني.(٢٨)

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



الهوامش:

(١) يسعدني أن أقدم هذا المقال كدليل عرفان وتقدير لرائدة حقل الدراسات الإفريقية في المغرب الأخت والزميلة الدكتورة فاطمة الزهراء طموح.

(2) Mauny (R.), Tableau géographique de l'ouest africain au moyen âge, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, Amsterdam, 2 éd. Mémoires de l'IFAN, n° 61, 1967.

ما من شك أن مؤلف رموند موني المنوه به أعلاه، يمثل علامة فارقة في حقل الدراسات الإفريقية، غير أن ذلك لا يعني خلو الساحة قبل سنة ١٩٦١ من المختصين الغربيين ممن نأوا بأنفسهم عن نزعات المدرسة الاستعمارية وشطحاتها الفكرية. وبهذا الصدد، يمكننا أن نستحضر بعض الأسماء اللامعة، نخصّ بالذكر منها، العلامة تيودور مونود (Théodore monod 1902 - 2000)، الذي يُعَدّ من أكبر المختصين الفرنسيين في الصحراء الإفريقية. إذ على الرغم من كونه عاصر مرحلة الكتابات الاستعمارية، فإنه كان يتمتع بروح إنسية نادرة، حتى إنه عارض الحرب الفرنسية في الجزائر، وابتعد في كتاباته المتعددة عن النزعات العنصرية أو ذات الصبغة الاستعمارية، السائدة حينئذ في جل كتابات المختصين الغربيين؛ وبالجملة يمكننا القول إن أعماله كانت تتمتع بقدر كبير من الروح العلمية والموضوعية. وباعتبار ريموند موني أحد تلامذة العلامة تيودور مونود، فليس غريبًا إذن أن يجتهد في الاقتداء بأستاذه.

(٣) يقول جومو كينياتا (JOMO KENYATTA) زعيم الأمة الكينية وأشهر رئيس للجمهورية الكينية (١٩٦٤-١٩٧٨): "حينما جاء البيض الأوروبيون لإفريقيا، كنا نملك الأرض، وهم يحملون التوراة في أيديهم، ثم علمونا كيفية إقامة الصلوات بعيون خاشعة ومغمضة، بيد أنه حينما فتحنا عيوننا، وجدناهم يملكون الأرض، ونحن نأخذ التوراة بين أيدينا". انظر، متن النص الفرنسي في:

Jean-Paul Gouteux, *Apologie du blasphème*, éd. Syllepse, 2006, p. 65.

(٤) ازداد بشمال فرنسا نهاية سنة ١٩٣٦، انتمى للكنيسة كراهب، وتخصص في الثقافة العربية، خاصةً منها الثقافة العربية التونسية؛ وأثناء إقامته في تونس العاصمة، أصبح محافظًا لخزانة معهد الفنون الجميلة خلال الفترة المتراوحة ما بين (١٩٦٨) و(١٩٧٧)، وهي ذات الفترة التي شهدت توطد علاقته بالأب جوزيف كيوك، وبعد ذلك ترأس لجنة تحرير المجلة (IBLA) التي تصدرها نفس المؤسسة فيما بين (١٩٧٧) و (١٩٩٩).

(٥) انظر مجلة إيبلا، عدد (١٥٨)، النصف الثاني من سنة (١٩٨٦). ص ٣٨٧-٣٨٨. وتشكل كلمة جان فونتين عمدتنا في التعريف بمراحل حياة جوزيف كيوك:

Revue IBLA, N°158, 2è Semestre 1986. pp: 387-388.

(6) Bulletin d'information sur le monde arabe.

(7) Orientations pour le dialogue entre chrétiens et musulmans. 140 p.

يقول الأبوان جوزيف كيوك ولويس غارديه في الكتاب الذي أصدراه باسم الفاتيكان عقب المؤتمر الفاتيكاني الثاني سنة ١٩٦٥ . ضمن أمور أخرى: "يجب علينا كمسيحيين؛ ونحن نخاطب المسلمين؛ أن نفكّر قبل كل شيء في صعوبات وعوائق الحوار [مع المسلمين] والتي تتعلق بنا إلى حدّ كبير، وإلى الظلم والجور الذي أحاط به الغرب ذو التربية المسيحية المسلمين؛ واقترف ذنوبا وآثاما عديدة بحقهم [...] إن المسيحيين أوقفوا؛ بل حطّموا انطلاقهم الحضاري نتيجة الحروب الصليبية التي أسهمت بوضع حدّ لأكثر الأوقات ازدهارًا في التاريخ الإسلامي. يضاف إلى هذا الاستعمار... الذي حال دون نهضتهم التي بدأت بشائرها تظهر في القرن التاسع عشر... علينا أن نعترف بكل أمانةٍ وصدقٍ بالمظالم التي ارتكبها الغرب [...]". نقلاً عن رضوان السيد في مقدمة ترجمته لكتاب ريتشارد سوذرن: "**صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى**". بيروت: معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٤. ص ٩-١٠.

(٨) **الأرواحية**: مصطلح حديث، يستعمل في حقل الدراسات الإفريقية للدلالة على المعتقدات السودانية الأصيلة. والاصطلاح ترجمة للكلمة الفرنسية: (Animisme) أو (Fétichisme). انظر:

- Monteil (V.), L'Islam Noir, Paris, Ed. du Seuil, 3e ed., 1980. p 39.

(٩) يقول الجغرافي الأصطخري حوالي سنة ٩٥١م: "أما بعد فإني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك وقصدت منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها [...] ولم نذكر بلد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسات المستقيمة وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ولا حظ لهم في شيء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك". انظر: الأصطخري، **كتاب مسالك الممالك**، ليدن، ١٩٢٧، تحقيق دي كوجي. ص ٢-٣.

(10) Voire le site: le Monde diplomatique, novembre 2007.

(١١) بغض النظر عما تثيره مسألة تعيين الحدود من صعوبات قبل المرحلة الاستعمارية، يمكننا القول . إجمالاً . إن مجال بلاد السودان يمتد من المحيط الأطلنطي (في جزئه السنغامبي) غربًا إلى حواشي بحيرة التشاد شرقًا، فيما تنتصب الحدود العمودية بين الضفة الجنوبية للصحراء الكبرى ومقدمة نطاق الغابات الاستوائية. وحسب الإحداثيات المعاصرة، تنحصر بلاد السودان فيما بين خطي عرض (١١) و(١٧) شمالاً. وبجانب هذا الاصطلاح الأصيل الذي تواضع على تداوله أصحاب مصادر العصر الوسيط والحديث، يروج في الدراسات الأكاديمية عدد آخر من الاصطلاحات الحديثة، التي تؤدي . تقريبًا . نفس المعنى والدلالة، وهي: السودان الغربي، وإفريقيا الغربية، والسودان النيجيري، والفضاء السنغامبي.

(١٢) أحمد الشكري، **الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن الثامن عشر الميلادي (نموذج بلاد السودان)**، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ٢٠١٠. ص ٧٧- ٨٣.

(١٣) يجمع المختصون على أن معظم المواد المصدرية المتعلقة في إفريقيا جنوبي الصحراء خلال العصر الوسيط (القرن الثامن- السادس عشر الميلادي)، إنما هي أصلاً باللغة العربية. على أن الكثير من الإفريقانيين الأعاجم، أهملوا هذا الجانب، واكتفوا باعتماد الترجمات . إن هي توفرت . الفرنسية أو الإنجليزية للنصوص العربية. وغير خاف أن هذا التوجه، كانت له آثار سلبية على أعمال الكثير من الإفريقانيين غير المستعربين، بما فيهم الرواد الذين أفنوا حياتهم في هذا الحقل المعرفي مثل جان دوفيس وريموند موني (J. Devisse & R. Mauny). ويُعَدّ جوزيف كيوك بجانب البحاثة الأمريكي جان هانويك (John Hunwick) من أكبر المستعربين الأعاجم في حقل الدراسات الإفريقية، مما أكسب أعمالهما قيمة لا تضاهى. وقد أدرك البحاثة الألماني ديرك لانجي، أهمية الاستعراب في هذا الميدان، خاصةً بالنسبة للعصر الوسيط (القرن الثامن- السادس عشر الميلادي)، فسار على هديهما، علما أنه في بداية أمره كان يستعين بمساعدين في قراءة النصوص العربية، ثم سرعان ما تدارك الأمر واضطر لتعلم اللغة العربية بعد سنة ١٩٧٧. انظر مقدمة تحقيقه لـ "**ديوان سلاطين [كانم-] برنو**"، ص ٢١.

Dierk (L.), Le Diwane des sultans du [Kanem-] Bornu : Chronologie et histoire d'un royaume africain (de la fin du X siècle jusqu'à 1808), Franz Steiner Verlag GMBH. Wiesbaden. 1977.

(١٤) نلف الانتباه هنا، أن بعض الزملاء العرب يطلقون اصطلاح "الإفريقاني= Africaniste" على كل مختص في حقل الدراسات الإفريقية؛ ومثل هذا الاستعمال يتحرج منه الباحثون الأفارقة، ويعتبرونه قاصرًا على المختصين من خارج إفريقيا.

(١٥) بالنظر لكثرة أعمال جوزيف كيوك، سنتوقف هنا عند أهمها:

- Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du 8ème au 16ème siècle (Bilad al Sudan), Paris, CNRS, 1975. 2e éd. 1985.
- Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin du 16ème siècle, Paris, Geuthner, 1984.

(16) Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale, p 42 note n° 5.

(17) Ibid., p. 241 note 2 et p. 242.

(18) Ibid., p. 4, 5, 10, 13, 21, 41, 44, 49, 52-53, 60-69, 73-78, 138, 141, 145, 151-152, 165, 187, 210-211, 217, 222, 240, 243, 246, 250, 329, 332, 342, 382, 385-386, 396.

(١٩) ابن سعيد المغربي، **بسط الأرض في الطول والعرض**، تطوان: معهد مولاي الحسن، ١٩٥٧. تحقيق: خوان فرنيط خنيس. وتجب الإشارة هنا إلى أن نفس الكتاب ظهر بعنوان آخر: **كتاب الجغرافيا**، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، ١٩٧٠. تحقيق: إسماعيل العربي. ويظهر أن جوزيف كيوك لم يستأنس بالتحقيق الأخير، لأسباب خارجة عن إرادته، إذ إنه انتهى من تأليف المدونة منذ مطلع سنة ١٩٧١، علمًا بأن إسماعيل العربي هو الآخر صحح خطأ خوان فرنيط خنيس.

(20) Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin du 16ème siècle, Paris, Geuthner, 1984.

(٢١) للإحاطة بأبعاد القضية، يمكن الرجوع لدراستنا: **مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية** (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة؟)، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ١٩٩٧.

(22) Cuoq (J.), *Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest*, pp. 133-134.

(٢٣) كراتشكوفسكي (أغناطيوس يوليا نوفتش)، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٧٨. ط. ٢ مصححة ومنقحة، نقله عن الروسية: صلاح الدين هاشم، ص ٢٠-٢١.

(٢٤) بحكم المشاكل السياسة التي ظهرت حديثًا: مشكل الحدود السياسية فيما بين ليبيا والتشاد، قضية الصحراء المغربية، ثم أخيرًا مشكل انفصال شمال مالي (منطقة أزواد) وتأثير ذلك على الحدود الجزائرية المالية، ناهيك عن قضية دارفور، كل هذه القضايا الشائكة، تدفعنا لاستحضار إشكال أساسي: لماذا كانت القبائل الصحراوية في الماضي ترغب في الانضواء تحت سيادة الوحدات السياسية القائمة في الجنوب أو في الشمال؟ وما الذي جعلها اليوم تنزع نحو الاستقلال ؟

(٢٥) انظر: ما كتبه عن مملكة كانم-برنو وقارنه بدراسة البحاثة الألماني ديرك لانجي عند تحقيقه للديوان:

- Cuoq (J.), *Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest*, pp. 229-270.
- Dierk (L.), *Le Diwane des sultans du [Kanem-] Bornu: Chronologie et histoire d'un royaume africain* (de la fin du X siècle jusqu'à 1808), Franz Steiner Verlag GMBH. Wiesbaden. 1977.

(ديوان سلاطين [كانم-] برنو=).

(٢٦) أحمد الشكري، "**مقاربة تقييمية لدور الصحراء في علاقات بلاد المغرب ببلاد السودان خلال العصر الوسيط**"، مجلة المناهل، عدد خاص عن الصحراء، رقم ٥٨، ١٩٩٨. ويراجع:

(J.), « L'Afrique dans les relations - Devisse intercontinentales », In HISTOIRE GENERALE DE L'AFRIQUE. T. IV. Unesco/NEA 1985. ch. 26, pp 693-730.

(٢٧) راجع: هامش رقم (٩).

(٢٨) يظهر أن المشرفين على مشروع اليونيسكو، حاولوا المزج ما بين شرط الكفاءة العلمية والاعتبارات السياسية في انتقاء أو انتخاب الأسماء المرشحة للمشاركة والمساهمة في هذا العمل الضخم، مما أثر سلبًا على الحصيلة العلمية، حيث تصدرت اللائحة بعض الأسماء، التي لا تتمتع بخبرة أو كفاءة وحنكة كيوك. زد على ذلك أن النسخة العربية المترجمة عن الأصل الفرنسي أو الإنجليزي لا ترقى في الكثير من مواضع العمل إلى المستوى العلمي المطلوب. وبموازاة مع ما تقدم، فإني لا أفهم أيضًا الطريقة المقتضبة والمبتسرة التي قدم بها ريموند موني مدونة كيوك، هل لأنه ينتمي للكنيسة ! انظر:

- Recueil des sources arabes, pp. XI- XIII.
- Collectif, HISTOIRE GENERALE DE L'AFRIQUE. Unesco/NEA 1985.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





جوانب من الحياة الثقافية والفنية في شمال المغرب خلال الفترة الاستعمارية مدينة القصر الكبير نموذجًا

سعيد الحاجي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
باحثة دكتوراه – جامعة محمد الخامس
الرباط – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سعيد الحاجي، جوانب من الحياة الثقافية والفنية في شمال المغرب خلال الفترة الاستعمارية: مدينة القصر الكبير نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ١٣١ – ١٣٦.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

يرصد هذا البحث بعض التحولات التي شملت جوانب من الحياة الثقافية والفنية في الشمال المغربي خلال الفترة الاستعمارية الإسبانية للمنطقة، ويركز على مدينة القصر الكبير التي تُعَدّ أهم مدنها، وما شهدتها من تحولات ثقافية وفنية في سياق التفاعل بين الثقافة الإسبانية والثقافة المحلية، ومن جهة أخرى يروم البحث إبراز الحركية الثقافية بالمدينة ومساهمتها في بلورة مشهد ثقافي جديد من جهة، ومن جهة أخرى دور الحراك الثقافي في دعم المطالب التحررية من نير الاستعمار، كما يتطرق لأحد أهم الأنماط الموسيقية ومنبعها وامتدادها التاريخي، وكذلك ازدهار الحركة الموسيقية بالمدينة خلال الفترة المدروسة، مما يبرز حجم تأثير الاستعمار الثقافي على المدينة والمنطقة الشمالية المغربية ككل.

مُقَدِّمَةُ

شكلت الفترة الاستعمارية في منطقة الشمال المغربي فترة تحولات ثقافية عميقة، على كل المستويات المرتبطة بالشأن الثقافي، ومما لا شك فيه أن الوضع الثقافي الذي وجدت عليه منطقة الشمال عند بداية الحماية، يختلف بشكل كبير جدًا عن الواقع الثقافي الذي أضحت عليه عند نهايتها، فبين ماضي الواقع الثقافي السابق للحماية وواقعها إبانها، عناصر ظهرت وأخرى اختفت وثالثة راوحت مكانها، وفي طيات هذا الحراك تكمن قوة التأثير الذي أحدثه الاستعمار الإسباني في المشهد الثقافي لمنطقة الشمال المغربي.

إن فهم التحولات التي خضع لها المجال الثقافي في المنطقة، لابد وأن ينطلق من الخلفيات المتحكمة بشكل عام في وضع السياسات الثقافية والفكرية الإسبانية في المنطقة، والتي جعلت المشهد الثقافي يتعرض لمجموعة من التحولات التي سنحاول رصدها في أنموذج من مدن الشمال المغربي الخاضع للحماية الإسبانية، وهو نموذج مدينة القصر الكبير التي تُعَدّ أحد المدن المهمة في خريطة المنطقة الواقعة تحت النفوذ الإسباني، حيث كانت التحولات في هذه المدينة الحدودية مع منطقة النفوذ الفرنسي، مرتبطة بباقي ما يحدث على صعيد المنطقة الشمالية ككل والتي عرفت ترابطًا بين مكوناتها المختلفة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ومن هذا المنطلق سنركز عليها في هذه الدراسة لإبراز الملامح العامة للمشهد الثقافي به خلال الفترة الاستعمارية الإسبانية.

(١) السياسة الإسبانية الفكرية والثقافية في منطقة الشمال

بعد القضاء على المقاومة المسلحة في الشمال المغربي، بادرت إسبانيا إلى التوسع في إنجاز مخططاتها الاستعمارية طبقًا لاستراتيجية تهدف إلى المساس بالهوية المغربية ومكوناتها الثقافية والفكرية من أجل إضعاف معنويات المغاربة وتثبيط عزائمهم وتكبيل إرادتهم في التحرر واسترداد السيادة الوطنية، وبالتالي فليس غريبًا أن نجد إسبانيا تعمل جاهدة على إيجاد المفاهيم الكفيلة بإضفاء المشروعية على حركتها، ومحاولة إقناع المغاربة بأهمية

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

أعمالها وإنجازاتها وضرورتها في مجال تطوير وتمدين المنطقة، ضمن استراتيجيتها العامة التي تكرس احتلال واستغلال إنسان المنطقة.[١]

لقد اعتبر مغاربة الشمال هذه الممارسات الاستعمارية التي حاولت أن تطمس هويتهم أخطر من استعمار الأرض، فعملوا على مقاومتها بشتى الوسائل التي كرست في آخر المطاف النشاط الوطني على أكثر من صعيد، أمام المحاولات الإسبانية المتكررة في مراحل مختلفة خلق وإحياء مجموعة من الروابط الروحية والثقافية التي تعزز عمليات "الأسبنة" وترسيخ العملية الاستعمارية، خصوصًا في فترة حكم فرانكو الذي أدرك الأهمية الكبيرة التي يحتلها الدين والانتماء القومي للمغاربة والإرث التاريخي وغيره في نفوسهم، لذلك ادعى الحفاظ عليها لكنه أراد فرض الوصاية عليها وإعطاءها توجها معينا يخدم مصالحه الوطنية والاستعمارية.[٢]

لقد دفعت السياسة الثقافية الاستعماري في منطقة الشمال المغربي، الوطنيين إلى التكثيف من أساليب المقاومة الثقافية المختلفة لهذا للاستعمار في شقه الثقافي، والمرتبط بشكل وثيق بباقي مظاهر الاستعمار، فكان أن عرف المجال الثقافي في نهاية المطاف تحولات كانت جذرية في بعض المظاهر الثقافية، ولا غرو أن يكون من نتائج هذا التحول، حدوث تجديدات في هذا السياق، وتُعَدّ مدينة القصر الكبير من المدن التي يمكن من خلالها قياس مجموعة من مظاهر التحول هذه.

ليس صدفة أن تتأثر هذه المدينة الصغيرة والموغلة في القدم بالحراك الثقافي الذي عرفته المنطقة الشمالية ككل خلال الفترة الاستعمارية، فمدينة القصر الكبير عرفت دائما بكونها مركزًا صوفيا يتوفر على مجموعة كبيرة من المدارس القرآنية التي كانت معروفة بها المدينة، والتي كانت تستقطب طلاب العلم من مختلف المدن المغربية، حتى إن المدينة كانت توصف بكونها "مدينة كل خطوة بولي"، وهي المقولة التي لازالت تتوارثها الأجيال إلى اليوم.

لكن السمة الأساسية التي كانت تميز المشهد الثقافي في مدينة القصر الكبير هي ارتباطه الوثيق بكل ما هو ديني، ولم يكن بالإمكان قبل الفترة الاستعمارية الحديث عن أي مظهر من المظاهر الثقافية من قبيل المسرح أو وسائل الإعلام أو فن السينما، إلا مع دخول الاستعمار الإسباني الذي جلب معه ما جلب من هذه الفنون، والتي بدت غريبة في البداية قبل أن تصبح مكونًا أساسيًا من مكونات الثقافة المحلية وينبري لممارستها مجموعة من أبناء مدينة القصر الكبير، وهو ما يعكس نوعًا من التفاعل الثقافي الذي عرفته منطقة الشمال ككل خلال الفترة الاستعمارية.

(٢) الأدب والأدباء في مدينة القصر الكبير

ساهمت مدينة القصر الكبير مساهمة فعالة في الحياة الأدبية في منطقة الشمال خلال الفترة الاستعمارية، من خلال الحضور الدائم لأدباء المدينة في مختلف اللقاءات الأدبية على مستوى الشمال، حيث ساهم أحد أدبائها وهو الغالي الطود في تأسيس أول هيئة فكرية في الشمال المغربي تحمل اسم "عصبة الفكر المغربي" وكانت بمثابة اتحاد للكتاب، أسست في مدينة تطوان في ٢٦ نونبر (نوفمبر) ١٩٣٨م.[٣]

كما عرفت مدينة القصر الكبير ظاهرة الأندية الأدبية وإن لم تحمل اسمًا خاصًا دالاً عليها، لكن بيوت فقهاء المدينة وعلمائها كانت تشهد باستمرار جلسات تناقش المسائل الأدبية والفقهية واللغوية، ومن بين هذه البيوت نجد منزل الشيخ علال الزرهوني الكشوري وهو شيخ المعهد الإسلامي، وكذلك منزل العلامة عبد الله الجباري ومنزل السيد محمد الموبح النحوي المعروف في مدينة القصر الكبير، كما كان هناك منزل السيد أحمد بن قاسم الكشوري الذي كان ينظم جلسات أدبية كل يوم أربعاء مساء، ويجتمع فيه تلامذته لتدارس كل ما يرتبط بالشعر والأدب، وقد كانت إنتاجات كُتَّاب القصر الكبير نوعية ومتميزة، حيث ألف الأستاذ والوطني عبد السلام الطود كتابه "بنو عباد بإشبيلية" الذي صدر ضمن مطبوعات مولاي الحسن بتطوان، وقدم له الأستاذ عبد الله كنون، ويُعَدّ هذا العمل من أهم الإنتاجات التي تميز بها كتاب مدينة القصر الكبير في تلك الفترة.[٤]

كما مَثَل الشعر أحد المظاهر الثقافية التي تميزت بها مدينة القصر الكبير بالنظر إلى كثرة شعرائها وغزارة إنتاجهم، حيث برز شعراء مثل الغالي الطود والمهدي الطود وأحمد السفياني ومحمد الشريف القجيري صاحب قصيدة "وعود الحماية"،[٥] وكانت كتابة الشعر عنصرًا هامًا في إنتاجات الفقهاء والصوفية، أضف إلى ذلك أجناس شعرية أخرى من قبيل قصائد الملحون التي كان يكتبها البعض مثل الشيخ أحمد الغرابلي، الذي كان هناك زقاق يسمى باسمه، ويعتبر مجمعًا للمهتمين بقصائد الملحون في القصر الكبير،[٦] وأيضًا الشاعر عبد السلام الزفري الذي كان يكتب قصائد عن الحرف والصناع، والذي توفي ما بين (١٩٣٨- ١٩٣٩) وهو مدفون في ضريح سيدي محمد الشريف في القصر الكبير،[٧] هذا الصنف من الكتابة الشعرية كان فريدًا في مدينة القصر الكبير بالنظر إلى سيادة قصائد المديح الصوفي، كما تميز بعض الشعراء بما يسمى بالشعر الفكاهي ممثلة في قصائد الشاعر سعد الدين الطود المزداد سنة ١٩٣٦ في القصر الكبير، والذي تميز بالكتابات الشعرية الساخرة،[٨] ويبقى أبرز شعراء القصر وأكثرهم شهرة وإبداعًا هو الشاعر أحمد بن الخمار الزواقي الكنوني (١٨٨٣ – ١٩٥٨) الذي اشتغل بإدارة الأحباس لمدة قصيرة، قبل أن يتفرغ لبيع الكتب ويتخذ دكانًا صغيرًا في المدينة العتيقة للقصر كمكتبة امتهن فيها بيع الكتب وكتابة قصائده، حيث كان يتوافد عليه عدة مؤرخين من أبرزهم محمد داوود مؤرخ تطوان وصاحب كتاب "تاريخ تطوان" وعدة مثقفين إسبان،[٩] إضافة إلى مجموعة من الشعراء الذين أغنوا الساحة الأدبية في القصر بكتاباتهم خصوصًا من آل الطود وآل الشاوش وآل الجباري وغيرهم من الأسر التي عرفت بإنتاج أبنائها للشعر، كما كانت المدينة خلال الفترة الاستعمارية تحتضن العديد من الكتاب ذو الاتجاه الصوفي، وقد

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

أفرد المؤرخ القصري الأستاذ محمد العربي العسري ترجمة لعدد كبير من شيوخ القصر الكبير الذين كانت أشعارهم ذات طابع صوفي.(١٠)

(٣) المسرح في مدينة القصر الكبير

مثل الفن المسرحي أحد وجوه التفاعل الثقافي بين شمال المغرب وإسبانيا، ففي مدينة القصر الكبير عمدت السلطات الاستعمارية الإسبانية إلى بناء مسرح كبير أطلق عليه اسم مسرح "ألفونسو الثالث عشر" الذي دشن يوم ٢٢ نونبر(نوفمبر) ١٩٢٢م، وأشرف على بنائه أحد المقاولين يدعى "بيريث بيانو"،(١١) وبعد فترة قصيرة تم تغيير اسمه إلى "بيريث كالدوس" نسبة إلى مؤلف كتاب "الوقائع الوطنية" الذي كان كناريا (نسبة إلى جزر الكناري الإسبانية) وماسونيًا،(١٢) وقد احتضن هذا المسرح عروضًا مسرحية متنوعة وكان في بداية عهده يستضيف بشكل مستمر عروضًا للفرق المسرحية الإسبانية،(١٣) قبل أن تعرض على خشبته فرق مغربية أعمالها المسرحية، وكانت طاقته الاستيعابية تبلغ حوالي (٩٠٠) متفرج،(١٤) كما كان المسرح يتلقى مبالغ من بلدية المدينة من أجل صيانته وتسييره.(١٥)

كانت هذه المعلمة بمثابة نقطة التحول في تاريخ المسرح في مدينة القصر الكبير، حيث عرف النشاط المسرحي أوج ازدهاره بها، وقبل ذلك عمل ثلة من المهتمين بالمسرح على التأسيس لهذا الفن الذي كان نشاطه متأثرًا بحركة المسرح في المشرق العربي ويمثل جانبًا من النشاط الثقافي لشباب المدينة الذي ينطلق من بواعث اجتماعية وسياسية وثقافية ودينية. فقد كانت أول رواية شخصت في مدينة القصر الكبير هي (عقبى المبذرين) في مسجد سيدي سعيد الزبيري بمناسبة إحدى الحفلات السنوية التي كان يقيمها الطلبة، كما تم عرض نفس المسرحية على خشبة مسرح "بيريس كالدوس"،(١٦) وقامت بتشخيصها فرقة (الجوق القصري للتمثيل العربي) التي تُعَدّ أول فرقة للمسرح في مدينة القصر الكبير، وهي مقتبسة من ألف ليلة وليلة والمجموعة التي مثلث هذه المسرحية، هي التي أسست أول فرقة تمثيلية قدمت مسرحياتها بمسرح (بيريس كالدوس) تحت اسم "جمعية الطالب المغربية" وترأس هذه الفرقة الأستاذ المهدي الطود، الذي وضع نشيدًا سماه (نشيد النهضة) اختارته الفرقة كنشيد رسمي لها يردد جماعيًا إثر تشخيص كل رواية تمثيلية، ثم تكونت فرقة أخرى تابعة لحزب الوحدة المغربية برئاسة المرحوم أحمد الخباز، وبعده ظهرت (فرقة الأطلس) التي قامت بتمثيل رواية (مصرع كليوباترا) على خشبة مسرح بيريس كالدوس في ٢٩ أكتوبر ١٩٤٧م بعد أن تلقت موافقة إدارة المراقبة الإسبانية في المدينة،(١٧) إضافة إلى فرقة (الاتحاد) التي عملت بنشاط وعرضت عدة مسرحيات في مدينة القصر الكبير والعرائش وطنجة وتطوان، وكانت هذه المسرحيات تعالج إما مواضيع تاريخية تمثل الجانب المشرق من التاريخ العربي الإسلامي، أو مواضيع دينية تمثل سماحة الشريعة الإسلامية أو مواضيع اجتماعية تظهر مساوئ الجهل وما يجب أن يتخذ لمحاربته ومحوه والتغلب على عواقبه، وكان أغلب أعضاء هذه الفرقة يعملون في حقل التعليم.

وفي نفس السياق ظهرت فرقة (عصبة الأطلس) للتمثيل والموسيقى في مدينة القصر الكبير، ويرجع الفضل في تأسيسها للأستاذ الفنان محمد الجباري، وكانت أولى مسرحياتها (شجرة الدر) التاريخية، ثم مسرحية (الأيدي المحترقة) التي كانت تدعو إلى الفضيلة والتمسك بالمثل العليا، ثم مسرحية (المرأة المجرمة) التي كانت تدعو إلى محاربة السحر وأعمال الشعوذة، ثم مسرحية (البخيل)، و(مأساة عائلة)، و(بطل الوحدة والاستقلال) التي تصور دسائس الاستعمار وتآمره بتعاون مع الخونة لإبعاد ملك البلاد محمد الخامس. وفي سنة ١٩٥٦م أسس الفنان القصري محمد الجباري (فرقة الكواكب) للتمثيل المسرحي، حيث جمع فيها ثلة من الشباب القصري المهتم بالمسرح، ويعتبر تأسيس هذه الفرقة محطة متميزة في تاريخ الفن المسرحي في القصر الكبير،(١٨) كما كان الأستاذ محمد الجباري من أوائل المغاربة الذين مارسوا مسرح العرائس (الكراكيز) في منطقة الشمال إبان الحماية الإسبانية.(١٩)

وفيما بعد واصلت (عصبة الأطلس) عملها في عهد الاستقلال بتقديم عدة مسرحيات، وكان المسرح في هذه الفترة مرتبطا بالأوضاع السياسية والاجتماعية، وكانت النصوص المسرحية تقدم باللغة العربية الفصحى خدمة لها ولآدابها، كما كانت التدريبات تجرى في المدارس الحرة وبعض البيوت.(٢٠) لم تكن العروض المسرحية التي كانت تلقيها هذه الفرق، في مأمن المراقبة الدقيقة للإدارة الاستعمارية الإسبانية في المدينة، حيث كانت كل العروض المسرحية تتطلب موافقة سلطات الحماية على عرضها، خصوصًا تلك التي تعرض بمسرح "بيريس كالدوس"،(٢١) وذلك وعيًا منها بأهمية العمل المسرحي ودوره الكبير في تعبئة المغاربة ضد المستعمر.

كما كانت مدينة القصر الكبير تتوفر على مسرح في الهواء الطلق يطلق عليه اسم (teatro de la naturaleza)، أو (مسرح الطبيعة) الذي قدمت في حفل افتتاحه الفنانة الإسبانية "margarita xirou" عرضًا فنيًا متميزًا حضرته النخبة الإسبانية في المدينة،(٢٢) يحتضن عدة أعمال مسرحية لمغاربة وأجانب، هذا النوع من المرافق الثقافية جاء تلبية لرغبة الإسبان المستوطنين لمدينة القصر الكبير، إلا أن هذا لم يمنع من إقبال الساكنة المحلية تدريجيًا عليه، خصوصًا وأن مثل هذه الفنون لم تكن لتلقى الترحيب من طرف الفقهاء الذين كانوا يحظون بمكانة هامة في المجتمع وكان لهم تأثير قوي عليه.

لقد كان الفن المسرحي في مدينة القصر الكبير خلال الفترة الاستعمارية، سببًا رئيسًا في اندلاع أحد أكبر المظاهرات وأكثرها إشعاعًا في المغرب ككل، ويتعلق الأمر بمظاهرة ٢٧ يونيو ١٩٣٣، على إثر محاولة يهود القصر الكبير تمثيل مسرحية على خشبة مسرح "بيريس كالدوس" تحت عنوان "أبو بكر عمر عثمان علي، وحوش كيف يأكلون" حيث استنفر هذا العرض الوطنيين في المدينة

بزعامة الغالي الطود الذي كان يتزعم تنظيمًا سريًا للمقاومة، فقام هؤلاء بتوزيع منشورات تدعو إلى مقاطعة المسرحية ودعوا الناس في المساجد وخرجت مظاهرات حاشدة في المدينة، أسفرت عن تدخلات عنيفة في حق المتظاهرين من طرف سلطات الحماية، وخلفت معتقلين وضحايا، ولم تعرض المسرحية في نهاية المطاف.[٢٣]

إن الحراك المسرحي القوي الذي عرفته مدينة القصر الكبير خلال الفترة الاستعمارية، يكشف جانبًا مهمًا من جوانب التغيير الثقافي الكبير والذي تُعَدّ الفنون أبرز تجلياته، حيث أصبحت جمعياتها المسرحية تؤدي أعمالاً متعددة الأبعاد وتساهم في تنمية الحس الوطني لدى القصريين، إضافة إلى استعمال المسرح كوسيلة لمعالجة العديد من القضايا الاجتماعية والثقافية والدينية.

٤) الموسيقى في مدينة القصر الكبير

كانت مدينة القصر الكبير مرتعًا للموسيقى الأندلسية بحكم موروثها الثقافي والسياسي ورباطها الجهادي والمعبر الرئيسي للقوافل المغربية والأجنبية، وقد تقوى هذا الموروث بعد الإقامة المؤقتة لمجموعة كبيرة من الأسر التطوانية التي هاجرت إليها أثناء حرب تطوان (١٨٥٩ – ١٨٦٢) وفي مقدمتها أسرة الشاعر المفضل أفيلال الذي عاش مع عبد السلام بن ريسون أجواء النغم الصوفي والمديح والآلة الأندلسية، فكان تحت تأثير هذه الحرب أن ازدهرت الحركة الصوفية بكل تجلياتها، وقد عرف القصر الكبير بنوع آخر من الموسيقى الشعبية، إذ كان مدرسة لفن العيطة والملحون وفن المديح والسماع، ومن القبائل المجاورة لمدينة القصر الكبير والتي اشتهرت بفن العيطة هي قبيلة زهجوكة التي اشتهرت عالميًا بهذا الفن الشعبي، ونسوق في هذا الصدد تعريفًا موجزًا لهذه القبيلة نظرًا لتأثيرها على السمعة الفنية لمدينة القصر الكبير.[٢٤]

١/٤- قبيلة زهجوكة:

تُعَدّ هذه القبيلة من بين القبائل التي تغنت بجمال الطبيعة واستعملت آلة "الغيطة" في عزفها سواء في فترات السلم أو الحرب، هذه القبيلة التي تعتبر امتداد لقبيلة "أهل سريف" تفصلها حوالي عشرين كيلمترا عن مدينة القصر الكبير، ويرجع العمل الموسيقي في هذه القبيلة إلى أواخر القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين، حيث كان تعداد سكانها حوالي (٨٥٠) نسمة كلهم من عبيد البخارى وكان يوجد بها حوالي (١٥٩) منزلاً وكان أغلب سكانها يعزفون على "الطبل" و"الغيطة".[٢٥] وقد استوطنت فرق متعددة من جيش عبيد البخاري نواحي مدينة القصر الكبير منذ عهد السلطان المولى إسماعيل في ظروف مختلفة، ولا يستبعد أن يكون مستوطنو زهجوكة قد كانوا في الأصل من فرق العازفين في هذا الجيش، وقد صار عازفو زهجوكة خلال القرن التاسع عشر يكونون فرقتين موسيقيتين رسميتين كانت تتناوبان على العزف بدار المخزن بفاس شهرا لكل واحدة منهما.

أصبحت قبلة زهجوكة بضواحي مدينة القصر الكبير مدرسة لتعليم الموسيقى الجبلية مما ضمن لها الاستمرار عبر الأجيال، وحافظت على تراثها الفني أبًا عن جد وأعطت لمدينة القصر الكبير شهرة واسعة، وقد تجاوزت شهرة هذه الفن حدود المغرب بفضل ما كتب عنها من طرف مؤرخي الغرب وصارت من ضمن التراث الموسيقي الإنساني العالمي الذي حافظ على وجوده لعدة قرون. وذكرها ابن خلدون في المقدمة وقال بأن أحد الأمراء زارها وأعجب بها وبنى بها قصرًا للإقامة، وتكلم عن الموسيقى بزهجوكة وأعجب بها الأمير لأنها كانت تخلق الحماس في نفوس الناس وتكرر ذكرها في التاريخ.

وقد حصدت فرقة "الغياطة والطبالة" الزهجوكية عدة شواهد وتقديرات عالمية من شهادة من جامعة "لوهافر" الأمريكية وشهادة من مؤسسة الفن بنيويورك وشاركت في عدة تظاهرات كبرى على المستوى العالمي كالمهرجان الدولي الذي ينظم كل سنة بضواحي نيويورك ويسمى (woud stok) وإلى جانب ذلك شاركت في أربعة أفلام هوليودية، وشاركت مع الأوركسترا الملكية الهرمونية بلندن والتي نالت إعجابا كبيرا من الشعب الإنجليزي. وفي عهد الحماية الإسبانية انتشرت في مدينة القصر الكبير العديد من الأجواق الأندلسية وتميزت عائلة الطود المشهورة بوطنيتها وعلمها وفنونها الأندلسية وعائلة السفياني بضروب موسيقية مختلفة.

٢/٤- الأسماء الفنية القصرية البارزة:

إن اهتمام القصريين بالموسيقى وما يرتبط بها من كتابة الكلمات وأداء المقاطع الغنائية والتلحين وغير ذلك، قد جعل المدينة تعرف بروز العديد من الأسماء التي سطع نجمها في هذا المجال الفني، حيث نذكر في هذا السياق اسمين من بين الأسماء الفنية القصرية البارزة.

- الفنان الحاج محمد الطود:[٢٦]

يُعَدّ الفنان المرحوم الحاج محمد الطود من مواليد مدينة القصر الكبير سنة ١٩٢٨ وزوج الفنانة المطربة العالية مجاهد، واحدًا من أكبر وأمهر المنشدين في المغرب ومن حفاظ ومستظهري إنشادات ومستعملات طبوع الموسيقى الأندلسية المغربية – طرب الآلة – وواحدًا من المبدعين الرواة الذي أسسوا وساهموا في تواتر وتطوير هذا الفن، ونقله إلى الأجيال اللاحقة إلى جانب أحمد الوكيلي، مارس التدريس في معهد مولاي رشيد للموسيقى الأندلسية في الرباط وتخرج على يده ثلة من حفاظ الموسيقى الأندلسية، وترك تسجيلات أغنى بها خزانة الإذاعة الوطنية وثق خلالها موشحات وصنائع كان قد حفظها عن شيخه أحمد الوكيلي.

- عبد السلام عامر:

لقب ببديع زمانه حيث كان يحفظ العديد من الأغاني العربية والمغربية والموسيقى الأندلسية بأطيافها الغرناطي والإشبيلي والقرطبي، ويحفظ الأمداح النبوية بحكم انتمائه لأسرته المحافظة المنتسبة إلى زوايا القصر الكبير فأتقن فن السماع والتجويد

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

والإنشاد وقصائد الملحون، وبحكم موهبته ونبوغه المبكر قرض الشعر وفن المسرح وجرب التلحين وأتقنه فصار من الملحنين الكبار على الصعيد العربي.[٢٧] على مستوى آخر، كانت الموسيقى تُعَدّ مكونًا أساسيًا من مكونات الأساليب التي يعتمدها الجيش الإسباني، سواء من حيث أداء الأناشيد العسكرية أو إحياء الحفلات الموسيقية المختلفة، وفي هذا الصدد قام الإسبان بإحداث إطار ينتظم فيه الفنانون ويتم من خلاله تنظيم الحفلات الموسيقية ودعم وتشجيع الفن الموسيقي، حيث كانت مدينة العرائش القريبة من القصر الكبير منطلقًا لأول مبادرة جمعوية موسيقية في الشمال المغربي والتي سيكون لها وقع وصدى إيجابيين في المنطقة.

٣/٤- جمعية أصدقاء الموسيقى:

أول انطلاقة لهذه الجمعية كانت بالعرائش في شهر نونبر (نوفمبر) من سنة ١٩٤٦، مشكلة من السيد "antonio galera" مراقب التراب الوطني، بمعية الضباط العسكريين الإسبانيين السادة بريطو وفرنانديس موراليس وسان مارتين وغيرهم من الأساتذة المهتمين بالموسيقى ورجال الأعمال، وبين سنة ١٩٤٦ إلى ١٩٥٦ قامت هذه الجمعية بعدة أنشطة مكثفة. وقد قامت هذه الجمعية بعدة أنشطة متميزة خصوصًا في الفترة ما بين شهر يناير ويونيو من ١٩٥٦، وعرفت مساهمة أسماء عديدة من العازفين المرموقين العالميين منهم الفنانين الفرنسيين 'أني دركو"، و"زواني بتيت"، إضافة إلى ليوبولد كيرول، وغرسيا كاريو، وخوسي ماريا غاريد، ومدير المعهد الموسيقي الإسباني، كما قامت هذه الجمعية بالموازاة مع ذلك بتنظيم سلسلة من المحاضرات مصحوبة بالعزف ومقطوعات موسيقية مختلفة من طرف أشهر الموسيقيين العالميين.[٢٨]

خاتمة

إن التحولات التي حدثت على المستوى الثقافي في شمال المغرب بصفة عامة ومدينة القصر الكبير بصفة خاصة، تبرز لنا أحد أهم نتائج التفاعل بين الدول المستعمرة والدول المستعمرة، هذا التفاعل الذي نتجت عنه تغييرات عميقة في البنية الثقافية لشمال المغرب، بظهور أجناس أدبية وفنية جديدة بدت غريبة في بداية الأمر على البلد الخاضع للاستعمار، لكن سرعان ما سيتم تجاوز مرحلة الاستيعاب إلى مرحلة التفاعل من خلال ظهور إبداعات من صميم المجتمع المغربي في تلك الفنون التي اعتبرت دخيلة إبان ظهورها، بل والأكثر من ذلك سوف يتم اتخاذها كسلاح لمواجهة الغطرسة الاستعمارية ودعم الروح الوطنية لدى ساكنة الشمال، وهو ما تجلى بوضوح في الفن المسرحي، على سبيل المثال، الذي سيصبح من أدوات المقاومة وآلية أساسية من آليات التعبئة لدى الحركة الوطنية في الشمال، وهو ما يؤشر على دور الفعل الثقافي والتطورات التي شهدها في دعم المطالب التحررية في شمال المغرب.

الملاحق:



صورة رقم (١)

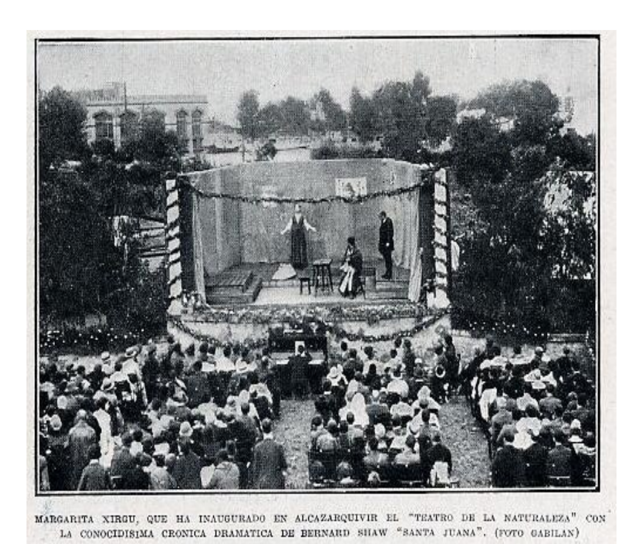
مسرح بيريس كالدوس أو ألفونسو الثالث عشر


TEATRO
Pérez Galdós
Todas las noches 2 grandes sesiones de
CINE SONORO
Excelente aparato. Proyección de las más renombradas películas
ALCAZARQUIVIR

Anuncio aparecido en la página dos de un "Anunciador Comercial" del año 1936/7, del Teatro Pérez Galdós. "Todas las noches 2 grandes sesiones de CINE SONORO. Excelente aparato. Proyección de las más renombradas películas. Alcazarquivir".

صورة رقم (٢)

بطاقة حضور لأحد انشطة مسرح "بيريس كالدوس"


MARGARITA XIRGU, QUE HA INAUGURADO EN ALCAZARQUIVIR EL "TEATRO DE LA NATURALEZA" CON LA CONOCIDISIMA CRONICA DRAMATICA DE BERNARD SHAW "SANTA JUANA". (FOTO GABILAN)

صورة رقم (٣)

عرض مسرحي على خشبة مسرح الطبيعة بمدينة القصر الكبير

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) عبد الرحيم برادة، **إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية (١٩٣١ – ١٩٥٦)**، الجزء الثاني، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٦، ص ٢٠٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٠.

(٣) محمد بن عزوز الحكيم، **مجلة الوثائق الوطنية**، العدد (٣) و(٤)، تطوان، شتنبر ودجنبر ١٩٨٨، ص ١٤٩.

(٤) بوسلهام المحمدي، **أدباء ومفكروا القصر الكبير المعاصرون**، بحث وتراجم، منشورات جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير، الطبعة الأولى، مطبعة ألطوبريس، طنجة، ٢٠٠٨، ص ٤٦.

(٥) المرجع نفسه، ص ٦٤.

(٦) **قصيدة بخط يد الشاعر أحمد الغرابلي**، أصل الوثيقة في ملك الأستاذ محمد أخريف.

(٧) محمد أخريف، **وثائق لم تنشر**، ج٣، منشورات جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير، الطبعة الأولى، مطبعة الأمنية، الرباط، ٢٠٠٨، ص ٨٩.

(٨) محمد العربي العسري، **أقلام وأعلام من القصر الكبير في العصر الحديث**، الجزء الثاني، منشورات جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بمدينة القصر الكبير، الطبعة الأولى، مطبعة الأمنية، الرباط، ٢٠١٢، ص ٣٨٥.

(٩) المرجع نفسه، ٣٤.

(١٠) انظر: **أقلام وأعلام من القصر الكبير في العصر الحديث**، الجزء الثاني، مرجع سابق.

(١١) توماز راميريز أورتيز، **القصر الكبير تاريخ مغربي صغير**، ترجمة عبد الرحمان الشاوش، إعداد ومراجعة: محمد أخريف ومحمد العربي العسري، منشورات جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير، الطبعة الأولى، مطبعة الأمنية، الرباط، ص ١٣١.

(١٢) المرجع نفسه، ص ١٣١.

(13) doc : anuncio aparacido en la pagina dos de un "anonciador comercial" del ano 1939/7, del tetro perez galdos, todas de las nochas grandes de CINE CONORO, excelanta aparato, proyaccion de las mas renomrados piluculas, alcazarquivir.

(14) Propia y Antonio CUEVAS, LA CENSURA CINEMATOGRÁFICA EN LAS COLONIAS ESPAÑOLAS, Anuario del Espectáculo (1944-1945). Madrid: E. Giménez S.A., 1945.

(١٥) إقرار من إدارة مسرح (perez galdos) بتوصلها من بلدية القصر الكبير بمبلغ (٣٣) بسيطة مؤرخة في ١٢ مارس ١٩٤٦م، وثائق الأستاذ محمد أخريف.

(١٦) منشور الإعلان عن عرض المسرحية، **أقلام وأعلام من القصر الكبير في العصر الحديث**، محمد العربي العسري، الجزء الأول، منشورات جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بمدينة القصر الكبير، الطبعة الأولى، مطبعة الأمنية، الرباط، ٢٠٠٨، ص ٣٥.

(١٧) رسالة موافقة من المراقب الإسباني المحلي على عرض مسرحية (مصرع كليوباترا) في مسرح بيريس كالدوس من طرف فرقة (الأطلس) المسرحية، وهي موجهة إلى رئيس الفرقة، وثائق الأستاذ محمد أخريف.

(١٨) محمد العربي العسري، **أقلام وأعلام**، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص٤٢٣.

(١٩) المرجع نفسه، ص ٤٢٧.

(٢٠) المصطفى الطريبق، **دور الجمعيات والتنظيمات في خدمة الثقافة بمدينة القصر الكبير**، ملحق ثقافي تاريخي حول مدينة القصر الكبير بمناسبة عيد العرش مارس ١٩٨٩ ص ٦٥.

(٢١) رسالة موافقة سلطات الحماية بالقصر الكبير على تمثيل رواية "مصرع كليوباترا" من طرف "فرقة الأطلس بمسرح "بيريس كالدوس" مؤرخة بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٩٤٧ (وثائق الأستاذ محمد أخريف).

(22) foto: margarita xirou, que ha inagurado en al cazaquivir el “ teatro de la naturaleza “ con la considisima crónica de bernard Shaw “santa juana “ (foto gabilan)

(٢٣) **وثائق لم تنشر**، محمد أخريف، الجزء٣، منشورات جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير، مطبعة الأمنية، الرباط، ٢٠٠٨، ص ١١٠.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ١٦٣.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ١٦٤.

(٢٦) المرجع نفسه، ص ١٦٥.

(٢٧) المرجع نفسه، ص ١٦٦.

(٢٨) محمد الحبيب الخراز، **الأجواء الموسيقية بتطوان**، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، تطوان، ص ٢٨٢.

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

تقرير نائب القنصل البريطاني في جدة الدكتور عبد الرزاق عن موسم حج سنة ١٨٨٦م

ترجمة



د. هاني زامل مهنا العبدلي

أستاذ مشارك التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الملك عبد العزيز
جدة – المملكة العربية السعودية

تقرير رقم (Fo 195/1583 236571)
مكتب المحفوظات العامة (P.R.O)
بريطانيا: لندن، (مارس، ١٨٨٧م)

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

تقرير نائب القنصل البريطاني في جدة الدكتور عبد الرزاق عن موسم حج سنة ١٨٨٦م/ ترجمة: هاني زامل مهنا العبدلي.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص–.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

الحج إلى الأراضي المقدسة في موسم ١٨٨٦

مع مغادرة آخر دفعة من الحجاج الهنود على السفينة إس.إس عدوة في ٢٥ يناير في العام الماضي (١٨٨٦م) في طريق عودتهم لبومباي، يكون موسم حج سنة ١٨٨٦م قد انتهى. لا توجد ملاحظات جوهرية خلال موسم هذا الحج فيما يتعلق بالحالة الصحية، التي كانت جيدة بصفة عامة فيما عدا الإصابة ببعض الأمراض العادية، التي ترجع في أسبابها إلى سوء التغذية.

كلاً من جدة ومكة كانتا تكنس وتنظف شوارعها بصفة دائمة، خلال موسم الحج، ومن العجيب أن منى لم تكن بالقذارة والتلوث الذي كانت عليه في الأعوام السابقة. إذ على غير العادة ظهرت في هذا الموسم نظيفة، وعلى الرغم من وجود خزانات المياه التي كان قد تبرع لبنائها رجل الإحسان الهندي، إلا أنها كانت مخربة وجافة، وكانت عرضة لاستخدام الأفراد الذين انتشروا حولها بحرية تامة، استجابة لطبيعتهم البشرية، وهذا أدى إلى تسرب نفايات قذرة وسامة إلى أماكن كبيرة، فيما عدا ذلك كان الوضع مرتبًا ونظيفًا مقارنة بالأعوام السابقة.

على الرغم من وصول عارف بك -عضو مجلس الصحة بالقسطنطينية- في حج هذا العام في جولة تفقدية للأماكن المقدسة مما كان له أثره الكبير في تحسين الأوضاع الصحية في الأماكن المقدسة، إلا أن الفضل أيضًا يعود إلى الدكتور نوري المسؤول المحلي عن النواحي الصحية في تحسين الأوضاع الصحية في مكة ومنى.

في بلاد جافة رملية كالحجاز، وعلى وجه الخصوص في أماكن مفضلة مثل مكة ومنى، حيث سريعًا ما تجف السوائل وتمتص من الرمال أو تتبخر بفعل الحرارة، فإن موضوع الحفاظ على الحالة الصحية ليس أمرًا صعبًا، ولا شك أن الخبرة التي تكونت من تجربة موسم هذا العام قد أوضحت للسلطات المحلية والطبية كيف أنه يمكن ببعض الجهد، وباتباع القواعد الطبية الوقائية الابتدائية يمكن تحسين الأوضاع الصحية في الأماكن المذكورة لصالح آلاف الحجاج الذين يأتون كل عام لهذه البلاد، إضافةً إلى السكان المحليين. ومن المأمول ألا تُهمل في المستقبل التنظيمات التي تم القيام بها والتي جاءت بنتائج صحية جيدة، انعكس أثرها على الوضع الصحي العام، ونأمل أن يحافظ على هذه التنظيمات مستقبلاً، حيث أن كل بيت في مكة ومنى وصل إلى حد الاختناق.

صادف يوم الحج الثامن من سبتمبر١٨٨٦م وقد تركت مكة متوجهًا لعرفات في اليوم السابع بغرض تأمين مكان جيد للمخيم. كان اليوم غائمًا، ولم تكن درجة الحرارة شديدة، على الرغم من أن ميزان الحرارة كان يشير إلى (٩٥) درجة فهرنهايت. عندما وصلنا إلى عرفات وقت الغسق. كانت آلاف الخيام تنتشر في السهل الواسع والضوء يلمع في كل مكان. حالما بدأنا في تثبيت الخيام هبت عاصفة رملية استمرت ما يقرب من خمس دقائق تبعها مطير خفيف. على أية حال؛ بعد ربع ساعة كان كل ذلك قد انتهى، وكان لذلك أثره في تهدئة الرمال، وتبريد (اعتدال) الطقس في المكان بصفة عامة.

في اليوم التالي، يوم الحج، كان الجو حار جدًا حيث بلغت درجة الحرارة في الصباح (٨٦) درجة فهرنهايت، وفي الساعة ١١ ظهرًا بلغت (٩٥) درجة فهرنهايت وفي الساعة ١٢ ظهرًا بلغت (١٠٠) درجة فهرنهايت، وفي الساعة ٤ عصرًا بلغت (٩٥) درجة فهرنهايت.

كانت هناك كميات وافرة من المياه النقية في عرفات إذ سحبت مياه عين زبيدة لتجري خلال وادي عرفات، وكانت هناك عدد من الصهاريج الكبيرة التي ملئت بمياه العين قبل يوم الحج بوقت قصير. وكان كل صهريج يحرسه عسكريين أو ثلاثة لمنع الناس من تلويثها، وعلى الرغم من نجاحهم في تحقيق ذلك بدون توقف، فإنه بالإمكان، على كل حال، تحقيق ذلك بمضاعفة عدد الحراس، الأمر يعتبر خطوة في غاية الأهمية باعتبار توقف صحة آلاف من الناس على نقاء الماء المتوفر وجودته.

تركنا عرفات بعد غروب الشمس، وصلنا منى الساعة الثانية صباحًا، بعد توقف مؤقت كما هي العادة في مزدلفة لمدة ساعة. كانت الثلاثة ليالي التي قضيناها في منى باردة مقارنةً بعرفات، وكانت درجات الحرارة كالتالي:

الأيام	الصباح	الظهيرة	الساعة الثالثة بعد الظهر	الساعة الرابعة
اليوم الأول	٨٦ فهرنهايت	٩٨ فهرنهايت	٩٩ فهرنهايت	----
اليوم الثاني	٨٥ فهرنهايت	٩٨ فهرنهايت	---	٩٧ فهرنهايت
اليوم الثالث	٨٧ فهرنهايت	٩٧ فهرنهايت	-----	٩٨ فهرنهايت

عند الساعة الثالثة بعد الظهر في اليوم الأول ارتفعت درجة الحرارة لتصل إلى (٩٩) درجة فهرنهايت، تبعها بعد نصف ساعة عاصفة رملية، وقليل من المطر، ثم انخفضت درجة الحرارة لتصل إلى (٨٥) درجة فهرنهايت الساعة الرابعة عصرًا.

كان المبلغ الكبير الذي وضعه نواب من رامبور سنة ١٨٨٤م في يد حاكم عام الحجاز قد خُصص من قبله لجلب المياه إلى منى عن طريق مد فرع لعين زبيدة لهذا المكان، وإنه من الجيد أن نرى في هذا العام صهاريج ملئًا بالمياه النقية منتصبة في وسط وادي منى ومنها تزود الآلاف بالمياه النقية.

بلغ طول الخزان حوالي (٧٠) قدمًا، وعرض (٢٥) قدم، وبارتفاع قدره (١٢) قدمًا، وكانت الجدران دائرية من كل جانب، والمنطقة الداخلية (المتوسطة) بين الفتحات بنيت كذلك مما جعل الجوانب قوية، وتم تقوية الأخيرة بحزام حديديًا تجاه الأعلى. كان هناك ثمانية أقواس بطول الخزان وثلاثة أقواس بعرض الخزان، وكان أمام كل قوس حوض مياه صغير مستطيل يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام

ويخرج من الجدار في منتصف الحوض محبس إيقاف يمكن التحكم بانسياب المياه به، وقد ثبت كل محبس في وسط فجوة مستطيلة في الحائط المغطى بباب من الحديد يغلق بقفل ومفتاح بعد انقضاء الثلاثة أيام التي يقضيها الحجيج في منى لتكون آمنة من عبث أو سرقة البدو.

ويتصل بهذا الخزان، على مسافة قريبة منه خزان آخر صغير مؤقت (١٠ x ٤ قدم) بارتفاع حوالي (٣) أقدام عن مستوى سطح الأرض، وهذا كان أيضًا يملأ من نفس مياه العين، ولكن نظرًا لقربه من الأرض (انخفاضه) وسهولة الوصول إليه سرعان ما تتعكر مياهه، فتصبح طينية.

وبغض النظر عما أشير إليه، فليس هناك مجال للنقاش أن خزانًا واحدًا كالمشار إليه يظل غير كاف، وأن كان وجوده خير من عدمه، لتلبية احتياجات هذا التجمع الكبير من البشر في منى في وقت الحج وتزويدهم بالمياه النقية، وعلى الأقل إن وجود خزانين إضافيين مشابهين للسابق أمر ضروري.

لقد بلغني أن الميزانية المتوفرة لا تكفي لأي تمديدات أخرى، لأن المياه كان يتم جلبها من مناطق بعيدة، وفي أحد كان لابد من استخدام وتركيب مضخة بخارية، لرفع المياه إلى منى لارتفاع موقعها عن موقع فرع عين زبيدة في الوادي الموصل لمنى من مكة. إن عمل كهذا تم بفضل تطوع الأمير الهندي النبيل، وقد لاقى عمله تعاطفًا كبيرًا، ولعل السنوات القادمة يتمم هذا العمل كرام آخرون، وليس هناك أن مَنْ زار منى في حج هذا العام وتعرف على فوائد توفير المياه النقية فيها سينقل أحسن الانطباع لبقاع العالم الإسلامي، وعلى الأرجح سيحفز ذلك آخرون من أثرياء العالم الإسلامي ليقدموا هباتهم لإكمال هذا العمل الذي هو على وشك الانتهاء.

خلال توقف الحجاج في مكة قبل مغادرتهم للمدينة كانت درجات الحرارة في المكان الأول (مكة) مرتفعة جدًا، وكانت درجات الحرارة اليومية في الظل كما لاحظتها ودونتها في الجدول اللاحق سترى الحالة التي كان عليها الحجاج، خاصةً أولئك الذين كانوا من المناطق الغربية الباردة، في مدينة تقع في وادي ضيق حيث أثر الحرارة يزداد بفعل الهضاب والتلال المحيطة. ولكن لحسن الحظ لم تتأثر الحالة الصحية للحجاج بذلك في ذلك الوقت على الرغم من سماعنا عن حالات ضربات الشمس في الشهور الثلاثة الماضية.

ISSN: 2090 – 0449

معدل درجات الحرارة اليومية في مكة من ١٢- ٢٠ سبتمبر ١٨٨٦م				
سنة ١٨٨٦م	الساعة ٦ صباحًا	الظهيرة	الساعة ٤ عصرًا	الحالة الجوية
١٢ سبتمبر	٨٥ درجة فهرنهايت	١٠٠ درجة فهرنهايت	٩٧ درجة فهرنهايت	
١٣ سبتمبر	٨٥	٩٩	٩٤	
١٤ سبتمبر	٨٥	٩٥	٩٤	
١٥ سبتمبر	٨٧	٩٨	١٠٠	
١٦ سبتمبر	٩٠	٩٩	٨٦	ممطرة الساعة ٤
١٧ سبتمبر	٩٠	٩٩	١٠٠	
١٨ سبتمبر	٨٧	٩٩	١٠٠	
١٩ سبتمبر	٨٨	١٠٠	١٠٠	
٢٠ سبتمبر	٩٧	١٠٠	١٠٠	

كان الحج في العام الماضي هو الحج الأكبر، لذلك كان عدد الحجاج أكبر، إذ أن حج هذا العام كان حجًا اعتياديًا، فكان عدد الحجاج الذين وقفوا بعرفات حوالي (٨٠٠٠٠) حاج فقط، لكن الرقم يظل أكبر من الأرقام التي سجلتها مواسم ١٨٨٣، ١٨٨٤م ويعود ذلك بصفة أساسية لكثرة الحجاج المصريين، والأتراك، والمغاربة المشاركين في حج هذا العام.

بلغ عدد الحجاج الذين وصلوا عن طريق البحر (٤٢,٣٧٤) وبصرف النظر عن عدد حجاج البحر للعام الماضي، فإن حجاج بحر هذا العام أكبر من أعدادهم في الخمس سنوات الماضية التي كنت فيها هنا، يوضح الجدول التالي هذه الأعداد:

السنة	الواصلون بحرًا
١٨٨٢م	٢٥,٥٨٠
١٨٨٣م	٢٧,٢٦٣
١٨٨٤م	٣١,١٥٧
١٨٨٥م	٥٢,٠١٠ الحج الأكبر
١٨٨٦م	٤٢,٣٧٤

بلغ عدد الحجاج الهنود (يدخل تحت هذا المسمى كل الذين كانوا على ظهر السفن القادمة من الموانئ الهندية) الذين قدموا لموسم هذا الحج وتضمنهم التقرير(٩٤٧٩) بينما كان عددهم في العام الماضي (٨٣١٨) على الرغم من كونه الحج الأكبر، وعلى الرغم من أن العدد للحجاج الهنود أكبر من أعدادهم في العامين الماضيين، إلا أنه يظل أقل من أعدادهم سنة ١٨٨٢، وسنة ١٨٨٣م. يوضح الجدول التالي هذه الأعداد:

السنة	الواصلون
١٨٨٢	٩٦٣٠
١٨٨٣	١٠١٤٦
١٨٨٤	٩٢٦٢
١٨٨٥	٨٣١٨
١٨٨٦	٩٤٧٩

كان عدد السفن البخارية والقوارب العادية التي وصلت محملة بالحجاج في هذا العام من الشمال ومن الجنوب (١٣٠) سفينة إلى جانب كان هناك عدد (٦٢) سمبوك (أو مراكب العرب المحلية) والتي أحضرت عددًا جيدًا من الحجاج. (الملحق التالي عبارة عن قائمة توضح جنسية السفينة، والحجاج، والنظام الذي قدموا بموجبه، وعدد الركاب على ظهر كل سفينة). كالعادة كانت قوائم الحجاج المسلمة من كل سفينة قادمة من بومباي غير مكتملة، وبمقارنة هذه القوائم مع مثيلاتها المسلمة من مركز الحجر الصحي لا تتطابق واحدة منها مع الأعداد الحقيقية للحجاج الذين وصلوا، كما سيوضح ذلك الجدول التالي:

ISSN: 2090 – 0449
علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية

اسم السفينة	تاريخ الوصول	الأعداد حسب القائمة	الأعداد حسب قائمة القبطان	الأعداد حسب الأطباء	أعداد الحجاج الواصلين حقيقة
إس إس أدريا	١٦ مارس/٨٦م	٢٨١	٣٠٩	٢٠٩	٣٠٩
إس إس سيل	٨مايو ٨٦ م	٣٥٨	٣٦٤	٣٤١	٤٠٦
إس إس موبايل	٢٢ يونيو	١٩٨	٥٣٥	.	٦٨٦
إس إس بنجلور	٢٦ يونيو	٩٧٩	١٠٤٠	٩٧٣	١٠٤٠
إس إس سومترا	١٠ يوليو	٨٣٧	١٠٣٧	١٠١٢	١٠٣٢
إس إس بنجلور	١٩ غسطس	٨٥٨	١١٥٨	٩٧٣	١١٩٢
إس إس بشوا	٢٥ غسطس	٧٧٠	٨٣٠	٨٢٥	٨٤٥
إس إس امبرس	٢٩ غسطس	٦٤٣	١١٢٠	.	١١٢٠
إس إس سومترا	٣٠ غسطس	٨٧٧	غير معروف	١٠٥٨	١٠٢٨
إس إس انجلو-اندين	٣٠ غسطس	٦٣٣	٨٠٢	.	٨٠٢
المجموع الكلي		٦٤٣٤			٨٣٢٠
الفرق بين العددين ١٨٨٦					

يلاحظ أن الفرق الذي ظهر أعلاه كبير، علمًا بأنه فقط عشر قوائم أسماء صدرت في بومباي واستلمناها. هنالك ملاحظة كتبت في آخر قائمة السفينة إس إس سومترا والتي وصلت إلى هنا في أول شهر يوليو ١٨٨٦م كتبها أحد الموظفين، تقول: "كان من المفروض أن يكون على ظهر هذه السفينة عدد (٩٩٢) حاج، ولكن العدد أقل لضيق الوقت الذي لم يمكن من إصدار الجوازات أو أوراق مرور لبعض الحجاج". القوائم التي سلمت من السفينة سومترا والسفينة انجلو-اندين في ٣٠ أغسطس١٨٨٦م كذلك كانت تحتوي على ملاحظات مماثلة.

إن هذا الاختلاف ربما يظهر أنه لم يكن هناك تنسيق بين مكتب رعاية الحجاج ومكاتب السفن المختلفة في بومباي (مكاتب السفريات) ليعملا معًا بتجانس، والذي ربما أدى إلى عدم اكتمال هذه القوائم. في القوائم التي أحضرتها السفينة إس إس بنجلور في ١٩ أغسطس والسفينة اس اس سومترا في ٣٠ أغسطس ١٨٨٦م كان عدد تصاريح العبور وجوازات السفر متداخلة مع بعضها البعض في العمودين المخصصان لهما في التقرير، ولعل ذلك نشأ بسبب الاستعجال في التدوين مما قد يكون مضللاً في دلالاته.

جدول يوضح عدد السفن القادمة من الموانئ الهندية حاملة حجاج والتي لم تحضر قوائم على الإطلاق:

اسم السفينة	ميناء المغادرة	تاريخ الوصول	عدد الحجاج بالسفينة
نذر لاند اورانج اس اس	بومباي	٨ أكتوبر ١٨٨٥م	٦٥٩
طايف اس اس	بومباي	٧ يناير	٩٧
كاسل هل بي	بومباي	١٠ يوليو ١٨٨٦م	٦٤
روز شيب بي	كالكتا	٢١ مارس ١٨٨٦م	٦٦
نواشيرا بي	كالكتا	٣١ مارس ١٨٨٦م	٦٠
فتح الباري بي	كالكتا	٢٢ ابريل ١٨٨٦م	٢١
بيري ؟ العتمان اس اس	كالكتا	٢٣ ابريل ١٨٨٦م	٣٥
نور سينا عثمان	كالكتا	٢٣ ابريل ١٨٨٦م	٢٧
امانت الرحمن اس	اليبي ؟	٢٣ ابريل ١٨٨٦م	١٦
اوفير بي	كالكتا	٢٣ ابريل ١٨٨٦ م	٣٠
عطية الرحمن	كالكتا	٢٣ ابريل ١٨٨٦ م	٣٢
فانتوا اس اس	كالكتا	٧ مايو ١٨٨٦م	٦٦
فلورا	عدن	١٦ مايو ١٨٨٦م	٤٨
جريت النمسا اس اس	عدن	٢١ مايو ١٨٨٦م	٣٢
الزقازيق اس اس	عدن	٥ يونيو ١٨٨٦م	١٢
جريت النمسا اس اس	عدن	٢١ يونيو ١٨٨٦م	١٩
امبريس اوف انديا بي	كاكتا	٣٠ مايو ١٨٨٦م	٢٧٦
فالينت اس في	كاكتا	١ يوليو ١٨٨٦م	٢٨
كنج آرثر بي	بومباي	١٠ ابريل ١٨٨٦م	٦٤
كوهي نور اس اس	كالكتا	٢٧ ابريل ١٨٨٦م	٥٦٦
عدوا اس اس	بومباي	٢٩ ابريل ١٨٨٦م	٣٩
المجموع			٢٢٥٧

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

إن السفن التي بدأت رحلتها من الموانئ الهندية، عدا بومباي، لم تحضر قوائم للمسافرين، وعندما تأتي السفينة البخارية من بومباي مارة بكراتشي فإن الركاب الملتحقون في كراتشي عادةً لا تضمن أسمائهم في القائمة التي يحضرها القبطان من الميناء الأسبق (بومباي)، ولا تحضر قائمة جديدة من الميناء اللاحق (كراتشي)، وكذلك الحال مع ميناء عدن. وهنا لابد لي من الإشادة باسم قبطان السفينة اس اس موبايل الذي يعد استثناء عما ذكر أعلاه إذ أصدر قوائم كاملة بكل الركاب الذين كانوا على ظهر السفينة. وكان الهدف من إعداد هذه القوائم التي أعدها هو إعطاء معلومات عن:

١- عدد الحجاج الذين قدموا من الموانئ الهندية من جميع الجنسيات على ظهر كل سفينة.

٢- العدد الحقيقي للحجاج الهنود.

٣- لإنشاء سجل للحجاج الهنود (في القنصلية) في حالة الاستفسارات والإحالات.

إذا كانت القوائم كاملة، فإن تحقيق الهدف ميسور، وعدم توفرها سيؤدي إلى إضاعة الوقت.

كان إجمالي عدد الحجاج الذين تضمنتهم القائمة التي تسلمتها هو (٦٤٣٤) حاج منهم كان هناك (٤٢٦٩) حاج هندي، والباقون وعددهم (٢١٦٥) حاج من جنسيات أخرى كما يوضح الجدول التالي:

اسم السفينة	عدد الحجاج الهنود	عدد الحجاج غير الهنود	مجموع عدد الحجاج
اس اس ادريا	٢١٥	٦٦	٢٨١
اس اس الطائف	٣١٨	٤٠	٣٥٨
اس اس موبايل	١٧٩	١٩	١٩٨
اس اس بنجلور	٨٦٥	١١٤	٩٧٩
اس اس سومترا	١٠٥	٧٣٢	٨٣٧
اس اس بنجلور	٦٩٨	١٦٠	٨٥٨
اس اس بيشوا	٣٦٧	٤٠٣	٧٧٠
اس اس امبريس اوف انديا	٥٨٣	٦٠	٦٤٣
اس اس سومترا	٥٢٠	٣٥٧	٨٧٧
اي اس انجلو-انديَن	٤١٩	٢١٤	٦٣٣
المجموع لكل فئة	٤٢٦٩	٢١٦٥	٦٤٣٤

كان لعدم شمولية قوائم الحجاج، وعدم إضافة قوائم جديدة بالحجاج الذين التحقوا بالسفن من موانئ هندية أخرى على الطريق، وكذلك لأننا لا نحن ولا سلطات الميناء في بومباي وغيرها من الموانئ نستطيع أن نعرف العدد الدقيق والصحيح لعد الحجاج الهنود وغير الهنود الذين يقدمون للحج كل موسم، ولذلك يبدوا أنه من الضروري لعمل ترتيبات أفضل لتسجيل الحجاج الذين يصعدون على ظهر كل سفينة، من بومباي والموانئ الأخرى، وجعل مهمة إصدار قائمة متكاملة لركاب السفينة أمرًا إجباريًا على كل قبطان سفينة حال وصوله لهذا الميناء (جدة). ومن المحتمل أن الترتيبات التي ستنتهجها شركة كوك آند سون (cook & son) هذا العام يمكن الوصول لمعرفة العدد الصحيح للحجاج الهنود وغيرهم في المستقبل.

إن عدد الجوازات التي جمعتها من الحجاج الهنود في هذا الموسم بلغ (٣٤٢٤). ويتضح أنه من بين (٤٢٦٩) جواز أصدروا في أماكن مختلفة في الهند جمعنا فقط (٣٢٢٤) بينما (١٠٤٥) جواز لم تكن متوفرة. إذا كان بالإمكان جمع جوازات السفر من الحجاج قبل مغادرتهم السفن التي جاءوا عليها، ستخفض عدد الجوازات المفقودة، ولكن وجد أن جمع الجوازات قبل مغادرة الحجاج السفن كان أمرًا غير عملي. لأن الأمر لا يتوقف على استعجال الحجاج بالنزول فقط، بل أن رجال القوارب يقفزون داخل السفينة من كل جانب، ويبدؤون في حمل أمتعة الحجاج دون الاهتمام بأصحابها لأنهم يعرفون أن هؤلاء الحجاج بالتأكيد سيتبعونهم، وخلال الضجيج وفوضى البحث عن الأمتعة، وفي غياب ترتيبات التجمع يصبح من المستحيل الدعوة لتجميع الجوازات من الحجاج في هذا الوقت.

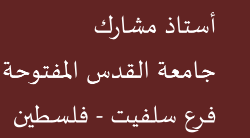
علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

Zionist settlement
and its impact on the Palestinian demography





د. عدنان عياش



أستاذ مشارك

جامعة القدس المفتوحة

فرع سلفيت - فلسطين

الاستيطان الصهيوني وانعكاساته الديموغرافية على الفلسطينيين

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عدنان عياش، الاستيطان الصهيوني وانعكاساته الديموغرافية على الفلسطينيين.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ١٤٢ – ١٥٧.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

يستعرض هذا البحث أهمية فلسطين من النواحي الدينية والتاريخية وتميز موقعها والتغييرات السكانية التي حدثت في فلسطين في فترات تاريخية مختلفة، حيث يستعرض إحصائيات لعدد السكان ترجع إلى الفترة العثمانية، ثم إحصائيات لأعداد السكان فترة الانتداب البريطاني لفلسطين، ثم يتطرق إلى التغير التاريخي لقيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وأهم التغيرات السكانية التي حدثت في فلسطين وتهجير أعداد كبيرة من الفلسطينيين إلى خارج فلسطين أو داخل حدودها في الضفة الغربية التي أصبحت تحت الحكم الأردني أو قطاع غزة تحت الحكم المصري. ثم يتحدث البحث عن السياسات الإسرائيلية الموجهة ضد سكان فلسطين الذين بقوا تحت الاحتلال الإسرائيلي من تهجير وتضييق عليهم وسياسة التهويد الإسرائيلية تجاه الأرض والسكان. ويستعرض الباحث أيضًا في بحثه نتائج الحرب ١٩٦٧م على الصعيد الديمغرافي في فلسطين وضم الجزء الباقي من فلسطين إلى دولة إسرائيل، وسياسة إسرائيل في التهجير وإقامة المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة مطبقة نفس السياسة التي تبنتها ضد السكان العرب في فلسطين ١٩٤٨م. ويتطرق الباحث إلى مواقف الحكومات الإسرائيلية المختلفة من سياسة الاستيطان بدء من حكومة العمل ١٩٦٧م وضم القدس الغربية والبدء بإنشاء المستوطنات وصولاً إلى سياسة اليمين الإسرائيلي الذي وصل الحكم سنة ١٩٧٧م حيث تسارعت وتيرة البناء الاستيطاني ومصادرة الأراضي في فلسطين. وتخلص الدراسة إلى أن صميم المنطق الصارم للنظام الصهيوني وهو خلق أغلبية يهودية في بلد تسكنه طائفة عربية فلسطينية من السكان الأصليين طرحت السياسة الصهيونية أن الحل الوحيد يتمثل في استمرار البرنامج الاستعماري الاستيطاني وطرد السكان الفلسطينيين ودفع عجلة الهجرة اليهودية.

مُقَدِّمَةْ

فلسطين منذ القدم محل اهتمام الكثير من شعوب العالم باعتبارها مهدًا للرسالات السماوية ومركزًا للديانات ولتميز موقعها الجغرافي بين بلدان المنطقة، وخصوبة أراضيها، فقد تعرضت فلسطين إلى حملات عديدة وتعرض حجم سكانها إلى الزيادة والنقصان بفعل الحروب والتهجير والهجرة. في العصر الحديث انخفض عدد سكان فلسطين في ظل الحكم العثماني بشكل كبير حيث قدر عددهم في مطلع القرن التاسع عشر بـ (٢٠٠٠٠٠) نسمه ويعود السبب في ذلك إلى ارتفاع الوفيات وتجنيد عدد كبير من الشباب في الجيش، وهجرة الكثير من الشبان خاصةً المسيحيين إلى أمريكا اللاتينية بعد إنهاء فتره الحكم العثماني ودخول الاحتلال الإنجليزي. تم إجراء بعض التقديرات لسكان القرى والبلدات حيث قدر عدد السكان الفلسطينيين سنة ١٩١٧ بـ (٦٤٢٨٥٠) نسمة منهم (٥١٥٠٠٠) مسلم، و(٦٢٥٥٠) مسيحي، و(٦٥٣٠٠) يهودي.(١)

في سنة ١٩٢٢ تم إجراء أول تعداد في فلسطين وكان العدد (٧٥٢٠٤٨) نسمة وفي سنة ١٩٣١ بلغ عدد سكان فلسطين (٩٦٦٧٦١) نسمة منهم (٦٩٣١٤٧) مسلم، (٨٨٩٠٧) مسيحي، (١٧٤٦٠٦) يهودي، (١٠١٠١) أخرى. وبين عامي)١٩٤٥-١٩٤٦) قدر عدد السكان في هذا المسح (١٦٧٣٠٧١) نسمة منهم (٩٩٤٧٢٤) مسلم، (٥٢٨٧٠٢) يهودي، (١٣٥٥٤٩) مسيحي، (١٤٠٩٨) آخرين.

في سنة ١٩٦١ نفذت الحكومة الأردنية تعداد عام للسكان في الضفة الغربية حيث بلغ عدد السكان (٨٠٥٤٥٠) مسلم، وفي سنة ١٩٦٧ بعد الاحتلال الإسرائيلي مباشرة قامت إسرائيل بإجراء حصر للسكان في سبتمبر سنة ١٩٦٧ للضفة الغربية وقطاع غزة حيث بلغ عدد سكان الضفة الغربية (٥٩٨٦٣٠) نسمة، وقطاع غزة ٣٥٦٢٦١ نسمة وفي سنة ١٩٩٥ نفذت دائرة الإحصاء المركزية الفلسطينية مسحًا ديموغرافيًا للضفة والقطاع الذي يعتبر أحد الركائز الموجودة للتعرف على الخصائص الديمغرافية للشعب الفلسطيني.(٢)

يحتل النشاط الاستيطاني حاليًا مكانة مركزية في التخطيط الاستراتيجي الإسرائيلي والصهيوني حتى قبل قيام الدولة اليهودية، إذ يتجلى الاهتمام بالاستيطان من جهات متعددة في إسرائيل فهناك ست وزارات لها علاقة مباشرة وغير مباشرة بالنشاط الاستيطاني وهي وزارات الزراعة، الاستيعاب، الإسكان، العمل، الشؤون الاجتماعية، الدفاع، هذا فضلاً عن العديد من الدوائر التي تتفرع عن المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية مثل دائرة الاستيعاب، دائرة الهجرة، ودائرة الاستيطان. والنشاط الاستيطاني باعتباره أحد المقومات الأساسية الذي يحقق للدولة العبرية هدفًا مزدوجًا يتمثل في توفير السكن وفرص العمل.(٣)

الصراع الديمغرافي العربي الصهيوني يتضح من بحث أُجري في الآونة الأخيرة بمبادرة من جامعة حيفا أن (٦٨%) من سكان إسرائيل سيكونون سنة ٢٠٢٠م من اليهود، وذلك لأن عدد المواطنين العرب فيها الذي يبلغ اليوم (١,٣٠٠,٠٠٠) نسمة سيكونون في سنة ٢٠٢٠م ٩,١ مليون نسمة، كما أن سكان الأراضي الفلسطينية سيزداد عددهم من ثلاثة ملايين نسمة إلى ٨,٥ مليون نسمة، أي أن العرب في إسرائيل والأراضي المحتلة (في الضفة وغزة) يشكلون اليوم (٤٩,٥%) من مجموع سكان المنطقتين وسيشكلون سنة ٢٠٢٠ حوالي (٥٨%) من مجموع السكان، وعليه فإن التوازن الديمغرافي والازدياد الطبيعي المرتفع في أوساط العرب في إسرائيل وفي مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية قد يؤدي كما يذكر البروفسور ("ارنون سوفي" – مدير مركز أبحاث الأمن القومي في جامعة حيفا) إلى زعزعة الديمقراطية في إسرائيل وسيؤدي إلى فقدان مناطق جغرافية في إسرائيل مثل الجليل والنقب الشمالي.

وحسب أقوال الباحثين فإن الاكتظاظ السكاني في إسرائيل سيؤدي إلى تحويلها إلى دولة عالم ثالث وإلى تدهور بيئي وسيكون الأكثر تضررًا اليهود الذين يقطنون منطقة الساحل وربما يهاجرون

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



من إسرائيل، لذلك قام مجموعة من الباحثين في مختلف التخصصات بعقد مؤتمر إسرائيلي في مستوطنة (هرتسيليا) ناقشوا خلاله موضوع دور العامل السكاني في الصراع العربي الإسرائيلي أو حسب الإسرائيليين "**خطر التكاثر الطبيعي للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة وداخل إسرائيل**" كانت لذلك المؤتمر توصيات منها منع نشوء أغلبية فلسطينية في الجليل والمثلث والنقب داخل إسرائيل نفسها، وترحيل الفلسطينيين –الترانسفير- ذلك أنه ستكون هناك حاجة لإيجاد مزج في مكان غير إسرائيل -ربما في شرق الأردن- لتوطين السكان الموجودين حاليًا في المناطق - يعني الضفة الغربية والقطاع- إذا لم يكبحوا من وتيرة تكاثرهم، وكذلك خنق ومنع نموه وتكاثره والتوطئة لترحيله، ثم اشتراط المساعدات للسلطة الفلسطينية بتخفيض نسبة الولادة عندهم.[٤]

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى إظهار مراحل وأشكال وأبعاد الصراع الديمغرافي على أرض فلسطين من جهة، وإلى أبعاد هذا الصراع على الحاضر والمستقبل الفلسطيني والوجود الصهيوني والعربي على هذه الأرض المباركة.

أهمية الدراسة

تعود أهمية موضوع الاستيطان الصهيوني وانعكاساته الديمغرافية على الفلسطينيين لكشف أبعاد المخططات الصهيونية الرامية إلى طمس الوجود الفلسطيني العربي بكل أبعاده ومحتواه، فتأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على الخطر الداهم على أرض فلسطين، ولكن تبين الدراسة في النهاية المخاوف الصهيونية من التكاثر الفلسطيني وتأثيراته على الوضع الديمغرافي على أرض فلسطين في المستقبل المنظور.

منهجية الدراسة

اعتمدت الدراسة على العديد من المصادر التي تطرقت للموضوع من كتب ومجلات وصحف وذلك للاستفادة منها في إلقاء الضوء على التطور التاريخي للصراع العربي الصهيوني، وذلك وفق المنهج التاريخي التحليلي والوصفي في البحث.

فرضية الدراسة

تحاول الدراسة من خلال إتباعها للمنهجية التاريخية التحليلية أن تجيب على فرضية ما يهدف إليه الاحتلال الصهيوني من طرد وترحيل وإبادة لأبناء الشعب الفلسطيني في فلسطين والهادف إلى إقامة الدولة الصهيونية على كل أرض فلسطين بعد طرد أهلها وتفريغها منهم، إن ما تقوم به إسرائيل وتمارسه من خلال مؤسساتها من طمس وتدمير للوجود الحضاري والثقافي والتاريخي والجغرافي لم يكن ذلك نتيجة صدفة أو عفوية، بل كانت في الحقيقة مخططات أعدت ودرست وفق فلسفة وايدلوجية صهيونية نفذت بعناية من أجل إنجاح المشروع الصهيوني والمتمثل في إقامة الدولة اليهودية على أرض الميعاد التاريخية كما يدعون.

أولاً: وقائع التحور على أرض فلسطين: (جغرافي وسكاني)

قبل سنة ١٨٨٢ بفترة بسيطة وجد في فلسطين حوالي ٢٤ ألف نسمة من (الييشوف) التي تعني الاستيطان وكانوا موزعين في القدس والخليل وصفد وطبريا وكانت غالبيتهم تعيش على الصدقات والمعونات المكرسة إليهم من يهود أوروبا وتعرف باسم ألها لوكا وقد تكون اليشوف القديم من فئتين منفصلتين هما السفرديون والاشكنازيون ولكل طائفة مؤسساتها الدينية.[٥] الأيدولوجية الصهيونية ترتكز على فرضية واهية وجد بسيطة هي أنه قد جاء في سفر التكوين (١٥/١٨-٢٠) ما يلي: "في ذلك اليوم بت الرب مع إبراهيم عهدًا قائلاً: "لنسلك أعالي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات".[٦] وانطلاقًا من ذلك ودون التساؤل عن ماهية هذا العهد أعلن الزعماء الصهاينة أن فلسطين قد أعطيت لهم من الرب.

في سنة ١٨٩٧م كانت مدينة بازل السويسرية مقرًا للمؤتمر الصهيوني الأول، وأقر دستور الصهيونية العالمية تحقيق دولة إسرائيل وإنشاء المنظمات السياسية والاقتصادية واللجان لتنفيذ المقررات والمخططات ومتابعتها على أرض الواقع. فمن الناحية التنفيذية أسس المؤتمر "المنظمة الصهيونية العالمية"، وأقر نظامها الداخلي وهيكلها التنظيمي وشروط العضوية المنظمة، كما أقر المؤتمر شكل العلم الصهيوني "ترس داوود" والنشيد القومي للصهيونية العالمية. لقد تعمد أصحاب القرار في بازل أن يستعملوا تعبير "وطن" لأسباب دبلوماسية بينما كان القصد الحقيقي للمؤتمر منذ البداية هو دولة يهودية وقد أكد "هرتسل" نفسه هذه الحقيقة في مذكراته إذ يقول: "لو أردت أن الخص مؤتمر بازل بكلمة واحدة - وهي كلمة سأحرص على ألا أتلفظ بها علنًا لقلت في مؤتمر بازل أرسيت أسس الدولة اليهودية".[٧]

في سنة ١٩٠٧م بدأت العملية الواقعية للهجرة، إذ بدأت هجرة اليهود المنظمة إلى فلسطين، بخطة منظمة ومرسومة وبدعم مادي ومعنوي من الصهيونية العالمية، وأكدت ذلك بإنشاء مستعمرات لها على أرض فلسطين، حيث شهدت فلسطين خلال تلك الفترة موجتين للهجرة اليهودية: كانت الأولى بين (١٨٨٢-١٩٠٣) وضمت أفرادًا وجماعات صغيرة من أوروبا الشرقية بدعوة من إتباع جمعية "حب صهيون وحركة بيلو" والثانية بين (١٩٠٤-١٩١٤م) وقد تألفت بدورها من يهود أوروبا الشرقية الذين عملوا في المستعمرات اليهودية التي أُقيمت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ووضعوا أسس الحركة العمالية الصهيونية والمستعمرات الجماعية الأولى، مما أدى إلى إنشاء حركات "عمال صهيون" والعامل الفتي "والطلائع" ومنظمة الحارس "هاشومير".[٨]

لقد حدث نوع من التحول في المنحنى نحو سنة ١٩٠٥ عندما وصلت من روسيا موجة جديدة من المهاجرين في أعقاب سحق ثوره ١٩٠٥ بدلاً من مواصلة الكفاح إلى جانب الثوار الروس

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الآخرين في روسيا فروا إلى فلسطين حاملين معهم نوعًا غريبًا من "الاشتراكية الصهيونية" حيث انشئوا تعاونيات حرفية وكبودسات للفلاحين بعد أن استبعدوا الفلاحين الفلسطينيين لخلق اقتصاد يستند إلى طبقة عاملة وزراعية يهودية، ومنذ ذلك الحين ارتبط الأمر باستبدال الشعب الفلسطيني بشعب أخر وبطبيعة الحال الاستيلاء على الأرض. وكانت نقطة الانطلاق الكبرى هي إنشاء "الصندوق القومي اليهودي في سنة ١٩٠١ الذي كان له طابعه الخاص المتمثل في أن الأرض التي تقع في حوزته لا يمكن إعادة بيعها ولا تأجيرها لغير اليهود ولأنها أصبحت أراضي إسرائيل.[٩]

في سنة ١٩١٧ صدر الوعد المشئوم، وعد (بلفور) وهو الدعم الأكبر والمقيت من أكبر دولة استعمارية آنذاك بريطانيا، فلقد يسر الدعم السياسي المنشود لإنشاء دولة يهودية، وكذلك معاهدة سايكس بيكو التي بقيت بنودها سرية إلى أن نشرتها الحكومة السوفياتية في روسيا بعد الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧، وفي سنة ١٩١٥م قدم الوزير البريطاني اليهودي هربرت صموئيل والذي أصبح مندوب سامي لبريطانيا في فلسطين سنة ١٩٢٠م مذكرة إلى حكومته وإلى عدد من النواب في البرلمان اقترح فيها تأسيس دولة يهودية في فلسطين تحت إشراف بريطانيا شارحًا الفوائد الاستعمارية التي ستحققها بريطانيا من هذه الدولة بأبعاد فلسطين عن السيطرة الفرنسية، وعن التدويل لأن ذلك في هذه الحالة قد يكون خطوة تمهيدية لمحمية ألمانية. ومن المأمول في ظل الحكم البريطاني أن تقدم التسهيلات إلى المنظمات اليهودية لكي تقوم بشراء الأراضي وتأسيس المستعمرات، وإقامة المؤسسات الثقافية والمدنية، وأن تعطي الهجرة اليهودية الأفضلية بحيث يمكن للسكان اليهود بعد أن يصبحوا الأكثرية ويستقروا في الأرض وأن يعطوا درجة من الحكم الذاتي.[١٠]

وعلى ذلك فمن سنة ١٨٨٢ وحتى سنة ١٩١٧ وصل (٥٠,٠٠٠) يهودي إلى فلسطين ثم جاء المهاجرون البولنديون ويهود المغرب هربًا من الاضطهاد وذلك بين الحربين العالميتين.[١١] في سنة ١٩٢٧ ازدادت الهجرات اليهودية إلى فلسطين مما أدى إلى زيادة المستعمرات على أرض فلسطين وسيطرت الصهيونية العالمية على مساحات كبيرة من الأراضي العربية بشتى الطرق وبدعم وبمساندة مباشرة من الاستعمار البريطاني ففي السنوات من (١٩٢٧-١٩٣٦) دخل فلسطين حوالي (٢١٧,٠٠٠) مهاجر صهيوني، ووصل عدد المستوطنات نحو (٧٥) مستعمرة، وتم انتقال ثلث مليون دونم من الأراضي العربية إلى اليهود هذا عدا الذين دخلوا فلسطين تهريبًا، وفي تلك الأثناء بذلت جهودًا عربية كبيرة لإنقاذ الأراضي المهددة وذلك بتأسيس صندوق من التبرعات والاشتراكات لشراء الأراضي إلى إصدار فتاوي دينية تحرم بيع أي شبر من الأراضي لليهود، إلى مقاطعة السماسرة ورفض دفنهم في المقابر.

في سنة ١٩٣٧م وبعد انتهاء الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦ بدأت الوكالة اليهودية في إنشاء قوات نظامية لليهود في الأراضي التي سيطروا عليها من فلسطين، وانهالت عليها كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة من بريطانيا وبلجيكا والصهيونية العالمية، فشكلت عصابات صهيونية مسلحة بحيث أصبح للوكالة اليهودية جيش دفاع (الهاغانه) وهو مؤلف من وحدات عسكرية نظامية تولى تجهيزها وتدريبها ضباط إنجليز لمقاومة الثورة وحماية المستعمرات، وقد قدر عدد أعضائها بأكثر من ستين ألفًا.[١٢] وفي نهاية الانتداب البريطاني بلغ عدد المستوطنين اليهود في فلسطين نحو (٦٨٠) ألف نسمة أي ما يعادل ثلث سكان البلاد، كذلك عملت سلطات الانتداب بمختلف الوسائل على تسهيل حصول الصهيونيين على الأراضي بما في ذلك منح المؤسسات الصهيونية مساحة الأراضي التي استوطن عليها الصهيونيين في نهاية الانتداب حوالي (١,٨) مليون دونم أو ما يعادل (٦%) من مجموع مساحة البلاد، وبلغ عدد المستوطنات الصهيونية (٢٩١) مستوطنة.[١٣]

في سنة ١٩٤٧م الإعلان عن الاعتراف بالكيان الصهيوني في فلسطين، حيث أقرت المنظمة الدولية قرار التقسيم (١٨١) وبموجبه أصبح لليهود حق شرعي معترف به دوليًا بإنشاء وطن قومي لليهود على جزء من فلسطين قدر في بداية الأمر بـ (٥٤%) من مساحة فلسطين، لكنه لم يقف عند ذلك الحد بل تعداه إلى ما مساحته (٧٦%) بعد حرب ١٩٤٨ تلك الحرب التي حملت للفلسطينيين جرحًا دائمًا في صدورهم جرح نكبة سنة ١٩٤٨، عندما طردت القوات الإسرائيلية أهالي (٥٣١) مدينة وقرية من ديارهم، خرج منها حوالي مليون لاجئ إلى أماكن اللجوء في ما تبقى من فلسطين والدول العربية المجاورة، حملوا معهم ذكريات موجعة عن فقدان الأرض والبيت والمزرعة وكذلك عن قسوة التشريد، حيث أصبحت مخزنًا للذاكرة الجماعية للفلسطينيين تدعمها السير الذاتية وكتب الجغرافيا والتاريخ والإشعار التي تعيد ذكريات تركيبة المجتمع الفلسطيني، ذكريات الوطن الذي حرموا منه بكل ما يحمله الشوق والخيال والحسرة والإصرار على العودة، وفي الوقت نفسه لم يكن يعرف أولئك المشردون أن مصيرهم هذا سيمتد إلى زمن طويل، ولم يكن يعرف أولئك ماذا يدور خلف الستار الذي إقامته إسرائيل لنفسها من القوة العسكرية، بدأ اليهود يعملون ليل نهار ليكونوا دولتهم وليرسوا قواعد المؤسسات فكانوا جنودًا في الليل مزارعين في النهار، بعكس العرب الضائعين الذين لا يعرفون عن جهل أو تجاهل ماذا حدث للوطن الضائع، ماذا حدث لمئات المدن والقرى.

خرج الناس وفي قلوبهم نكبة النفس، وتركوا خلفهم نكبة المكان، حياة، ومجتمع وتاريخ انتزعت منه كل شيء وبقيت ذكريات في مكان آخر. ولكن مَنْ يقف أمام هذا كله، بالطبع الجيش البريطاني الذي ألزمه صك الانتداب لحماية الأهالي ورعايتهم إلى أن تقوم دولتهم في فلسطين، لكن هذا الجيش حزم حقائبه وبدأ في الانسحاب من فلسطين لكي ينتهي منه في (١٩٤٨/٥/١٥)، لم يتحرك هذا الجيش عندما استغاث به الأهالي أثناء مذبحة دير

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



ياسين التي حدثت على بعد ٥ كم من مكتب المندوب السامي البريطاني.[١٤]

أما من حيث الاستيطان فقد أقيمت على شكل حزام متكامل من القلاع العسكرية الاستيطانية حول الخط التي حددها قرار التقسيم لسنة ١٩٤٧ وخلال الفترة الممتدة حتى عدوان حزيران ١٩٦٧ والتوسع الإسرائيلي الجديد أقامت الحكومة الإسرائيلية والوكالة اليهودية ومؤسسات الاستيطان المختلفة (٥٨٧) مستوطنة أخرى تركزت كلها في المناطق الفلسطينية التي ضمتها إسرائيل بالقوة زيادة على حدود قرار التقسيم لضمان تهويد هذه المناطق، وتم إسكان حوالي (١٨٠) ألف مستوطن فيها، وقد جاء ذلك تنفيذًا لتعليمات بن غوريون أن حدود إسرائيل هي حيث يشعر جنودها أنهم في مأمن.[١٥] ففي عشية إنشاء دولة إسرائيل كان هناك (٦٠٠.٠٠٠) يهودي في فلسطين من مجموع السكان البالغ قدرة مليون وربع مليون نسمة، وهنا بدأ الاجتثاث المنظم للفلسطينيين. ويبدأ مسلسل الاستيلاء على الأرض بطرق شتى، استولت المستعمرات على الأرض الزراعية القريبة منها قبل أن تبدأ الحكومة في سلسلة من القوانين التي تحلل ذلك، ذلك كان بعد الحرب التي فرضت على شعب ضعيف مثل الشعب الفلسطيني، وانتهت تلك الحرب بضم أراض أخرى على المساحة التي قررتها عصبة الأمم من (٥٤%) إلى (٧٦%) من مساحة فلسطين.

في شباط سنة ١٩٤٨ قبل شهرين من بداية الغزو الصهيوني قال بن غوريون لقادة الصندوق القومي اليهودي الذي يستولي على الأراضي "الحرب التي ستعطينا الأرض... انسوا مقولة هذه لنا وهذه ليست لنا (أرض عربية) هذه كلها تعبيرات السلام، في الحرب تسقط هذه المعاني، وفي النقب لن نشتري أرضًا، سنحتلها لا تنسوا أننا سنكون في حالة حرب". في نهاية آذار سنة ١٩٤٨ قبل أن يبدأ الغزو الصهيوني تمكن اليهود من طرد (٥٠،٠٠٠) لاجئ من ديارهم واقترفوا مذبحة في سعسع قُتل فيها ستون شخصًا. لقد حسمت المعركة لصالح إسرائيل في هذا الوقت المبكر وطردت أكثر من نصف اللاجئين قبل دخول القوات العربية المنقذة بعد خروج الإنجليز وانتصار إسرائيل في الجولة الأولى على العرب وشعورها بالقوة، أصبح منع عودة اللاجئين هدفًا سياسيًا معلنًا منذ حزيران ١٩٤٨ اتخذته إسرائيل في مراسلاتها الدبلوماسية خصوصًا عندما رأى الوسيط الدولي الكونت برنادوت بنفسه هول مأساة اللاجئين وأصر على عودتهم. أما الطريقة الأخرى التي اتبعتها إسرائيل فهي الإسراع بإحضار مهاجرين يهود وتوطينهم في القرى العربية المهجر أصحابها.

في سنة ١٩٥٧ مارست إسرائيل نشاطًا تجاريًا عبر خليج العقبة إلى آسيا وأفريقيا فأصبحت تمتلك حرية الملاحة في هذا الخليج مستندة إلى ميناء إيلات الإسرائيلي، وكانت قبل ذلك قد شاركت مع فرنسا وبريطانيا بالعدوان الثلاثي على مصر الذي كان من بين أهداف تلك الحرب احتلال المزيد من الأراضي العربية والوصول إلى ضفة القناة المصرية "السويس" وبالتالي تأمين حرية الملاحة لها في خليج العقبة وقناة السويس إلى جانب القضاء على مراكز الفدائيين في قطاع غزة، ولنتذكر أن الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي التي احتلها سنة ١٩٥٦ رافقه إصرار أمريكي على أن يبقى خليج العقبة مفتوحًا للملاحة الإسرائيلية، مما أتاح لها الفرصة لتكثيف وجودها التجاري في أفريقيا ودول شرق آسيا.[١٦]

ففي هذه الفترة بدأت إسرائيل تعد نفسها للتوسع فآخذت تتحين الفرصة للتوسع نحو الشرق منذ سنة ١٩٥٥ فمهدت في سنة ١٩٥٦ جديًا لاحتلال الضفة الغربية في سلسلة من الهجمات التي قامت بها القوات الإسرائيلية النظامية على المواقع والقرى الأساسية في الضفة الغربية، حيث قتلت مجموعة كبيرة من الأهالي في تلك المدن وقد رافقت هذه الهجمات دعاية واسعة قامت بها الصهيونية لتهيئة الرأي العام العالمي لهجوم إسرائيلي على الأردن التي كانت الضفة الغربية تتبع لها في تلك الفترة، لكن يبدو أن العرض الذي تقدمت به فرنسا وبريطانيا لإسرائيل للقيام بهجوم مشترك على سيناء هو الذي غير وجه الاعتداء على الأردن كما كان مخططًا إلى مصر وكان هدف إسرائيل في سنة ١٩٥٦ احتلال شبة جزيرة سيناء وضمها إليها إلا أن الظروف لم تكن مواتية في سنة ١٩٥٦ فتكررت المحاولة في سنة ١٩٦٧.[١٧]

أما سنة ١٩٦٧ تلك السنة الذي استولت فيه إسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة وصحراء سيناء حتى قناة السويس، وعلى هضبة الجولان السورية التي تعتبر لها أهمية كبرى في مصير سوريا ولبنان والأردن. ففي شباط (فبراير) سنة ١٩٦٧ أبلَغ وزير العمل الإسرائيلي الكنيست بأن نسبة البطالة في إسرائيل زادت وضعفت حركة الهجرة فلم يأت إلى إسرائيل سنة ١٩٦٦ سوى ١٥ ألف مهاجر تقريبًا. وعليه ففي نيسان (أبريل) من نفس السنة ١٩٦٧ أمر رئيس الوزراء الإسرائيلي (ليفي اشكول) بفلاحة الأراضي المجردة من السلاح على الجبهة السورية وفتح الجيش السوري النار على المتجاوزين وجرت معركة جوية بين الطرفين.

في أيار (مايو) من نفس السنة أغلقت مصر مضائق تيران وخليج العقبة مما كان له الأثر المباشر في حرب حزيران ١٩٦٧ تلك الحرب التي احتلت إسرائيل على أثرها مدينة القدس وضمتها إلى القدس الغربية الجديدة، ووقع نحو ٦٨ ألف كم٢ من الأراضي العربية في أيدي إسرائيل أي نحو ثلاثة أمثال مساحة إسرائيل، وسقط ١٥ ألف قتيل عربي، ولجأ ربع مليون فلسطيني من الضفة الغربية وغزة إلى الأردن وسوريا ولبنان، وجلا ١٥٠ ألف لاجئ سوري عن القنيطرة ومرتفعات الجولان إلى سوريا ودخل مليون عربي آخر في قطاع غزة والضفة الغربية تحت حكم إسرائيل. وما أن انتهت الحرب حتى سارعت إسرائيل إلى فرض الحقائق على الطبيعة تنفيذًا لسياسة التهويد وخصوصًا في القدس الشرقية وجوارها فقد أعلنت ضمها نهائيًا إلى القدس الغربية واتخذتها عاصمة موحدة أبدية لها، كما نفذت في المناطق المحتلة سياسة المصادرة والتهويد ذاتها التي نفذتها في أعقاب حرب ١٩٤٨.[١٨]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

إن النظر إلى حركة الاستيطان الصهيوني في المناطق المحتلة بعد سنة ١٩٦٧ يؤكد نية إسرائيل ومؤسساتها وأحزابها عدم التخلي عن شبر واحد من الأراضي المحتلة الجديدة، فقد قامت بتطبيق نمطين من الاستيطان في الضفة الغربية يختلفان في المظهر ويتفقان في الهدف والنتيجة فقد سارعت إلى ضم القدس إليها في (١٩٦٧/٦/٢٧) في محاولة لإضفاء نمط مزيف من الشرعية على احتلالها للمدينة، وبهذا القرار أباحت لنفسها ولمؤسساتها المختلفة حرية ممارسه التهويد ومصادرة الأراضي، وإقامة الأحياء السكنية، وإجلاء السكان العرب عن مساكنهم وهدمها، وتوسيع المخططات الهيكلية للمدينة على حساب أراضي القرى العربية المجاورة.(١٩) كذلك فقد بدا إنشاء المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ بعد انتهاء الحرب مباشرة، ثم بعد ذلك إقامتها في الأراضي العربية المحتلة كافة، وذلك لأن الاستيطان فيها يعتبر هدفًا قوميًا تلتقي حوله الاتجاهات والقوى السياسية كافة في إسرائيل.(٢٠)

وإن الخلاف القائم بين حزبي العمل والليكود ليس خلافًا على المبدأ، وإنما هو خلاف على الكيفية والكمية التي سوف يتم ضمها من تلك الأراضي. وكان الاستيطان بدا محدودًا في بداية الأمر وعلى نطاق ضيق وقد تركز في مواقع معينة مثل المعسكرات السابقة للجيش الأردني والمواقع التي سبق لليهود أن أقاموا فيها مثل كيبوتس كفار عتسيون، كما تركز أيضًا في القدس، ثم ما لبث أن امتد وبصورة سرطانية إلى سائر الأراضي العربية المحتلة الأخرى ففي البداية كانت المستوطنات تقام تحت ستار الدوافع الأمنية واعتباراتها، ثم اختلطت بأسباب تاريخية وعقائدية حيث رفع تكتل الليكود اليميني شعار أرض إسرائيل المحررة وحق جميع أفراد الشعب الإسرائيلي في الاستيطان في كل جزء منها، وذلك من أجل خلق كثافة سكانية يهودية للحيلولة دون إمكانية قيام دولة فلسطينية مستقبلاً في تلك الأراضي. الأمر الذي يمكن إسرائيل من طرح حجتها الجديدة القديمة وهي كيف يمكن إقامة دولة فلسطينية في منطقة مكتظة بالمستوطنين اليهود.(٢١)

لقد كانت أهداف إسرائيل من إقامة المستوطنات خلال الفترة الأولى من احتلالها للأراضي العربية المحتلة هو تحديد حدودها الجديدة مثلما بينت ذلك (غولدا مائير) رئيسة الوزراء سنة ١٩٧٢ وبكل تبجح الحدود هي حيث يقيم اليهود وليس حيث يوجد خط على الخريطة، وقد كان (حزب العمل) السباق إلى هذه الخطط الاستيطانية خاصةً من زعمائه أمثال مشروع ألون الذي يدعو إلى استيطان المناطق الآمنة، ومشروع دايان الخاص بالدمج الاقتصادي لسكان المناطق المحتلة مع إسرائيل، ووثيقة غالي التي فتحت المجال واسعًا لمزيد من الاستيطان في الأراضي المحتلة التي كانت مصاغة بطريقة غامضة وتحتمل أكثر من تفسير.(٢٢) وفي سنة ١٩٧٧ كانت الزيارة التي قلبت كيان الأمة العربية زيارة (أنور السادات) إلى إسرائيل التي كانت أول مرة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، تلك الزيارة التي فتحت الآفاق أمام الإسرائيليين للسيطرة على أراضي كثيرة في فلسطين عامة والضفة الغربية خاصة لإقامة المستوطنات التي كثر عددها في تلك الفترة الزمنية.(٢٣)

أما تكتل الليكود الذي وصل إلى الحكم في إسرائيل (١٩٧٧/٥/١٧) أعطى دفعًا جديدًا للسياسة الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، فما أن وصلت إلى الحكم حتى أضفت صفة الشرعية على المستوطنات الموقنة التي قامت حركة غوش امونيم غير الرسمية في عهد (المعراخ)، وكذلك ثلاث مستوطنات أخرى غير رسمية هي كدوميم وعوفرا ومعاليه أدوميم، والهدف من ذلك كما قال (حنان بورات) أحد قادة غوش امونيم "إن الاستيطان لم يكن بالنسبة إلى الحكومة الليكودية الجديدة مجرد شعارات انتخابية وإنما كان تعبيرًا حقيقيًا عن موقفها من الشعب الفلسطيني وأرضه ويتمثل هذا الموقف بوجوب زرع هذه الأرض بالمستوطنات للحيلولة دون قيام دولة فلسطينية مستقلة(٢٤) فيها، ثم كان الإعلان رسميًا عن الاتجاه نحو إقامة المدن الاستيطانية الكبيرة بدلاً من المستوطنات الصغيرة المؤقتة حيث تقدم "عيزرا وايزمن" وزير الدفاع الأسبق بمشروع استيطاني في سنة ١٩٧٨ يهدف إلى إقامة ست مدن كبيرة وقد تبنته الحكومة وقامت بتنفيذه والهدف من إقامة هذه المدن الكبيرة ذات الكثافة السكانية المرتفعة هو تقوية قبضتها على الأراضي المحتلة للحيلولة دون التخلي عن هذه المستوطنات في ظل أية ترتيبات قادمة للسلام.(٢٥)

إن استراتيجية الاستيطان الإسرائيلي بعد سنة ١٩٦٧ الذي كان من تجمع المعراخ وتكتل الليكود تخلص إلى أنه لا يوجد خلاف جوهري حول الاستيطان فهما متفقان حول أهمية استيطان الأراضي المحتلة والدور الذي يمكن أن يلعبه هذا الاستيطان في الحيلولة دون قيام دولة فلسطينية مستقلة فيها والخلاف بينهما ينحصر فقط في التفاصيل والأساليب المتبعة لتحقيق الهدف النهائي المشترك.(٢٦) أما مشروع وايزمان المذكور ذا الخطوط العريضة والذي يقضي بإقامة ست مدن من بينها ثلاث في يهودا: في غفعون (٢٥٠٠) دونم في معاليه أدوميم (٤٠٠٠) دونم، وفي غوش عتسيون (٧٠٠٠) دونم وثلاثة في السامرة: حارس، كرني شمرون، والنبي صالح وتقرر أن تقيم في هذه المراكز الستة حوالي (٣٨٠٠٠) عائلة.(٢٧)

في نهاية سنة ١٩٨٧ كان بدء الانتفاضة الأولى التي أظهرت للعالم اجمع مدى الصراع الديمغرافي العربي الصهيوني في الأرض العربية حيث سيطرت إسرائيل على مساحات شاسعة من الأرض العربية.(٢٨) وحجة الأمن وإرهاب الانتفاضة هي حجج واهية والأرقام تتحدث عن نفسها في هذا الصدد فقد استشهد (١١١٦) فلسطينيًا منذ بداية الانتفاضة (ثورة الحجارة) في (٩ ديسمبر١٩٨٧) وبرصاص العسكريين والشرطة والمستوطنين والمصادر العسكرية

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



تتحدث عن ما يقارب من عشرين ألفًا من الفلسطينيين الجرحى. أما الاونروا فتتحدث عن تسعين ألفًا وحسب المنظمات الأهلية الإنسانية فقد تم اعتقال (١٥) ألف فلسطيني في سنة ١٩٩٣ في السجون الإسرائيلية وتوفي (١٢) فلسطينيًا في السجون الإسرائيلية منذ بداية الانتفاضة في ظروف غامضة وتشير هذه المنظمات الإنسانية أيضًا إلى انه قد جرى تعذيب (٢٠) ألف فلسطيني على الأقل أثناء الاستجوابات وهذا الكم الهائل من انتهاكات القانون الدولي مرجعه نظرة إسرائيل إلى القانون الدولي الذي يعتبر بالنسبة لها مجرد (قصاصة ورق) لا قيمة لها أو كما يقول إسرائيل شاحاك "لأن هذه المستوطنات بطبيعتها تندرج ضمن نسق متكامل من النهب والسلب والتفرقة والفصل العنصري".[٢٩]

في سنة ١٩٩٧ وبعد مضي مائة عام على مؤتمر بازل الصهيوني في سويسرا والذي كان كما ذكرنا الحجر الأساس في قيام الدولة الصهيونية في فلسطين زاد عدد المستوطنات إلى حدّ لم يعد بمقدور الفلسطينيين تحمل هذا الوضع وهذا التوسع لمستوطنات قائمة على حساب الأرض الزراعية للفلسطينيين وخير دليل برنامج النجوم السبع في منطقة المثلث الفلسطيني.[٣٠]

ثانيًا: استراتيجية الاستيطان الصهيوني في الأراضي العربية المحتلة بعد سنة ١٩٦٧

لقد حرص حزب العمل وتكتل الليكود الإسرائيليان أثناء خوضهما المعركة الانتخابية للكنيست الثالث عشر على التركيز على السياسة الاستيطانية في الأراضي العربية المحتلة وكان قد طلع علينا زعيم حزب العمل آنذاك إسحاق رابين بمصطلح "الاستيطان السياسي" و"الاستيطان الأمني" ومعنى ذلك كما يرى بعض الباحثين أنه كان من الممكن أن يلجأ رابين بعد فوزه في الانتخابات وتكليفه بتشكيل الحكومة إلى المبادرة إلى إيقاف ما أسماه بالاستيطان السياسي والاستمرار بالاستيطان الأمني والذي ينحصر في توسيع بعض المستوطنات القائمة في ثلاث مناطق وهي غور الأردن والقدس والجولان مما يعني وضع نهاية للاستيطان الإسرائيلي في معظم المنطقة المرشحة لتطبيق حكم ذاتي فلسطيني فيها.[٣١]

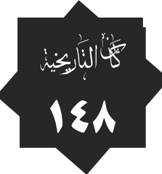
ولاشك في أن التفرقة السابقة بين الاستيطان السياسي والأمني ما هي إلا محاولة لتمييع الموقف من الاستيطان الإسرائيلي في الأراضي العربية المحتلة، ومحاولة لإضفاء صبغة الشرعية على المستوطنات المقامة في تلك الأراضي وخصوصًا تلك التي أقامها حزب العمل خلال السنوات العشر الأولى من حكمه للأراضي العربية المحتلة. لذلك سوف نعمل من خلال هذه الدراسة على بيان السياسة والاستراتيجيا الاستيطانيتين وتوضيحهما لدى كل من تجمع المعراخ وتكتل الليكود ومَنْ يناصره من الأحزاب اليمينية المتطرفة. فبانتهاء حرب الخامس من حزيران يونيو سنة ١٩٦٧ كانت إسرائيل قد احتلت مساحات واسعة من الأراضي العربية شملت الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء والجولان وهذه الأراضي تزيد مساحتها ثلاثة أضعاف على مساحة إسرائيل لذلك فقد طرأ تحول على استراتيجية الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين حيث تم التركيز على استيطان هذه الأراضي على حساب الاستيطان في الأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٤٨ وخصوصًا في منطقتي النقب والجليل.[٣٢]

وقد بدأ إنشاء المستوطنات الإسرائيلية في هذه الأراضي بعد انتهاء الحرب مباشرةً ثم توالى بعد ذلك إقامتها في الأراضي العربية المحتلة كافة، وذلك لأن الاستيطان فيها يعتبر هدفًا قوميًا تلتقي حوله الاتجاهات والقوى السياسية كافة في إسرائيل،[٣٣] وأن الخلاف القائم بين حزب العمل الإسرائيلي وتحالف الليكود ليس خلافًا على المبدأ وإنما هو خلاف على الكيفية والكمية التي سوف تضم من تلك الأراضي. وكان الاستيطان الإسرائيلي في تلك الأراضي قد بدأ محدودًا وعلى نطاق ضيق وقد تركز في مواقع معينة مثل المعسكرات السابقة للجيش الأردني والمواقع التي سبق لليهود أن أقاموا فيها مثل كيبوتز كفارعتزيون، كما تركز أيضًا في مدينة القدس، ثم ما لبث أن امتد وبصورة سرطانية إلى سائر الأراضي العربية المحتلة الأخرى.

وبعد أن صعد تكتل الليكود إلى الحكم في (١٩٧٧/٥/١٧) اتخذت العمليات الاستيطانية في الأراضي العربية المحتلة طابعًا هجوميًا وبدأت تتم ضمن استراتيجيا مختلفة تمامًا عن الاستراتيجية التي تبناها حزب العمل سابقًا، وبعد أن كانت المستوطنات تقام تحت ستار الدوافع والاعتبارات الأمنية فقد تغيرت واختلطت بأسباب تاريخية وعقائدية حيث رفع تكتل الليكود اليميني شعار أرض إسرائيل المحررة وحق جميع أفراد الشعب الإسرائيلي في الاستيطان في كل جزء منها، وذلك من أجل خلق كثافة سكانية يهودية للحيلولة دون إمكانية قيام دولة فلسطينية مستقبلاً في تلك الأراضي الأمر الذي يمكّن إسرائيل من طرح حجتها الجديدة القديمة وهي كيف يمكن إقامة دولة فلسطينية في منطقة مكتظة بالمستوطنين اليهود؟! فكما استعملت هذه الحجة لترفض قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في (١٩٤٧/١١/٢٦) فإنها تكررها اليوم لترفض تطبيق القرار رقم (٢٤٢) القاضي بانسحابها من الأراضي التي احتلت سنة ١٩٦٧.[٣٤]

وقد مرت السياسة الاستيطانية في تلك الأراضي بمراحل عدة وهدفت إلى تحقيق غايات عدة، فقد كان هدف إسرائيل من المستوطنات التي أقامتها خلال العقد الأول من احتلالها الأراضي العربية المحتلة هو تحديد حدودها الجديدة مثلما حددت مستعمرات حقبة ما قبل قيام الدولة تخوم السياسة اليهودية، لذلك أعلنت غولدا مائير رئيسة الوزراء الإسرائيلية سنة ١٩٧٢ وبكل تبجح أن الحدود هي حيث يقيم اليهود لا حيث يوجد خط على الخريطة.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



ثالثا: استراتيجية الاستيطان في عهد المعراخ (١٩٦٧ - ١٩٧٧)

يمكن التعرف إلى استراتيجية الاستيطان في عهد المعراخ من خلال المشروعات الاستيطانية التي قدمت في ذلك العهد، والتي تمثل آراء شخصية لزعمائه مثل مشروع آلون الذي يدعو إلى استيطان المناطق الآمنة، ومشروع دايان الخاص بالدمج الاقتصادي لسكان المناطق المحتلة مع إسرائيل، ووثيقة غاليلي التي فتحت المجال واسعًا لمزيد من الاستيطان في الأراضي المحتلة،[٣٥] لأنها قد صيغت بطريقة غامضة وتحتمل أكثر من تفسير مما دفع كل طرف من أطراف المعراخ إلى أن يفسرها على هواه.[٣٦] لقد بنى تجمع المعراخ سياسته الاستيطانية على ركائز عدة منها الأمني، والسياسي والديمغرافي والأيديولوجي فبحجة توفير الحدود الآمنة مثلاً تمت إقامة أحزمة من المستوطنات على امتداد تلك الحدود.[٣٧]

وعلى الرغم من عدم تبني حزب العمل أو حكومة المعراخ مشروع آلون رسميًا، إلا أن هذا المشروع كان هو الأساس الذي أقيمت بموجبه المستوطنات في الأراضي المحتل،[٣٨] لأنه قام على مبدأ مؤداه تجنب المراكز السكانية العربية الكثيفة - قدر الإمكان- وذلك تطبيقًا للمعادلة الصهيونية الأساسية «أكبر مساحة من الأرض، وأقل عدد من السكان العرب»، كما أنه في الوقت نفسه قد ترك الباب مفتوحًا أمام التفاوض بشأن الأراضي المحتلة.[٣٩] وقد مر الاستيطان الإسرائيلي في عهد المعراخ بمراحل ثلاث: تبدأ **المرحلة الأولى** منها منذ سنة ١٩٦٧ وحتى سنة ١٩٧٠ وهي التي سميت بخطة آلون، وإن كان قد سبق وضع هذه الخطة عملية استيطان في غور الأردن، حيث أقيمت المستوطنة الأولى وهي «محوله» في سنة ١٩٦٨ في شمال غور الأردن. ثم كانت **المرحلة الثانية**، حيث أقيمت ثلاث مستوطنات أخرى بين عامي ١٩٧١ و١٩٧٤ وبدأت عملية استيطان المحور الغربي في الحزام الأمني المقترح في خطة آلون. أما **المرحلة الثالثة** فهي التي تمت بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٩ حيث أقيمت خمس مستوطنات من أجل تكثيف الاستيطان في المناطق الضعيفة.[٥٠] وسوف نستعرض في عجالة المشروعات الاستيطانية في عهد تجمع المعراخ، وهي مشروع آلون، ومشروع غاليلي، لنتعرف منها إلى استراتيجيته الاستيطانية.

١/٣- مشروع آلون:

ظهر هذا المشروع في صيغتين: الأولى بتاريخ (١٩٦٧/٧/٢٦) وكانت بمثابة اقتراح تقدم به وزير العدل الإسرائيلي (في ذلك الوقت) ييغال آلون إلى مجلس الوزراء وقد وافقت عليه حكومة ليفي اشكول بعد عدة أسابيع فقط من انتهاء حرب سنة ١٩٦٧.[٥١] أما الثانية فقد ظهرت في عدد تشرين الأول أكتوبر سنة ١٩٦٧ من مجلة شؤون خارجية الأميركية التي يصدرها مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك.[٥٢]

وقد دعا آلون في مشروعه إلى ضم مناطق معينة من الأراضي المحتلة إلى إسرائيل كجزء لا يتجزأ من سيادتها وهي «شريط يتراوح عرضه بين ١٠ و١٥ كيلومترا تقريبًا على امتداد غور الأردن» وشريط عرضه بضعة كيلومترات تجري دراسته على الطبيعة من شمالي طريق المواصلات بين القدس والبحر الميت، بحيث يتصل في مكان ما بالمنطقة الواقعة شمالي طريق عطروت -بيت حورون- اللطرون، بما في ذلك منطقة اللطرون، وأيضًا جبل الخليل بسكانه ... أو صحراء يهودا على الأقل، من مشارف الخليل الشرقية حتى البحر الميت والنقب،[٥٣] ولذلك فقد رأى آلون أن حدود إسرائيل الدائمة يجب أن تكون قابلة للدفاع عنها من وجهة النظر الاستراتيجية، وبالتالي يتعين أن تعتمد على عوائق طوبوغرافية دائمة تستطيع مقاومة أي هجوم للجيوش البرية العربية وتساعد على شن الهجمات المضادة، كما يجب أن تكون الحدود سياسة وهي تكون كذلك إذا تم بناء المستوطنات على طولها،[٥٤] ووفقًا لتلك الخطة فإنه سوف يتم ضم نصف الضفة الغربية وثلاثة أرباع قطاع غزة إلى إسرائيل،[٥٥] وذلك لأن آلون (صاحب المشروع) قد اقترح ضم معظم القطاع إلى إسرائيل بعد أن يتم تهجير سكانه من اللاجئين (وهم يشكلون أغلبية السكان) إلى الضفة الغربية،[٥٦] كما أنه سوف يتم ضم مدينة القدس كليًا إلى إسرائيل مع محاول تطويقها بالمستوطنات مما يجعل من عودتها إلى السيادة العربية أمرًا مستحيلاً.[٥٧]

وقد لاقت خطة آلون قبولاً ودعمًا من جانب الصهيونيين التقليديين، خصوصًا أنها تهدف إلى تحقيق ما يسمى بنقاء الدولة اليهودية، عن طريق تجنب ضم المناطق والأراضي العربية ذات الكثافة السكانية وبذلك ظلت خطة آلون هي الإطار الأساسي لسياسة المعراخ الاستيطانية وإن أقيم العديد من المستوطنات خارج هذه الخطة،[٥٨] حيث أنه كان قد ظهر في ظل حكومة المعراخ بعض الحركات الإسرائيلية التي تعمل بعكس تلك الخطة مثل حركة غوش امونيم التي ظهرت في أعقاب حرب العاشر من رمضان سنة ١٩٧٣ بهدف الإسراع بعملية الاستيطان «في جميع أرض إسرائيل».[٥٩] وقد أصبحت هذه الحركة هي القوة الأساسية المحركة للنشاط الاستيطاني بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٧ حيث قادت ما أطلق عليه اصطلاح «الاستيطان غير الرسمي» وتمكنت بدعم من وزير الدفاع والسلطات العسكرية من إقامة خمس مستوطنات في قلب سلسلة جبال الضفة الغربية،[٦٠] كذلك فقد طرحت هذه الحركة في ١١ تشرين الثاني نوفمبر سنة ١٩٧٦ مشروعًا استيطانيًا خاصًا بها يدعو إلى توطين مليون يهودي خلال عشرة أعوام في مائة موقع في أنحاء مختلفة من الضفة الغربية.[٦١]

ومجمل القول؛ أن مشروع آلون كان من أبرز الموجهات الرئيسية للسياسة الاستيطانية خلال عهد المعراخ، خصوصًا أنه ينص علنا على ضم كل من القدس وغزة وغور الأردن والخليل وهضبة الجولان السورية إلى إسرائيل.[٦٢]

علمية، عالمية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



٢/٣- وثيقة ومشروع غاليلي:

تنسب هذه الوثيقة إلى الوزير العمالي إسرائيل غاليلي، وقد تضمنت نصوصًا عدة تتعلق بالاستيطان أهمها: وجوب توسيع دائرة شراء الأراضي والأملاك في المناطق المحتلة من قبل مديرية عقارات إسرائيل،[٦٣] والعمل على تطوير سياسة الاستيطان وذلك من خلال إقامة مستوطنات جديدة وتعزيز المستوطنات القائمة، وخصوصًا في شمال البحر الميت، وفي غور الاردن وغوش عتريون.[٦٤]

وقد عدلت هذه الوثيقة من خلال وثيقة أخرى اقرها حزب العمل الإسرائيلي سنة ١٩٧٤ كبرنامج انتخابي لكي يتلاءم مع مستجدات حرب رمضان سنة ١٩٧٣ وقد أطلق عليها وثيقة الأربعة عشر بندًا، وهي لا تختلف عن وثيقة غاليلي، غير أنها لم تحدد أماكن الاستيطان تاركة ذلك للحكومة لتقرر كل حالة على حالها.[٦٥] ثم تحولت هذه الوثيقة إلى مشروع بلورته اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان برئاسة الوزير إسرائيل غاليلي نفسه، وذلك في نيسان (أبريل) سنة ١٩٧٧ ويهدف هذا المشروع إلى إقامة (١٨٦) مستوطنة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٧ و١٩٢٢ منها ٤٩ مستوطنة في الأراضي العربية التي احتلت بعد سنة ١٩٦٧ موزعة على النحو التالي: (١٥) مستوطنة في الضفة الغربية؛ (٢٠) في قطاع غزة ومشارف رفح، (١٠) في مرتفعات الجولان، و(٤) على ساحل خليج العقبة.[٦٦]

على ضوء المشروعين الاستيطانيين السابقين (آلون وغاليلي) يمكننا القول أن استراتيجية تجمع المعراخ الاستيطانية قامت على العناصر التالية:

- التأكيد على حرية استيطان الأراضي المحتلة، وخصوصًا في مناطق الأمن، وهي خطوط المواجهة مع البلدان العربية مع التأكيد على أن السيطرة على الأرض الفلسطينية تعني السيطرة السياسية للحيلولة دون قيام دولة فلسطينية في الضفة وغزة.[٦٧]
- تجنب الاستيطان في المناطق العربية الكثيفة السكان، من أجل المحافظة على نقاء الدولة اليهودية.[٦٨]
- تكثيف الاستيطان في الأراضي المحتلة للحيلولة دون العودة إلى حدود سنة ١٩٦٧ مع فتح الباب في الوقت نفسه لإمكانية تحقيق تسوية سياسية.[٦٩]
- التركيز على استيطان مدينة القدس وما حولها من أجل عزلها عن باقي مناطق الضفة الغربية بتجمعات يهودية ضخمة ومن أجل تأكيد توحيد شطريها للحيلولة دون التراجع عنها أو تقسيمها مرة أخرى في المستقبل.[٧٠]

رابعًا: الاستراتيجية الاستيطانية لدى تكتل الليكود

تربعت الأحزاب العمالية على سدة الحكم في إسرائيل منذ إعلان استقلالها في (١٩٤٨/٥/١٥) وحتى شهر أيار مايو سنة ١٩٧٧ ولمدة تسعة وعشرين عامًا حيث نجح تكتل الليكود بالوصول إلى الحكم بعد فوزه في انتخابات الكنيست التاسع في (١٩٩٧/٥/١٧)[٧١] وقد تم تشكيل الليكود رسميًا بتاريخ (١٩٧٣/٩/٣٠) وذلك بعد مفاوضات استغرقت وقتًا طويلاً بين أحزاب وكتل برلمانية عدة:

- غاحال (تحالف حيروت والأحرار).
- كتلة حزب المركز الحر.
- كتلة حزب القائمة الرسمية (وهي بقايا حزب رافي التي رفضت الالتحاق بموشي ديان والعودة إلى حزب العمل).
- ومن خارج الكنيست حركة من «أرض إسرائيل الكاملة».

وقد جاء تشكيل الليكود بالصورة السابقة تتويجها لاقتراحات بدأت منذ سنة ١٩٥٨ وذلك بهدف إيجاد قوة بديلة لتحالف الأحزاب العمالية، استعدادًا لخوض الانتخابات العامة للكنيست الثامن والتي كانت مقررة في خريف سنة ١٩٧٣.[٧٢] ويقصد بكلمة «ليكود»: أرض إسرائيل بحدودها التوراتية وهو ما يعكس رؤية هذا التكتل «اليميني» وموقفه من الأراضي الفلسطينية المحتلة كما يصورها الفكر الصهيوني.[٧٣] والذي انعكس بدوره على برنامج هذا التكتل الذي يقوم على العناصر التالية:

- أن حق الشعب اليهودي في «أرض إسرائيل» غير قابل للطعن، لذا فإن الحزب يعارض أي اقتراح يترتب عليه تقسيم أرض إسرائيل «المحررة» بصورة قانونية.[٧٤] ولذلك طالب الحزب بفرض السيادة الإسرائيلية على تلك المناطق المحررة، مع التزامه تكثيف الاستيطان فيها وخصوصًا يهودا والسامرة (الضفة الغربية).[٧٥] لأن استيطان تلك الأراضي هو تأكيد لهذا الحق «غير القابل للطعن» لأنه يقوم على أسس دينية وليس على أسس أمنية أو اقتصادية.[٧٦]
- أن مهمة الجيل الحالي في إسرائيل العمل على توحيد الأجزاء المنسلخة من أرض الوطن وإقامة السيادة اليهودية عليها، لذا فإن عودة الشعب اليهودي إلى موطنه أمر حتمي في حياة الشعب اليهودي، وعلى هذا الجيل أن يساعد على تجميع شعبنا المبعثر، وأن يعيده إلى وطنه المحرر.[٧٧]
- لدولة إسرائيل الحق في المطالبة بالسيادة على يهودا والسامرة والضفة الغربية المحتلة وأن الدولة الفلسطينية لن تقوم بأية شروط كانت، لأن تسليم الضفة الغربية إلى أية «سلطة أجنبية» مرفوض من قبل الليكود لأنه يرى أن المنطقة الواقعة ما بين البحر الأحمر ونهر الأردن ستكون تحت السيادة الإسرائيلية.[٧٨]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



- الفصل بين مسألة مصير الأراضي الفلسطينية المحتلة وكل من الأراضي المصرية والسورية، ولذلك يعتبر كل من سيناء والجولان يجب أن يحتفظ بها مع إمكانية التنازل عن أجزاء منها في حال التوصل إلى تسوية مع كل من مصر وسوريا والاحتفاظ بأجزاء أخرى بحجة أمن الدولة.[٧٩]

لقد انعكست المبادئ السابقة على سياسة الاستيطان واستراتيجيته لدى تكتل الليكود وكذلك على مشاريعه الاستيطانية، ولذلك سوف نلقي الضوء في عجالة على هاتين المسألتين:

١/٤- سياسة الاستيطان واستراتيجيته لدى تكتل الليكود:

لقد شكل وصول الليكود إلى الحكم في إسرائيل في (١٩٧٧/٥/١٧) دفعًا جديدًا للسياسة الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة، حيث أن أول عمل قامت به حكومة الليكود الجديدة هو إضفاؤها صفة الشرعية على المستوطنات المؤقتة التي أقامتها حركة غوش امونيم في عهد المعراخ من دون أن تعترف بها الحكومة رسميًا (٨٠) ففي شهر تموز يوليو سنة ١٩٧٧ اعترفت الحكومة الجديدة رسميًا بشرعية ثلاث من المستوطنات «غير الرسمية» وهي: كدوميم وعوفرا ومعاليه ادوميم، وهذا ما دفع أحد قادة غوش امونيم (حنان بورات) وهو من المحرضين على إقامة مستوطنة كدوميم إلى اعتبار ذلك العمل بمثابة فرصة ذهبية لحركته حيث قال: «إن مهمة غوش امونيم الآن هي السرقة (الخطف) والاستيطان»[٨١] ذلك لأن الاستيطان لم يكن بالنسبة إلى الحكومة الليكودية الجديدة مجرد شعارات انتخابية وإنما كان تعبيرًا حقيقيًا عن موقفها من الشعب الفلسطيني وأرضه.[٨٢] ويتمثل هذا الموقف بوجوب زرع هذه الأرض بالمستوطنات للحيلولة دون قيام دولة فلسطينية مستقلة فيها.

لذلك فقد برز داخل تكتل الليكود تياران:

أولهما ينادي بوجود تطبيق السيادة الإسرائيلية على الضفة الغربية والتمهيد لإعلان ضمها إلى إسرائيل مع وجود التخلص من المواطنين العرب الذين يعتبرون في نظر أصحاب هذا التيار عنصرًا زائدًا ويضم هذا التيار زعماء الليكود الحزبيين وأعضاء أرض إسرائيل الكاملة وغوش امونيم وحركة كاخ بالإضافة إلى عضوي الكنيست آريل شارون وغيئولا كوهين.[٨٣] أما التيار الثاني فيمثله كل من موشي ديان وعيزرا وايزمان اللذين يعتقدان أن الحق التاريخي لليهود في الاستيطان في الأراضي المحتلة لا يقتضي في الوقت نفسه فرض السيطرة الإسرائيلية الكاملة عليها، وبالتالي فإن خلق جو من التعايش السلمي بين العرب واليهود في تلك الأراضي سوف يهيئ الأجواء لتقبل المستوطنين اليهود فيها وتقليل العداء لهم.[٨٤]

وعلى ضوء ما تقدم فإنه يمكننا أن نحدد ملامح السياسة الاستيطانية لتكتل الليكود في الأراضي العربية المحتلة في النقاط التالية:

- استكمال ما أنشأته حكومات المعراخ من أحزمة استيطانية مع إقامة حزام آخر جديد في الجزء الغربي من الضفة الغربية ويمتد من شمالها إلى جنوبها.[٨٥]
- الإعلان رسميًا عن المشروعات والمخططات الاستيطانية لليكود مع محاولة تضخيمها، وذلك بغية حصوله على المزيد من الدعم المالي للاستيطان من المنظمات الصهيونية، وفي الوقت نفسه إرهاب العرب في الداخل والخارج، ولذلك اتجه الليكود إلى تقديم المساعدة الفعالة للحركات الدينية المتطرفة التي نشطت في مجال الاستيطان كحركة غوش امونيم وإتاحة الفرصة لها لإرهاب المواطنين العرب في الأراضي المحتلة.[٨٦]
- الاتجاه نحو إقامة المدن الاستيطانية الكبيرة بدلاً من المستوطنات الصغيرة المؤقتة، حيث تقدم عيزرا وايزمان (وزيرا الدفاع الإسرائيلي الأسبق) بمشروع استيطاني في سنة ١٩٧٨ يهدف إلى إقامة ست مدن كبيرة وقد تبنته الحكومة وقامت بتنفيذه، والهدف من إقامة هذه المدن الكبيرة ذات الكثافة السكانية المرتفعة هو تقوية قبضتها على الأراضي المحتلة للحيلولة دون التخلي عن هذه المستوطنات في ظل أية ترتيبات قادمة للسلام.[٨٧] وبالإضافة إلى إنشاء المدن الاستيطانية الكبيرة برز مظهر آخر من الاستيطان المديني في ظل الليكود وهو ما يطلق عليه الاسم المستحدث «توشفوت»، وهذا النوع من الاستيطان ينسجم مع الظاهرة العامة للاستيطان داخل إسرائيل المتمثل في الهجرة من المدن إلى الضواحي ويتفق في الوقت نفسه مع الاتجاه العام لدى الليكود في التركيز على الاستيطان المديني في الأراضي المحتلة وخصوصًا في الضفة الغربية منها.[٨٨]
- تكثيف الاستيطان في الضفة الغربية المحتلة، وخصوصًا في أعقاب انسحاب إسرائيل من سيناء وإزالة المستوطنات القائمة فيها حيث إن سكان تلك المستوطنات قد طالبوا بأن يكون التعويض المقدم لهم على شكل مساكن في مستوطنات الضفة الغربية، يضاف إلى ذلك رغبة إسرائيل في أن تثبت من خلال تكثيف استيطانها في الضفة الغربية أن بقاءها فيها دائم وأنها غير خاضعة للتفاوض،[٨٩] ولذلك فقد عجلت حكومة الليكود في بناء المستوطنات وخصوصًا في أعقاب توقيع اتفاقية كامب ديفيد وذلك من أجل خلق حقائق على الأرض تحول دون إمكانية أو احتمال حرية تقرير المصير للشعب الفلسطيني.[٩٠] كما تم أيضًا إقامة شبكة من الطرق الرئيسية الطولية والعرضية في الضفة الغربية وذلك من أجل تقطيعها إلى مناطق منعزلة يسهل السيطرة عليها، ومن هذه الطرق طريق «حوتسيه شومرون» أو عابر السامرة وطريق «حوتسيه يهودا»

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الذي يصل المنطقة الساحلية بغور الاردن مرورًا بمنطقتي الخليل وبيت لحم.[٩١]

- نشر المستوطنات الإسرائيلية داخل المدن الفلسطينية الكبرى أو في جوارها، وذلك لأن تكتل الليكود يرفع شعار «حق اليهود في الاستيطان في كل جزء من أرض إسرائيل»، وذلك بعكس الاستراتيجية الاستيطانية لحكومات المعراخ التي تقوم على تجنب الاستيطان في المناطق الفلسطينية الكثيفة السكان خوفًا من الخطر الديمغرافي العربي الذي يهدد نقاء الدولة اليهودية،[٩٢] لذلك فقد انتشر الاستيطان المديني داخل المدن الرئيسية في الضفة الغربية، وخصوصًا مدينتي الخليل ونابلس تمهيدًا لضمهما نهائيًا إلى دولة إسرائيل.[٩٣] والتخطيط لإيجاد مراكز صناعية جديدة في الضفة الغربية أو العمل على ربط مستوطنات الضفة الغربية بالمراكز الصناعية الإسرائيلية من أجل توفير فرص العمل لمستوطني الضفة الغربية وتشجيع غيرهم من المستوطنين الآخرين لملء الشقق الخالية في تلك المستوطنات، ومن هذه المراكز الصناعية مركزا عطروت ومعاليه ادوميم في القدس، والمركز الصناعي في كريات أربع في مدينة الخليل.[٩٤]
- أخيرًا، فقد قامت حكومة الليكود بتشكيل المجالس المحلية والإقليمية لمستوطنات الضفة الغربية وقطاع غزة وتطبيق القانون الإسرائيلي عليها، وذلك تمهيدًا لفرض هذا القانون على سائر الأراضي المحتلة،[٩٥] حيث صدر بتاريخ (١٩٧٩/٣/٢٠) الأمر العسكري رقم (٧٨٣) والقاضي بإنشاء ثلاثة مجالس إقليمية في الضفة الغربية والتي أضيف إليها اثنان في ما بعد وآخر في قطاع غزة، ثم توالت بعد ذلك القرارات التي تم بموجبها إنشاء باقي المجالس المحلية والإقليمية الأخرى[٩٦] لمستوطنات الضفة والقطاع.

٢/٤- المشروعات الاستيطانية في عهد الليكود:

نتيجة لتولي الليكود الحكم في إسرائيل فقد طرحت مشروعات استيطانية عدة شاركت فيها الجهات كافة التي تعمل في مجال الاستيطان حيث اتفق جميعها على وجوب توسيع الاستيطان ليشمل الأراضي العربية المحتلة كافة من أجل ربط هذه المستوطنات ومن ثم الأراضي المحتلة في إسرائيل.[٩٧] وسوف نستعرض في عجالة أهم هذه المشروعات، وهي: فايتس، وشارون، وغوش امونيم، ودروبلس، وذلك على النحو التالي:

(٢/٤) ١- مشروع رعنان فايتس:

ينسب هذا المشروع إلى رعنان فايتس رئيس شعبة الاستيطان في الوكالة اليهودية والذي دعا فيه إلى إقامة نوع جديد من الاستيطان يعتمد على المستوطنات الصناعية - الزراعية المختلطة، وأطلق على هذه المستوطنات اسم العقد،[٩٨] وقد وضع هذا المشروع من قبل الوكالة اليهودية وذلك على ضوء إمكانية إخلاء بعض المستوطنات التي أقيمت في الأراضي العربية المحتلة بعد سنة ١٩٦٧،[٩٩] لذلك فقد قسم المشروع إلى ثلاث أجزاء بحيث تشمل الأراضي الفلسطينية التي احتلت قبل سنة ١٩٦٧ وبعده. فالمشروع الشمالي يغطي منطقة الجليل في شمال فلسطين حيث تقام فيه (٥٠) مستوطنة قروية يسكنها (١٢) ألف عائلة أي نحو (٥٥) ألف نسمة. أما المشروع الجنوبي فيغطي منطقة النقب الغربي الجنوبي وشمالي سيناء مع أجزاء من قطاع غزة حيث سيقام نحو (١٢٠) مستوطنة تضم (٢٠) ألف عائلة أي نحو (١٥٠) ألف نسمة. أما الجزء الأخير من هذا المشروع فينطوي على الاستيطان على امتداد الخط الواقع بين جبل الشيخ شمالاً وحتى شرم السيخ في الجنوب، حيث سيتم إقامة (٥٣) مستوطنة.[١٠٠]

(٢/٤) ٢- مشروع شارون: (العمود الفقري المزدوج)

كان يعرف هذا المشروع في بداية الأمر بمشروع «فوخمان»، وذلك نسبة إلى ابراهام فوخمان الأستاذ في معهد الهندسة التطبيقية في حيفا، وقد أطلق عليه «مشروع العمود الفقري المزدوج» لأنه وفقًا لهذا المشروع ستكون إسرائيل بمثابة جسر يتكون من عمودين فقرين: الأول، هو القائم الآن على امتداد السهل الساحلي. والثاني، هو الذي سوف يقام على امتداد نهر الأردن، وبذلك ستكون الضفة الغربية وسط هذين العمودين كجيب عربي محاط بالمستوطنات الإسرائيلية التي ستضم وفقًا لتقديراته خلال عشرين عامًا ما بين (٧ و٩) ملايين مستوطن يهودي.[١٠١] وبعد أن صعد اللكيود إلى الحكم تولى آربيل شارون وزير الزراعة في حكومة الليكود رئاسة اللجنة الوزارية العليا للشؤون الاستيطانية، وبذلك أصبح هو المسئول التنفيذي عن مشاريع الاستيطان، وبدأ بتبني مشروع فوخمان وتنفيذه الذي اشتهر فيما بعد بمشروع شارون.[١٠٢]

ويهدف المشروع السابق إلى إقامة ثلاث مراكز مدينية كبيرة في الضفة الغربية المحتلة: الأول على مداخل القدس، والثاني قرب الخليل من أجل دعم مستوطنة كريات اربع، والثالث في المثلث الشمالي للضفة الغربية من أجل الفصل بين سكان الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ وسكان الأراضي التي احتلت سنة ١٩٤٨.[١٠٣] كما يهدف أيضًا إلى ربط الضفة الغربية مع إسرائيل بشبكة من الطرق تمتد من البحر غربًا وحتى غور الأردن شرقًا،[١٠٤] ومن ضمنها طريق تعرف باسم «حوتسيه شومرون» أي عابر السامرة -كما أشرنا سابقًا- وهو الذي يتيح حركة مرور كثيفة من المنخفض الساحلي في مناطق ١٩٤٨ إلى غور الأردن وشمالي الضفة الغربية مما يساهم بصورة كبيرة في تكثيف الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية المحتلة.[١٠٥] وكذلك يهدف المشروع إلى منع العرب من البناء على جانبي الطرق المؤدية إلى المستوطنات اليهودية ومنعهم أيضًا من البناء على جانبي طرق العرض التي تقطع الضفة الغربية من شرقها إلى غربها وهي التي تسمى «طرق الامن» بالإضافة إلى تطويق المدن الفلسطينية والتجمعات السكانية الفلسطينية، وذلك من خلال

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

مجموعة من المستوطنات التي ستقام حول تلك التجمعات وفقًا لذلك المشروع.(١٠٦)

(٢/٤) ٣- مشروع غوش امونيم:

غوش امونيم حركة يمينية متطرفة نشأت في اعقاب حرب العاشر من رمضان سنة ١٩٧٣ في اجتماع تأسيسي عقد في (١٩٧٤/٣/١) حيث اتفق في ذلك الاجتماع على تنظيم هذه الحركة داخل الحزب الوطني الديني (المفدال) ثم بعد فترة قصيرة من وجودهم داخل المفدال أعلن افرادها ان حركتهم ستعمل منذ ذلك الوقت فصاعدا كحركة مستقلة،(١٠٧) وقد اعترف رسميا في ما بعد بهذه الحركة من قبل الاتحاد الصهيوني العالمي كحركة استيطانية تتلقى حصة ضخمة من التمويل بواسطة المنظمة الصهيونية العالمية ومن جهات أخرى عن طريق الوزارات الإسرائيلية.(١٠٨) تؤمن هذه الحركة بحق اليهود في الإقامة والاستيطان في جميع ارض إسرائيل حيث أنها ترى أن المستوطنات (في يهودا والسامرة) سوف تحقق وعود التوراة وستخلص أمرًا واقعًا في المجال السياسي والمعنوي يسمح بمد السيادة الإسرائيلية على هذه الأراضي.(١٠٩)

لذلك فقد كان وصول الليكود إلى الحكم في سنة ١٩٧٧ وتوليه السلطة فرصة ذهبية لهذه الحركة لتحقيق أطماعها الاستيطانية في الأراضي المحتلة، حيث كانت أولى بوادر الدعم لها من الحكومة الجديد هي كما سبقت الإشارة إضفاء صفة الشرعية على ثلاث من المستوطنات غير الرسمية التي أقامتها الحركة في ظل حكومات المعراخ، وهذه المستوطنات هي كدوميم عوفرة، ومعاليه ادوميم.(١١٠)

وقد قدمت حركة غوش امونيم خطتين استيطانيتين: أولاهما قدمت في شهر أب (أغسطس) ١٩٧٨، وتقضي بإقامة (١٢) مستوطنة جديدة في الضفة الغربية، بالإضافة إلى إنشاء مدينتين استيطانيتين. وثانيتهما قدمت في شهر حزيران (يونيو) ١٩٨٠ وتقضي بإنشاء (١٥) مستوطنة جديدة مع إضافة خمس مستوطنات أخرى حول مدينة القدس، وبأبعاد لا تزيد على (١٥) إلى (٢٠) كيلومترًا عن المدينة، بالإضافة إلى إقامة ثلاث مستوطنات مركزية للسيطرة على مفارق طرق نابلس - جنين - طولكرم، وثلاث مدن استيطانية كبيرة جنوب نابلس والظاهرية والخليل.(١١١) ولعل أهم ما يميز مشروع غوش امونيم الاستيطاني اتجاهه إلى زرع المستوطنات بين المدن والقرى العربية، وفي أماكن تجمع السكان العرب أي الاستيطان في المناطق التي تجنبتها المشروعات الاستيطانية الأخرى،(١١٢) ولعل هذا ما يشير إلى سياسة تبادل الأدوار التي تمارسها الحركات والأحزاب، والجهات القائمة على الاستيطان، والتي تهدف جميعها إلى زرع الأراضي المحتلة بالمستوطنات بغية تفتيت التجمعات السكانية العربية مما يحول دون تطلعًا إلى الاستقلال وإنشاء دولة فلسطينية مستقلة.

(٢/٤) ٤- خطة دروبلس:

تنسب هذه الخطة إلى متيتياهو دروبلس وهو أحد رؤساء قسم الاستيطان في المنظمة الصهيونية العالمية المختصة باستيطان المناطق المحتلة وهو ممثل لجناح الليكود في ذلك القسم، بينما يمثل رعنان فايتس رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية جناح المعراخ.(١١٣) وقد قدمت خطة دروبلس الاستيطانية في الأعوام ١٩٧٨ و١٩٨٠ و١٩٨١ لكي توحد بين الإستراتيجية الاستيطانية لكل من تكتل الليكود وحركة غوش امونيم، حيث جاء فيها أنه يجب الاستيلاء على أراضي الدولة من أجل الاستيطان بين التجمعات السكانية العربية وحولها للحيلولة دون قيام دولة فلسطينية فيها إذ سيكون من الصعب على الأقلية العربية أن تشكل تواصلاً إقليميًا ووحدة سياسية في حالة تجزئتها بالمستوطنات الإسرائيلية.(١١٤)

لاشك في أن الخطة السابقة تُعَدّ من أخطر الخطط الاستيطانية التي اقترحت طوال فترة الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية نظرًا إلى أنها تهدف إلى نشر المستوطنات في أنحاء الضفة الغربية كافة من شمالها إلى جنوبها،(١١٥) بحيث تصبح الضفة الغربية مقسمة إلى (٢٢) منطقة استيطانية رئيسية، كما أنه وفقًا لهذه الخطة سوف تنشأ من (١٢) إلى (١٥) مستوطنة سنويًا، بحيث يتم استيعاب من (١٢٠) إلى (١٥٠) ألف مستوطن ضمن خمس مستوطنات،(١١٦) إذ يرى دروبلس أن المستوطنات التي أقامها المعراخ في وادي الأردن تشكل نقاط دفاع متقدمة ومعرضة للهجوم وحتى تقوم هذه المستوطنات بدورها الاستراتيجي يتعين أن تشيد سلسلة أخرى من المستوطنات في قلب يهودا والسامرة (الضفة الغربية المحتلة) حيث ترتكز الأولى على الثانية وبحيث تشكلان معًا جهازًا دفاعيًا فعالاً فأمن إسرائيل يقتضي ألا تنحصر المستوطنات في وادي الأردن فقط، وإنما تقام في أي مكان يكون إنشاؤها فيه مفيدًا.(١١٧)

وهكذا؛ فإنه من خلال تنفيذ المشروعات الاستيطانية السابقة في ظل حكومات الليكود ارتفع عدد المستوطنات والمستوطنين بصورة كبيرة جدًا وبطريقة لم تشهدها الأراضي العربية المحتلة من قبل أي منذ سنة ١٩٦٧ إذ ارتفع عدد المستوطنات المقامة من (٣٤) إلى (١٠٠) مستوطنة، وارتفع عدد المستوطنين من (٣٠٠٠) في عهد حزب العمل إلى (٣٨) ألف مستوطن في آخر عهد بيغن.(١١٨)

على ضوء ما تقدم نخلص من العرض السابق لاستراتيجية الاستيطان الإسرائيلي بعد سنة ١٩٦٧ لدى كل من تجمع المعراخ وتكتل الليكود، إلى أنه لا يوجد بينهما خلاف جوهري حول الاستيطان فهما متفقان حول أهمية استيطان الأراضي المحتلة والدور الذي يمكن أن يلعبه هذا الاستيطان في الحيلولة دون قيام دولة فلسطينية مستقلة فيها والخلاف بينهما ينحصر فقط في التفاصيل والأساليب المتبعة لتحقيق الهدف النهائي المشترك.(١١٩) لذلك فقد حدد شمعون بيريس، زعيم حزب العمل الإسرائيلي (اكبر الشركاء في تجمع المعراخ) الفرق بين نظرة حزبه ونظرة الليكود إلى

الاستيطان بقوله: «بالنسبة لنا، فإن الخطة الاستيطانية موجودة ولكن ما هو موجود لدى الليكود هو خطة بالنسبة ليهودا والسامرة وهذا هو أساس الجدل، ففي الليكود ينادون بضرورة تطبيق القانون الإسرائيلي على يهودا والسامرة وضمهما إلى إسرائيل... وهذا هو أساس الجدل بيننا وبين الليكود، والاعتقاد السائد هو أن الجدل يدور بين خطتين استيطانيتين، وهذا أمر غير صحيح، فالجدل هو بين خطتين سياستين».[١٢٠] ولذلك فقد تم تنفيذ جميع المشروعات الاستيطانية السابقة والسياسات الحزبية بشأن الاستيطان في «تناغم وانسجام كاملين مما يجعل كل مشروع من هذه المشروعات يكمل الآخر ولا يتعارض معه، مما يضمن استمرارية عمليات الاستيطان في كل المراحل مهما حدث من تغييرات في طبيعة الحكومات الإسرائيلية».[١٢١]

خامسًا: التوزيع السكاني ودوره في الصراع العربي الإسرائيلي

منذ المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد في بال سنة ١٨٩٧ وجعل الأهداف الصهيونية "العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة" عكف القادة في الحركة الصهيونية على وضع الخطط والسياسات اللازمة للتخلص من السكان الشرعيين لفلسطين أيام الانتداب البريطاني فقد كتب يوسف فايتش - الذي عمل مستشارًا لرئيس الحكومة الإسرائيلية للشؤون العربية - كتب في مذكراته الخاصة سنة ١٩٤٥ "بيننا وبين أنفسنا يجب أن يكون واضحًا أنه لا يوجد مكان في البلاد للشعبين معًا... فمع وجود العرب لن نتمكن من تحقيق هدفنا المتمثل بأن نكون شعبًا مستقلاً في هذه البلاد.. إن الحل الوحيد هو أن تصبح أرض إسرائيل وعلى الأقل أرض إسرائيل الغربية بدون عرب ولا توجد طريقة أخرى لتحقيق ذلك غير نقل العرب من هنا إلى الدول المجاورة، نقلهم جميعًا بحيث لا تبقى هنا قرية واحدة ويجب أن يتم النقل إلى سورية والعراق بل إلى شرقي الأردن ولهذا الغرض سوف تتوفر الأموال الكثير من الأموال، ومع هذا النقل يمكن للبلاد أن تستوعب الكثير من أخوتنا، لا يوجد هناك بديل لذلك، وعلينا منذ الآن بدراسة البلدان المجاورة لكي نحدد قدرتها على استيعاب عرب أرض إسرائيل،[١٢٢] وعلى الرغم من كل ذلك إلا أنه قد بقي في فلسطين بعد حرب سنة ١٩٤٨، (١٥٦) ألف عربي لم تتمكن القوات الإسرائيلية من طردهم وتمكنت هذه الأقلية العربية بنقل معدل تزايدها الطبيعي المرتفع من أن تصبح أكثر من (٥٦٠) ألف نسمة حاليًا.

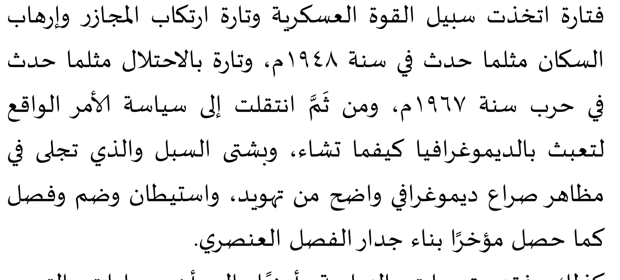
في سنة ١٩١٨ كان اليهود يملكون (٢.٥%) من أراضي فلسطين وارتفعت إلى (٦.٥%) في منتصف سنة ١٩٤٨ وقد كانت الصهيونية تريد الأراضي الفلسطينية نفسها كمرحلة أساسية تتبعها مرحلة تهجير السكان العرب الأصليين، لقد مضى خمسون عامًا على قيام (دولة إسرائيل) ومازال قادة هذه الدولة يفكرون بالتخلص من الأقلية العربية فيها، وعليه فقد أكدت المناقشات التي بدأتها لجنة الخارجية والأمن في الكنيست الإسرائيلية في (١٦/تموز/٢٠٠١) عن المشاكل الديمقراطية لإسرائيل، أن الفلسطينيين يأخذون هذه القضية بجدية لا تتوفر لدينا على رغم ما تنطوي عليه من مكاسب لنا فهم قلقون لأن الزيادة السكانية في أوساط فلسطين ١٩٤٨ تفوق أصلاً جميع هذه الزيادة لدى اليهود والمهاجرين الجدد وكلما اشتد قلقهم تضاعف اهتمامهم بهذه القضية لذلك لم يفعل فيهم اتفاق أوسلو ما فعله فينا حين توهم كثير منا أن الصراع بلغ محطته الأخيرة وبات قاب قوسين أو أدنى من الحل النهائي، ألم يطلب مسئولو السياسة الخارجية عندهم من كل من هب ودب في جامعاتهم ومراكزهم البحثية اجتهادات في كيفية التعامل مع مرحلة السلام الكامل؟ ، وهكذا صار واردًا أن تضطر إسرائيل إلى كشف وجهها العنصري الذي تحاول من دون جدوى إخفاءه أو تمويهه سواء عبر سياسات تحريم فلسطيني ١٩٤٨ من بعض الحقوق الاجتماعية أو من خلال إجراءات قمع متنوعة تطول قادتهم من نوع ما يحدث الآن مع عضوي الكنيست عزمي بشارة ومحمد بركة بهدف منع هويتهم الفلسطينية من التواصل مع محيطها العربي.[١٢٣]

قادة الليكود لا يتركون مناسبة تمر من دون التأكيد على المبدأ السابق من مثال ذلك ما قاله ميناحيم بيغن في مستوطنة آرئيل في شهر أيار ١٩٨٥ أمام جمهور مكون من (٣٥) ألف شخص "أنا ميناحيم ابن زئيف وهاشيا بيغن أقسم بأنني طوال خدمتي للأمة كرئيس وزراء بأننا لن ترك أي جزء من يهودا والسامرة وقطاع غزة والجولان"، وكذلك ما أعلنه اسحق شامير عندما كان وزيرًا للخارجية في ذلك الوقت "نحن نطلق السلام، ولكن بشروط أن يمكننا من استمرارية وجودنا"، وهذا يعني أن تكون مرتفعات الجولان والضفة الغربية داخل حدود إسرائيل.[١٢٤]

خاتمة

من خلال الدراسة توصل الباحث إلى: أن مشكلة الديموغرافيا تعد مشكلة مقلقة للساسة الإسرائيليين وتجد مكانًا بارزًا في الإعلام الإسرائيلي وثمة دعوات ودعايات تقوم بها تلك الوسائل لتشجيع الأسر اليهودية على الإنجاب حفاظًا على التوازن (الديموغرافي) مع الفلسطينيين كي لا تكون نسبتهم وأعدادهم أكبر وعليه ففي هذه الأيام يكثر دعاة الترانسيفير بأشكاله كافة: سكان بلا أرض أو الترحيل الطوعي أو القسري؛ وثمة من يجتهد في الدولة العبرية لوضع الحلول "العملية والتفصيلية" كل المنظرين وصناع القرار الإسرائيلي الذين يحلُمون بدولة يهودية نقية من العرب، إن وما يطرحه رئيس الوزراء الإسرائيلي في المفاوضات الجارية بين الإسرائيليين والفلسطينيين لأكبر دليل على ذلك وهو ضرورة اعتراف الفلسطينيين بيهودية الدولة ليؤكد صراحة إلى ما خلصت إليه الدراسة بأن أغلبية اليهود وخاصةً المستوطنين ورجال السياسة يحلُمون بالخلاص من العرب الذين بقوْا في وطنهم، ففي إطار الصراع الديموغرافي متعدد المراحل، خاضت إسرائيل جولات عدة

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



فتارة اتخذت سبيل القوة العسكرية وتارة ارتكاب المجازر وإرهاب السكان مثلما حدث في سنة ١٩٤٨م، وتارة بالاحتلال مثلما حدث في حرب سنة ١٩٦٧م، ومن ثَمَّ انتقلت إلى سياسة الأمر الواقع لتعبث بالديموغرافيا كيفما تشاء، وبشتى السبل والذي تجلى في مظاهر صراع ديموغرافي واضح من تهويد، واستيطان وضم وفصل كما حصل مؤخرًا بناء جدار الفصل العنصري.

كذلك فقد توصلت الدراسة أيضًا إلى أن عمليات التهجير للفلسطينيين لم تكن هجرة طوعية، وإنما كانت عبارة عن سياسة اتبعتها السلطات الإسرائيلية للوصول إلى أغلبية وتفوق ديموغرافي قسري وغير طبيعي في فلسطين. إلا أنه وعلى الرغم من ممارسات الاحتلال الإسرائيلي ومستوطنيه إلا أن الفلسطينيين على أرض فلسطين التاريخية سيكون لهم الأغلبية خلافاً لما خططت له الحركة الصهيونية.

الهوامش:

(١) **دائرة الإحصاء المركزية الفلسطينية**. أجندة سنة ١٩٩٨، ص١٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) علي الدين هلال، **المجتمع الإسرائيلي (التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية)**، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ص١٢.

(٤) **جريدة القدس**، القدس، بتاريخ ٢٠٠١/٦/١٤.

(٥) **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الرابع، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص٦٦٢.

(٦) رجاء جارودي، **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية**، دار الغد العربي، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٥٥.

(٧) مركز الدراسات الاستراتيجية الفلسطينية، **فلسطين: تاريخها وقضيتها**، ص١١٢.

(٨) رجاء جارودي، ص١٦٤.

(٩) المصدر نفسه، ص١٦٤.

(١٠) **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الرابع، ص٦٦٢.

(١١) رجاء جارودي، ص١٦٤.

(١٢) **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الرابع، ص٦٦٢.

(١٣) جريدة القدس، القدس، (٢٠٠٠/١١/٦).

(١٤) **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الأول، ص٢٢٢.

(١٥) **فلسطين: تاريخها وقضيتها**، ص١٤١.

(١٦) **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الأول، ص٥٩٨.

(١٧) **فلسطين: تاريخها وقضيتها**، ص١٥٦.

(١٨) **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الأول، ص٢٢٢.

(١٩) عصام الدين حواس، **الحكم الذاتي لشعب فلسطين**، القاهرة، مركز النيل للإعلام، ١٩٨١، ص١٥٧.

(٢٠) مهدي عبد الهادي، **المستوطنات الإسرائيلية في القدس الضفة الغربية المحتلة (١٩٦٧-١٩٧٧م)**، القدس، الملتقى الفكري العربي، ١٩٧٨، ص٦٠.

(٢١) نظام محمود بركات، **الاستيطان الإسرائيلي بين النظرية والتطبيق**، سلسلة الثقافة الكويتية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨، ص١٥٢ ، ١٥٦.

(٢٢) **جريدة القدس**، القدس (٢٠٠٠/٧/١٠).

(٢٣) محمد يحيى سليمان، **الكيان الصهيوني في خلال حكم الليكود من أيار ١٩٧٧- تموز ١٩٨٤**، بيروت، منشورات الهدف ١٩٨٦، ص١١.

(٢٤) طلال ناجي، **استراتيجية الاستيطان الصهيوني في الأرضي المحتلة بعد سنة ١٩٦٧**، عمان، دار القدس للنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص٤١.

(٢٥) المجتمع الإسرائيلي، **التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية**، ص١٢٣.

(٢٦) **جريدة القدس**، (٢٠٠٠/٧/١١).

(٢٧) **جريدة هارتس**، تل أبيب، (١٩٧٨/٥/١٩).

(٢٨) **جريدة القدس**، (٢٠٠٠/٧/١١).

(٢٩) إسرائيل شاحاك، **عنصرية دولة إسرائيل**، ص ٢٦٣ وما بعدها.

(٣٠) **النجوم السبعة (خطة استيطانية جديدة)**، إعداد هيئة التحرير بدار الشرارة للنشر، القدس، ص٦.

(٣١) **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الأول، ص٥٨٣.

(٣٢) **جريدة القدس**، (٢٠٠١/٧/٣).

(٣٣) انظر: وحيد عبد المجيد، «**خيارات عربية صعبة في التفاوض مع رابين**»، الأهرام، بتاريخ (١٩٩٢/٧/٣).

(34) Rasem Khameyseh (Israel Planing and House Demolishing Policy in the West Bank) (Copyright34passia, Palestinian Academic

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

Society for the study of International Affairs, East Jerusalem, December 1989), p.6.

(٣٥)انظر: عصام الدين حواس، **الحكم الذاتي لشعب فلسطين**، سلسلة دراسات قومية (١٣)، القاهرة: مركز النيل للإعلام، ١٩٨١، ص ١٥٧.

(٣٦)انظر: مهدي عبد الهادي، **المستوطنات الإسرائيلية في القدس والضفة الغربية المحتلة (١٩٦٧ – ١٩٧٧)**، القدس: جمعية الملتقى الفكري العربي، ١٩٧٨، ص ٦٠.

(٣٧)نظام محمود بركات، **الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق**، سلسلة الثقافة القومية (١٥)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨، ص ١٥٢.

(٣٨)المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٣٩)طلال ناجي، «**الاستيطان الصهيوني والمقاومة الفلسطينية**» في: استراتيجية الاستيطان الصهيوني في الأراضي العربية المحتلة بعد سنة ١٩٦٧، وبرنامج المقاومة الفلسطينية لمواجهتها، عمان: دار القدس للنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص٤١.

(40) William Wilson Harris, Taking Root: Israeli Settlement in the West Bank, the Golan and Gaza – Sinai (1967 – 1980) Geographical Research Studies Series; v.1 (Chichester, [Eng.] New York; Research Studies press, 1980), p.36.

(41) Jean - paul Chagnollaud, Israel et les territoires occupes; La Confrontatino silencieuse, racines du Present (paris; L'Harmattan, 1985), p.20.

(42) Khameyseh (Israel Planing and House Demolishing Policy in the West Bank) p.10.

(43) Harris, Taking Root: Israeli Settlement in the West Bank, the Golan and Gaza – Sinai, 1967 – 1980, p.38.

(٤٤)انظر: جورج حجار، «**السياسة الاستيطانية للكيان الصهيوني**»، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية (جامعة بغداد)، العدد ٢٨ (أيار مايو - حزيران يونيو ١٩٧٨) ص ٥٦، وإن كان ميرون بنفنستي يذكر في كتابه مشروع بيانات الضفة الغربية أن مشروع آلون قدم إلى مجلس الوزراء الإسرائيلي في تموز يوليو ١٩٦٧، وأقر في حزيران يونيو ١٩٦٨. انظر:

Meron Benvenisti, West Bank Data Project: A Survey of Israel's Policies, AEI Studies, 398 (Washington, DC: American Enterprise Institute for Public Policy Research, 1984). p. 51.

(٤٥)انظر: خالد عابد، **الاستعمار الاستيطاني للمناطق العربية المحتلة خلال عهد الليكود، (١٩٧٧ – ١٩٨٤)**، سلسلة الدراسات (٧٤)، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٦، ص١٣.

(46) Benvenisti, Ibid., p.51.

(47) Colonial pursuits, Settler Violence during the Uprising in the Occupied Territories; A Special Report of the Data Base project of Palestinian Human Rights (Chicago, IL; [n.bp.], 1989), p.4.

(٤٨)انظر: جميل هلال، **الضفة الغربية: التركيب الاجتماعي والاقتصادي (١٩٤٨-١٩٧٤)**، سلسلة كتب فلسطينية (٦)، بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٤، ص٢٧٧.

(٤٩)بركات، **الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق**، ص ١٥٥.

(50) Chagnollaud, Israel et les Territoires occupes: La Confronation silencieuse, p.25

(٥١)انظر: مسعود اغبارية ومحمود أبو غزالة، **حركة غوش ايمونيم بين النظرية والتطبيق**، القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٤، ص ٥٠.

(52) Benvenisti, West Data Project: A Survey of Israel's Policies, p.55.

(٥٣)عايد، **الاستعمار الاستيطاني للمناطق العربية المحتلة خلال عهد الليكود (١٩٧٧ – ١٩٨٤)**، ص ١٥.

(٥٤)انظر: وليد الجعفري، معد، **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، (١٩٦٧- ١٩٨٠)**، سلسلة كتب تسجيلية (٩)، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١، ص xxvii.

(٥٥)انظر: سعيد تيّم، «**القضية الفلسطينية في سياسة حزب العمل الإسرائيلي**»، شؤون فلسطينية، العدد٢٠١ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٩)، ص ٤٢.

(٥٦)بركات، **الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق**، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٥٧)المصدر نفسه، ص ١٥٧.

(٥٨)عايد، **الاستعمار الاستيطاني للمناطق العربية المحتلة خلال عهد الليكود (١٩٧٧ – ١٩٨٤)**، ص ١٤.

(٥٩)الجعفري، معد، **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة (١٩٦٧ – ١٩٨٠)**، ص XXV.

(٦٠)بركات، **الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق**، ص ١٥٧.

(٦١)المصدر نفسه، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٦٢)أسامة الغزالي حرب، **مستقبل الصراع العربي - الإسرائيلي**، مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، محور العرب والعالم، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ٧٩.

(63) Harris, Taking Root: Israeli Settlement in the West Bank, The Golan and Gaza – Sinai, (1967 – 1980), p. 138.

(٦٤)انظر: محمد يحيى سليمان، **الكيان الصهيوني خلال حكم الليكود: من أيار ١٩٧٧ - تموز ١٩٨٤**، بيروت: منشورات الهدف، ١٩٨٦، ص ١١.

(٦٥)فوزي محمد طايل، **النظام السياسي في إسرائيل**، الدراسات الخاصة (٤٥)، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٩، ص ١٠٥.

(٦٦)انظر: يونس السيد، «**الليكود: تنظيمًا وممارسة**» شؤون فلسطينية، العدد ٢٠٨ (تموز/ يوليو ١٩٩٠)، ص ٤٨ - ٤٩.

(٦٧)انظر: كاميليا عراف بدر، **نظرة على الأحزاب السياسية الإسرائيلية**، ط ٣ (القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٥) ص ١٥٤، كذلك فان قادة الليكود لا يتركون مناسبة تمر من دون التأكيد على المبدأ السابق، من ذلك مثلاً، ما قاله مناحيم بيغن في مستوطنة ارئيل في شهر (أيار/ مايو) سنة ١٩٨٥ أمام جمهور مكون من (٣٥) ألف شخص: «انا مناحيم ابن زئيف وهاشيا بيغن، أقسم بأنني طوال خدمتي للأمة كرئيس وزراء بأننا لن نترك أي جزء من يهودا والسامرة وقطاع غزة والجولان»، وكذلك ما أعلنه اسحاق شامير عندما كان وزيرًا للخارجية في ذلك الوقت: «نحن نطلق السلام، ولكن بشروط أن يمكننا من استمرارية وجودنا» وهذا يعني أن تكون مرتفعات الجولان والضفة الغربية داخل حدود دولة إسرائيل. انظر:

William Thomas Mallison and Sally V. Mallison, The Palestine in International Law and World Order (Burnt Mill, Harlow, Essex, Eng.; Longman, 1986). pp. 248 – 249.

(68) John p. Richardson, The West Bank; A portrait, Special Study; 5 (Washington, DC: Middle East Institute, 1984) p.116.

(٦٩)طايل، **النظام السياسي في إسرائيل**، ص ١١٠.

(٧٠)السيد، «**الليكود: تنظيمًا وممارسة**» ص ٥١.

علمية، عالمية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



(٧١)سليمان، **الكيان الصهيوني خلال حكم الليكود: من أيار ١٩٧٧ - تموز ١٩٨٤**، ص١٧٤.

(٧٢)انظر: **المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة منذ سنة ١٩٦٧**، عرض وتحليل خيرية قاسم، علي الدين هلال وإبراهيم كروان، الدراسات الخاصة (١٥)، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨، ص٧٩.

(٧٣)سليمان، **الكيان الصهيوني خلال حكم الليكود: من أيار ١٩٧٧ - تموز ١٩٨٤**، ص.٩٠.

(74) Geoffrey Aronson, Israel, Palestinians and the Intifada: Creating Facts on the West Band (Washington, DC; Kegan Paul International in association with Institute for Palestine Studies, 1990), p.66.

(٧٥)الجعفري، معد، **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة (١٩٦٧ – ١٩٨٠)**. ص x1ix.

(٧٦)بركات، **الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق**، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٧٧)المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٧٨)الجعفري، معد، المصدر نفسه، ص x1v.

(٧٩)بركات، المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(٨٠)انظر: جامعة الدول العربية، معد، **المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة**: مجموعة دراسات وبحوث قدمت خلال الندوة الدولية حول المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي العربية (تونس: الجامعة، ١٩٨٩)، ص ٢٤.

(٨١)عايد، **الاستعمار الاستيطاني للمناطق العربية المحتلة خلال عهد الليكود**، (١٩٧٧ – ١٩٨٤)، ص ٧٦.

(٨٢)جامعة الدول العربية، معد، المصدر نفسه ص ٢٤ - ٢٥.

(83) Mallison and Mallison, The Palestine Problem in International Law and World Order, p. 250.

(٨٤)الجعفري، معد، **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة**، (١٩٦٧ – ١٩٨٠)، ص ٩ و x1vi.

(٨٥)عايد، **الاستعمار الاستيطاني للمناطق العربية المحتلة خلال عهد الليكود، (١٩٧٧ – ١٩٨٤)**، ص ٧٧.

(٨٦)المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٨٧)بركات، **الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق**، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٨٨)الجعفري، معد، **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة**، (١٩٦٧ – ١٩٨٠)، ص x1v.

(٨٩)عايد، **الاستعمار الاستيطاني للمناطق العربية المحتلة خلال عهد الليكود، (١٩٧٧ – ١٩٨٤)**، ص ٨٢.

(٩٠)انظر: محمد عبد الرحمن، «**الاستيطان خلال سنتين من حكم الليكود**» شؤون فلسطينية، العدد ٩٦ (تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٩)، ص ١٢.

(٩١)المصدر نفسه، ص ١٣.

(٩٢)سليمان، **الكيان الصهيوني خلال حكم الليكود: من أيار ١٩٧٧ - تموز ١٩٨٤**، ص ٨٦.

(٩٣)**المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة** منذ سنة ١٩٦٧، ص ٨٩.

(٩٤)المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٩٥)عبد الرحمن أبو عرفة، **الاستيطان: التطبيق العمل للصهيونية: دراسة عن الاستيطان اليهودي في فلسطين خلال القرن الأخير**، القدس: وكالة أبو عرفة للصحافة والنشر، ١٩٨١، ص ٢٤١.

(٩٦)بركات، **الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق**، ص ١٦٠.

(٩٧)عبدالرحمن، «**الاستيطان خلال سنتين من حكم الليكود**»، ص ١٤.

(٩٨)الجعفري، معد، **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، (١٩٦٧ – ١٩٨٠)**، ص x1i.

(٩٩)سليمان، **الكيان الصهيوني خلال حكم الليكود: من أيار ١٩٧٧ - تموز ١٩٨٤**، ص ٨٨.

(١٠٠) أغبارية وأبو غزالة، **حركة غوش ايمونيم بين النظرية والتطبيق**، ص ٢١.

(١٠١) أبو عرفة، **الاستيطان: التطبيق العملي للصهيونية: دراسة عن الاستيطان اليهودي في فلسطين خلال القرن الأخير**، هامش ص ٢٤٥.

(102) Confrontation Chagnollaud, Israel et les Territoires occupies silencieuse, p.43.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(١٠٤) سليمان، **الكيان الصهيوني خلال حكم الليكود: من أيار ١٩٧٧ - تموز ١٩٨٤**، ص ٨٨ - ٨٩.

(١٠٥) أبو عرفة، **الاستيطان: التطبيق العملي للصهيونية: دراسة عن الاستيطان اليهودي في فلسطين خلال القرن الأخير**، ص ٢٤٥.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

(107) Benvenisti, West Data Project: A Survey of Israel's Policies, p.52.

(١٠٨) انظر تفصيلات هذه الخطة في: متتياهو دروبلس، «**المنظمة الصهيونية العالمية، قسم الاستيطان: الاستيطان في «يهودا» و«السامرة»: الإستراتيجية والسياسة والخطط**» ترجمها عن الانكليزية محمد النصر، شؤون فلسطينية، العدد ١١٦ (تموز / يوليو ١٩٨١) ص ١٩٥ - ٢٠١.

(١٠٩) الجعفري، معد، **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، ١٩٦٧ - ١٩٨٠**، ص xlii.

(110) Chagnollaud, Israel et les Territoires occupes: La Confronation silencieuse, p.51

(١١١) انظر: شفيق الغبرا، «**السياسة الإسرائيلية: التحالف الحاكم وصراعات التيارات**» مجلة العلوم الاجتماعية، السنة ١٨، العدد ٢ (صيف ١٩٩٠) ص ٦٤.

(١١٢) الجعفري، معد، **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، ١٩٦٧ - ١٩٨٠**، ص liv.

(١١٣) نقلاً عن: عبدالرحمن «**الاستيطان خلال سنتين من حكم الليكود**»، ص ٩.

(١١٤) بركات، **الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق**، ص ١٧٢.

(١١٥) كاميليا عراف بدر، **نظرة على الأحزاب السياسية الإسرائيلية**، ط٣، القدس، جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٥، ص١٥٤.

(١١٦) **الموسوعة الفلسطينية**، م١، ص٥٥٥.

(١١٧) المصدر نفسه، ص٥٥٨.

(١١٨) جريدة كل العرب، ٢٠٠٠/١٢/٣١.

(١١٩) جريدة القدس، ٢٠٠٠/٧/١١.

(١٢٠) إسرائيل شاحاك، **عنصرية دولة إسرائيل**، ص ٢٦٣ وما بعدها.

(١٢١) **النجوم السبعة (خطة استيطانية جديدة)**، إعداد هيئة التحرير بدار الشارة للنشر، القدس، ص٦.

(١٢٢) **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الأول، ص٥٨٣.

(١٢٣) نظام محمود بركات، **الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق**، سلسلة الثقافة القومية (١٥)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨، ص ١٥٢.

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449





Historical Kan Periodical

WWW.KANHISTORIQUE.ORG